

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



ترجمة

الدكتور عبد الرحمن بدوي

تصدير عام

— ١ —

جيته والشرق

فى الفن عموماً ، والأدب على وجه التخصيص ، ظاهرة خطيرة ، ما أخلقها بعناية الناقدين ، وأحراها بدراسة المؤرخين للفن والأدب . تلك الظاهرة هى ما نستطيع أن نسميها باسم « الاغتراب الروحى » ، ونعنى بها هذه الحالة الوجدانية العنيفة القوية التي يشعر الأديب فيها أو صاحبُ الفن بحاجة مُلِحّة إلى الفِرار من البيئة التي فيها يعيش إلى بيئة أخرى جديدة ، وجوّ مغاير مخالف ، فيهما يحيا ما فيهما من حياة ، ويحس بما يختلج فيهما من مشاعر وأحساس . ولكن هذا الإحساس وتلك الحياة ليسا حقيقيين ، وإنما متخيلان : فهو يحلّق بروحه فى البيئة الجديدة ، محاولا أن يحيل نفسه إلى طبيعتها وأن يتلاءم وإياها ، ويتكيف مع أحوالها وأطوارها ، لأن فى هذه الحياة الجديدة إما متعةً له ، تزيد من قوة حياته الروحية وتوسع من دائرة أفقه، أو سلوةً له عن البيئة الأولى التى لم يعد له قِبَل باحتمالها ، ولا جلد على البقاء فيها . ولكى يجد فيها هذه السلوة وتلك المتعة ، كان لا بد له أن يطلق لخياله العنان ليصور بريشته هذه البيئة الجديدة أحسن تصوير وأروعه ، حتى لتكاد تخلقها من جديد خلقاً ؛ ومن هنا فإن هذه البيئة تختار دائماً ، أو غالباً على أقل تقدير ، من بين البيئات المجهولة بعض الجهل ، لأن الخيال لا يستطيع أن يبذل نشاطه فى حرية وانطلاق إلا إذا اشتغل فى مجهول .

وقد تجلت هذه الظاهرة فى أتم صورها عند أصحاب النزعة الرومنتيكية ،

أي فى مستهل القرن التاسع عشر ، وخاصة الألمان منهم والفرنسيون .. وبدت أول ما بدت عند الشعراء والكتاب ، ثم انتقلت منهم إلى أصحاب الفن من مصورين وموسيقيين ، وامتدت أخيراً حتى شملت بعض الفلاسفة من ذوى النزعة الفنية . وكانت البيئة الجديدة التى هاجر إليها هؤلاء واغتربوا فيها بأرواحهم وخيالهم ، الشرق ، القاصى منه والقريب . فقامت حركة قوية تدعو إلى الهجرة الروحية إلى الشرق ، والنفوذ إلى أسراره ؛ وكان على رأس هذه الحركة فى ألمانيا فريدرش أشليجل الذى قال فى البرنامج الذى وضعه للمدرسة الرومنتيكية : « يجب علينا أن نبحث فى الشرق عن أسمى المواد والصور الرومنتيكية » ، وهو يقصد بالشرق هنا بلاد الهند . وقد عنى بآثار الشرق ، فنشر قطعة من كتاب الشاهنامه للفردوسى ، وكتب فى سنة ١٨٠٨ كتابه المشهور عن « لغة الهنود وحكمتهم » ، وفيه أنكر التفرقة بين أسلوب الشرق القديم وأسلوب الغرب الحديث فى التفكير وقول الشعر . وفى أثناء مقامه بباريس درس السنسكريتية وانتهى إلى القول بأن مصدر اللغات والأفكار والشعر كله هو الهند ، فهى الينبوع الأول لكل ما أنتجته الروح البشرية . وقد كتب مقالا فى مجلته « أوربا » التى أصدرها بباريس سنة ١٨٠٣ أهاب فيه بالشعراء والكتاب وأصحاب الفن أن يفروا إلى الشرق الواسع الرحب ، لأن كل شيء فى أوربا مشتت متنافر يدب فيه دبيب الشقاق ، بينما قد بقى فى الشرق على وحدته . والهند تجمع بين النزعتين المتعارضتين فى أوربا ، النزعة الكلاسيكية القديمة ، والنزعة الرومنتيكية الحديثة ، « فالقضاء على الذات الموجود فى المسيحية على أسمى صوره الروحية ، والنزعة المادية المغالية الموجودة فى دين اليونانيين ، يجتمعان فى صورتهما الأولى فى وطنهما الأول ألا وهو الهند » . أما أوربا فقد تبددت فيها الوحدة الروحية الأولى وتمزقت ، والثورة التى تخلصها من هذا التبدد والتمزيق لا يمكن أن تأتى إلا عن طريق الشرق .

وفى هذا التيار اندفع الشعراء المنتمون إلى المدرسة الرومنتيكية فى ألمانيا ، ثم من بعدهم بعض الفلاسفة الرومنتيكيين ، مثل شلنج الذى قال بأن المسيحية صدرت عن الروح الشرقية ، وتأثر بالشرق فى فلسفته فى الطبيعة .

وفى فرنسا نشطت هذه الحركة نشاطاً كبيراً ، ويكفى أن نذكر من بين القائمين بها أسماء شاتوبريان فى كتابه عن « عبقرية المسيحية » ولا مارتين فى « رحلته فى الشرق » ، ثم فكتور هيجو فى « المشرقيات » .

إلا أن أعظم الأدباء وأصحاب الفن الذين تأثروا بهذه الحركة ووجهوها أحسن توجيه هو يوهان قلفانج جيته فى ديوان شعره الخالد « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » ، كما سماه هو بهذا الاسم فى هذه الصيغة العربية .

وعناية جيته بالشرق ، حكمته وفنونه ، عناية قديمة ترجع إلى عهد الشباب ، وقد تتقدم عنه فتصل إلى عهد الطفولة . فقد أخذ الكتاب المقدس ، فى ترجمة لوتر الرائعة ، بيد الطفل الصغير يوهان ، وأدخله فى هيكل الشرق المقدس . ولكن الطفل العبقرى الطُّلَعة لم يقنع بقراءته فى هذه الترجمة ، على الرغم من جمالها الفاتن ، وإنما أراد أن يقرأه فى نصه الأصلى حتى يستطيع أن يتذوق جماله تذوقاً كاملا ، وأن يظفر بهذه المتعة الفنية التى لا تعدلها متعة أخرى فى أى كتاب آخر . فدرس اللغة العبرية على يد الأستاذ ألبرشت فيما بين سنة ١٧٦٢ — ١٧٦٥ ، ولما يتجاوز الثالثة عشر بعد . وترجم من التوراة كتاب « نشيد الأناشيد » .

ثم عكف من بعد على القرآن فقرأه فى ترجمة ميجرلن سنة ١٧٨١ . وفى السنة التالية قرأه مرة ثانية فى ترجمته اللاتينية التى قام بها ماراتشى ، وأعجب به كل الإعجاب ، فترجم منه بضع آيات . ومن هنا بدأت عنايته

بالأدب العربى ، فقرأ المعلقات فى ترجمة جونز اللاتينية ، وترجم قطعة من المعلقة الأولى .

وبعد أن عاد من رحلته إلى إيطاليا فى سنة ١٧٩١ ، أشار عليه صديقه هردر بالعناية بالآداب الهندية والفارسية . ومنذ ذلك الحين لا يكاد يخرج إلى اللغات الأوربية كتاب واحد فى أحد هذين الأدبين ، أو أثر من آثارهما إلا والتهمه جيته التهاماً .

وكان إعجابه بالأدب الفارسى من بين الآداب الشرقية جميعها لا يَعدِله أى إعجاب آخر . فأقبل عليه يقرأ كل ما يترجم منه ؛ فقرأ قصة « المجنون وليلى » التى نظمها الشاعر الفارسى المشهور نظامى ، وترجمها هارتمن إلى الألمانية فى سنة ١٨٠٧ . وكان فى فينا فى ذلك الحين مستشرق كبير يشتغل فى التنقيب والبحث عن « كنوز الشرق » ويقدمها إلى الأوربيين فى اللغة الألمانية . هذا المستشرق هو يوسف فون همّر ، الذى خص الشعر الفارسى من نشاطه بأوفى نصيب .

ولكن إعجاب جيته بالشرق وآثاره ظل حتى سنة ١٨١٤ إعجاباً سلبياً كإعجاب الناظر المتفرج ، يحدوه حب الاستطلاع إلى الوقوف على مختلف الأشياء ، وطلب الغذاء الروحى من شتى الموائد . ولئن كان قد قال فى فاوست الأول : « لتتجه النظرة الصائبة نحو الشرق » ، فانه لم يقصد بهذا الشرق بلاد الشرق ، وإنما قصد به مطلع الشمس .

أما فى هذه السنة (سنة ١٨١٤) وما تلاها من سنوات نيّفت على خمس ، فقد اتخذت صلة جيته بالشرق صبغة جديدة ، واتجهت اتجاهاً آخر . فلم يعد إعجابه هذا الإعجاب السلبى الخالص ، وتلك المتعة الوديعة الهادئة . وإنما

انقلبت إلى امتزاج قوى بين روح وروح ، وبين دم ودم ؛ فروح الشرق نفذت إلى أعماق جيته ، واتحدت بكل عنصر من عناصره ، فتفاعلت وإياه تفاعلا قويا ، تمخض عنه هذا الأثر الفنى الرائع الذى نحن بصدده ، ألا وهو « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » .

فقد عانى جيته ، فى هذه السنة المشهورة فى تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر ، كثيراً من الدوافع والمؤثرات التى حملته على أن يتجه فى تطوره الروحي هذا الاتجاه ؛ ومن هذه الدوافع ما هو داخلى باطنى ، ومنها ما هو خارجى فرض نفسه على جيته فرضاً .

فالنجم الساطع الذى بهر ضوؤه أوربا ، بل العالم بأسره ، قد هوى وأصبحت فى طى العدم أضواؤه . نعم لقد سقط نابليون من علٍ ، وهبط من حالق، بعد أن دوخ مادوخ من أمم وشعوب ، وثل ماثل من عروش وتيجان . فاستيقظت الأمم التى أذلها من هذا الحلم المروع، وانطلقت سفنها فى اليَمّ ناشرة أشرِعَتها بعد أن أرغمت على الانزواء والاختفاء عندما كانت عاصفة نابليون تهب قوية عاتية . وكانت ألمانيا أولى هذه الأمم ، لأنها هى التى هزمته لأول مرة فى موقعه ليپتسج فى أكتوبر سنة ١٨١٣ .

وكان جيته معجباً بنابليون كل الإعجاب ، ولم يكن ليتصور مطلقاً كيف يلقى بطل كهذا مصرعه ، حتى إنه ظل طوال « حكم المائة يوم » يؤمن بأن الظفر لا بد معقود بلواء نابليون فى النهاية ! ولكن هاهى موقعة ووترلو ، وها هى نهاية نابليون ماثلة أمام عينيه ! فيالها من ضربة قاسية لإعجاب جيته بنابليون وظنونه فيه !

ثم هذه الأحداث الضخام التى سبقت سقوط نابليون وأفضت إليه ، هذا القلق السائد والاضطراب الماثل فى كل شىء ، كيف يقوى جيته على

احتماله والتحديق بنظره فيه ؟ هذا الحاضر المتزعزع المتهافت ، أنّى له أن ينشد الخلاص منه ؟ أين هذا المكان الخيالى الفسيح ، الذى يستطيع أن يجد فيه مصرفا لهمومه ومتنفساً لأحزانه وأشجانه ؟

كان جيته يعانى حينئذ حالة نفسية عنيفة ، وصفها هو نفسه بهذا الوصف حيث قال : « شعرت شعوراً عميقاً بوجوب الفرار من عالم الواقع الملىء بالأخطار التي تهدده من كل جانب فى السر وفى العلانية ، لكى أحيا فى عالم خيالى مثالى ، أنعم فيه بما شئت من الملاذ والأحلام بالقدر الذى تحتمله قواى » .

وكان هذا العالم هو الشرق . وأى عالم آخر غير عالم الشرق ، أخلق بأن يكون هذا العالم المنشود ؟

الشرق عالم بعيد غامض وفسيح غير محدود ، فهل هناك أصلح منه لهذا الذى يشعر بأنه فى ضيق ؟

والحوادث الضخام فى الغرب تبهظ كاهل جيته بما فيها من تركيب وتعقيد ، فالدواء لها هو البساطة والفطرة الأولى ، وهما متحققتان فى الشرق فى نظر جيته ، الذى كان يعتقد أن حضارة الشرق القديمة بقيت كما هى دون أن يتولاها تطور أو تبديل . فكأن العالم فى الشرق إذاً لا زال فى شبابه ، وجيته الشيخ الذى قارب السبعين يود لو حيى من جديد حياة الشباب . فليكن الشرق إذاً بالنسبة إلى جيته ينبوع الخِضْر ، هذا الينبوع الذى يقوم على سِدانته الخَضْر ، صاحب موسى الكليم ، والذى يعيد إلى الشارب منه الشباب ، كما تغنّى به حافظ الشيرازى .

ثم إن المدرسة الرومنتيكية كانت تقول بأن القديم والمحدَث متشابهان ، وكان رجالها رجالا عالميين لا يقيمون للقوميات وزنا ولا يعترفون للحدود بقيمة .

ومن أجل هذا فقد ألقوا على عاتقهم مهمة فتح أبواب الآداب الأجنبية لألمانيا كى تأخذ منها بأوفى نصيب ، حتى كان فريدرش اشليجل يحلم بأن يجعل من ألمانيا مركزاً عالمياً للروح الإنسانية بأسرها . وقد تأثر جيته بهم ، وحلم هو بدوره بأن يصبح للإنسانية أدب واحد مشترك تمده روافد الأمم جميعها ، قديمها وحديثها بمياهها العذبة الصافية . وحاول أن يجمع فى نفسه بين آداب الأمم جميعها ، فبدأ بالأمم الأوربية يتأثر كبار أدبائها ومفكريها . ولم يبق أمامه إلا أن يجمع كذلك بين الكتلتين الضخمتين اللتين يتكون منهما العالم ، وهما الشرق والغرب ، فيصهرهما جميعاً فى بوتقة واحدة ، هى نفسه الفسيحة القابلة للتأثر بكل تيار ، والفاتحة أبوابها لكل من شاء الدخول . ولهذا نرى جيته قدسمى الديوان الذى عبر فيه عن هذا كله باسم «الديوان الشرقى للمؤلف الغربى» : فليس هذا الديوان إذاً شرقياً خالصاً ، ولا غربياً ، إنما هو مزيج طريف جمع بين الاثنين .

وليس هذا كل ما فى الشرق مما يحقق أمانى جيته ، فقد كان يشعر بضيق شديد من أساليب الغربيين فى التعبير وأوضاعهم التى اصطلحوا عليها . ومن هنا كان يشعر شعوراً خفياً فى بادىء الأمر ، مُلِحاً قوياً فى النهاية ، بأنه فى حاجة إلى اتخاذ أسلوب جديد للتعبير ، فيه حرية وفيه انطلاق . وأسلوب الشرق فى الشعر يمتاز بهذه الخصائص . ففى الشرق إذاً قد وجد ما يحقق أمله من ناحية الشكل والصورة ، بعد أن وجد فيه من قبل ما ينشده من ناحية الموضوع والمادة .

تلك إذاً عوامل رئيسية تهيب بجيته أن يهاجر إلى الشرق هجرة روحية ، ولكن بقيت العوامل المباشرة التى تدفعه إلى القيام بهذه الهجرة دفعاً .

وشاءت الظروف أن تكون هذه العوامل المباشرة من نصيب هذه السنة بعينها ، ونعنى بها سنة ١٨١٤ . ففى يناير من هذا العام مر بمدينة فيمار — عاصمة

دوقية ساكس فيمار ، التى كان جيته يعمل فيها كمستشار أعلى لدوقها كارل اوجست — جنود من البشكير ، (وهى مقاطعة فى الجنوب الشرقى من روسيا وأهلها مسلمون) وهناك فى إحدى قاعات المدرسة البروتستانتية فى فيمار أقاموا صلاة شهدها جيته ، فأثرت فى نفسه كل التأثير ، وأعادت صورة هؤلاء الجنود المسلمين النازحين فى خيال جيته صورة تيمورلنك بجنوده الأقوياء ، وبدأ يحيا فى نفسه حياة الشرق . ولكن العامل القوى الأخير هو قراءة جيته لديوان شمس الدين حافظ الشيرازى ، الشاعر الفارسى المشهور . وكان قد قرأ بعضاً من أشعاره من قبل ، ولكن هذا لم يكن كافياً ليعطى لجيته صورة قوية عن هذا الشاعر تدفعه إلى الإنتاج . وفى هذا يقول فى مذكراته عن سنة ١٨١٥ : « استطعت أن أحصل فى العام الماضى على ترجمة فون همر لديوان حافظ كله . وإذا كنت لم أظفر بشىء من قراءتى لما ترجم لهذا الشاعر العظيم من قبل من قطع نشرت فى المجلات هنا وهناك ، فإن مجموعة أشعاره قد أثرت فىّ تأثيراً عميقاً قويا حملنى على أن أنتج وأفيض بما أحس وأشعر ، لأنى لم أكن قادراً على مقاومة هذا التأثير القوى على نحو آخر ، لقد كان التأثير حياً قوياً . فوضعت الترجمة الألمانية من بين يدى ، ووجدت نفسى أندفع إلى مشاركته فى وجدانه ، وإذا بكل ما كان كامناً فى نفسى ، مما يشبه مايقوله حافظ ، سواء فى موضوعه وفى معناه ، يبدو ويظهر وينبعث منى بقوة وحرارة ، حتى إنى شعرت شعوراً قوياً ملحاً بحاجتى إلى الفرار من عالم الواقع الملىء بالأخطار التى تهدده من كل ناحية ، سواء فى السر وفى العلانية . لكى أحيا فى عالم خيالى مثالى ، أنعم فيه بما شئت من المتع حسب طاقتى » .

وكيف لا يعجب جيته بشعر حافظ إلى هذا الحد ، وحالته فى ذلك الحين تشبه حال حافظ ! لقد كان حافظ يتغنى بالبلبل والورد ، والخمر والحب ، فى

هدوء ومرح ، بينما كانت الأمبراطوريات والولايات من حـولة تعج بالاضطرابات ، والحـكام الطغاة يضجون ويصرخون ، وجيته يريد بدوره في وسط هذا الاضطراب الذى يسود أوربا ، أن يتحدث بحديث الحب ، وأن يتغنى وهو هادىء مسرور .

ولـكنه كان من أجل هذا فى حاجة إلى الهدوء كى يستطيع أن يخلو إلى نفسه ، فلم يكد مؤتمر صلح باريس ينتهى ، والهدوء من بعده يطل على الناس برأسه ، حتى فـكر جيته فى أن يغادر فيمار وما فيها من أعمال وشواغل ، لـكى يرحل إلى جنوب ألمانيا هناك فى منطقة الرين الجنوبية بشمسها المضيئة الساطعة وغاباتها الظليلة العالية ، وخمائلها الساحرة الفاتنة ، أراد جيته أن يزور ملاعب صباه ، ومواطئ أقدام أترابه وأحبابه . فارتحل إلى هذه المنطقة ، وفيها فاضت عبقريته ، فانطلقت تقول أروع القصائد التى تـكوّن نواة هذا الديوان الذى نحدثك عنه . وكان لهذه الرحلة الأولى التى قام بها فى ٢٥ يوليه سنة ١٨١٥ أثران قويان وسّعا من دائرة تفـكير جيته الموجود بهذا الديوان : فملاحظاته العلمية أثناء الرحلة قد قوت اعتقاده فى نظريته القائلة بأن كل شىء فى الحياة تطور وتحول ، ابتداءً من النَبات ، ماراً بالحيوان ، حتى الإنسان ، ثم صلته ببنى بواسْريه وما عندهم من مجموعة من الصور الفنية رائعة قد ملأته إعجاباً بالفن الجرمانى المسيحى .

وفى ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ قام برحلة ثانية إلى هذه المنطقة عينها . وفيها أحب جيته حباً جديداً كان من أعمق ما شعر به من حب طوال حياته الغرامية . فهناك فى جِرْ بَرْمِيلِى ، بالقرب من مدينة فِيزْبادِن ، نزل جيته ضيفاً على أسرة من أُسر مدينته التى ولد فيها (فرنـكفُـرْت) . وفى هذه الأسرة عرف مَرْيانه

فون فليمير ، إحدى أفرادها . فاشتعل قلبه بحبها ، وبادلته هى حباً بحب سنذكر لك قصته عما قليل .

وكاد الديوان أن ينتهى فى هذا العام ، ولكن جيته لم ينشره حينئذ كله ، وإنما نشر منه بعض قطع ، وأضاف إليه قطعاً جديدة سنة بعد سنة . ومن سنة ١٨١٦ إلى سنة ١٨١٨ وجيته يتابع دراساته الشرقية ، التى كانت نتيجتها هذه « التعليقات والمباحث التى تعين على فهم الديوان » ، وهى التى أضافها إلى آخر الديوان وطبع الجميع لأول مرة سنة ١٨١٩ .

وينقسم الديوان إلى قسمين كبيرين : القسم الأول ، وهو المهم ، شعر ، والثانى نثر ، وهو عبارة عن هذه التعليقات التى وضعها جيته لكى يفهم الديوان ، وهى خاصة بتاريخ الآداب العربية والفارسية والعبرانية . والقسم الأول يتكون من اثنى عشر كتاباً هى كتاب المُغَنّى ، وكتاب حافظ ، وكتاب العشق ، وكتاب التفكير ، وكتاب سوء المزاج ، وكتاب الحكمة ، وكتاب تيمور ، وكتاب زليخا ، وكتاب الساقى ، وكتاب الأمثال ، وكتاب البارسى ، وأخيراً كتاب الخُلْد وقد وضع جيته أسماء هذه الكتب باللغة الفارسية وتحتها ترجمتها الألمانية .

واللحن السائد فى هذا الديوان كله هو التحول ؛ ولكن ليس معنى هذا التحول أن يتحول جيته من شخص إلى شخص آخر فحسب ، وإنما هو بشخصيته ظل ثابتاً طوال هذا التغير . فهو يتحول تارة إلى حاتم ، وهو أظهر شخصيات الديوان ، ويظل مع ذلك جيته نفسه ، ويتصل بهذا التحول عودة الشباب . فجيته الشيخ يتحول بواسطة الساقى إلى شاب .

والديوان يشيد بطبيعة الإنسان وقواها ، ويحمل طابع التفاؤل والإقبال على

الحياة ، ويدعو إلى المؤاخاة بين الأمم والشعوب . ثم هو مملوء بنظرة صوفية عميقة فى الحياة بجميع مظاهرها .

— ٢ —

هجرة جيته

دعونى وحدى مقيما على سرج جـــوادى ،
وأقيموا ما شئتم فى دياركم ومضارب خيامكم ،
أما أنا فسأجوب من الأنحاء قاصيها على صهوة فرسى ،
فرحاً مسروراً لا يعلو على قلنسوتى غير نجوم السماء .

هذا هو « الخاطر الحر » الذى جال فى ضمير الشاعر بعد أن عانى ما عانى من ضيق ، وقد لبث فى مكانه المضطرب المتزعزع ، لا ينتقل عنه ولا يريم . وها هو جيته يتأهب للرحيل إلى مكان ينشد فيه الفرج بعد هذا الضيق ؛ ها هو يغادر الغرب إلى الشرق ، وهو يعلم ، بل هو يقول :

لله المشـــرق ،
ولله المغـــرب ،
والشمال والجنوب
يستظلان بالسلام بين يديه .

ولكن هذا الرحيل ليس كغيره من أنواع الرحيل التى اعتادها الناس وألفوها . ليس هو انتقالا بالجسم من مكان إلى مكان آخر . إنما هو ثورة روحية قوية فاصلة فى حياة الشاعر . هو بعث لحياة جديدة يريد الشاعر أن

بمحياها ، وللآمال حلوة خصبة بوده أن يتملى بها ، ويسبح فى تيارها الهادى البديع . وإن فى هذا الرحيل لعَوْداً للشباب عند جيته الشيخ العجوز ؛ وإن فيه لإيماناً عميقاً يظل فى تحليقه حتى يبلغ الملكوت الأعلى حيث يحترق العبد بنار الحب الذى يكنه للرب ؛ وإن فيه لحكمة تنفذ إلى أعماق الوجود ، وحباً يستحيل معه التعدد إلى وحدة ، والاستقطاب إلى امتزاج واقتران .

ليس أمر هذا الرحيل إذاً بالأمر الهين الضئيل ، وإنما هو جليل خطير ؛ فيه استجابة لوحى سماوى ، ورسالة قدسية عليا، ناط الله بجيته تحقيقها وإذاعتها، فهو أشبه ما يكون برحيل الأنبياء الذى يكوّن المرحلة الفاصلة ، لا فى تاريخ حياتهم الروحية فحسب ، بل فى تاريخ الإنسانية الروحى بأسره . ولهذا فليس غريباً أن نرى جيته يسمى رحلته إلى الشرق باسم الهجرة ، ويفتتح ديوانه الشرقى الغربى ، بوصف هذه الهجرة ، والدوافع التى دفعت إليها ، والغاية التى يرجوها منها ، فى القصيدة الرائعة فى أول كتاب « المغنِّى » تحت عنوان « الهجرة » :

الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر ،
والعروش تُثَلّ ، والممالك تتزعزع وتضطرب ؛
فلتهاجر إذاً إلى الشرق فى طهره وصفائه
كى تستروح جو الهُداة والمرسَلين !
هنالك ، حيث الحب والشرب والغناء
سيعيدك ينبوع الخِضْر شاباً من جديد ،
إلى هنالك ، حيث الطهر والحق والصفاء
أود أن أقود الأجناس البشرية
فأنفذ بها إلى أعماق الماضى السحيق ،

حين كانت تتلقى من لدن الرب
وحي السماء بلغـــة الأرض ،
دون تحطـــيم الرأس بالتفكير ،
هنالك حيث كان الآباء يقدّســـون
وعمـا يتقدم به الغريب من خدمة يمتنعون ؛
أجل ، هنالك أود التملى بحدود الشباب :
فيكون إيمانى واسعاً عريضاً ، وفكرى ضيقاً محدوداً ،
وأود أن أتعلم كيف تُقَدّس الكلمات ،
لا لشىء إلا لأنها كلمات فاهت بها الشفاه
وفى يمينى أن أَدْخُل فى زمرة الرعاة
وأن أجدد نشـــاطى فى ظلال الواحات
حين أرتحـــل فى رفقة القافـــلة
متجراً فى الشيلان والبن والمِسْك ؛
وفى عزمى أن أسلك كل سبيل
من البادية إلى الحضر ومن الحضر إلى البادية .

ولكن هـذا الغربى الغريب الآتى من الشمال حيث الجبال تعلو قممها الثلوج ، لا يعرف الصحراء بعد ، وليست له بالفيافى والبيداء خبرة . فهو فى حاجة إذاً إلى دليل يهديه سواء السبيل ، فى قفار الشرق الواسعة الفسيحة ؛ ولكن أى دليل يختار ؟ لا شك أن هذا الدليل سيكون حافظاً الشيرازى . أوَ ليس هو الذى أثر فى جيته كل هـذا التأثير الفخم الذى أوردنا حديثه منذ قليل ؟ ومَن غير حافظ يستطيع أن يؤدى هذه المهمة خير أداء، وهو الذى اتخذ منه جيته مثلا أعلى للشعر والشعراء ، وخصه بكتاب من هذا الديوان ؟ ليدْعُه إذاً ليكون دليله وهاديه :

أىْ حافظ ! إن أغانيك لتبعث السلوى
إبّان المسير فى الشِّعاب الصاعدة والهابطة ،
حين يُغنى حادى القوم ساحر الغناء
وهو على ظهر دابته ،
فيوقظ بغنائه النجومَ فى أعلى السماء .
ويوقع الرعب فى نفوس الأشقياء
وإنه ليحلو لى ، أىْ حافظ المقدس ، أن أحيى ذكراك ،
عند الينبوع الصافى وفى حانات الصهباء ،
وحين تكشف المحبوبة عن نقابها قليلا
فيفغو منه مهتزاً ، عبيرُ المسك والعنبر .
أجل ! إن ما يهمس به الشاعر من حديث الحب ،
ليحمل الحور أنفسهن على أن يعشقن .
فإن شئتم إلا أن تحسدوا على الشاعر هذا الحظ ،
أو أن تحرموه منه وتعكروا صفوه عليه ،
فاعلموا أن كلمات الشاعر وقوافيه
تحلِّق دائماً ، دائماً ، وهى دائماً فى تحليق
قارعة أبواب الفردوس فى همْسٍ وهدوء
ناشدة لنفسها حياة خالدة .

كل شىء مهيأ للسفر إذاً . فليهاجر شاعرنا على بركة الله ، وليدْعُه لكى يمنحه شيئاً من عنايته ، لأن مهمته مهمة إلهية قدسية :

يريد الشيطان أن يسلك بى مسالك الضلال
ولكنك تعرف ، أيها الرب ، كيف تهدينى سواء السبيل

فإن أقدمت على عمل أو أنشدت الشعر ،
فاللهم أنر لى جادة الطريق .
وأيما أفكرت فى شأن مما فى دنيانا من شئون
فسأرتفع به إلى أعلى عليين .
إن روحى التى لم تعلق بها أثارة من تراب ،
لتسمو فى أعمق أعماقها إلى الملكوت الأعلى .

وهكذا تتم الهجرة ، ويبلغ جيته بلاد الشرق ، سليما معافى . ومن هنا يبدأ فيصور نفسه فى صورة رحالة يجوب الشرق كى يعرف طباع أهله وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وما يجول فى خاطر رجاله وحكمائه من أفكار وآراء ، وما يعتنق سكانه من نحل وأديان . ولا يجد حرجاً ، وهو الغربى المسيحى ، فى أن يعتبر نفسه مسلماً يؤمن برسالة محمد ويدين بالإسلام . وبهذا كله يتغنى جيته فى الكتاب الأول من هذا الديوان ، ونعنى به كتاب « المغنّى » كما سماه جيته تقليداً لحافظ الشيرازى الذى سمى الكتاب الأول من « غزلياته » باسم « مغنى نامه » أى كتاب المغنى . والمغنى عند حافظ شخص خيالى يخاطبه فى قصائده كما يخاطب الساقى فى قصائد أخرى ، وكما اعتاد الشعراء العرب أن يخاطبوا شخصين يتخيلونهما . أما المغنّى عند جيته فهو الشاعر نفسه يخاطب ذاته . وقد جعل من مصيره وأغراضه وفنه موضوعاً للقصائد نفسها ، فى مفتتح الديوان كله ، كمقدمة له .

والآن فلنتحدث عن هذا الكتاب الأول :

فى كتاب المغنّى هذا يبسط جيته خلاصة أفكاره ومشاعره التى بثها فى الديوان ، والتى تكشف عن نظرته فى العالم كله ، سواء وهى فى صورتها

الجديدة بعد أن تأثرت بالروح الشرقية واتحدت بعناصرها ، كما يتحدث فيه عن تجربته الروحية فى الشرق ، ويصف ما أنتجته فى نفسه من تطورات وآثار .

فهو فى قصيدة « الهجرة » يتحدث عن عملية إعادة الشباب التى قامت بها هجرته إلى الشرق ، ويصف كيف استطاع الشرق فى بساطته وفطرته وأفكاره البَدائية التى لا تنتجها الشعوب إلاّ فى طفولتها وشبابها ، أن يحيله إلى شاب ، كما استطاع ينبوع الِخضْر ، صاحب موسى الكليم ، أن يعيد الشباب إلى حافظ الشيرازى بأن شرب كأساً من هذا الينبوع .

وقصة هذا الينبوع أو عين الحياة من الأساطير التى نسجها الناس حول شخصية الاسكندر الأكبر . فالرواة يزعمون ، من بين ما يزعمون ، أن الاسكندر الأكبر قام بحملة كبرى من أجل الوصول إلى هذا الينبوع الذى كان يقوم على سدانته الِخضْر ، ولكنه لم يفلح وقد استطاعت هذه القصة ، كما استطاع غيرها من القصص الدينية أو شبه الدينية ، ان تلهم شعراء الفرس المسلمين ، خصوصاً حافظاً الشيرازى ، ثم من قبله نظامى الشاعر المشهور ، فى « كتاب الاسكندر » (اسكندر نامه) . وهذا جيته يتأثر بها بدوره . وهنا يظهر الفارق واضحاً بين شعراء الشرق وبين شاعرنا الغربى . فنظامى جعل من هذه القصة رمزاً للعزوف عن الحياة وإنكار الدنيا من أجل حياة أخرى أعلى من هذه الحياة وأسمى . وعلى العكس من ذلك جعل جيته هذا رمزاً للإقبال على الحياة والاستزادة منها وتوكيد العالم وإيجابه ، لأن الشارب منه يصبح شاباً من جديد ، أى شخصاً يقبل على الحياة وينظر إليها فى شغف ويريد التزود منها قدر استطاعته .

فكأن جيته إذاً على الرغم من هجرته وتوشحه بمسوح الشرق ، ظل

جيته نفسه ، أى ظل رجلا غربياً ألمانياً ، يفكر تفكير الغربيين ، وينظر فى الوجود نظرة الألمانيين .»

ثم إنا نرى جيته فى هذه القصيدة عينها يكشف عن نظريته فى الدين . ولسنا هنا بصدد الحديث عن فلسفة جيته الدينية فى « الديوان الشرقى » فلهذه الفلسفة حديث بعدُ طويل . وإنما نريد أن نشير هنا إلى ما يسميه جيته « الظاهرة الدينية الأولية » . فقد كان جيته يعتقد أن الأديان كلها تصدر عن ينبوع واحد : هو هذه الظاهرة الدينية الأولية ؛ وليست الأديان المختلفة إلا مظاهر متعددة لهذه الظاهرة ؛ لأن الله فوق مستوى كل عقل بشرى ، وكل تصوير له تقريبى نسبى تبعاً لهذا . ولهذا ففى كل دين عنصر إنسانى يختلف زيادة ونقصاناً تبعاً لبعد هذا الدين أو قربه من تلك الظاهرة الدينية الأولية .

ومن أجل هذا كله نرى جيته يذكر الاسلام (فى عنوان القصيدة) واليهودية (الآباء فى كتاب العهد القديم) ، كما يذكر الفردوسى ، مشيراً به إلى المجوسية أو البارسية (فى اشارته إلى الفردوس إشارة إلى الفردوسى الشاعر الفارسى المشهور صاحب الشاهنامه ، كما لاحظ النقاد) .

وننتقل من هذه القصيدة إلى القصائد الأخرى ، فنجد جيته يتحدث عن الرُّقَى والتمائم وأمثالها من الخرافات الشائعة فى الشرق ، محاولا أن يستخلص منها العبرة ، أو أن يكشف عما فيها من رموز ومعان خفية دقيقة . وبعد أن قدم صورة من عادات الشرق وأساطيره على شكل هذه الرُّقَى والتمائم . بدأ يتغنى بالشعر وفن الشاعر ، وما انتوى أن يقدمه فى هذا الديوان ، حيث يقول :

وإنى لأعرف حقاً كيف أتقدم إليكم

بالندىّ من الأزهار والشهىّ من الثمار ،

وإن شئتم معها شيئاً من الحِكَمَ ،
فسأهدى إلــكم منها الناضج المِعْـطار

أما عن طريقة الشاعر فى التعبير ، فانه سينحو مَنحى شرقياً يونانياً ، فيه جمعٌ بين أسلوب الشرق وأسلوب اليونانيين . فالأسلوب اليونانى فى التعبير ينحو نحو وضع الأشياء فى صورة مجسمة محدودة ذات جوانب وأضلاع . أما الأسلوب الشرقى فأسلوب سيّــال ، إن صح هذا التعبير ، ليس لما يعبر عنه قِوام ولا حدود . وجيته يود لو تحلل من الأسلوب اليونانى بقيوده ، ليسبَـح فى نهر الفرات ويعبر فى حرية وانطلاق .

ويحاول جيته فى إحدى القصائد أن يمزج بين المــاضى والحاضر ، وأن يركب منهما تجربة زوحية واحدة ، يقضى بها على هذا التنازع الأبدى بين هذين الآنين من آنات الزمان . ولعله يريد أن يخرج من هذا بنظرية فى الزمان تشبه نظرية «الحاضر السرمدى»، التي يقول بها الفيلسوف الفرنسى المعاصر لافِـل ، وهى النظرية التى ترمى إلى القضاء على المــاضى ، وإفنائه فى الحاضر ، ليتكون من الاثنين حاضر متصل سرمدى .

وهنا نصل إلى القصيدة التى اختتم بها جيته كتاب « المغنى » ، ونعنى بها قصيدة « الحنين السعيد » . وهى أحسن ما فى الديوان ، ولعلها أروع وأعمق قصيدة قالها جيته . وفيها يتغنى ، فى لغة أهل التصوف ، بالفراشة ، التى تعشَق النور وتصبو إلى حياة أعلى وأسمى ؛ فتقذف بنفسها فى لهيب الشمعة وتحترق . ترمى بنفسها فى هذا اللهيب طائعة مختارة ، لأنها تعشق النور عشقاً سما وارتفع به حتى حملها على الفناء فيه . وعلى هذا النحو ينظر جيته إلى الحب ؛ فالحب فى نظره تضحية وفناء ، تضحية من الحبيب بذاته للفناء بها فى شخص المحبوب عن

طريق الاتحاد به ، والامتزاج وإياه . وكل حبيب مخلص فى حبه ينشد هذه الوحدة ، ويتحرق شوقاً إلى تحقيقها . ولن يبلغ الحب كماله ، ولن يصل أوْجه وقمّه ، إلا إذا تم الاتحاد ، وحدثت التضحية والفناء .

استمع إلى جيته يقول فى هذه القصيدة الغامضة :

لا تتحدث بهذا الحديث لغير الحكماء ،
فالعامة سَرعان ما تتلقاه منك بالاستهزاء :
إنى أريد أن أمجد الحىّ ،
الذى يتحرق شوقاً إلى لهيب الموت .
فى قُشَعريرة ليالى الحب ،
تلك القشعريرة التى ولدتك ، وفيها أنت تلد ،
يغزوك شعور غامض غريب ،
حين تضىء الشمعة الوديعة الهادئة
حينئذ لا تظل غارقاً
فى ظلال الظلام الظليلة ،
إنما يمزق فؤادك نزعة جديدة ،
نحو اتحاد أعلى وامتزاج سام
ولن يعوقك البعد مهما طال
بل ستأتى سريعاً طائراً قد أخذك السّحر ،
فتعشق النور ،
وأخيراً تحترق كما تحترق الفراشة .

وطالما لم تفهم هـــذا الحديث : -
مُـتْ واستحل إلى جـــديد ،
فـــتظل ضيفاً مجهـولا مُعْتما
على هـــذه الأرض المظــلمة :

فهذا التصوف السامى العميق ، الذى تأثر به كبار المفكرين وأصحاب الفن الألمانيين من أمثال شوبنهور وفجنر ونيتشه ، كل التأثر ، يدعونا أولا إلى الموت ، لأن فى هذا الموت الحياة . وفى هذه القصيدة نجد تعبيراً رائعاً عن روح ديونيزوس ، إله الخمر عند اليونان : فالتجربة الروحية الديونيزوسية ، تشمل أولا القدرة على إفناء الشخصية الفردية ، بطلب الاحتراق فى لهيب الموت طوعاً ، ثم تقوية غريزة التزاوج والانتاج . ولعل جيته قد تأثر فى هذا بقول أبى بكر : « احرصوا على الموت ، تُوهَبوا الحياة » .

— ٣ —

جيته والحب

أرأيتَ إلى هذه القوس التي تلمع خلال الضباب ؟
أجل إنها فضيّة بيضاء لكنها قوس السماء على كل حال .

أبشرْ إذاً أيها الشيخ، ولا يَرُعْك ما ألمّ برأسك من شيب وبياض ، فهذه القوس البيضاء هى قوس الحب ، أليست هى وقوس قزح سواء ؟ وقوس قُزح ما هى ؟ إنها الحب الذى جمع بين الشمس وبين السحاب ، إنها صورة الجوهر النورانى فى الجوهر المادى ، إنها فناء الطبيعة الإنسانية فى الطبيعة الإلهية ، أو لا ترى قطرات الدمع تساقط من السحاب كالدّر ، فترميها الشمس بأحرّ القبلات ،

فتنطبع على القُطرات صورة النور ، فيفنى الماء فى النور ، ويكون اتحادٌ ليس ثمة من بعده مجال لأى انفصال ؟

كذلك أنت أيها الشيخ اليقظ الحى ستحب ، بل وسيشتمل قلبك بأعمق ما عانيت فى حياتك من حب .

على نحو من هذا الحديث العذب العميق كانت الخواطر تنساب فى نفس جيته الشيخ ، وهو فى طريقه إلى مواطىء أقدام الطفولة، ومراتع أحلام الشباب. وكانت نسائم الصباح الباكر تطوف برؤوس الأشجار السامقة الرزينة فى غابات الرّين الرائعة ، فتثير فيها اهتزازاً رقيقاً أشبه ما يكون باهتزاز النشوان، كما كانت أصداء الماضى البعيد تطوف برأس الشيخ فتبث فى كيانه الروحى كله قشعريرة لا توصف ، هى قشعريرة الحب ، وقد وثبت أشباح تجاربه من مكامنها فى هذه الأمكنة ، بعد أن ثوت فيها ذلك الزمان الطويل . وكانت الشمس الساطعة ، وأضواؤها ترف على أفنان الكروم الممتدة فى الأودية وعلى سفوح الجبال ، فى متوع النهار ، تثير فى نفسه التشوق إلى الشرق بلونه الذهبى الزاهى وتصوراته المُغرقة فى التهاويل والخيال، ولو أن جبال الألب كانت تتراءى غير بعيد فتُنبه الشيخ إلى أنه شاعر غربى لا شرقى . وكان نداء الهدْهد يصاعد من بعيد هامساً فى أذنيه ، أنا الهدهد رسول الحب ، فهل عند قلبك حب جديد ؟

أجل ، يا وسيط الحب عند الأنبياء ، إن الشيخ لينتظره فى مسقط رأسه حبٌّ عنيف جديد. فلقد عرف بمدينة فرنكفرْت رجلا من أرباب المال والأعمال على جانب من الخلق عظيم ، وقدر من النشاط العملى كبير ، ذا نفوذ ضخم وبَسطة فى الرزق ، ومع هذا كله فقد كان واسع النظرة ، فسيح الأفق ، ذا عقل مفتوح لمرافق الحياة الروحية على اختلافها وتعددها : من فكر واجتماع وسياسة وفن.

فلم تكن أعمال المصرف تمنعه من شؤون الفن والمسرح ، ولا شئون المال من تفهم الأفكار الفلسفية ، ولم تكن لذة الكسب تصرفه عن متعة الفن ، ولا قسوة الإقراض والمطالبة بالدين، من إتيان الخير وإسداء المعروف ، كما أن تصميم المشروعات المالية وتدبير وسائل الاستغلال لم يكونا كافيين له عن إنشاء القصائد ونقد الآثار الفنية والفكرية . وهذا الرجل هو فليمير ، عضو الشيوخ فى مدينة فرنكفرتا .

مرت بهذه المدينة فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة ، فرأى فليمير من أفرادها فتاة أعجبه ما رآه فيها من رقة وظرف ، وموهبة موسيقية ممتازة ، وما يبدو عليها من حيوية بضة ، وما لها من جوهر طاهر ومعدن كريم . فدفعه ما طبع عليه من حب للخير وإيثار للمعروف ، إلى إنقاذها مما هى عليه من حال رقيقة ، وما هى فيه من شقاء أو ما يشبه الشقاء ، بوصفها راقصة وممثلة ، ورضى من أمها أخذها إلى بيته ، واتخذها ابنة له إلى جانب بناته الثلاث اللائى ماتت عنهن أمهن منذ أمد بعيد . وعاش الجميع عيشة سعيدة هانئة فى القصر العتيق الذى كان للرجل فى المدينة ، اللهم إلا فى الصيف ، فقد كانوا ينتقلون حينئذ إلى ضيعة بديعة تقوم على ضفاف نهر المين ، حيث الخمائل الرائعة والكروم الجميلة ، تنعكس عليها فضة النهر ، وتتردد فى أنحائها نغمات الطير . ثم زُفَّتْ البنات إلى أزواجهن ، ولم يعد غير الرجل والفتاة المتبناة . وإذا به يخطو الخطوة الأخيرة فيتزوجها بموافقة من الجميع . وهذه الفتاة هى مريانه ، التى عرفت فى شعر جيته فى (الديوان الشرقى) باسم (زليخا) ، كما سنرى بعد حين .

ولقد كانت مريانه على قدر من الامتياز العقلى والفنى كبير . فقد ظفرت ، ولما تدخل بيت فليمير بعد ، بنصيب من الثقافة عظيم ، ونعمت من العناية بتربيتها بحظ وافر ، فهى قد قرأت الأدب الألمانى جميعه ، وأتقنت دراسة كل ما نشره

جيته حتى ذلك الحين . وها هي ذى فى بيت فليمر تجد فيما فيه من ثقافة رفيعة، وتربية ممتازة وحياة روحية مترفة ، جواً صالحاً وتربة خصبة لتنمية مواهبها ، وإكمال عدتها من الثقافة والتربية .

ورآها جيته لأول مرة حين وصل إلى فرنكفرت فى سبتمبر سنة ١٨١٤ . فقد زار صديقه القديم فليمر فى ضيعته فى ١٨ سبتمبر ، فلقيها هناك . ولكنه كان لقاء قصيراً ، إذ ما لبث جيته أن غادر المدينة ، قاصداً عاصمة الرين الروحية ومنبع القداسة فى إقليمه ، ونعنى بها مدينة هَيدِلبرج الساحرة ، التى طالما تغنى الشعراء بروعة مكانها ، جاثمة وسط الغابة السوداء ، كأنها السر العظيم فى طوايا النفس الغامضة ، وبجلال قصرها العتيق الذى وصفه هيلدرْلن بأنه المنبىء بالقدر؛ ولكنه سافر على أن يعود إلى فرنكفرت من جديد . وعلى أن يطيل مقامه هذه المرة عند فليمر . وعاد جيته فى أكتوبر ، وكانت مريانه قد تزوجت فى تلك الأثناء ، فكان اللقاء الحقيقى الطويل .

ولم تكد النظرات تعكسها العيون على العيون حتى بدأ كلٌّ يتحسس قلبه . ولِمَ لا يُفتن جيته بمريانه ، وإن فى طبيعتها من السذاجة البريئة ، أو البراءة الساذجة ، ومن سحر الأنوثة الرخصة الناضجة ، وإن فى روحها من الحرارة والارهاف ، وسرعة الإحساس ولطف الوجدان ؛ وإن فى جسمها من الحيوية وخفة الحركة ، ونَضرة الوجه وإشراقه ، وقد جللته الغدائر السمراء الناعمة البراقة التى نعتها جيته بالحيات السمراء الجميلة ، أجل ، إن فيها من هذا كله ما يبعث فى الشيخ نشوة الصِّبا ، وفتنة الشباب، ويشعل فى قلبه لهيب حب جديد .

لكن رويدك أيها الحب: لا تسعَ إلى قلب الشيخ سعيك إلى قلب الشاب، مندفعاً عنيفاً صارخ اللهيب أهوج المساق . بل اتئد فى خُطاك ، وكن هادىء

النفس ، عليك ما على أصحابك من جلال ووقار ، إن جاز أن يكون الحب وقوراً ، هو الأليق بالشيوخ .

فلن يكون حب جيته لمريانه إذاً من نوع حبه القديم لصواحبه فى الشباب ، من أمثال شرلوت وليلي ، بل سيكون حباً أهدأ ، ولكنه أعمق ، ألطف ، ولكنه أنفذ ، أبعد عن الخيال ، ولكنه أسمى من الحس ، وأقرب إلى الحب الصوفى الإلهى .

هذا من جانب الشيخ ، أما الفتاة فكان حبها حب الشباب ، ولا عجب فلا زالت فى أوج الشاب لم تتجاوز بعدُ الثلاثين . فكان حبها أسرع فى السير وأسبق فى الإعلان ، وأصرح فى الظهور ، وأشد أثراً على السطح حتى اعتل منه الجسم . فها هى ذى تتاح لها الفرصة ، فتعلن الحب أول من يعلن ، ذلك أن الشيخ قد نسي عند سفره حافظة الصور ، فأرسلتها إليه مع قصيدة تعلن فيها حبها العميق ، فى ظرف ورقة ، وشيء من السذاجة كثير ، مما أخذ بلب الشيخ وأشعل أوار الحب شيئاً فشيئاً فى قلبه .

ولكنه لا يرد العاطفة بمثلها فى الحال ، بل ينتظر حتى يدور العام دورته ، فيعود من جديد فى مايو من العام التالى إلى مغانى الطفولة فى منطقة الرين ، وهنا تبدأ تجربة الحب الجديدة ، بأن يرد الشيخ على قصيدتها بقصيدتين ، يرمز فيهما إلى الحب الذى نشأ بين مريانه وبينه بالحب بين يوسف النبى وزليخا امرأة العزيز ، كما وردت قصة هذا الحب فى القرآن . فيقول فى أولى القصيدتين إنه لا عجب فى أن تفتن زليخا بيوسف : فلقد كان يوسف شاباً ، وللشباب نعمته وكان جميلا جمالا بلغ حد السحر والفتنة ، وهى أيضاً كانت جميلة ، فى استطاعة كلٍّ أن يسعد الآخر ، ويكون له ينبوع نعيم ؛ فإذا كنت ، يامن انتظرتك منذ

أمد بعيد ، ترسلين إلىّ نظراتك الحارة حرارة الشباب ، وإذا كنت تحبيننى الآن وغداً ستكونين لى مصدر سعادة ونعيم ، أتغنى به فى شعرى ، فيجب أن أدعوك دائماً باسم زليخا .

سيدعوها جيته إذا فى « الديوان الشرقى » كله باسم زليخا ، فبم تدعوه هى ؟ إذا كان هو يتغنى بمحبوبته ، ويصوغ لها قلائد المدح ، فليكن اسمه « حاتماً » .

وعبثاً حاول النقاد أن يفهموا السر فى تسمية جيته لنفسه باسم « حاتم » فى مقابل زليخا ، وهو يقصد بهذا الاسم حاتماً الطائى . فإن حاتماً الطائى لم يعرف عنه أنه كان من العاشقين ، وإنما هو رجل الكرم فحسب ، لا رجل الحب ، وجيته نفسه قد صرح بهذا فى القصيدة الثانية من القصيدتين اللتين ذكرناهما آنفاً . وفى « تعليقاته » على الديوان ، فذكر عن حاتم أنه المضروب به المثل فى الكرم فحسب . أما نحن فنرى أن جيته لم يسم نفسه باسم « حاتم » عبثاً ، وقد كان فى استطاعته أن يختار اسم واحد من العشاق السبعة المضروب بهم المثل فى العشق ، وهم الذين ذكرهم فى أول كتاب العشق ، عشق نامه ، من « الديوان الشرقى » . بل هناك سبب عميق هو الذى حمل جيته على تسمية نفسه باسم « حاتم » . ذلك أن نظرة جيته إلى الحب فى كتاب « زليخا » من هذا الديوان نظرة خاصة ، فالحب هنا ليس هو الحب الحسى الذى نجده فى « كتاب العشق » ، وفى بقية مؤلفات جيته ، فيما عدا « فاوست » الثانى ، بل هو الحب الصوفى الإلهى الذى هو عبارة عن اتحاد المحب بالمحبوب وفنائه فيه . وهذا النوع من التجربة هو فى جوهره فعل « يبذل » فيه المحب نفسه و « ويسخو » بها و « يقدمها » إلى المحبوب ؛ فهو إذاً « بذل » و « سخاء » و « عطاء » من جانب المحب نحو المحبوب ؛ والبذل

والسخاء والعطاء كلها بمعنى الكرم ، فالمحب إذاً ، تبعاً لهذه النظرة إلى الحب . أخص خصائصه العطاء والبذل والجود بذاته للمحبوب . فالمحب إذاً كريم ؛ وهذا الكرم ليس طبعاً الكرم الحسى . الذى هو كرم حاتم الطائى ، بل هو الكرم الروحى . بمعنى فناء المحب فى المحبوب واتحاده به تمام الاتحاد . ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا سمى جيته نفسه فى هذا الكتاب من كتب « الديوان الشرقى » باسم حاتم ؛ وبهذا نكون ، لو أن ما ذهبنا إليه صحيح ، قد حللنا مشكلة معقدة لم يستطع النقاد أن يحلوها حلا صحيحاً ، أو قريباً من الصحة ، حتى اليوم .

سيكون اسم جيته إذا حاتماً ، وستناديه مريانه بهذا الاسم ، كما سيناديها هو باسم زليخا . وستتقد نار الحب قوية بين كلا العاشقين . ولمَ لا تتقد ، وها هما من جديد يلتقيان أطول التقاء : يعانى فيه جيته تجربة حب لعلها أن تكون من أعمق ما عاناه حتى الآن من تجارب غرام ، على الرغم من كثرة هذه التجارب وتنوعها أشد التنوع . حتى إن القصائد كانت تنبثق من خياله الشعرى الواحدة تلو الأخرى فى تدفق حار شديد ، وقوة هائلة ، وسرعة لاحد لها .

ففى اليوم الثانى عشر من شهر أغسطس نزل جيته ضيفاً على آل فليمير فى ضيعتهم التى يقيمون بها فى الصيف ؛ وهنا أمضى أسابيع ثمينة من أعز ما أمضاه فى حياته من أسابيع . فالطبيعة الفاتنة تفيض عليه بالسحر والجمال والقداسة ، لأنها فى هذا المكان قد جمعت بين هذا كله . والأصدقاء الأعزاء يحيطون بالشيخ ، وينظرون إليه نظرة إعجاب مغمور بالحب ، وإجلال يتسامى حتى التقديس . وهو يأخذ بحظه الأوفر من هذا ومن ذاك . فيترع من جمال الطبيعة وقداستها ماشاء الإتراع ؛ ويبادلهم بالإعجاب الحب الخالص ،

وبالإجلال التبسط فى غير ما تبذل ولا خروج عن حد اللهو البرىء . وإن هذه الطبيعة التى تتراءى أمام ناظريه لتثير فى نفسه ذكريات ، وأى ذكريات ! وإنه ليهتف فى أعماقه بما هتف به فى إهدائه « لفاوست » : « هذه أنت أيتها الصور النورانية الخيالية التى تراءيت من قبلُ أمام نواظرى المضطربة تطيرين فى فيض من النور . هل لى الآن أن أعوقك عن التحليق والطيران ؟ وهذا القلب ، الذى أذبلته السن والآلام ، هل لا يزال يصبو إلى هذه الأوهام ؟ هذه أنتِ تتقدمين نحوى . حسناً حسناً . تقدمى ما تشائين ، فإنى حين أراك الآن تثبين من هذه الغيوم وذلك الغبار مندفعةً إلىّ ، أشعر بأن قلبى قد سرَت إليه رعدة الصبا وقشعريرة الشباب ، من هذا النسيم السحرى الذى يندفع فى أذيال تيارك » . فهذه منازل أحبابه القدماء تتراءى غير بعيد . أليس هـذا هو الطريق الذى طالما سلكه منذ أربعين سنة من جربرميلى ، حيث هو يقيم الآن . إلى أوفنباخ حيث كانت توجد محبوبته الرائعة الجمال ليلى شينمان ؟

وإن أصحابه ليداعبونه ما وسعتهم الدعابة فى يوم عيد ميلاده السادس والستين ، فها هى ذى مريانه تقدم له فى صبيحة هذا اليوم عمامة من أجود أنواع الشيلان الهندية ، يحيط بها إكليل من الغار . وكل هذا قصدت به إلى أن يكون تحقيقاً فى الواقع لأغنية « الشعر الشرقى » التى تقول : « إلىّ ، إلىّ ، أيها الحبيب ! ضع العمامة على رأسى ! فمن يدك وحدها تكون العمامة جميلة ؛ وإن عباس ، شاهنشاه إيران ، لم ير رأسه قد توجتْ بعمامة أجمل وأروع ! » . وتلح مريانه فى الدعابة . فتطلب إلى الشيخ أن يقص على الحاضرين قصة مغامراته الغرامية فى هذه المنطقة ؛ فلا يسع الشيخ إلا أن يجيب عليها شعراً فى دعابة حلوة ، فيصفها هى وما لفتنتها من آلاف الأخطار ! وكل هذا وَقود يضاف إلى نار الحب المشتعل بين كلا القلبين ، فيزيدها ضراماً على ضرام ، حتى يبدأ الحب يدخل دوره الخطير الأخير ببدء هذا الحوار الرائع بين حاتم وزليخا ،

أو جيته ومريانه ، فحاتم يبدأ الحوار بأن يقول : ليست الظروف هى التى تخلق من اللص لصاً ، ولكنها هى نفسها أكبر اللصوص ؛ لأنها سطت على بقية الحب التي كانت باقية فى قلبى ، وسلمتها إليكِ ، فأصبحت فقيراً ، فصارت حياتى وقفاً عليك ؛ ومع ذلك فإنى أشعر بالحنين فى الشرارة المقدسة المنبعثة من نظراتك وأنعم بحظى الجديد بين ذراعيك . وحينئذ ترد عليه زليخا فى اعتراف بديع تقول فيه : طوبى لك فى حبك ، إنى لا ألوم الظروف ، حتى ولو أنها قد سطت عليك ، فما ألذ هذا السطو لدى وأقربه إلى قلبى ! ولست أدرى لماذا يحلو لك أن تسمى هذا سطواً ؟ فلم لا تقدم إلىّ قلبك فى حرية واختيار ؟ أجل ، إنى أود أن أقول لك بكل قلبى : نعم ، أنا الذى سطوت عليك ، إن هذا الذى تقدمه طواعية واختياراً ، سيقدم لك ربحاً عظيما ؛ فها هى ذى راحتى ، وها هى ذى حياتى الخصبة أبذلها لك فى سرور وغبطة ، فتقدم وخذها ! كفى هزلا ! ولا تتحدث عن الفقر ! أولا يجعلنا حبنا أغنياء ؟

ثم يرحل جيته فى ٢١ سبتمبر إلى هيدلبرج بعد أن تواعد وفليمير ومريانه على التقابل هناك ، بعد عودتهما من دَرْمشتات حيث سافر آل فليمير ، وفى انتظار لقائه بمريانه من جديد ينشد جيته قصائد فيها تعبير حار عن الشوق العنيف الذى يعانيه نحوها من أجل هذا اللقاء ، فيقول لها : أنت تسميننى ، أيتها الحبيبة ، باسم الشمس تعالَ إذاً أيها القمر العذب ضُمنى بين ذراعيك ! ويلح عليها الشوق أشد مما يلح عليه ، فتندفع عاطفة الشوق العنيف ثائرة تعبر عن نفسها فى قصيدة « الريح الغربية » ، فتقول : « ماذا تعنى الحركة ؟ أما وراء الريح الشرقية من أنباء ؟ إن رعدة هبوبها المنعشة تثلج جراح القلب العميقة . إنها تداعب الغبار ، فتثيره على شكل سحب صغيرة خفيفة ، وتدفع أسراب الحشرات الهائئة إلى الأعناب . وهى تخفف وهج الشمس وتثلج

أيضاً خدودى الملتهبة الحارة ، وتطبع قبلة ، وهى هاربة ، على الكروم المزدهرة فوق التلال والأودية . وإن همسها العذب الرقيق ليبث إلىّ آلافاً من تحيات الحبيب ، وإن الآلاف من القبلات لتحيينى ، قبل أن يغمر الظلام هذه الروابى» .

ثم كان اللقاء فى هيدلبرج ، فاستمر يومين من أروع الأيام : سطعت فيهما بالنهار شمس الخريف الوديعة وداعة أقرب ما يكون إلى الحزن ، وتجلى فيهما بالليل البدر ، وقد أرسل أشعته العذبة الفضية على القصر العتيق ، يستوحيه أسرار المصير وسياق الزمان ، وعلى نهر النكر البديع تحت الجسر ، فيخفق النهر كما يخفق القلب العاشق حين يلمسه صدر الحبيب . فيوحى هذا كله إلى الشاعر بقصيدة من أروع قصائد حياته الشعرية كلها ، فيقول عن « اللقاء » بعد الفراق : « أهذا ممكن ، يا كوكب الكواكب ، أن أضمك إلى قلبى من جديد ! أواه يا ليل الفراق من هاوية ، ويا له من ألم ! أجل ، أنت أنت شريكتى العذبة فى النعيم ! إنى لأتذكر آلامى الماضية ، فأقشعر فزعاً من الحاضر . . . وهكذا طرت إلى ثغرك على أجنحة الفجر الوردية ، وهاهو ذا الليل الزاهى بأضواء نجومه يحكم ما انعقد بين كلينا من رباط ويوثقه أشد التوثيق؛ فنحن على الأرض مثل فى السراء والضراء ، ولن تستطيع كلمة الحضرة : كن ! أن تفرق بين كلينا من جديد » .

— ٤ —

جيته والدين

الواحد والمتعدد ، والثابت والمتغير ، هما المحوران اللذان حولهما دار التفكير العالى فى الوجود الظاهر دائماً وسيدور ، وهما قطبان قويان متنافران ، ولكنهما مع ذلك متلازمان متوازنان ، فالقضاء على أحد القطبين فيه نوع

من القضاء على القطب الآخر فى نفس الآن . ولا بد لكل نظرة فى الوجود الحقيق إذاً أن توفق بين الاثنين ، إن كان قد قدر لها من النجاح نصيب ؛ لكن هذا التوفيق لن يكون بالتضحية بواحد من الطرفين ، فليس ثمة فى التضحية شيء من التوفيق ؛ إنما يكون التوفيق بتوكيدهما معاً ، مع وضع الاثنين فى سلم من التصاعد .

وجيته قد حاول التوفيق فى كل نوع من هذين النوعين من أنواع التنافر عن طريق ما سماه باسم « الظاهرة الأولية » Ur phanomen ، وهى تلك التى تتمثل فيها أمام أعيننا فكرة الصيرورة صافية خالصة ؛ والأداة لإدراك هذه الظاهرة فحسب ، بل الأحرى أن يقال إنها الأعين الباطنة . أو إن شئت فقل إن كلا النوعين من الأعين يتعاون فى هذا الادراك : فالأعين الظاهرة ترى جزيئات النبات المختلفة مثلا ، وحينئذ تقوم الأعين الباطنة بإدراك « الظاهرة الأولية » للنبات . أى صورة النبات الواحدة الثابتة فى أنواع النبات المتغيرة المتعددة . وهذا الادراك يبدأ من الكائنات المركبة فى الوجود العضوى أو الطبيعة الحية ، على حد تعبير جيته ، ويرتفع منها قليلاً قليلاً حتى يصل إلى هذا الوجود العضوى فى ذاته . فيدرك الوجدان فى ورقة الشجرة « الظاهرة الأولية » لكل الأعضاء النباتية ، وفى تحور النبات « الظاهرة الأولية » لكل صيرورة فى الوجود العضوى .

وليس بعد « الظاهرة الأولية » مجال للإدراك ، وإنما هى الحد النهائى الذى يجب على الإنسان أن يقف لديه . « إن الأوج الميسر للانسان بلوغه هو الدهشة ، فاذا ما أوقعته الظاهرة الأولية فى الدهشة ، فعليه أن يقتصر على هذا ويقنع ؛ لأن هذه الظاهرة ليس فى مقدورها أن ترتفع به إلى أعلى ، وليس له هو الآخر الحق فى أن يضيف إلى هذه الظاهرة شيئاً ؛ فعندها الحدُّ ، وعندها النهاية ! » .

عندها الحد ، وعندها النهاية ! أخلصنا إذاً من تعدد الجزئيات إلى وحدة الظاهرة الأولية لـكى تقع فى نوع من التعدد جديد ، هو تعدد الظواهر الأولية ؟ أجل ، ولـكن لهذا التعدد وحدة هو الآخر ، لأن هذه الظواهر الأولية ترجع إلى جوهر واحد ، أستغفر الله ، بل الواجب أن يقال إنها جوهر واحد ، هو الوجود الحقيق كله .

وعن هذا كله عبر جيته أروع تعبير حين قالت الروح لفاوست : « فى تيار الحياة ، وفى عاصفة الأفعال ، أعلو وأهبط ، وأروح هنا وأغدو هناك : ميلاد وقبر ، بحر أبدى ، نسيج متغير ، حياة متوقدة ! هكذا أشتغل على نول الزمان الصاخب ، ناسجة ثوب الألوهية الحى » .

لـكن ما هذه « الألوهية » التى ليست ظواهر الحياة كلها غير نسيجها الحى ؟ أو نستطيع أن نسميها ، ونقول هى هذا أو ذاك ؟ هل نستطيع أن نحلل صفاتها ، ونعبر عنها بقول ما من الأقوال ؟ كلا ، « فمن ذا الذى يستطيع أن يسميه (أى الله) ويقول : انا أومن به ؟ ومن ذا يشعر به ويجرؤ على أن يقول : أنا لا أومن به ؟ » أجل ، لا يقدر أحد أن يقول إنى أومن بوجود الله ، « لأن هذا الذى يسع كل شىء ويحفظ كل شىء ، أليس هو الواسع الحافظ لك ، ولى ، ولذاته أيضا ؟ » . ويشبه هذا تماماً ما يقوله رلـكه : « لقد كان يبدو لى من القحة الطائشة — كلا ، ليس هذا هو التعبير الصحيح — لقد كان يبدو لى أ كبر خطيئة أن أقول : إنه موجود ، فـكأنى بهذا قد أرغمته على الوجود فىّ » . ولـكن هذا الشبه بين جيته وبين رلـكه شبه فى الظاهر فحسب ، أو نحن لا نستطيع أن نؤكد على وجه اليقين أن مقصد الاثنين من هذا القول المتشابه واحد ، ذلك لأنه إذا كان رلـكه يعتبر من الوقاحة والطيش ، بل وأ كبر خطيئة ، أن يقول الإنسان إن الله موجود ، فذلك لأن الله عنده ليس

« موجوداً » . بل « سيوجد » ، أى أن الله عنده إله تاريخى ، إن صح هذا التعبير ، فلا يستطيع أن يتصوره ثابتاً ، بل متطوراً صائراً . أما جيته فالله عنده هو الكل ، ولسنا نحن غير أجزاء فى هذا الكل ، فكيف يحق لنا إذاً أن نقول : نؤمن بوجوده ، لأن هذا معناه أننا نحتويه فى نفوسنا ، مع أنه هو الذى يحتوينا ويسمعنا ، باعتبارنا أجزاء منه ، ولكن لعل جيته أن يكون قد قصد أيضاً إلى ما قصد إليه رلكه ، فنظريته فى الوجود الحى ، وفى الله باعتباره الوجود الحى كله ، تؤيد مثل هذا التفسير . لأن الوجود الحى عنده تغير وصيرورة ، فلا سبيل للتحدث عن الله إذاً فى لغة الثبات والوجود المتحجر الميت .

ويتنافى مع طبيعة الصلة التى بيننا وبين الله أن نسميه ، لأن هذه الصلة . كما سنرى بعد حين قليل ، هى صلة التسليم ، بينما التسمية معناها السيطرة من جانب من يُسمى على الشيء الذى يسميه فإذا سميت الشيء باسمه، فانك تريد بهذا أن تحظى بسلطان عليه ، كما قال اشبنجلر . فكأن الصلة إذاً بين المسمِّى والمسمَّى هى صلة السيد والمسود، صلة المسيطر والخاضع ، أى أنها النقيض تماماً، للصلة بين العبد والله ، والتى هى صلة التسليم والخضوع من جانب العبد نحو الله . وعلى هذا النحو نستطيع أن نفسر قول جيته : إن واحداً من الناس لا يستطيع أن يسمى الله باسمه .

ولكن إذا لم يكن فى استطاعة الانسان أن يقول إنى أومن بالله ، فهل يجوز على أن يقول : إنى لا أومن به ؟ كلا ، كلا ! فإن قلوبنا عامرة بالشعور بما فى الوجود الحى من أسرار . فما عليك إلا أن « تملأ قلبك من هذا كله ، مهما يكن من عظمه واتساعه ، حتى إذا ما وجدت النعيم فى هذا الشعور ، فأطلق عليه ما تشاء من الأسماء . سمه السعادة ! القلب ! الحب ! أو سمه الله ! فليس ثمة

هذا من اسم ! فالشعور هو كل شيء ، وما الاسم إلا ضوضاء فارغة ، وبخار قاتم يكسو بالظلمة نور السماء » .

الشعور إذاً هو كل شيء ، ولكن ما طبيعة هذا الشعور ؟

هذا الشعور هو « التسليم » . « فى طهارة أرواحنا تجيش رغبة قوية حارة فى أن نُسْلِم أنفسنا ، مختارين طائعين ، يحدونا الحمد والشكر ، لموجود غير معلوم أعلى وأطهر ، مفسرين لأنفسنا عن هذا الطريق هذا الأزلىّ الأبدىّ الذى لا اسم له . وتلك هى التقوى » .

وهذا التسليم هو الحب ، هو رغبة المتعدد فى أن يفنى فى الواحد ، ونزوع النسبى إلى الغرق فى المطلق ؛ هو الشوق إلى الاتحاد بعد الابتعاد ، والاتصال بعد الانفصال . وكل شيء فى الوجود نحو هذا الاتصال ، وذلك الاتحاد والفناء ، لأن هذا هو الغاية من الوجود .

وإلى بيان هذا قصد جيته من هذه القصيدة الرائعة من قصائد « الديوان الشرقى » الموسومة باسم « لقاء » ، فجعل من التقاء حاتم بزليخا ، بعد فراق مؤلم طويل ، رمزاً لغاية كل ما فى الكون من وجود . فهاهو ذا حاتم وقد أخرجته الدهشة عن طوره . حينما رأى نفسه يضم إلى قلبه زليخا من جديد . أيصدق ما تراه عيناه ؟ أحقاً تلك زليخا ؟ أجل هى هى ، أجل هى قسيمته فى النعيم ، وشريكته العذبة العزيزة . أنّى له هذا ؟ وإن نفسه لتمتلئ قشعريرة مما يراه الآن ، حينما يستعيد فى ذاكرته ما عاناه فى الماضى من آلام ، آلام الانفصال والبعاد ؛ ألا إن ليل البعاد لكالهاوية ، بل أشد منها ألماً وأكبر كثيراً .

أنّى له هذا الاتحاد والالتئام من جديد ؟

ذلك هو قانون الوجود ، وما التقاء حاتم بزليخا إلا حالة من حالات هذا القانون . فلقد كان الكون راقداً فى حضن الألوهية الأبدى ، حتى انتشى الله بنشوة أثارت فى نفسه لذة للخلق جليلة سامية ، فأمر بأن توجد

(٣)

الساعة الأولى ، فقال كلمة الحضرة : «كُنْ ! » فترددت آهة أليمة ، حينما انقذف الكون إلى الوجود فى قوة وألم . وبدا النور ، فانفصلت عنه الظلمة جَزِعَةً خائفة ، وسرعان ما فرت العناصر ، وتشتتت بدداً ، وصارت طرائق قِدداً ، إذ اندفع كلٌ متخذاً سبيله بقوة فى الفضاء حتى هبط كتلة هامدة فى المكان السحيق ، دون ما رغبة ولا ضوضاء . فكان صمت عميق ، وكانت وحشة ، وصار الله وحيداً لأول مرة ، فأخذته الشفقة من هذه الوحشة المخيفة فى هذا الكون المشتت الموزّع الذى أظله الموت بجناحيه المخيفين ، فخلق الفجر مزيجاً من النور والظلمة ، وسُلّماً من الألوان متدرجاً تبعاً لقوانين الأعداد . وهذا الفجر هو رمز الانقباض والانبساط فى الكون ، والانقباض والانبساط هما الحياة . وهكذا وُجدَت فى الكون نزعة إلى الاتحاد ، أى وُجد الحب ، فأمكن من جديد أن يحب المنفصلُ ما عنه انفصل . فاندفعت الموجودات ، فى لهفة وإسراع ، كلٌ يبحث عما كان به متحداً ، وكانت قشعريرةُ حب رائعةٌ تتردد فى أنحاء الكون ، فتتداعى بها عناصر الوجود ، فيتحد كل بأخيه ، حريصاً كل الحرص على هذا الاتحاد . وهكذا شأن حاتم مع زليخا : فقد جُذب إلى ثغرها العذب الجميل طائراً على أجنحة الحب الوردية ، وصارت له وصار لها إلى أبد الآبدين ، فلن يفرق بينهما من جديد «كُنْ ! » أخرى .

وتلك هى الظاهرة الأولية للدين ، فهى نزوع المتعدد إلى الاتحاد بالواحد ، أو نزوع الفرد إلى الفناء فى الله . ولغة هذا النزوع أو المظهر الذى فيه يتحقق ليس القول ، بل الصلاة ؛ وهذه الصلاة لا ألفاظ لها ، وإنما هى ، على حد تعبير جيته ، صلاة عقلية . ولكنها تدفع مع ذلك إلى القول . وفى هذا يكمن الخطر عليها ؛ لأن القول لا يستطيع أن يعبر عن الظاهرة الأولية للدين فى طهرها وصفائها ، وشدتها وامتلائها . كما أنه يحيل التجربة الروحية الدينية ، التى هى تجربة حية : أى فى تطور وصيرورة مستمرة ،

إلى شيء ثابت متحجر ميت . فالتجربة الروحية ابنة اللحظة التي يعانيها المرء فيها ، بينما القول يجعلها خارجة عن الزمان وعلى الزمان . وفى هذا المعنى يقول نوفالس : « الصلاة فى الدين كالتفكير فى الفلسفة . فالصلاة هى التدين . . . والحاسة الدينية تصلى . كما أن عضو التفكير يفكر » .

والأديان على اختلافها ليست غير محاولة لتحقيق هذه الظاهرة الأولية ؛ فهى فى غايتها وفى جوهرها واحدة ، وإنما لغة التعبير عن هذا الجوهر وتلك الغاية التى تختلف بين الدين الواحد والدين الآخر . فلننظر إلى الأديان المختلفة نظرتنا إلى أنواع النبات المختلفة : أى لنحاول أن ندرك فى كل منها الظاهرة الأولية للدين ؛ وليست تعنينا بعدُ الصورُ المختلفة التى تظهر عليها فى كل دين من الأديان ، والأسماء التى يطلقها عليها أصحاب كل دين : « فما الاسم إلا ضوضاء فارغة ، وبخار قاتم يكسو بالظلمة نور السماء » ، الذى هو الظاهرة الأولية للدين . وها هو ذا جيته الشيخ العجوز يعبر عن هذا كله فى دقة ووضوح فيقول : « ليست الدعوة الدينية من شأنى ، ولكنى كنت أبحث دائماً وبكل إخلاص عن الوحدة الدينية ، ولم أجد فى تاريخ العالم كله من يوم أن خلق ديناً أستطيع أن أعتنقه اعتناقا تاماً . وهأنذا أسمع فى أواخر أيامى ، عن شيعة متوسطة بين الوثنيين واليهود والمسيحيين ، قد أعان أصحابها أنهم على استعداد لأن يقدروا ويعجبوا ويقدسوا كل ما يصل إلى علمهم من كمال وسمو ، بل وأن يعبدوه فى الحال التى يكون فيها ذلك السمو والكمال قريباً من الألوهية . وهكذا ينبثق أمام ناظرى من الزمان المظلم السحيق شعاعٌ من السرور العميق ، لأنى أشعر أنى قد حاولت جهدى طوال حياتى أن أصف نفسى بوصف هؤلاء » .

أجل ، ظل جيته طوال محياه يسعى باحثاً عن الظاهرة الأولية للدين فى الأديان المختلفة التى وصل إلى علمه شىء عنها . فأقبل عليها جميعاً فى سَعة من العقل وخصب من الخيال وفسحة فى أفق الفكر ، معجباً بما فيها كلها

من طهارة وسمو وكمال ، متغنياً برموزها وطقوسها وتهاويلها وتصوراتها ، واصفاً تجاربها الروحية السامية ، جامعاً بين هذه التجارب وبين التجارب التي عاناها في حياته الروحية الخاصة ، فكانت روحه مليئة بالمشاركة الوجدانية فيما بينه وبين العواطف السامية في هذه الأديان . وكان خياله الشعرى خصباً في ابتكار الرموز الدينية أو صوغها من جديد في صيغة فتانة رائعة . وهنا يجب أن نوضح الغرض الحقيقي الذى قصد إليه جيته من وراء تصوير هذه الرموز الدينية . فإن جيته لم يكن كدانته شاعراً دينياً ، يرمى من وراء الرمز إلى المغزى ، ومن وراء المثل الجزئى إلى الكلى العام ، وإنما كان شاعراً خالصاً يقصد بالرمز إلى الرمز نفسه لا إلى شيء وراءه ، وبالجزئى الخاص إلى الجزئى الخاص ، لا إلى الكلى العام . وغايته من هذا التصوير أن يُمتِّع حاسَّته الفنية ويشبع غريزته الجمالية ، مع التعبير في نفس الآن عن تجاربه هو الروحية الخاصة ، أو عن تجارب روحية يود لو حييها في مملكة خياله الشعرى ، لأنه لم يستطع أن يحياها في واقع حياته . وعلى هذا النحو يجب أن نفسر وصفه للرموز الدينية في « الديوان الشرقى » ، مثل وصفه للجنة كما وصفها الإسلام ، وعرضه لقصة أهل الكهف كما وردت في القرآن ، بيانه لتمجيد المجوس للعناصر الطاهرة .

و « الديوان الشرقى » أعظم وثيقة عبر فيها عن موقفه بإزاء الدين والأديان ، فيما عدا تراجمه الذاتية . ففيه جال جولات ، طويلة حيناً ، قصيرة حيناً آخر ، في ميادين أربعة أديان من الأديان الكبرى ونعنى بها : اليهودية والمسيحية والإسلام والمجوسية . وطبيعى أن يكون نصيبُ الإسلام من بين هذه الأديان جميعاً النصيب الأوفر في هذا الديوان ، لأن الديوان قد نشأ ، كما رأينا في الفصل الأول عن « جيته والشرق » ، تحت تأثير إسلامى خالص تقريباً ؛ ولهذا نرى الطابع الإسلامى غالباً على كل شيء فيه حتى القصص التى وجدت أصولها في المسيحية ووردت في القرآن ، لم يشأ

جيته أن يأخذها عن مصادرها الأصلية ، بل أخذها عن القرآن ، كما فعل في قصة أهل الكهف . ثم إن الإسلام هو الدين المميز الرئيسي للشرق القريب ، بينما المسيحية مثلا غربية أكثر منها شرقية ، فطبيعي إذاً أن تتجه عناية « الديوان الشرقي » إلى الدين الشرقي المميز الرئيسي ، وهو الإسلام .

ولطالما أظهر جيته إعجابه الشديد بالإسلام ، حتى اعتبره هو والتقوى شيئاً واحداً . وهذا واضح من تعريف جيته للتقوى ، وهو التعريف الذي أوردناه آنفاً . مما أدى به إلى أن يقول : « إذا كان الإسلام معناه التسليم لله ، فعلى الإسلام نحيا ونموت جميعاً » ، وإلى أن يقول مرة أخرى للمستشار فون ملَّر في ٢٨ مارس سنة ١٨١٩ : « إن التفويض والتسليم هما القاعدتان الحقيقيتان لكل دين ، وكذا الخضوع لإرادة عليا تسيطر على مجرى الأمور ، لا نستطيع إدراكها ، لهذا السبب نفسه ، وهو أنها فوق مدى عقولنا وإدراكاتنا . وفي هذا يتشابه الإسلام مع البروتستنتية أشد التشابه » . ولعل السبب في إعجاب جيته بالإسلام هذا الإعجاب الشديد ، إلى جانب فكرة التسليم ، ما رآه فيه من جانب إيجابي يميل إلى توكيد الفعل وتوكيد الحياة عن طريق الفعل ؛ ولهذا نراه في كتاب « الخُلد » من هذا الديوان لا يعنيه من بين الذين دخلوا الجنة من المسلمين غير الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله . فيصور النبي بعد موقعة بدر وقد وقف ، تحت سماء صافية مرصعة بالنجوم ، يؤبن الشهداء فيقول : ليبكِ الكفارُ موتاهم ، فقد ماتوا إلى غير رجعة ، أما أنتم معشر المؤمنين فلا تبكوا إخواننا ، لأنهم صعدوا إلى أعلى عليين ، في جنات النعيم . ثم يصف كيف دخلوا الجنة ، وكيف ينعمون فيها . وهنا يفصل جيته القول في وصف الجنة وصفاً دقيقاً كالوصف الذي ورد في القرآن ، وفي سورتي « الرحمن » و « الواقعة » على وجه التخصيص ، ونرى جيته مرة أخرى في هذا الكتاب نفسه يورد حديثاً عذباً شائقاً بين الحورية

الواقفة تحرس باب الجنة ، وبين الشاعر الذى يريد دخول الجنة ، والحورية لا تدع الشاعر يدخل إلا بعد أن تسأله هل هو يشبه المسلمين الحقيقيين الذين استحقوا الجنة بجهادهم فى سبيل الله ، فتقول له : « أأنت من بين هؤلاء الأبطال ؟ أرنى إذاً جراحك التى تنبئ عن المجد والشرف ، وأنا أدخلك الجنة » . فلن يشفع للشاعر فى الدخول إذاً قصائده وأغانيه ، وإنما الشفيع جراحه وما أصيب به من طعنات ، فلا يسعه إلا أن يكشف لها عن جراحة فى معارك الحرب ، وإن كان لا ينسى أيضاً أن يكشف لها عن جراحه فى معارك الحب !

— ٥ —

جيته وحافظ

لحافظ من التأثير والشهرة فى الغرب حظ لا يدانيه فيه إلا الخيام من بين شعراء الشرق أجمعين

فقد عرفته أوربا فى القرن الثامن عشر ؛ وما كادت تعرفه حتى أعجبت به ، وتوفرت بلدانها الرئيسية على العناية بآثاره ؛ وأقبل شعراؤها يستلهمونه ويتأثرون كل ما يتغنى به ، حتى كان فى وعيهم الصورة العليا للروح الشرقية كما تخيلت إلى نفوسهم فى ذلك الحين . فالإنجليز قد عرفوه خصوصاً فى الهند ، حيث كان لا يزال له فيها عبير منتشر ؛ وطبع ديوانه فى مدينة كلكتا فى سنة ١٧٩١ على الطريقة الأوربية ، فكان من أوائل الكتب التى طبعت على هذا النحو فى الهند . وكانت لهم هنا الأسبقية ، كما كانت كذلك بالنسبة إلى الخيام بفضل ترجمة فتزجرالد الرائعة لرباعيات هذا الأخير . ثم عنى به الفرنسيون ، ورائدهم فى هذا مؤسس الاستشراق

الحديث ، البارون سِلْفستر دى ساسى ، الذى كان رائداً فى كل فرع من فروع الدراسات الشرقية تقريباً ؛ فاهتم خصوصاً بالترجمة لحياته ، معتمداً على كتاب دَوْلَتْشاه فى تراجم الشعراء الفرس وفقاً لزمانهم ، أى بحسب الترتيب التاريخى . وقد نشر بحثه هـذا فى « الحواشى والمستخلصات » Noticeset Extraits (ج ٤ ص ٢٣٨ وما يليها) .

أما الألمان فقد اتخذت صلتهم بحافظ نفس المظهر الذى كان لهم فى صلتهم بالشرق القريب ، أعنى أنهم عرفوه عن طريق الأتراك . ولما كانت الصلات القوية بين الألمان والأتراك هى تلك التى بين النمسا وتركيا ، فقد عنى به النمساويون أولا من بين الألمان ، ففهموا حافظاً كما تصورته الآداب التركية ، واعتمدوا على الشرح العظيم الذى قام به سُودى على ديوان حافظ ؛ وهو شرح استمر يدرس فى تركيا طوال العهد العثمانى حتى تركيا الكمالية ، وطبع مراراً عدة طوال القرن الماضى[1] . فعلى أساس هذا الشرح قامت ترجمة يوسف فون همّر (فى جزئين ، سنه ١٨١٢) ؛ كما قامت على أساسه من بعد الترجمة التى تفضلها فى الجمال والدقة ، ألا وهى ترجمـة فنسنتس فون روزنتسفيج شفناو **Vincenz von Rosenzweig Schwannau** (مع نشرة للنص الفارسى فى مواجهة الترجمة الألمانية ، وقد

---

(١) أحسن هذه الطبعات للشرح الكامل هى طبعة بولاق سنة ١٢٥٠ هـ = سنة ١٨٣٤ م ؛ وعلى هامشها كل المواضع التى نقد فيها سُودى تفسيرات شمعى وسرورى الصوفية .

كما أن نشرة هرمن بروكهاوس **Hermann Brockhaus** سنة ١٨٥٤ — سنة ١٨٥٦ تقوم على هذا الشرح ، أى على النص الوارد به لديوان حافظ ؛ كما أنه يورد شرح سودى على الثمانين غزلا الأولى .

وقد صار هذا الشرح عمدة لا غنى عنه لكل ناشر لنص الديوان ، إلى جانب النشرة الطهرانية الجديدة التى قام بها سيد عبد الرحيم خلخالى فى طهران سنة ١٣٠٦ هـ = سنة ١٩٢٨ م ، اعتماداً على مخطوطة كتبت سنة ٨٢٧ هـ = ١٤٢٣ م ، أى بعد ٣٥ سنة من وفاة حافظ ، ولذا تعد أول مخطوطة لدينا عن ديوانه وأكبر المخطوطات قيمة .

ظهرت في ثلاثة أجزاء في ڤينا سنة ١٨٥٦ — ١٨٦٤) .. وكان الأتراك قد عنوا بحافظ أكبر عناية ، منذ أن بدأت حضارتهم الروحية في الظهور في القرن الخامس عشر . فالشاعر الأستاذ الوزير أحمد باشا — خوجة محمد الفاتح ووزيره — وبه يبدأ العصر الثاني للشعر العثماني (حوالى سنة ١٤٥٠) ، قد تأثر بحافظ في شعره إلى درجة المحاكاة والتقليد ؛ والسلطان سليم الأول يقلد حافظاً أيضاً في ديوانه[١] . كما أن الشاعر الغنائي العثماني الكبير ، باقي (١٥٢٦ — ١٦٠٠) ، قد سار هو الآخر في إثر حافظ .

بدأت أبحاث الألمان حول حافظ بترجمة الكونت ك. ا. رِفِتْسكي كثيراً من غزليات حافظ إلى اللغة اللاتينية في أوزان هوراسية[٢] . وتلاه العمل الضخم الرائع الذي قام به يوسف فون همّر ، الذي ترجم ديوان حافظ كله إلى الألمانية ، مستعيناً بشرح سودى كما ذكرنا . وعلى الرغم من أن هذه الترجمة ضئيلة الحظ من الرشاقة ، نظراً إلى محاولة المترجم أن يقلّد الصنعة اللفظية الموجودة بالأصل ، فإنه كان لها أخطر الأثر في نشر تأثير حافظ في أوربا عامة ، وألمانيا خاصة . كيف لا ، وهي التي بواسطتها عرف جيته حافظاً ، وبواسطة جيته انتشر ذكر حافظ وتأثيره في سائر أوربا .

ومن ذلك الحين والعناية بحافظ عند الألمان لا تعدلها عنايتهم بأي شاعر

---

(١) نشر هذا الديوان نشرة فخمة پَوْل هورن Paul Horn سنة ١٩٠٤ بناء على طلب القيصر ڤلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا السابق ، كهدية إلى السلطان عبد الحميد .

وقد كان السلطان سليم الأول ، فاتح مصر وسوريا ، شاعراً ممتازاً ؛ راجع مقالا لپول هورن هذا بعنوان : « الشاعر السلطان سليم الأول » ، في مجلة الجمعية المشرقية الألمانية ZDMG ، ج ٦٠ (سنة ١٩٠٦) ص ٩٧ — ص ١١١ .

(٢) كارل امرش جراف رفتسكي : « باقة من الشعر الفارسي الممتاز ، أو غزليات محمد شمس الدين المعروف بحافظ ؛ وهي ست عشرة قصيدة من مستهل ديوانه ، مترجمة إلى اللاتينية لأول مرة مع شروح وتعليقات ، ڤينا سنة ١٧٧١ .

Karl Emerich Graf Revitzky : Specimen poeseos Persicae sive Muhammedis Schems - eddini notioris agnomine Haphyzi Ghazalae, sive Odae sexdecim ex initio Divani depromptae, nunc primum latinitate donatae, cum metaphrasi ligata et soluta, paraphrasi item ac notis. Vindobonae, 1771.

شرقي آخر . فقد جاء فريدرش ريكرت Fridrich Rückert وهو فى الثلاثين والكونت أوْجُسْت پلاتن August Platen وهو فى الثانية والعشرين فوجها إلى الشعر الفارسي عامة ، وحافظ خاصة أكبر اهتمام . فدرسا من أجله الفارسية وتعمقا ، خصوصاً ريكرت ، آدابها . ولكن كليهما كان كجيته شاعراً ممتازاً خالقاً : لذا لم ينتجا آثاراً فيلولوچية كآثار فون همّر : من ترجمة أو نشر . بل أقبلا على حافظ بتأثرانه فى شعرهما ، كما تأثره جيته من قبل ، فنسجا على غرار « الديوان الشرقى » . أما ريكرت فقد أخرج فى هذا الباب وفى أدب الشرق عموما : « أطوار أبى زيد السروجى أو مقامات الحريرى »[١]، وقد تأثر فيها « مقامات » الحريرى ؛ ثم استخلص من الشاهنامة قصة « رستم وسُهْراب » ؛ فضلا عن اشتغاله بالآداب الهندية مما يظهر من كتبه : « نال ودامايانتى » المأخوذة من الملحمة الهندية الكبرى « مهابهرته » ؛ ثم « حكمة البرهمى » . وكلها ظهرت فيما بين سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٩ فى ستة مجلدات ، تتضمن عشرين كتاباً . وفى ترجمته للشعر الشرقى ، وبخاصة الفارسى ، قد حاول أن ينسج على منوال نظمه فى اللغة الأصلية ، ملتزما فى القوافى والفِقَر والأوزان ما وجده فى الأصل . أما عنايته بحافظ فقد بدت فى أطوار متعددة من حياته المليئة ، خصوصاً فى إبان وحدته ، فأخرج ترجمات حرة أو بالأحرى تقليدات لغزليات حافظ ، وفقاً للوزن والقافية وطريقة توالى الفقر التى توجد فى ديوان حافظ . ولكن هذه المحاكيات لم تظفر بنجاح ملحوظ إبان حياته ، إنما انصرف الألمان إلى شعره الخاص ؛ فنشرت بعد وفاته[٢] .

---

(١) *Verwandlung des Abu Said von Serug, oder die Makamen des Harire; Weisheit des Brahmanen; Nal u. Damajanti; Rostem und Suhrab.*

(٢) نشرها پول دلاجارد . أما محاكيات غزليات ورباعيات حافظ فقد نشرها للمرة الأولى Symmicta ج ١ ، سنة ١٨٧٧ ، ص ١٧٨ — ص ١٩٨ . وقد نشرت أيضا فى « مخلفات ريكرت » ، التى نشرها ليوبولد هرشبرج Leopold Hirschberg ؛ كما أن هرمن كراينبورج Herm. Kreyenborg قد نشرها نشرة جديدة جيدة (الغزل وحده) بعنوان : « غزليات حافظ » *Ghaselen des Hafiz* منشن ، بلا تاريخ (سنة ١٩٢٦) .

أما پلاتن فقد أخرج هو الآخر غزليات[1] حاكى فيها حافظاً . وهو هنا إنما تأثر خصوصاً بريكرت ؛ وفيها تشيع روح يائسة كثيرة الأشجان والأحزان .

غير أن تأثير حافظ فى الشعر الغربى تضاءل بعد هذا شيئاً فشيئاً ؛ حظه فى هذا حظ تأثر الشعر الغربى بالشعر الشرقى عامة . فانتقل حافظ من ميدان التأثير المباشر فى الشعراء إلى ميدان الدراسات التاريخية والفيلولوچية . ومن أهم ما ظهر من هذه الدراسات فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل هذا القرن ، رسالة راسموسن[2] ، وهى رسالة قيمة ، ولكنها لم تؤثر تأثيراً يذكر ، لأنها كتبت باللغة الدنمركية . ثم جاء أخيراً هانز هينرش شيدر فألقى محاضرة[3] عميقة بعنوان : « النظرة فى الحياة ، والصورة الغنائية عند حافظ » ، فيها عرض فى شيء من التفصيل لحياة حافظ ، ثم لتاريخ تأثيره فى المغرب ، ثم تناول بالتحليل طريقة الصياغة الشعرية عنده ، محاولا دائماً أن يقارن بين جيته وبين حافظ ، فجاءت من أعمق ما كتب عن الصلة بين الاثنين .

---

(١) « غزليات » *Ghaselen* ، فى أربع سلاسل ، سنة ١٨٢١ — سنة ١٨٢٤ ؛ ثم « مرآة حافظ » *Spiegel des Hafis* سنة ١٨٢٢ . وله كتاب عن الدولة العباسية بعنوان : العباسيون *Die Abbassiden* سنة ١٨٣٥ . وقد نشر مجموع مؤلفاته سنة ١٨٣٩ . أما هو فقد ولد فى سنة ١٧٩٦ ، وتوفى سنة ١٨٣٥ .

(٢) هرلد راسموسن : « دراسات عن حافظ مع مقارنته بسائر الشعراء الفرس الغنائيين » ، كوبنهاجن سنة ١٨٩٢ **Harald Rasmussen : *Studier over Hafiz med Sideblik til andre persiske Lyrikere*, Kopenhagen, 1892.**

(٣) ألقيت هذه المحاضرة فى « جمعية علم الجمال وعلم الفن العام » فى برلين فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، ونشرها من بعد فى كتابه « تجربة جيته الروحية فى الشرق » ***Goethes Erlebnis des Ostens*** ، ليپتسج ، سنة ١٩٣٨ ، ص ١٠٥ إلى ص ١٢٢ ، مع الاستعانة برسالة الدكتوراه التى قدمها فى جامعة برسلاو بعنوان « دراسات عن حافظ » ***Hafisstudien*** سنة ١٩٢٢ .

وقد اعتمدنا فى هذا الفصل على هذه المحاضرة كثيرا .

أما عن فهم الغرب لحافظ ، فقد ترجح بين نزعتين : نزعة ترمى إلى تفسير حافظ كما يبدو من أقواله ، وأخرى لا تريد أن تأخذ بظاهر اللفظ ، بل تقول إن له معنى صوفياً باطناً فتفسر حافظاً هذا التفسير الصوفى الرمزى الذى نجده خصوصاً عند شراح حافظ من الشرقيين . وعلى رأسهم شمعى مسرورى ؛ والنزعة الثانية يمثلها فون همّر وأغلبية المؤرخين الفيلولوچيين الذين عنوا بحافظ . وبينما يمثل النزعة الأولى جيته بوجه خاص ، وفى إثره سار الشعراء الذين تأثروه وتأثروا حافظاً ، كريكرت وپلاتن .

فنحن هنا إذن ، فيما يتصل بحافظ ، بإزاء نفس الموقف الذى وقفه الناس من رُباعيات الخيام ؛ وإن كان الأمر أعسر بالنسبة إلى حافظ ؛ والمسألة كلها تتوقف فى نهاية الأمر على الذات المفسّرة ، وما تريد أن تفهمه من الذات الأخرى .

أما جيته فقد أعجبه فى حافظ ، كما فهمه : إقباله على السرور ، وعلى التمتع بكل ما تأتى به اللحظة الحاضرة واللحظة الماضية فى اللحظة الحاضرة ؛ كما استهواه فيه سخريته من الزاهدين العازفين عن الحياة ، فقال : إن شعره يفيض منه حيوية متدفقة فى غير إسراف ؛ سعيد حكيم ؛ يأخذ بحظه من مُتَع الحياة ؛ وينفذ من بعيد إلى طوايا الألوهية ؛ ولكنه ينكر اللذة الحسية ، وممارسة الشعائر الدينية . وبالجملة يكشف عن أثَر شاكٍّ ، وحُميّا قلقة ؛ وإلى هذه الصفة الأخيرة من الأثَر الشاك والحميا القلقة فى نفس حافظ يعزو جيته ما يشاهد فى شعر حافظ من تناقض . فعلى رأى جيته إذن ، يكون علينا أن نأخذ بما يقتضيه صريح كلام حافظ ، وألا نلجأ إلى التأويلات الخيالية التى تحيل الظاهر إلى باطن ، وكل صريح إلى رمز . وإن كان هذا لا يمنع من تعمق المعانى التى يوردها ، وعدم أخذ النص بحروفه ؛ فتلك مسألة أخرى لا تتنافى وهذا الفهم وَفْقاً للظاهر .

وعلى العكس من ذلك يميل أكثر الشراح الشرقيين من فرس وأتراك ، ثم نفرٌ من المتحمسين لحافظ فى الغرب تحمساً أعمى ، إلى رفض تفسير جيته هذا ، قائلين إن النعيم الذى يتحدث عنه حافظ هنا ليس النعيم الأرضى ، بل النعيم الخالد فى الفردوس ؛ والعشق الذى يشيد به هو العشق الإلهى المألوف عند كبار الصوفية . وتبعاً لهذا يُأوِّلون ظاهر النص تأويلا كبيراً لكى يتفق مع هذه النظرة : فالحب هو الحب الإلهى ؛ والخمر هى المعرفة بالأسرار الربانية ؛ والساقى هو الشيخ الهادى مريده فى معارج الطالبين ، إلى آخر كل هذه التأويلات التى ثار عليها جيته كل هذه الثورة فقال : « لقد لقبوك ، أىْ حافظ الأقدس ! ، باللسان الصوفى ، ولكنهم ، وهم العلماء بالكلام ، لم يفهموا قيمة كلماتك . إنك تسمى عندهم الصوفى ، لأنهم يفكرون فى شعرك تفكيراً أحمق ، ويقدمون خمرهم المُدنّسة باسمك أنت . حقاً إنك لصوفى ، ولكن لسبب واحد : هو أنهم لا يستطيعون فهمك ؛ أنت ، يا من أنت سعيد ، من غير أن تكون تقياً » .

ولم يكن جيته أول من ثار على هذا التأويل البعيد ؛ بل ثار عليه من قبل فى الشرق سُودى الذى أخذ على شرحى شمعى وسرورى أنهما مليئان بالتأويلات الوهمية والتفسيرات الرمزية الخيالية ؛ وسخر منهما مرّ السخرية مبيّناً أن حافظاً يجب أن يفهم كما هو فى صريح لفظه ، كما أن مسألة تفسير حافظ لم تكن من البساطة بحيث يمكن أن يقال إن الشرقيين قد أجمعوا أو كادوا على تفسير حافظ هذا التفسير الرمزى . بل كانت أشد تعقداً ؛ وكان الخلاف على أشده بين المؤيدين للتفسير بحسب الظاهر ، والقائلين بالتفسير الباطن إبان حياة حافظ نفسه ، حتى أخذ عليه شاه شجاع ، شاه شيراز وما حولها ، أنه يخلط فى شعره بين الحب الصوفى والحب الإلهى . ثم بلغ الخلاف أوجه فى العهد التركى ، حيث لقى شعر حافظ إقبالاً حافلاً فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، حتى ارتفعت أصوات

الكثيرين متساءلين عن التفسير الواجب أن يؤخذ به فى فهم شعر حافظ ؛ واتخذ هذا التساؤل صفة رسمية بأن رُفع الأمر إلى مفتى الإسلام فى ذلك الحين ، أبو السعودِ أفندى (المتوفى سنة ٩٨٢ هـ — سنة ١٥٧٤ م) الذى كان يتولى منصب الإفتاء فى عهد سليمان العظيم وسليم الثانى . فأفتى أبو السعود بأن فى الديوان إلى جانب ما هو خير ومقبول ، الكثيرَ مما هو قابل للطعن والتجريح ؛ وعلى كلٍّ أن يميز بين الطيب والخبيث فى ديوانه[1] وإلى هذه الفُتْوى يشير جيته فى القصيدة الثالثة من «كتاب حافظ» هـذا ، وعنوانها : «فُتْوى» . وقد عرف جيته أمرها مما أورده هَمَّر (ترجمة ديوان حافظ ، ج ١ ، ص لج) . وقد كانت فُتوى معتدلة فى الحكم ، جمعت بين كلتا النزعتين ؛ لهذا أشاد جيته بصاحبها ، فقال فى القصيدة التالية ، بعنوان : «الألمانى يشكر» ، والألمانى هنا هو جيته الذى يريد فى هذه القصيدة أن يشكر لمولانا أبى السعود عدالته فى فتواه : «أبا السعود ، أيها الولىّ الطاهر ، لقد أصبت شاكلة الصواب ! إن الشاعر فى لهفة إلى أمثال هؤلاء الأولياء !» .

والمشكلة التى أمامنا الآن من أخطر المشاكل التى لا يزال الجدال يحتدم حولها ، لا بالنسبة إلى شعر حافظ وحده ، بل وأيضا بالنسبة إلى أمثاله من شعراء الفرس ، وبخاصة السعدى والخيام ، ثم بقية الشعراء الصوفية فى أدبنا العربى خصوصاً ، والأدب العالمى بوجه عام . أما فيما يتصل بحافظ ، فيكاد الميل العام بين الباحثين اليوم من المستشرقين أن ينتهى إلى اعتبار حافظ جامعاً بين الناحيتين : الحسية الدنيوية ، والصوفية الربانية . فإدوارد براون ، مؤرخ الأدب الفارسى المشهور ، يقول فى هذا الصدد : «أما أن كثيراً من قصائد (حافظ) يجب أن تفهم بمعنى رمزى صوفى ، فقليل من الناس

---

(١) النص التركى لهذه الفتوى موجود فى معجم حاجى خلفا ، نشرة فليجل ، حـ ٣ ص ٢٧٣ ، تحت رقم ٥٣٧١ . ولكنه ملىء بالأخطاء . وسنوردها بعد قليل فى شرحنا للقصيدة .

هم الذين لهذا ينكرون ؛ وأما أن أخرى منها تعنى ما تقول ، وأنها تمجد جمالا غير الجمال السماوى ، وتتغنى بخمر غير الخمر الرمزية ، فهذا أيضا مما لا يدع مجالاً ظاهراً للشك ؛ وأما أنه ، على هذا النحو — وكما أخذ عليه شاه شُجاع — قد اختلط فيها الحِسّى بالروحى ، فهذا أمر لا يدهش أحد ممن يعرف عادات الفرس ونفسيتهم ونظراتهم فى الوجود : ففى وسع المرء أن يشاهد فى يوم واحد رجالاً منهم يتراوحون ، طيلة ذلك اليوم الواحد ، بين أن يكونوا مسلمين أتقياء ، وأحراراً غير مبالين ، وشكاكاً مقتنعين ، وقائلين بوحدة الوجود متصوفين ، أو حلوليين ظاهرين . . . وقارئ حافظ ، الذى لا يستطيع التميز بين ما يجب أن يفهم من شعره بحروفه وظاهر نفسه ، وبين ما يجب أن يؤول رمزياً ، يكاد لا يستفيد كثير من شارح يؤكد له فى غير حرج ويكرر باستمرار أن الخمر معناها الوَجْد الروحانى ، والساقى هو الخانقاه[1] » . كما يقول بهذا الرأى أيضاً هانز هينز شيدر فى محاضرته العميقة التى ذكرناها آنفاً . فيبدأ بأن يبين الوضع التاريخى للمشكلة ، فيقول إن الشعر الغنائى الدنيوى الفارسى قد تكوّن ونضج فى القرن العاشر الميلادى ؛ وفى القرن التالى ، إنضاف إلى صوره التى تكونت ورسخت ، صور من الشعر الشعبى الصوفى ، وخاصيته الرئيسية أن ينقل لغة الحب الدنيوى الحِسّى ، إلى الحب الإلهى الصوفى . وهذا التيار الثانى قد بلغ أوجه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فكوّن الصورة العليا للشعر الصوفى على يد فريد الدين العطار فى الشرق ، أى فى بلاد العجم الأصلية ، وجلال الدين الرومى فى الغرب ، فى مدينة قونيه فى بلاد الترك . ومن أكبر الشعراء أثراً فى هذا التيار محيي الدين بن العربى ، الذى أتى بالصورة النهائية فى

---

(١) ادواردج . براون : تاريخ الأدب الفارسى تحت حكم التتار ، ص ٢٢٩ ، سنة ١٩٢٠ Edward G. Browne, *A. History of Persian Literature under Tartar Dominion* . وفى هذا الكتاب فصل قيم ، يعد خير ما كتب عن حافظ (من ص ٢٧١ — ص ٣١٩) ؛ وقد اعتمد فيه خصوصاً على كتاب « شعر العجم » لشبلى نعمان ، بهندستانية ، طبع حجر سنة ١٩٠٧ ، فى جزئين ، ج ٢ ص ٣١٢ — ص ٢٩٧ .

الحضارة الإسلامية لمذهب غنوصي يقول بوحدة الوجود . أما التيار الأول فقد أخذ سبيله قُدُماً هو الآخر معتمداً على الصناعة الفنية ، مغالياً في التأنق في الشكل والصورة ، وبلغ درجة عليا قبل حافظ على يد شرف الدين السَّعْدى .

وهنا أتى حافظ فجمع في نفسه بين هذين التيارين ، مما جعل شعره يتسم بها معاً ، على الرغم مما أدى إليه هذا من خلط أخذه عليه معاصروه . ولكنه جمع بينهما في حرية فنية لا حد لها ؛ فتلاعب بالصورة ما وسعه التلاعب ، مخفيا بهذا كثيراً من مقاصده الدنيوية الحقيقة ؛ وترك الناس في حيرة من أمر شعره : هل يفسر كله تفسيراً صوفياً ، أو يفسر كله تفسيراً حسياً دنيويا ؟ أو هل يفسر البعض على النحو الأول ، والآخر على النحو الثاني ؟ وإذا كان هذا هو الوضع الصحيح ، فبأى مقياس نميز في القصائد بين هذا النحو أو ذاك ؟

وجيته قد رجّح الجانب الحسي : ولكنه أخذ حافظاً على أنه جمع بين الناحيتين ، وكان مزيجا من الصوفيه العميقة المُرَنِّقة في سماء الألوهية والربوبية ، وبين الحسية النافذة في أعماق الطبيعة الإنسية الأرضية . وهذا فعلاً ما استهواه في شعر حافظ . وهو أيضاً ما فهمه فريدرش ريكرت ، فعبّر عنه أروع تعبير في قصيدته التي يقول فيها : « إن حافظاً ، حين يبدو أنه لا يتحدث إلا عما هو غير حسي ، إنما يتحدث عما هو حسي ؛ وحينما يبدو أنه يتحدث عما هو حسي ، لا يتحدث إلا عما هو غير حِسّى إن سِرّه ليس بغير حِسّى ، لأن حِسِّيه غيرُ حِسّى »[1] .

---

(١) فريدرش ريكرت : « يوميات شعرية (لسنة ١٨٦٣) ، ص ٤٦٣ . وفي هذه القصيدة يقلد ريكرت ، كما في كل أشعاره المستلهمة من الشعر الشرقى الفارسى ، القوافى كما يلتزمها الشعر الفارسى بأن يكرر القافية في آخر كل بيت كما هى ، محاولا أن ينوع قليلا ، وبحسب ما تسمح به اللغة ، بين معان مختلفة شيئاً لهذه الكلمة الواحدة المكونة للقافية . ولهذا فإننا في ترجمتها قد كررنا الكلمة الأخيرة في آخر كل بيت ، كما هو محتفظين بصورة واحدة كما في الأصل .

ذلك رأى شيدر . وأخيراً جاء أرتور كرستنسن ، العالم بالإيرانيات الدنمركى المشهور ، فوضع المسألة وضعاً مخالفاً بعض الشيء لرأى براون وشيدر ، فقال : « إن ديوان حافظ ينتسب إلى روائع الأدب العالمى . فالصوفية قد نظروا إلى حافظ — الذى لقبوه بأنه « لسان الغيب » — على أنه هاديهم وقائدهم الأكبر ؛ وعلى العكس من ذلك كان شعر حافظ فى مجالى اللهو يتغنى به على صوت التار ونغمات الناى العراقى الحزينة وهو ينتسب إلى هؤلاء الشعراء الذين يمكن أن يفهموا بحسب الظاهر وحسب الباطن معاً ، والذين فهموا كذلك فى الواقع أيضاً . فإنه قد تغنى بكل ما تغنّى به الصوفية ولكن هذه الأشياء المعروفة ، مثل الحانة وغيرها ، قد أصبحت ثروة شعرية تقليدية : الحانة للدلالة على بيت التأمل والمجاهدة ؛ والمجوسى القديم هو رمز الرائد الروحى ، والساقى الذى يدعوه — الذى لم يكن فى مجالس الشراب الحقيقية امرأة ، بل فتى جميلاً — هو خرقة الصوفى ، التى ترهن للخمر . . أما مسألة كيف يجب أن يفهم حافظ ، فهى مسألة تعتبر مشكلة حقاً بالنسبة إلى مورخى الأدب الغربيين وحدهم . أما بالنسبة إلى الشرقيين ، فهى فى منتهى البساطة والوضوح ، لأنه من الطبيعى جداً عندهم أن يكون الشاعر قد « عنى » هذا وذاك : أى أنه جمع بين الشهوانية الأرضية والعشق الإلهى فى مزيج كان له ينبوع إلهام ، وأن النشوة من شأنها أن تكون قوة موحية ، سواء منها النشوة الناشئة عن الخمر أو تلك الصادرة عن الوجد والذُّكر »[1] . فكأن كرستنسن يحاول أن يحل المشكلة إذن على أساس أنه بالنسبة إلى الشرقيين ، لا فارق بين أن يكون الشاعر قد قصد كلا التفسيرين ؛ وإنما هى مشكلة فقط بالنسبة إلى الغربيين الذين يريدون أن يفهموا كيف يمكن الجمع بين الناحيتين : فالجمع فى نظرهم عسير ، وبالتالى أمره مُشكل ،

---

(١) أرتور كرستنسن : « مباحث إجمالية فى الحضارة الإيرانية ص ٨٨ ، كوبنهاجن سنة ١٩٣٧ **Arthur Christensen:*Kulturskitser fra Iran*** . وقد أوردنا ترجمتنا نقلا عن ترجمة شيدر الألمانية فى كتاب « تجربة جيته الروحية للشرق » المذكور آنفاً ، ص ١٧٧ .

أما فى نظر الشرقيين ، فطبيعي ، لذا لم يكن أمره مشكلة لديهم . ويلاحظ شيدر فى تعليقه على هذا الرأى أن الإيرانيين المثقفين يميلون اليوم إلى هذا التفسير الصوفى ، ويعزو هذا إلى انتشار الروح الدينية فى تلك الأوساط فى العشرين سنة الأخيرة .

فكأن آراء الباحثين تميل فى السنوات الأخيرة إذن إلى الرجوع إلى رأى جيته شيئاً فشيئاً . والحق أن هذا الرأى هو الأولى بأن يتخذ ، وذلك لعدة أسباب : حضارية ، وذاتية .

فمن الناحية الحضارية كان حافظ فى الواقع نقطة التقاء للتيارين اللذين أشار إليهما شيدر : التيار الصوفى الرمزى الذى يمثله العطار والجلال الرومى ، والتيار الثنى الصريح الذى يمثله السَّعْدى فجمع بينهما فى نفسه وكوّن تجربة روحية طريفة تشبه إلى حد ما تجربة الخيام . إلا أن الخيام كان أقل منه عمقاً ، وأكثر منه إيغالاً فى الشك والحسية ، لذا جاء شعره أظهر فى الدلالة على الناحية الحسية من شعر حافظ ؛ فلم يختلف فى أمره الناس كثيراً ، وما أثير فى هذا الصدد من أقوال تحاول أن تأخذ جانب التفسير الصوفى عند الخيام ، فمرجعه غالباً إلى نزوات عابرة عند باحثين متحذلقين يبتغون الابتداع والتجديد الزائف ، أو إلى عاطفة دينية عمياء متحمسة للخيام ، تريد الدفاع عنه بأية وسيلة . أما شعر حافظ فصادر عن نفس لم تعذّبها الحيرة إلا قليلا ، ولم تحفل ، بالتالى ، كثيراً بتبرئة نفسها ، لهذا جاء شعراً صريحاً : سواء فى تصوفه أو فى شهوانيته الحسية . وطبيعته مزيج من الناحيتين : الصوفية والحسية ، بعمق فى كلتيهما ، وهذا العمق فى الناحيتين معاً هو الذى يجعل أمر تفسيره شاذاً مشكلاً ؛ بعكس الخيام الذى كانت الناحية الصوفية عنده ، إن كانت قد وجدت حقاً ، فقيرة أو كالمعدومة . بينما طغت الناحية الأخرى ، ولكن فى أناقة ودقة روحية لا حد لها ، مما ارتفع بالناحية الشهوانية الحسية إلى مرتبة ممتازة تقرب بعض القرب من الناحية

الروحية ، لا كما فعل بودلير وأضرابه ممن ظلوا عالقين كثيراً بالمادة والطين ، أجل فى شىء من العمق الكثير الذى لم يتيسر الخيام ، ولكنه مع ذلك عمق ، أى نفوذ إلى أسفل ، وليس ارتفاعاً إلى الناحية الروحية الصوفية ، وإذا اعتبرنا بودلير يمثل نوعاً من الصوفية ، هى الصوفية إلى أسفل ، فإن حافظاً الشيرازى يمثل صوفية إلى أعلى ؛ والخيام فى مركز وسط بين كليهما . وكل هذا فى داخل الصوفية الحسية ، إن صح هذا الجمع بين المتناقضات . وهذا العلو فى مرتبة التصوف الحسّى هو الذى يقرّب كثيراً ، إلى درجة المزج ، بين الحِسيَّة والروحانية فى شعر حافظ : فهو فى الذروة العليا من الحسية التى تكوّن أيضاً الدرجة الدنيا للروحانية ؛ أو بعبارة أدق : هو فى القمة التى تلتقى عندها أرقى حِسيّة مع أعمق روحية ، فى وحدة مليئة بالتوتر والتناقض الخصب :

وهذه الدرجة هى بعينها التى نشاهدها عند جيته ، والتى تبينها هو فى حافظ ، فشعر بأنهما ينتسبان إلى نوع واحد ، وإن اختلفا كفردين يندرجان تحت هذا النوع الواحد . وهذا الاختلاف يكاد ينحصر فى أن جيته كان متأثراً إلى حد كبير بنزعة التنوير التى وجدت فى أواخر القرن الثامن عشر ، بينما لم يتأثر إلا بدرجة أقل بالنزعة الصوفية التى بدأت فى الظهور فى ألمانيا فى ذلك الحين على يد الرومنتيك وروّادهم من الفلاسفة مثل ياكوبى وهامان وشلنج . أما حافظ فلم يظفر بحظ يذكر — فيما نعلم عن ثقافته — من الناحية العقلية الفلسفية ، لذا كان اتجاهه الصوفى بارزاً أكثر من جيته . هذا فضلا عن سعة الأفق جداً فى هذا الأخير ، وضيقه شيئاً فى شعر حافظ . كما أن الروح الشرقية — بميلها إلى الخوارق والتهاويل والإخلاد إلى عدم الفعل وسيادة النزعة السلبية فيها ، وإغراقها فى الأحلام الذهبية البعيدة عن الواقع كل البعد — هى التى تفسر لنا خصوصاً الفارق الرئيسى بين جيته وبين حافظ : فجيته غربى أوربى ، وهو بالتالى تسوده إرادة هائلة

نزاعة إلى اللامتناهى ، تنشد المعقول والعلّية فى كل ما يرى حولها وما تراه أمامها ؛ وهذه الإرادة تدفعها أبداً إلى الفعل ؛ لذا تجعل الفعل والتحصيل الإيجا المحرّك الأول لحياة الإنسان ، بينما الروح الشرقية تجعل جانب الفعل والإيجاب عند حافظ ضئيلا كل الضآلة .

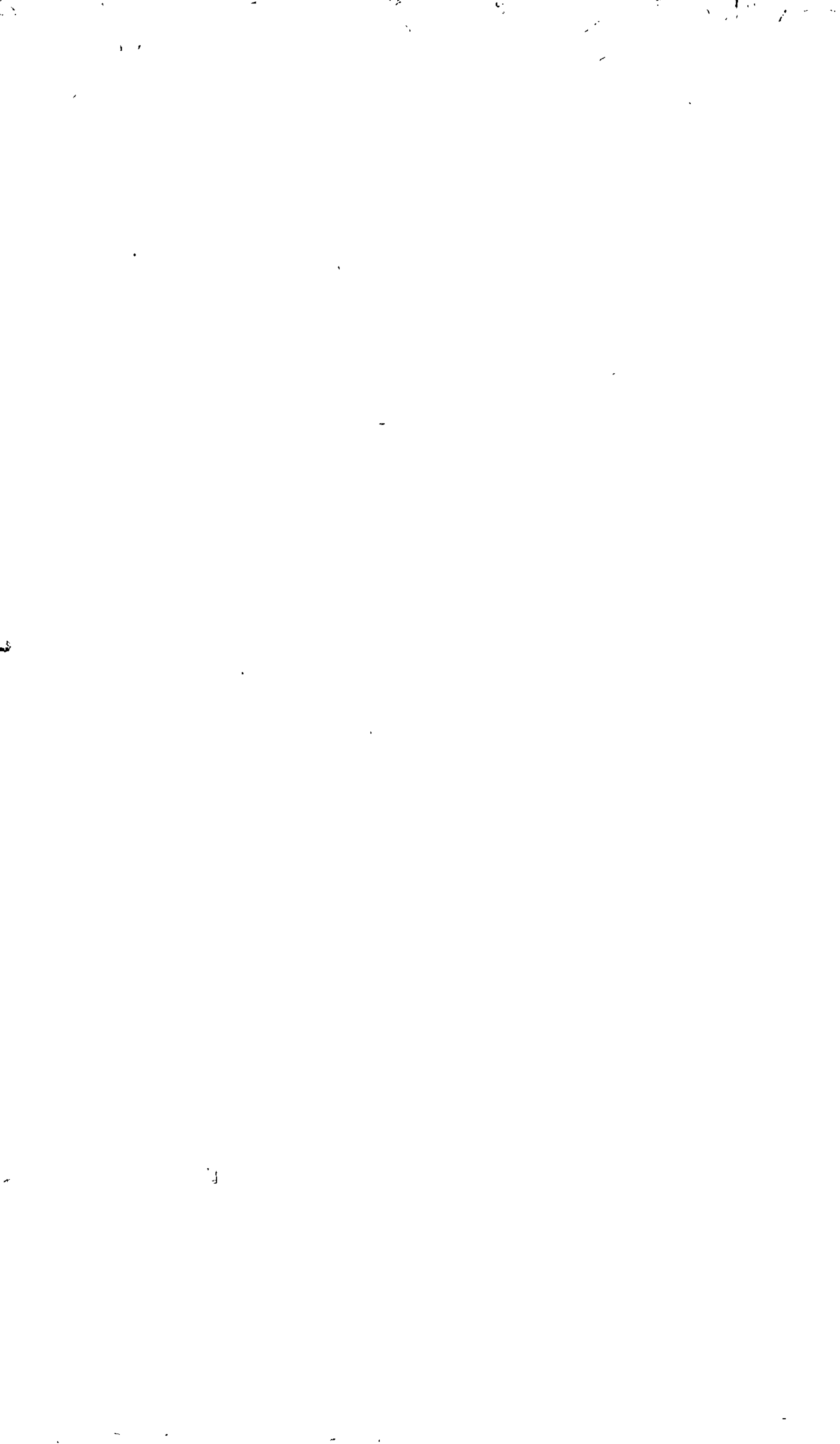
وهذا الفارق بين طبيعتى جيته وحافظ الشيرازى هو الذى جعل تفسير جيته لشعر حافظ يحمل طابع التوكيد والإيجاب والإشادة بنعم الحياة الملية الحسية . فإن كان حافظ لم يقصد إلى هذا بحذافيره ، فإن روح شعره العامة تعبر عنه . وتفسير جيته إذن هو التفسير الأعمق الأخلق بالاعتبار فى فهمنا لحافظ . فضلاً عما فيه من قوة دافعة هائلة هى ما يجب أن ننشده فى كل شعر جدير باسم الشعر حقاً .

صيف سنة ١٩٦٦ — عبد الرحمن بدوى



الديوان الشرقى للمؤلف الغربى

ليوهان ڤلفجانج جيته



مغنى نائم

كتاب المغنى

أمضيت من عُمرى مَدى ،
متعت فيه بما تيسّر ؛
عهدَ جميل قد حكى
عهد البرامكةِ المنضّر

— ١ —

هجرة

الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر ،
والعروش تُثَلّ والممالك تتزعزع وتضطرب ،
فلتهاجرْ إذنْ إلى الشرق الطاهر الصافى
كى تستروح جوّ الهُداة والمُرْسلين ؛
هنالك ، حيث الحبّ والشُرْب والغناء
سيعيدكَ ينبوعُ الخِضْر شاباً من جديد .
إلى هنالك حيث الطهر والحق والصفاء ،
أودّ أن أقود الأجناس البشرية ،
حتى أنفذ بها إلى أعماق الماضى السحيق
حين كانت تتلقى من لَدُن الرّب
وحىَ السماء بلغة الأرض ،
دون تحطيم الرأس بالتفكير ؛

هنــالك ، حيث كان الآباء يُقَدّسون ،
وعما يتقدم به الغريب من خدمة يمتنعون ؛
أجل ، هنــالك أودّ التملّى بحدود الشباب :
فيكون إيمانى واسعاً عريضا وفكرى ضيقاً محدودا
وأود أن أتعلم كيف نقــدّس الكلمات ،
لا لشىء إلا لأنها كلمات فاهت بها الشفاه .

وفى يمينى أن أدخــل فى زمرة الرعاة ،
وأن أجــدد نشاطى فى ظلال الواحات
حين أرتحــل فى رفقــة القافــلة
متجراً فى الشــيلان والبن والمِسْك
وفى عزمى أن أسلك كل ســبيل :
من البادية إلى الحضر ، ومن الحضر إلى البادية

أىْ حافظ ! إن أغانيك لتبعث السلوى
إبان المسير فى الشّعاب الصاعدة الهابطة
حين يُغنى حادى القوم ساحر الغناء ،
وهــو عــلى ظهــر دابتــه
فيوقظ بغنــائه النجوم فى أعلى السماء
ويوقع به الرعب فى نفوس الأشقيــاء
وإنه ليحلو لى ؛ أى حافظى الأقدس ، أن أحيى ذكراك
عند الينبوع الصافى ، وفى حانات الصهباء .
وحين تكشف المحبوبة عن نقابها قليــلا
فيفغو منه مهتزاً ، عبيرُ المسك والعنبر .

أجل ! إن ما يهمس به الشاعر من حديث الحب ،
ليحمل الحور أنفسهن على أن يعشقن .
فإن شئتم إلا أن تحسدوا على الشاعر هذا الحظ
أو أن تحرموه منه وتعكرون صفوه عليه ،
فاعلموا إذن أن كلمات الشاعر وقوافيه
تحلق دائماً ، دائماً ، وهى دائماً فى تحليق ،
قارعةً أبواب الفردوس بهمْس وهدوء
ناشـدةً لنفسها حيـاة خالدة .

كتاب المغنى : هذا الكتاب يكوّن مع «كتاب حافظ» التالى كتاباً واحداً ، كما هى الحال كذلك بالنسبة إلى «كتاب العشق» مع «كتاب زليخا» . وفى هذا الاسم محاكاة لأحد كتب حافظ الغزلية الذى يتلوه «كتاب الساقى» . ولكن «المغنّى» عند حافظ هو شخص يخاطبه مثل الساقى ؛ أما عند جيته فهو الشاعر نفسه الذى جعل مصيره وآماله وأغراضه موضوعاً لفاتحة هذا الديوان . وقد سمى جيته هذا الكتاب فى «تعليقاته» على الديوان أيضاً باسم «كتاب الشاعر» :

وجيته قد كتب تفسيراً لهذا الكتاب قال فيه : «إن الشاعر هنا يصوّر نفسه على هيئة رَحّالة . وها هو ذا قد بلغ الشرق . وهو يريد أن يتملّى بعوائد الشرق وأحواله ، وما به من موضوعات خاصة ، وما شاعت فيه من أفكار دينية وآراء ؛ إنه لا ينكر اتهامه بأنه مسلم حقاً . فى هذه الأحوال العامة نسج الشاعر موضوع قصائده ؛ والقصائد التى من هذا النوع تكوّن الكتاب الأول بعنوان «مغنى نامه» ، كتاب الشاعر» (مجلة الصباح للطبقات المثقفة ***Morgenblatt*** سنة ١٨١٦ ، رقم ٤٧ ،

ص ١٨٩ — مجموع مؤلفاته ، نشرة ڤيمار ، ج ٤١ ، ق ١ ص ٨٦) .

الشعار : راجع فيما يتعلق بمعرفة جيته عن البرامكة ما يقوله فى « التعليقات » (على الديوان) حيث يقول : « لهذا فإن أزهى العصور هو العصر الذى كان للبرامكة فيه النفوذ فى بغداد . وهم قد انحدروا من بلخ ؛ وكانوا حماة للمنشئات الثقافية أولى من أن يكونوا علماء ، فعنوا كثيراً بصيانة نار الشعر والبيان المقدسة ، كما استطاعوا أيضاً بما لهم من حنكة وخبرة بالحياة وجلال فى الخلق أن يحظَوْا بمرتبة سامية فى ميدان السياسة . لذا أصبح عهد البرامكة مثلاً : للعهد الحى القوى التأثير والطبيعة ؛ والذى لا يستطيع الإنسان ، بعد زواله ، إلا أن يأمُل بعد سنوات عدة أن يحظى بعوده من جديد فى أماكن بعيدة وتحت ظروف مماثلة » (راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب تحت عنوان « الخلفاء ») .

فكأن جيته يقصد إذن من هذا الشعار ، الذى يصلح أن يكون شعاراً للكتاب كله ، أن يقول إنه يود أن يحيا فى الشرق بروحه حياة قوية مليئة بالفعال ، كريمة الجوهر .

الهجرة : راجع ما قلناه بالتفصيل فى التصدير العام تحت عنوان : « هجرة جيته » .

وهذه القصيدة ، وكذلك القصيدة رقم ١٤ (« جرأة ») تحمل تاريخ : ڤيماره فى ١٨١٤/١٢/٢٤ .

أما الخِضْر فأخباره مَعروفة جيداً فى الروايات الإسلامية المتصلة بأخبار الأنبياء ؛ وأهميته كبيرة لأنه كان صاحب موسى الكليم كما ورد فى سورة « الكهف » من الآية ٥٩ إلى الآية ٨١ . وقد ورد ذكره فى هذه السورة مقروناً بذكر ذى القرنين ، ولهذا تذكر كتب قصص الأنبياء أنه

كان على عهد ذى القرنين ، وأنه كان « على مقدمته أيام مسيره فى البلاد ، وأنه بلغ مع ذى القرنين « نهر الحياة » وشرب من مائه ، –وهو لا يعلم به ، ولا يَعلمُ ذو القرنين ومن معه مَحِلّته ؛ فخلد ، وهو فى الحياة إلى الآن » (ابن إسحق الثعالبي : « عرائس المجالس » ص ٢٣٢ ، طبع مصر ، الزام الخصوصى) ومن هذا النص يتضح إذن أنه يُنسب إلى الخضر أنه شرب من « نهر الحياة » أو كما يسمى أيضاً (راجع الكتاب السابق ، نفس الصفحة) « عين الحياة » وأن هذه العين تكفل للشاربين منها الخلود والحياة الدائمة . لذا كانت هذه الفكرة ملهمة للصوفية وللشعراء الفرس ، خصوصاً حافظاً الذى جدد شبابه بكأس من ينبوع الخضر هذا (راجع مقدمة فون همّر لديوان حافظ ، ج ١ ض كج ، وص ١٥١ ، تعليق رقم ٣)

وجيته يصور نفسه هنا وكأنه قد استعاد شبابه بواسطة شرابه من ماء عين الحياة المنسوبة إلى الخضر هذه . وعملية تجديد الشباب هذه قد تمت بالنسبة إليه أولاً فى اغترابه الروحى إلى الشرق « الطاهر الصافى » ؛ وثانياً فى زيارته فى ذلك الوقت عهد طفولته وشبابه على ضفاف الرين والماين ؛

وهنا أيضاً نرى تأثر جيته ؛ إذ أن حافظاً قد تمثل له شيخ وقور معه زجاجة فى يده ، وهذا الشيخ هو الخضر ، وحارس عين الحياة ، الذى جاد عليه بالشرب منها ؛ ووعده الخلود فى الشهرة .

وفى قوله « هجرة » (وقد كتبها جيته بنطقها العربى فى رسمها الفرنسى) إشارة إلى النبى ، وبالتالى إلى الإسلام ؛ وفى قوله « الآباء » إشارة الى رجال العهد القديم من الكتاب المقدس وبالتالى إلى اليهودية ؛ وفى إشارته إلى الفردوس إشارة إلى الفردوسى ، الشاعر الفارسى الكبير ، وبالتالى إلى الديانة البارسية . وفى هذا كله أراد جيته التعبير عن تجربته الدينية التى كانت مزيجاً من الديانات كلها فى صورها الصافية (راجع المقدمة فى الفصل المرسوم بعنوان : « جيته والدين ») .

وفى الفقرة الأولى بيان للاضطرابات العنيفة التى سادت أوربا فيما بين سنة ١٨١٢ و ١٨١٤ ؛ وفى الثانية والثالثة بيان ما فى الشرق القديم الذى سيهاجر الشاعر إليه من إيمان ساذج وهداة يؤمن بهم أقوامهم .

— ٢ —

واهبات البركة

« الطلّسمات » فى العقيق ،
تهب المؤمن النعمى والهناء .
فإن تكن فى عقيق يمان
فقبّلها بثغر مبارك طهور .
إنها تطرد عنك الشر والشيطان ،
وتحميك أنت وما تأوى إليه من مكان ،
حيث يكون ما نقش به من كليم ،
هو اسم الله الطاهر الكريم .
وهى تهيب بك أن تعمل وتعشق .
وإن النسوة على وجه التخصيص
لتهذبهن الطلسمات .
أما « الرُّقى » فشبيهة بها فى النقش ،
ولكنها على الأوراق مسطورة ؛
لذا لا يشعر لديها المرء بالضيق ،
كشعوره فى النقش على الأحجار الكريمة
فى وسع النفوس التقية

أن تخط فيها الآيات الطوال ؛
والناس على تلك الصحف جد حراص
حرصَهم على بردة الأنبيـــاء
ولكن «النقش» لا يخفى شيئاً من وراء
فالنقش هو النقش ، ولن يقدر أن يقول
غير ما تقوله أنت لنفســك
فى سرور برىء : أنا أقوله ، أنا !
أمامن «الأبركساس» فليس لدىّ إلا القليل
لأن جودتها غالبــاً ما تقاس
بمــا هــو غريب عجيب
مما ابتكره الخاطر المظلم والخيال البهيم
فإذا وجدتنى أتحدث عن غريب من الأشياء
فاعلم بأنى إنما أقدم لك الأبركساس

والخاتم «المنقوش» ما أشق الرسم عليه ؛
رسم أعلى المعانى فى أضيق مكان !
وحتى لو تيسر لك هذا ووفقت إليه ،
فإن الكلمة ستظل فيــه دفينة تكاد أن لا تفكر فيها

واهبات البركة : لم تكتب هذه القصيدة كلها دفعة واحدة ؛ فالفقرة ١ ، ٢ يرجح أنهما كتبا فى ١ / ١ / ١٨١٥ ؛ والفقرة ٣ ، ٤ فى الفترة ما بين ٢٨ / ٥ إلى ٣ / ٨ / ١٨١٥ ، ولعل ٣ أكثر تأخراً عن هذا .

وهذه القصيدة والثلاث التالية تُدخل الشاعر فى الجو الشرقى بطابعه السحرى المميَّز : من أساطير وخرافات ومعتقدات خارقة . وقد اعتمد

جيته فى هذه القصيدة على بحث كتبه فون هَمَّر بعنوان : « حول الطِّلَّسْمات عند المسلمين » ، فى « كنوز الشرق » ج ٤ ص ١٥٥ — ص ١٦٦ (سنة ١٨١٤) . وفيه ذكر أن استعمال هذه الأنواع من السحر والطلسمات قد كان فى الهند ، ومنها انتقل إلى فارس ثم إلى العرب . ويقول عن التفرقة بين أنواعها : « إن الفارق اليوم بين الطلسمات والتمائم هو فى أن النقش فى الأولى على الحجر ، وفى الثانية على الورق ؛ وفى أن الأولى يحملها غالباً النساء وحدهم (ومن هنا يقول جيته فى القصيدة : « وإن النسوة على وجه التخصيص لتهذبن الطلسمات ») فى مناطقهن أو على صدورهن ، بينما التمائم يحملها الرجال ، والأغلبية من الجنود يحملونها معلقة على ملابسهم » .

والنقوش المكتوبة على الطلسمات أو التمائم : من صلوات أو دعوات وعلامات وأشكال ورسوم ، عديدة الأنواع : ففيها تُرَى أسماء الله الحسنى ، أو أسماء كثير من الأشياء الأسطورية ، أو آيات من القرآن ، أو علامات فلكية ، أو حروفٌ أبجدية ذات مدلول خاص ، أو مربعات سحرية ، أو علامات مما نجده فى علم الرمل ، أو صور بنى الإنسان أو الحيوان . وأسماء الله الحسنى ، إما أن تكتب كما هى بالحروف ، أو بحسب قيمة حروفها العددية . ولله إلى جانب الأسماء التسعة والتسعين اسم غير معروف للناس ، لم يُوح به إلا إلى الأنبياء والأولياء . أما أسماء الملائكة فعديدة وأشهرها فى هذه النقوش : ميكائيل وجبرائيل وعزرائيل وإسرافيل . كما نجد أيضاً أسماء أهل الكهف . أما الآيات القرآنية فأشهر ما يرد منها فيها المعوّذتان : « قل أعوذ برب الفلق ... » و « قل أعوذ برب الناس ... » . فالأولى يعتقد أنها تحمى خصوصاً من الأمراض الجسمية ؛ والثانية من الأمراض النفسية . وكذلك سورة « يس » و « الفاتحة » ، وآية

« العرش » (التوبة : ١٢٩ : « لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ ... » . راجع مادة « حمائل » فى دائرة المعارف الإسلامية) .

ويبدو أن هذا النوع من السحر قد وصل العالم الإسلامى عن مصدرين : هندى فارس من ناحية ، ثم هلّينى متأخر ، وخصوصاً الغنوصى ، من ناحية أخرى .

أما « الأبركساس » فهى « أحجار ذات رسوم منقوشة مختلطة فيها ، تذكرنا بالرسومات المصرية ، وفيها الاسم الملئ بالأسرار : أبركساس ، وهو اسم يلعب دوراً غير واضح المعنى فى المذاهب الغنوصية عند پزليوس » ، (متن جيته Goethe-Handbuch ، نشره ى . تسيتلر J. Zeitler فى اشتوتجرت سنة ١٩١٦ — سنة ١٩١٨ ، ج ٣ ، ص ٣٩٠) . فالأبركساس إذن نوع من الأحجار نقشت عليه صور غنوصية ؛ وغالباً ما تكون حروفاً أبجدية يونانية ، تكوّن ، بحسب قيمها العددية ، العدد ٣٦٥ ، أى عدد أيام العام .

وقد كان العقيق اليمانى علامة التفاهم بين رستم وابنه سُهراب فى « الشاهنامه » للفردوسى .

وجيته يقصد كذلك إلى أن يكون لقصائده من التأثير ما لواهبات البركة هذه ، كما يظهر من قوله : « وهى تهيب بك أن تعمل وتعشق » ؛ كما يظهر أيضاً مما كتبه إلى س . بواسريه S. Boisserée فى ٥ مارس سنة ١٨١٦ ، فقال إن الأوراق الحاوية لبعض قصائده (قصيدة : « جرانيت ، مصور ، معترف به » . مجموع مؤلفاته ، ج ٤ ، ص ١٣٠) تحتوى على كثير من الطلسمات والأبركساس .

— ٣ —

الخاطر الحر

دعونى وحيداً أقيم على سرج جوادى
وأقيموا أنتم ما شئتم فى دياركم ومضارب خيامكم
أما أنا فسأجوب من الأنحاء قاصيها على صهوة فرسى
فرحاً مسروراً، لا يعلو على قلنسوتى غيرُ نجوم السماء

لقد خلق الرب لكم الكواكب فى الأفلاك
كهاد سواء السبيل فى الأرض وفوق الماء
ولكى تتملوا بما لها من فتنة وبهاء
مشرعين العيون دائما إلى أعلى السماء

الخاطر السارح : نشرت أولا فى « مجلة الصباح للطبقات المثقفة » *Morgenblatt* سنة ١٨١٦ ، رقم ٧١ ، ص ٢٨١ ، وكفقرتين سادسة وسابعة من القصيدة التالية . وتاريخ كتابتها يمكن أن يكون ٢٠ مايو سنة ١٨١٥ ، أو نهاية ١٨١٥ وبداية ١٨١٦ .

والفقرة الأولى ترجع إلى وصف رحلة على جواد قام بها انجلهرت Engelhardt فى القوقاز (« كنوز الشرق ») ج ٤ ص ٢٦ — ص ٣٧ ، وفيها يرد فى ص ٣٦ : « أناسٌ ، لم تجمع بينهم إلا رابطة الدم واللغةُ المشتركة ؛ ويمارسون قواهم البارعة فى استخدام السلاح بكل سرور وفى حرية كاملة ، من أجل أن يبلغوا ما يهوون ، ويعتبرون كل سعادتهم فى مثل هذه الحرية ، أين نجد أمثال هؤلاء فى القارة اللهم إلا فى القوقاز ؟ ... حتى إننا لنثنى أطيب الثناء على الرجل الذى رفض الخضوع والتسليم : فهو لا يرى فوق قلنسوته غير السماء » .

أما الفقرة الثانية فتقوم على أساس الآية ٩٧ من السورة ٦ : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتهتدوا بها فى ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ ، قد فصّلنا الآياتِ لقومٍ يَعْلَمُونَ » . وقد قرأ جيته ترجمة هذه الآية مكتوبة بحروف كبيرة كشعار كتبه فوق همّر فى أول بحثه بعنوان : « حول صور النجوم عند العرب » (فون همّر ، « كنوز الشرق » ، ج ١ ص ١) .

أما البيتان الأخيران من هذه الفقرة فيعبران عما قاله جيته فى قصيدة أخرى سابقة : « النجوم ، ليس يهواها الإنسان ؛ ولكنه يسر بجلال رونقها » :

— ٤ —

طلاسم

لله المشرق ،

ولله المغرب ،

والشمال والجنوب

يستظلان بالسلام بين يديه

الله ، الله هو العدل

يقسم بين الناس بالعدل

فلتسبحوا إذن بهذا الاسم المكين

من بين أسمائه المائة ! آمين

يريد الشيطان أن يسلك بى مسالك الضلال

ولكنك تعرف ، أيها الرب ، كيف تهديني سواء السبيل

فإن أقدمت على عمل أو أنشدت الشعر
فاللّهم أنِرْ لى جادة الطـــريق .
وأيًّا ما أفكرتُ فى شأن مما فى دنياى من شئون ،
فانى لمرتفع به إلى أعــلى عِلِّيِّــين .
إن روحى التى لم تعلَق بها أثارةٌ من تراب ،
لتسمو فى أعمق أعماقها إلى الملكوت الأعلى .

ألا إن فى التنفّــس لنعمــتين :
نعــمة الشهيق ونعمــة الزفــير ،
فى الأولى ضيق وفى الأخــرى سعة وانتعاش .
وهكذا ما أعجب مزيج الحيــاة !
فلتحمد ربك إذن إن أحرجك أو حلت بك الكروب ،
واشكره حين يأتيــك بالفرج المرغوب

طلاسم : كتبت هذه القصيدة قبل ١٨١٥/٥/٣٠ ؛ ونشرت أولاً فى « المجلة الشرقية » سنة ١٨١٦ ، رقم ٧١ ، ص ٢٨١ . والفقرات هنا وإن كانت منفصلة ، فإنها مع ذلك تكوّن وحدة باطنة ، تكشف عن نظرة جيته فى الحياة ، فعنده أن الدين (الأبيات ١ — ٨) هو الذى يحدّد المعرفة العلمية (الأبيات : ٩ — ١٠) والأفعال عند الشاعر (١١ — ١٢) . وهذا الفعل القائم على الدين له قيمة خالدة (١٣ — ١٦) ، ويسير ، ككل شيء فى الطبيعة ، وفقاً لقانون الاستقطاب (١٧ — ٢٢) .

والبيتان الأولان ، كما هو ظاهر ، مأخوذان من سورة البقرة آية ١٠٩ : « ولله المَشرِقُ والمَغرِبُ ، فأيْنَما تُوَلُّوا فثَمّ وَجْهُ الله ، إنّ اللهَ واسعٌ عليمٌ » ؛ والآية ١٣٦ : « قُلْ لِلّهِ المشرقُ والمَغْرِبُ ؛ يهدى

من يَشاءُ إلى صراط مُسْتقيمٍ » . وقد عرف جيته الآية الأخيرة خصوصاً إذ رآها مكتوبة على صفحة العنوان لمجلة « كنوز الشرق » التى يصدرها همّر كشعار للمجلة .

والبيتان الآخران كانا فى المخطوطة هكذا : كذلك لم تغفل عينه عن الشمال والجنوب » ؛ ثم استبدل بهذه الصورة تلك التى أوردناها هنا ، مما جعل للصورة الجديدة طابعاً كلاسيكياً واضحاً ، إذ أصبحت صورة عيانية واضحة الملامح .

أما الفقرة الثانية فتنتسب إلى الطلسمات التى تحتوى أسماء الله الحسنى والرسول . وجيته هنا يشيد خصوصاً ، من بين أسماء الله الحسنى ، باسم : العدل ، وهو الاسم التاسع والعشرون .

وفى تمجيد جيته لهذا الاسم خاصة ، ما يدعو إلى افتراض أن جيته قد أحب ، من بين المذاهب الكلامية الإسلامية ، مذهبَ المعتزلة على وجه التخصيص ؛ لأن هذا الاسم هو الذى تعلق به المعتزلة خصوصاً ، نظراً إلى قولهم بالعدل كأصل من أصول مذهبهم الخمسة ، كما تعلق الجبرية باسم « الحكم » . وفى هذا يقول الفخر الرازى : « واعلم أن المعتزلة تمسكوا بهذا الاسم ، وأبرقوا وأرعدوا فيه ؛ فقالوا : إذا كان يَخْلُق الكفرَ فى الكافر ثم يعذبه عليه أبداً سرمداً ، فكيف يحصل العدل ؟ وأى معنى للجور فوق هذا ؟ وكما أن اسم « الحكم » مُتَمسَّك أهل الجبر ، فاسم « العدل » مُتَمسَّك أهل القدر » (أى المعتزلة — الفخر الرازى : « لوامع البيّنات شرح أسماء الله تعالى والصفات » ، ص ١٨٤ ، طبع مصر سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م) .

فهل كان جيته معتزلياً حقاً ، وما مدى معرفته بمذهب الاعتزال ؟ هذه مسألة قد نتناولها بالبحث عما قريب .

أما الفقرة الثالثة ففيها صدى للآيات الأخيرة من الفاتحة : « اهْدِنا

الصِّراطَ المُستَقيم * صِراطَ الَّذين أنعَمتَ عَلَيهِم * غيرِ المَغضُوبِ عليهم ولا الضَّالين » .

أما الفقرة الرابعة : فمصدرها ما قاله السَّعْدى ، الشاعر الفارسى المعروف ، فى مقدمة جُلُستان فى الصفحة الأولى منها : « كل نَفَس يتنفسه الإنسان يطيل من محياه ، وكل نفس يخرجه منه يسرُّ وجوده . فثمة نعمتان إذن فى كل نَنَفَّس ، وكل نعمة ، تستأهل منا الحمد والشكر » . وجيته قد عرف جُلستان السعدى من ترجمة آدم أوليارس (ص ١ ، همبرج سنة ١٦٩٦) .

وقد اتخذ جيته فكرة الشهيق والزفير كفكرة أساسية فى مذهبه الفلسفى الحياة و الطبيعة ، فقال : « إن الشهيق والزفير للروح الإنسانية كان عندى كمر للتنفس ثانية ، لا ينفصلان وينبضان باستمرار » ، (مجموع مؤلفاته ، طبعة اليوبيل ، ج ٣٩ ، ص ٣٠) ذلك أن جيته يرى أن الحياة تبادل هائل من الشهيق والزفير ، أو التركيب والتحليل ، به ينتقل الوجود من الوحدة إلى الثنائية ، ثم من الثنائية إلى الوحدة ، وهكذا باستمرار . وسنتحدث عن هذه الفكرة بالتفصيل عند كلامنا عن قصيدة « لقاء » من كتاب « زليخا » من هذا الديوان ؛ كما تحدثنا عنها من قبل بوجه عام فى « التصدير العام » تحت باب « جيته : والدين » . وراجع أيضاً خاتمة « التعليقات » على الديوان (ج ٢ من هذا الكتاب)

— ٥ —

نعم أربع

كما يجتاب الأعراب

بلادهم الشاسعة فى يسر وحبور
حباهم الله من النعم أربعا
حتى يكونوا فى السلم آمنين :

وهبهم « العمامة » التى تزين
خيراً من تيجان الملوك أجمعين
و « خياماً » بها يقيمون وينتقلون
كيما يأووا إلى أى ركن يبتغون

ثم وهبهم « سيفاً » يحمى ويذود
خيراً مما يفعل السورُ العالى والصخرة الصيخود .
كما منحهم « قصيداً » يشجى وقصيداً يفيد
تتلهف شوقاً إليه نفوس الغيد

آواه ! إنى لأتغنى هادئ البال
بالزهر العاطر المتدلىّ من الشمال ،
وحبيبتى تعلم حقاً ما لها من ذى الأزهار
لذا تظل راضية عنى ، ترف على جبينها الأنوار

وإنى لأعرف حقاً كيف أتقدم إليكم
بالندىّ من الأزهار والشهىّ من الثمار
وإن شئتم معها شيئاً من الحِكم
فسأهدى إليكم منها الناضج المعْطار

نعم أربع : كتبت فى ١٨١٥/٢/٦ ، (وفى المخطوطة كتبت السنة خطأً سنة ١٨١٤) ، ونشرت أولا فى « المجلة الشرقية » ، مارس سنة ١٨١٦ ، رقم ٧١ ، ص ٢٨١ .

وهذه القصيدة على ارتباط وثيق بالقصيدتين التاليتين ، لأن موضوعهما جميعاً « الشعر والشاعر » . كما أنها متصلة بصورة التجار التى رسمها جيته فى القصيدة رقم ١ .

أما مصدر القصيدة فيعود إلى ما قاله شاردان فى رحلاته : « رحلة فى فارس وبقاع أخرى من الشرق » ، أمستردام سنة ١٧٣٥ . (جزء ٥ ص ٢٥٨) : « إن العرب يقولون إن الله فضلهم على بقية الأمم بنعم أربع : العمامة التى تضفى على صاحبها منظراً أروع مما يضفيه التاج على رأس الملوك ؛ والخيمة ، وهى أجمل من البيوت ؛ والسيف ، الذى يحميهم خيراً من القصور والحصون والقلاع عند سائر الأمم ؛ وأخيراً الشعر ، الذى يفضل بكثير جداً فى نظرهم ، كتب الشعوب المجاورة وأسفارهم » .

والفقر الثلاث الأولى تعبِّر عن هذه المعانى .

وقد تَوَسَّع جيته فى الكلام عن « العمامة » فى قصيدة أخرى فى «كتاب زليخا » (قصيدة رقم ١٤ : « إلىّ إلىّ ، أيها الحبيب ! ضع العمامة على رأسى !) من هذا الديوان .

أما الفقرة الرابعة فيفسرها فيهوف (ج ٣ ص ١٧٤) هكذا : « إننى أغنى ، غير مكترث بما عسى أن تظن فى الحبيبة ، للغادات الأخريات قصائد يُجزِنّنِى عنها بأزهار ينتزعنها من شيلانهن » . ولكن ليبر يأخذ على هذا التفسير أنه مصطنع كثيراً ، قائلا إن الشال ليس شال « الغادات » ، بل شال الحبيبة التى ترمق الشاعر بنظرة تجعله يفيض بقصائد هى أزهار شعرية تساوى أزهار شالها ، تعترف الحبيبة بأنها لها ، لما هنالك من شبه بين أزهار

شالها وهذه القصائد . فالشاعر إذاً ينظمَ قصائده من أزهار ، كما يكوّن الموسيقار اللحن من النغمات .

والشاعر يريد هنا أن يهدى شيئاً من الحكم ، لأن الشعر الشرقى ، والعربى خاصة ، ملىء بالحكم ، لذا كان على جيته أن يدخل فى شعره شيئاً منها ؛ ولكنه لا يريد منها أن تكون حكما مصطنعة تعبّر عن زهد الحياة ، بل يريد أن يقدم من الحكم « الناضج المعطار » ، أى تلك التى تفيض بالحياة ، وتشيع فيها سَورة الحياة والسرور والإقبال على ما فى الدنيا من نعيم . وفى هذا يقوم الفارق الهائل بين شاعرنا الغربى ، والشعراء الشرقيين .

— ٦ —

اعتراف

أى الأشياء أشق فى الإخفاء ؟ النار !
فعن وجودها يكشف الدخان فى النهار ،
وفى الليل اللهيبُ ، هذا المارد الجبارُ .
ولكن ثمة ما أشد منها عُسراً فى الإخفاء ،
ألا وهو الحب . فمهما حيل بينه وبين الإبداء ،
فسرعان ما يصّاعد من العيون فى يسر وهناء .
غير أن أصعب الأشياء فى الإخفاء حقاً هو الشعر والغناء
فأنت ، مهما بذلت ، لن تقوى على ستره والإخفاء
لأن الشاعر إن أنشد أنشودة
فسرعان ما تسرى حارّة فى كل الأعضاء ؛
وإذا سطّرها فى جمال ووضوح وبهاء ،

ود لو أحبتها الدنيا جمعاء

فتراه يقرؤها لكل امرئ بصوت عال وهو فى انتشاء،

سواءٌ أشاعت فينا الآلام والأشجان ، أو ارتفعت بناحتى السماء

اعتراف : كتبت فى فرنكفورت فى ١٨١٥/٥/٢٧ فى يوم حافل بالشعر والغناء . وكان عنوانها الأصلى : « غير خفىّ » ونشرت فى « كتاب الجيب للسيدة » لسنة ١٨١٧ بعنوان : « ثلاث مسائل » .

وهنا جيته قد تأثر بمثل غربى يقول : « أربعة أشياء لا تسمح لنفسها بالإخفاء : النار ، إذ حيث توجد نار ، يكون ثمة دخان . . ، وثانيا السُّعال . . . ، وثالثاً الطفح الجلدى . . . ، ورابعاً الحب ، لأنه أعمى ، ويحسب أن أحداً لا يراه » (يوهان أجريكولا : « مجمع الأمثال » ج ٢ ص ١٣٣ ، برقم ٦٦٣) . كما تأثر أيضا الشعر الشرقى فيما يتصل بالحب ، فهذا معنى يرد كثيراً فى الشعر العربى والشعر الفارسى .

— ٧ —

عناصر

من أى العناصر

يجب على الشعر أن يستمد قوته وروعته

حتى تطرب له العامة وتعنو لصولته

ويستمع إليه الخاصة فى شوق وسرور ؟

ألا فليكن الحبُّ أولاً وقبل كل الأشياء

موضوعاً لحديثنا إبان الغنـــاء ،

فبقدر ما يستطيع الشعر النفوذ إلى أعماق الحب
بقدر ما يكون وقعه وجلاله فى طوايا القلب
ثم ليكن للكؤوس جَرْس ورنين ،
وليـاقوت الخمر تلألُؤٌ وضَّاء :
فالناس يلوّحون بالإكليل والتاج المُضاء
إلى أبناء الكؤوس والعاشقين .

وليمتـلئ بقعقعة السـلاح
وأصوات الأبواق والدفوف
وليقدّس البطل الظافر كإله
حين ترف له أضواء المجد والهنـاء
وعلى الشاعر أخيراً
أن يكره من الأشياء كثيراً ؛
فلا يدع من القبيح فتيـلا
يحيا إلى جوار الجميـل

فإذا قدر للشاعر
أن يمزُج هذه العناصر الأربعة القوية
فسيكون فى وسعه إمتاع الشعوب
وتحديد قواها ، كما فعل حافظ .

عناصر : كتبت فى فيمار فى ١٨١٤/٧/٢٢ ، ونشرت لأول مرة فى « لوحة الأغانى » لتسلتر ص ٣١٧ (برلين ، ١٨١٨) . وكان عنوانها الأصلى فى المخطوطة : « حرف سين » (والصواب : شين) غزل ١٣ ٥ وقد كتب جيته إلى اتسلتر يقول فى ١٨١٥/٤/٢٢ . « أعطيت للقصيدة هذا العنوان : « مادة القصيد » . وكنت أود أن أسميها : « العناصر الأربعة » ، لولا أن لشيلَّر قصيدة بهذا العنوان » .

وفى هذه القصيدة تحديد عام لموضوعات الشعر بأربعة : الغزل ، والخمر ، والحماسة والهجاء . وفى هذا التقسيم نرى تأثر جيته بالشعر الشرقى : العربى فى الأول والثالث والرابع خصوصاً ؛ ثم الفارسى — على نحو ما فعل حافظ ، لا على نحو ما فعل الشعراء العرب فى الجاهلية ، أو فى العصر العباسى الأول — فى الثانى . وجيته قد عالج هذه الموضوعات الأربعة فى هذا الديوان : فعالج الغزل فى الكتابين الثالث والثامن ؛ والخمر فى التاسع ؛ والهجاء فى الخامس ؛ والحماسة فى الكتاب السابع ؛ ثم فى ترجمته لقصيدة : « إنّ بالشِّعب . . . » فى « التعليقات والمباحث » (فى الجزء الثانى من هذا الكتاب) . غير أن جيته لا يفهم هذه الأبواب على نحو ما هو معروف فى الأدب العربى ، خصوصاً فيما يتصل بالهجاء ، فهو يقصد من الهجاء القضاء على كل قبيح حتى « لا يحيا إلى جوار الجميل » .

وتشبيه الخمر بالياقوت مألوف فى الشعر العربى ، خصوصاً فى العصر العباسى والعصور التالية . وجيته قد أخذ عن حافظ مباشرة . فحافظ يقول : « هاتِ ياقوت العُقار » (حرف الراء . رقم ١٢) ؛ ويقول أيضاً : « إنّ سنيم الكروم كالياقوت عند الشاربين » (حرف الدال ، رقم ٨٥) .

أما ما يعبّر عنه جيته فى الفقرة الخامسة . فنادراً ما نرى مثيله فى موضع آخر له ، عدا بعضاً من « الإكسينات » ثم ما قاله فى أحد أحاديثه : (مما أورده كراب روبنسون فى يومياته ، لندن سنة ١٨٦٩ ج ١ ص ١٨٨ وما تليها (وهو بصدد الكلام عن المسرحية الهندية « شاكونتاله » تأليف كاليدازا الشاعر المسرحى الهندى) : حقاً إنى لأكره كل ما هو شرقى (أى الخلو من الصورة فى الأدب الهندى) . وإننى لسعيد أن يكون فى وُسعى أن أكره شيئاً ؛ وإلا وقع المرء فى خطر أن ينظر إلى كل شىء على أنه جميل نسبياً — وهذا من شأنه أن يقضى على كل شعور حقيقى » .

— ٨ —

الخلق والإحياء

آدم كان فِلْذة من صَلصال مسنون
أحالها إلى إنسانٍ ربُّ العالمين
ولكنه أتى من بطن أمّه
بالكثير من القبيح المشئوم .

ثم نفخ الرب فيه
روحاً طيبة دخلته من أنفه حتى فيه
هنالك صار خلقاً آخر
لأنه بدأ يَعطِس

وبالرغم من ذا ظل بالرأس وحدها والأعضاء
أشبه ما يكون بكتلة من المادة الموات
إلى أن اكتشف نوحٌ الحقيقة
أين ؟ — في الكأس .

وسَرْعان ما شاعت في الكتلة الموات ،
حين أصابها ندى الكأس ، سَوْرةُ الحياة ،
شأنها إذن شأن العجينة ،
تبعث الخميرة ما بها من حركة دفينة

وهكذا ، أيْ حافظ ! ليكن قصيدك الرائع ،
وليكن مثلك السامى القدّوس ،
هادياً يحدونا خلال جَرْس الكؤوس ،
ويهدينا بعد إلى معبد خالقنا الصانع

الخلق والإحياء : كتبت هذه القصيدة فى مدينة بِرْكا على نهر إلْم فى ١٨١٤/٦/٢١ . وفى ١٢/١١ من السنة نفسها لحنها اتسلتر ، ونشرها بعنوان : « الإنسان الأول » فى « لوحة أغانيه » (سنة ١٨١٨ ، ص ٣١٦) ؛ كما عنونها جيته فى الأصل بحرف الدال . غزلية رقم ١٨ .

والفقرات الثلاث الأولى استوحى فيها أبياتاً لحافظ ، (ديوان حافظ . ترجمة فون همّر ، ج ١ ، ص ٢٣٤) : « تخمير طين آدم ، هذا كل ما يفعله الشاربون ، ويشرح همّر هذا الموضع فيقول : « ليس للشرب معنى آخر غير تخمير الطين الذى خلق منه آدم ؛ وبدون هذا التخمير سيظل الإنسان عجينة غير مختمرة ، وخالية من كل طعم » ؛ وهذا بعينه قد أخذه جيته وعبّر عنه فى الفقرتين الثالثة والرابعة .

كما استوحى فيها أيضاً ، إلى جانب ما ورد فى سفر التكوين من « التوراة » ، « القرآن » ، سورة الحجر ، آية ٢٦ : « ولَقَدْ خَلَقْنا الإنْسان مِنْ صَلْصالٍ من حَمَأٍ مَسْنُون » . ثم ما ورد فى الرواية عن خلق آدم مما أورده ابن إسحق الثعلبى فى « العرائس » بالتفصيل فقال : « قال العلماء : فلما أراد الله أن ينفخ فى آدم عليه السلام الروحَ ، أمرها أن تدخل فى فيه . فقالت الروح : مَدْخَل بعيد القعر . مظلم المدخل . فقال للروح ثانية . فقالت مثل ذلك . وكذلك ثالثة . إلى أن قال فى الرابعة : ادخلى كَرْهاً ، واخرجى كَرْهاً . فلما أمرها الله تعالى بذلك . دخلت فى فيه . فأول ما نفخ فيه الروح ، دخلت من دماغه . فاستدارت فيه مقدار مائتى عام . ثم نزلت فى عينيه . . . ثم نزلت فى خياشيمه ، فعطس . فحين فراغه من عُطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه » (ص ٢٨ ، من الطبعة المذكورة) . وجيته قد عرف هذه الرواية الإسلامية مما أورده شاردان فى كتابه المذكور آنفاً ، ج ٩ ص ٢٩٦ .

وهو هنا يتغنى بالكأس والخمر على نحو ما يفعل الصوفية ، والفرس منهم خاصة .

— ٩ —

ظاهرة

حينما تعانق الشمس جدران المطر
وتزف نفسها زوجةً إليه
يبدو فى السماء خط كأنه القوس ،
بديع الألوان متعدد الأفانين

وفى الضباب أرى مرتسما
دائرة مشابهة
أجل إن القوس بيضاء ،
ولكنها مع هذا قوس السماء

وهكذا أنت أيها الشيخ الزَّوْل النشيط
لا عليك ، ولا تدع للحزن إلى قلبك سبيلا
نعم إن شعرك لأبيض ،
ولكنك ستظل مع هذا تحترق بلهب العشق

ظاهرة : هذه القصيدة والثلاث التالية قد أنشئت إبان الرحلة أو « الهجرة » التى قام بها الشاعر فعلا فى صيف سنة ١٨١٤ والسنوات التالية من تيرنجن إلى الرين والمين . ونشرت لأول مرة فى « كتاب الجيب للمرأة » لسنة ١٩١٨ .

وقد أوحى بها إلى الشاعر أثناء رحلته فى ١٨١٤/٧/٢٥ ، قوس قزح تبدّت له من خلال ضباب الصباح ، قوسُ قزح خالية من الألوان . فاتخذ منه علامة ورمزاً على عالم أروع وأجمل وُعِد به الشاعر الشيخ سينعم فيه بالحب والشعر والنعيم مما من شأنه أن يجدد قواه ، ويعيده شاباً من جديد ، وكأنه قد شرب حقاً من ينبوع الخِضْر . وهذا العالم الغرامى الذى وعد به هو عالم غرامه مع مريانه فون ڤليمير .

راجع ما قلناه تفسيراً لهذه القصيدة فى مطلع الفصل الموسوم بعنوان « جيته والحب » ، فى « التصدير العام » (ص ٢٤) .

وجيته قد تغنّى أيضاً بظاهرة مماثلة لهذه تنشأ عن أضواء القمر ، وذلك فى رسائله عن رحلة إلى سويسرا فى الرسالة الرقيمة بيوم ١٧٧٩/١٠/٢٤ . كما تغنى بهذه الظاهرة فى منتصف الليل شاعر فى ڤلهلم تل (فصل ٢ ، منظر ٢) : قوسُ قزح فى منتصف الليل ! هذا ضوء القمر قد ألّفه . وإنه لعلامة نادرة رائعة ! » .

— ١٠ —

الطيف

أى أفانين من الألوان هناك .
تربط بين السماء أمامى والأفلاك ؟
إن غيوم الصباح ،
تحول دون نظرى الحاد

أهذى خيام للوزير بناها
لخليلاته الحسان ؟
أهذا بساط فى حِمى العيد ناشرٌ

لأنه يريد البناء بالعشيقة ؟
لم أر من قبل أجمل مما أراه الآن :
من أحمر وأبيض ومفوّف ممزوج
ولكن ، أىْ حافظ ، كيف أتت
شيرازُك إلى أقاليم الشمال الحزينة ؟
أجل، إنها أشجار الخشخاش المتعددة الألوان
تمتد بديعة إلى جوارى من حقل إلى حقل
منتظّمة الكل فى صفوف بسرور ،
نكاية فى إله الحرب وسخرية منه .
فعلى العاقل إذن ، كى يفيد ،
أن يُعنى برونق الزهر ؛
ألا ليت شمساً كشمس اليوم
تضيء لى على طول الطريق

لطيف : أنشئت فى نفس الصباح ، بالقرب من إرفُرْت ، حينما رأى حقول الخَشخاش فى مِنْطقة إرفرت . وفى هذه القصيدة يبدأ الشاعر الجمعَ بين الشرق والغرب . فالخشخاش الذى يصنع منه الأفيون ينتسب فى الأصل إلى الشرق ، وهذا ما عبر عنه جيته فى كتاب « نظرية الألوان » (بند ٥٤) : « فى ١٩ يونيه سنة ١٧٩٩ لاحظنا بكل وضوح ، فى أزهار الخشخاش « الشرقى » ذوات اللون الأحمر القوىّ جداً ، شيئاً قريباً من اللهيب تبدّى فى جوارها » .

فرؤية الخشخاش قد هفا بروح الشاعر إلى الشرق ، لأن الشرق قد انتقل ، بهذه الشجرة ، إلى أقاليم الشمال المتدثرة بغيوم الضباب الكثيف ؛ وكأن شيراز قد انتقلت إلى إرفرت . وشيراز هى بلد حافظ الذى تغنى بها

فى الرباعية الثامنة والأربعين ، فقال : « إن حافظك محمد قد أبصر النور لأول مرة فى شيراز الجميلة التى علا صيتها بنفحاته فى الآفاق » (ترجمة سمّر ، ج ٢ ، ص ٥٣٦) . وشيراز مشهورة بوردها .

وفى الفقرتين الأخيرتين ترديد لما قاله الشاعر من قبل عن مقصده من الهجرة إلى الشرق ، وهو أن ينعم بالطمأنينة والصفاء ، بعد أن تلوّث جو الغرب بالاضطراب والبغضاء ، بسبب ما فيه من حروب شعواء .

— ١١ —

شقاوه

حين يشدو بالناى كوپيد ،
على شاطئ الغدير عن شمال ،
وعن يمين ينفخ المرّيخ فى البوق ،
تنجذب ثمة الأذن
فى غبطة ولذة
ولكنها تنخـــدع
عن روضة الغناء
إلا أن رعد الحرب
لا يزال يهزم فى عنف وصخب .
حتى صرت على وشك أن أصير غاضباً ثائراً لا أحمق ؛
فهل هذا غريب ؟
وها هى ذى ألحان الناى تعلو وتزيد ،
ونغمات المتردّدة فى ترديد

إننى حائر ضال قد ملكتنى سورة الغضب

فهل هذا عجيب ؟

شفاو : أُنْشِئَت فى ١٨١٤/٧/٢٦ . وكان عنوانها القديم « الحب والحرب » ؛ وهو أكثر تعبيراً عن مضمونها . وقد استوحاها الشاعر من مقابلاته مع جنود فى السوق السنوى فى هينفلد ، ومن بواعث أدبية كثيرة أخرى ، منها حافظ فى الغزل ، رقم ٢٣ من حرف الشين من ديوانه ، حين يقول : « من ذا يستطيع أن يكون آمناً وسط ضجيج السماء الجشع المُغَدْمِر ، حين يسمع هناك الزُّهَرَة تعزف فى العود والقيثار ، بينما المريخ يُدَجِّج السلاح ؟ » . ويعقب همر على قول حافظ هذا شارحاً فيقول : « كيف يتيسر للمرء أن يكون هنا فى الدنيا مطمئناً ، حين يرى الزهرة دائمة الرنين بالعود ، والمرّيخ يقعقع بالسلاح ، وحينما يرى الحب والحرب يتورّعان فيما بينهما حياة بنى الإنسان » (ديوان حافظ ، ترجمة فون همر ، جـ ٢ ، ص ٧٥) .

فالشقاق الذى يعبر عنه جيته هنا هو الشقاق الأبدى بين الحب والحرب ، بين كيوپيد والمرّيخ .

— ١٢ —

الماضى فى الحاضر

ورد وزنبق ، مُجلّلان بأنداء الصباح ،

يزكوان فى بستان الجار .

وإلى الوراء تصّاعد الصخرة فى الأعالى

وعاليها الأيْك والائتلاف ؛

والذروة العالية يمتد قوسها

حتى يتألّف الوادى ،
ومن حولها غابات باسقة
توجها قصر من قصور الفرسان

آه ! حين كنا لا نزال نقاسى من الغرام ،
كان العطر فيّاحاً فيه كأمام المَذْبح ،
وأشعة الصباح تشتجر
على أوتار طُنبورى ؛
وكانت أغنية الطّرَد تتجاوب
من الخمائل مليئة بالأنغام ،
تهيب بإشعال النار
كما نهوى ونشاء

وها هى ذى النباتات فى ازدهار ونماء
فانتشوا أنتم بسَوْرتها وقواها
وما نعمتم به لأنفسكم
دعوا الآخرين به ينعمون
هنالك لن يصرخ فى وجهنا أحد ،
قائلا إنا نعمنا به منفردين
وعليكم فى كل مرافق الحياة
أن تتملّوا به ناعمين

وبهذه الأنشودة وتلك النبرات ،
صِرْنا من جديد فى حضرة حافظ ،
إذ يليق بنا لقضاء النهار ،
أن نتمتّع مع المتمتّعين .

الماضى فى الحاضر : أنشئت هذه القصيدة فى أُمسية ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ فى فُلْدا ، تعبيراً عن الأحْساس التى أثارتها فى نفس الشاعر رحلة الصباح فى أيزناخ ؛ وفيها ذكرى للعهد الڤيمارى الماضى وڤارتبرج وقصر الفرسان المذكور فى الفقرة الأولى ، حيث قضى الشاعر زمان غرامه السعيد وحيث كان يرافق دوق ڤيمار كارل أوْجُست إبّان نزّه القَنْص فى أيزناخ ، وهو ما يشير إليه هنا فى الفقرة الثانية .

والتجربة الروحية التى يعانيها الشاعر هنا هى تجربة المزج بين الماضى والحاضر فى وحدة واحدة ؛ وهى تجربة تتكرر فى هذا الديوان (« كتاب التفكير » ، قصيدة رقم ١٩ : لو مررت خلال إرْفُرْت) . وعبر عنها بوضوح فى الجزء الثالث من « الشعر والحقيقة » (الكتاب الرابع عشر) وهو يصف رحلته على الرين واللان ، فقال : « الشعور بوحدة الماضى والحاضر ، هذا موجود فى كثير من مؤلفاتى الكبرى والصغرى ، وله تأثير طيّب فى شعرى » .

وهنا يوحى تجددُ الغابات باستمرار إلى الشاعر صورة الإنسانية وهى تتجدد على الدوام ؛ ويلذ للشاعر أن يطبق هذا على نفسه وهو فى سن الشيخوخة (فى الفقرة الثالثة) . وهو فى هذا إنما تأثر أيضاً بحافظ حين قال : « رفيقان قد بقيا فى البستان : الورد والزنبق ؛ وكلاهما يرفع عالياً الكأس ، شُرْباً على ذكر الصديق » .

وراجع ما قلناه فى « التصدير العام » فى فصل « هجرة جيته » .

— ١٣ —

أغنية وصور

للبونانى أن يعبر عن أنغامه فى صور ،
وله أن يتغنى بما صنعته يداه ؛
أما نحن فيلذ لنا أن نغوص فى الفرات ،
سابحين فى العنصر السائل هاهنا وهناك ؛
فلو أنى أطفأت هكذا لهيب الروح ،
إذن لرنت ألحان النشـــيد ؛
وإذا امتاحت يد الشاعر الطاهرة
تواثبت فقاعات المـــاء .

أغنية وصور : لاتدلنا المخطوطة على تاريخ إنشاء القصيد ؛ ولكنها قد أنشئت على كل حال بعد ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ ، ويرى ليتسمن أن أسبق تاريخ يمكن أن يوضع لها هو نهاية أكتوبر سنة ١٨١٦ .

وهذه القصيدة مهمة من ناحية الصياغة الفنية للشعر ، إذ هى تتناول المقارنة بين طبيعة الصياغة فى الشعر اليونانى وطبيعتها فى الشعر الشرقى فالشعر اليونانى عِيانى تجسيمى ، يميل إلى تصوير الشعور الشعرى فى قوالب مجسّمة أو صور عيانية حِسّية ، كما يفعل المصوّر أو المثّال ؛ أما الشعر الشرقى فسيّال غير ثابت القوالب . وبهذا المعنى يقول جيته فى خطاب كتبه إلى كنيبل فى ١١ يناير سنة ١٨١٥ : « حينما ينفذ المرء إلى الشرق بجدّ ، يكون أمره تماماً كأمر من يغوص فى البحر . ومع هذا فمن السار أيضاً أن يسبح فى مثل هذا العنصر الشاسع وأن يمارس قواه فيه » لأن « الموجة المتحركة تتكبّب ، فى القلب السعيد ، والأيدى الورعة ، مكوّنة بجلال

كُرَة من البلّور » (أسطورة ، مجموع مؤلفات جيته ، ج ٣ ، ص ٩) :

وجيته يشير هنا إلى محاولته فى هذا الديوان الجمع بين التجسيم فى الشعر اليونانى والإيماء فى الشعر الشرقى .

— ١٤ —

جرأة

أنى يتيسر للمرء أن يُشفى ؟
إن كلاً يصغى بسرور إلى الصوت يستحيل لحناً
ألا فلتطّرح كلّ ما يعوق مجراك !
ولا تَسْعَ هذا السعى الكئيب !
إن على الشاعر ، قبل أن يغنّى ،
وقبل أن ينقطع ، أن يحيـا .
فليتردد إذن رنين الحياة فى الروح !
فإذا أحس الشاعر بألم فى الفؤاد ،
كان فى ذلك لنفسه الخـلاص .

جرأة : أنشئت هى وقصيدة « الهجرة » فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨١٤ ؛ ونشرت فى « لوحة الأغانى » سنة ١٨١٤ ص ٤٠٦ .

والشاعر هنا يهيب بكل من يريد قرض الشعر أن يحيا أولا ، ثم يعبّر بعدُ عما حَيِيَه ؛ لأن الشعر الحق هو الذى يصدر عن تجارب حيّة ثرية ؛ عاناها الشاعر فى نفسه بكل قوة ، وعلى الشاعر من أجل هذا أن يعانى من التجارب الحية أوفر نصيب ، دون أن يحفل بأى عائق قد يعوقه فى هذا السبيل : من قواعد أو تقاليد أو أوضاع ؛ وعليه أيضاً أن يقبل على

الحياة المليئة بكل ما فيها ، يحدوه سرورٌ شامل يريد أن ينتظم كلَّ ما يقدمه إليه الوجود . وليس له أن يسعى هذا السعى الكئيب الحزين ، سعى العازف عن الحياة ، المشيح بوجهه عن تجاربها ، لأن هذا من شأنه أن يُفقر نفسه ، ويجفف عصارة قلبه ، التى يغذى منها شعره . وجيته يدعو إلى هذا مراراً ، فتراه يقول : « الحياة وحدها هى التى تعطى الحياة » ، أى أن تحيا حياة مليئة ، هذا وحده هو الذى يجعلك حياً حقا ؛ « إن غاية الحياة هى الحياة نفسها ... هذا قول أدين به وأحاول أن أنشّئ نفسى على وَفْقه ؛ ونحن إذا قمنا بنصيبنا فى داخل نفوسنا ، تلا ذلك سائر الأشياء » (من حديثه إلى ماير ، سنة ١٧٩٦) . أما أن ينطوى المرء على نفسه ، فهذا لن يجدى فتيلا فى إشعال الروح وإثراء النفس ، لأن « الحياة الباطنة لا تستيقظ إلا بواسطة الحياة الخارجية الظاهرة ، لا بالتأمل البارد ، ذاك الذى لا يفيد إلا فى استنفاد عصارة الحياة » (من حديثه إلى إشْميت سنة ١٨٠١) .

— ١٥ —

ثابت ماهر

الشعر فيض فلا يلمنى إنسان !

فليكن دمكم حاراً حراً مسروراً مثلى

وإذا قدر لآلام كل ساعة أن تغمرنى ،

فسأظل دائماً متواضعاً ، بل وأكثر منكم

لأن التواضع جميـــل حين تزهر الغادة :

إن من تتجنب الفج الطبـــاع

تهوى أن تصـــاد برقة وأناقة

والتواضع خير ، بهذا يقول حكيم ،

يستطيع أن ينبئ عن الزمان والسرمدية

الشعر فيض ، فاقرضه وحدك فى سرور
والأصدقاء والغانيات النابضات بالدم الحار
يشاركون أيضاً فيـــه !

أيها الرويهب بلا طرطور ولا زنار
لا تخض فى حديثى ولا تثرثر من حولى
أجل ، إنك تحطمنى ، ولكنك لا تجعلنى متواضعاً

إن ألفاظك الجوفاء تبعدنى عنه ،
وها أنذا قد ألقيت به تحت أقدامى

حينما تدور طاحونة الشاعر ، فلا تقفها :
لأن من يفهمنا ، يغتفر لنا زلاتنا .

ثابت ماهر : أنشئت فى ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ إبان رحلته ؛ وهى قريبة الشبه بالقصيدة السالفة .

وجيته فى هذه القصيدة غربى ، اللهم إلا فى هجومه على الرهبانية وأصحاب الزنانير ، فإنه هنا قد تأثر حافظاً كما تأثر النْرِش فون هُتِّن ، كما أشار إلى هذا فى القصيدة رقم ٤ من «كتاب الغضب» من هذا الديوان .

والشاعر يسخر هنا من هؤلاء الرومنتيك النائحين الذين هاجمهم فى «الإكسينيات» فقال : «إنهم يطفئون نور البهو فى أرض الله ، محيلين إياه إلى وادى أحزان وبؤس ؛ هنالك نكتشف سريعاً ، كم هم أنفسهم بائسون» ، لأنهم استقالوا من الحياة فعاقبتهم عن هذا بإشقائهم . كما هاجمهم أيضاً فى أحاديثه مع إكَرْمن (١٨٢٩/٤/٢) فنعت الكلاسيكى بأنه الصِّحّى ، بينما الرومنتيكى مَرَضىّ ؛ واتهمهم بأنهم يريدون أن يحيلوا العالم إلى ملجأ للعجزة والمشوّهين .

وحافظ من قبل قد سخر من هؤلاء المترهبين المتفيقهين ، فقال : « ألا بعداً لكم أيها الوعاظ ، ولا تثرثروا أمامى بِتُرَّهاتكم الجوفاء » ، حرف الميم ، رقم ٤٠ ؛ ترجمة همر ، جـ ٢ ، ص ٢١٩) .

— ١٦ —

الحياة الكلية

التراب ، يا حافظ ، عنصر من العناصر
التى أسلست لنفسك قيادها بمهارة ،
حينما تغنى أنشودة أنيقة تحية للحبيبة

لأن التراب على وصيدها خير من السجاد
للذى تجعل أزهاره المطعمة بالذهب
خليلات محمود يركَعْن :

إن الريح تدفع من أبوابها
سحباً من التراب الرشيق
إن العطور أعز لديك
من المسك وماء الورد

التراب ، لقد استغنيت عنه طويلا ،
فى بلاد الشمال المغطاة بالضباب
أما فى بلاد الجنوب الضاحية الحارة
فقد صار عندى مرغوباً محبوبا

ولكن زمانا طويلا قد مضى ؛
والباب المحبوب صامت فى ركنه ؛
فلتَشْفِنى إذن ، يا مطر العاصفة ،

ودعني أستنشي عبير الخضرة
وحينما يهزم كلُّ رعد
وتُبراق السماءُ بأسرها ،
سيبتل تراب الريح الوحشي ،
وهو يسَّاقط على الأرض ،
وسَرْعان ما تنبثق حياة ،
ويتماوج تأثير قدسي لطيف
وتَنْبتُ الخضرة والنَّضِرة
في محاني الأرض الغضِرة

الحياة الكلية : أنشأها الشاعر في جُنح الليل إبان الطريق في ٢٩ يوليو سنة ١٨١٤ .

والتغني بالتراب من قَسمات الشرق ؛ وجيته تأثر هنا حافظاً في قوله : « من هذا العالم والعالم الآخر لا يثب إلى عينيه (أي حافظ) إلا تراب عتبة بابها » (حرف التاء ، رقم ٦٧ ؛ ترجمة فون همر ، جـ ١ ، ص ١٤٧) ؛ وقوله : « يا رياح الصباح ! ائتيني بتراب مبارك من تراب باب الأحباب » (ترجمة فون همر ، جـ ١ ، ص ٥٧) .

ولكن التراب لا نجد له في الشعر العربي هذا النعت الجميل ، بل يرتبط بالأطلال أو بأرض الحبيبة باعتبار أنها تمنحه الطيب . إنما الذي يلعب دور التراب هذا في الشعر العربي هو الرياح نفسها وبخاصة ريح الصبا . وفارق كبير بين الاثنين : فالرياح أكثر تجريداً من التراب ؛ ولذا استخدمه الشعر العربي بطابعه التجريدي الظاهر ، بينما الشعر الفارسي بطابعه العيني القريب من الطابع الأوربي اليوناني قد استبدل به التراب لأنه أكثر عينية ، إذ هو التراب الذي وطئته أقدام الحبيبة .

أما محمود الذى يشير إليه جيته هنا ، فلا يُقصد به شخص بالذات ، بل السلاطين عموماً ، باعتبار السلطان محمود الغزنوى بن سبكتكين هو أشهر سلاطين الفرس .

ولقد كان لرحلة الرين وقراءة حافظ والرحلة إلى إيطاليا أثر تجديد قوى جيته ؛ لهذا نراه هنا يرمز إلى هذه الأشياء بالعاصفة والرعد والبرق التى تثير التراب على الأرض فيسّاقط المطر ، وعن هذا تنشأ حياة جديدة كلها نَضْرة ، وتشيع روح قدسية لطيفة ، هى تلك التى ستشيع فى كيان الشاعر فتجدد قواه ؛

— ١٧ —

الحنين السعيد

لا تتحدث بهذا الحديث لغير الحكماء ،
فالعامة سرعان ما تلقاه منك بالاستهزاء ؛
إنى أريد أن أمجد الحى ،
الذى يتحرق شوقاً إلى لهيب الموت .
فى قشعريرة ليالى الحب ،
تلك القشعريرة التى ولدتك وفيها أنت تلد ،
يغزوك شعور غامض غريب ،
حين تضىء الشمعة الوديعة ،
حينئذ لا تظل غارقاً ،
فى ظلال الظلام الظليلة ؛
بل تمزق فؤادك نزعة جديدة ،

نحو اتحاد أعلى وامتزاج سامٍ

ولن يعوقك البعد مهما طال

بل ستأتى سريعاً قد أخذك السحر

فتعشق النور ،

وأخيراً تحترق كما تحترق الفراشة

وطالما لم تفهم هذا الحديث :

مُتْ واستحل إلى شىء جديد !

فستظل ضيفاً مجهولاً مُعْتِما

على هذى الأرض المُظْلمة

الحنين السعيد : أنشئت فى ڤيزبادن فى ٣١ يوليو سنة ١٨١٤ ، ونشرت فى سنة ١٨١٦ بعنوان « كمال » . وفى المخطوطة قد كتب أعلاها : حرف الصاد ، غزل ١ ؛ وذلك لأن الغزل الأول من هذا الحرف فى ديوان حافظ هو الأساس فى قصيدة جيته هذه . فحافظ يختم قصيدته بقوله : « هل يدرى العوام ما قيمة الدر الكريم ؟ كلا ، لا تُعطِ الجواهر إلا للعالمين ! » وهذا يطابق قول المسيح : « لا تُلْقِ بالدر أمام الخنازير » (انجيل متى ، ٧ : ٦) ؛

وجيته هذا قد استهل قصيدته هذه بهذا المعنى . وما يتلو هذه الفقرة مأخوذ أيضاً من قصيدة حافظ المذكورة فى قوله فيها : « إن الروح تحترق كما تحترق الشمعة ؛ قدمت جسدى قرباناً ناصعاً للهيب الغرام ، وأنا طاهر الذيل نقى الضمير ، فإن لم تحترق كما تحترق الفراشة ، فلن تجد إلى الخلاص من عذاب الحب سبيلا » (همّر ، ج ٢ ، ص ٩١) .

وهذا التشبيه بالفراشة التى تحترق باللهيب من وجدها به يرد كثيراً

فى شعر حافظ ، فتراه يقول : « خذ ، أيها النور ، كل لذة من لذائذ غرام الفراشة غنيمة لك » ، (ج ١ ص ٢٩٦) ؛ و « قلبى المحترق كان كالفراشة » (ص ٣٦٤)، و « الفراشة تحترق فى النور استعذابا للحب » (ج ٢ ص ٣٧) . كما يرد أيضاً بغزارة فى شعر أكثر الشعراء الفرس . فالسعدى يقول فى « البستان » (الباب الثالث ، الفصل الثالث ، « الحب ») : « أولا تحرق الفراشة نفسها فى النور ، أو ليس هذا خيراً لها من أن تموت حتما بدون الشمعة فى ركن مظلم ؟ » ويورد قصة بهذا المعنى فى « جلستان » (الباب الخامس ، القصة السابعة) . وجلال الدين الرومى يرمز بالتشبيه للحب الإلهى : « إن فراش الليل ليلقى بنفسه فى ضياء الشموع ؛ فألقِ بنفسك إذن فى بحر نيران الإله » ، (من ترجمة تولك ، فى مجموعة الأشعار المختارة بعنوان « مجمع الأزهار » ***Blüthensammlung*** ص ٧١) .

والفقرات الأربع الأولى تدعو إلى الفناء بواسطة الموت ، فى حياة أخرى أعلى من هذه وأسمى؛ ولذا وسم جيته القصيدة أحياناً بعنوان : « التضحية بالذات » . ولكنه أتى فى الفقرة الخامسة فعدّل من هذه النظرة الصوفية السلبية ، بأن طبّق هذه التضحية بالذات على الحياة الدنيوية ، بدلا من الحياة الآخرة . ولعله تذكر طبيعته الحقيقية ، تلك الطبيعة الإيجابية التى تدعو إلى الأفعال وإلى الإقبال على الحياة ، فأضاف هذه الفقرة الخامسة بعد أن استسلم لنزوة صوفية عابرة . ولهذا فمن الأرجح أنه أنشأ هذه الفقرة بعد الفقرات الأربع السابقة لمدة من الزمان . ويتأيد هذا الافتراض من الناحية الشكلية ، من حيث كون الفقرة الخامسة تفترق عن الفقرات الأربع السابقة بأن القافية فيها مذكّرة ، وفى الأخرى مؤنثة .

وفى هذه القصيدة العميقة أودع جيته كل فلسفته : فهى فلسفة تترجح بين الصوفية الزاهدة والإقبال على الحياة الفعّال ؛ وليس فى هذا تناقض ،

لأنه يريد من الإنسان أن يحقق هذه الحياة الزاهرة السامية على هذه الأرض . وتتضمن مزيجاً من كل الثقافات الروحية التي وعاها جيته في نفسه : اليونانية والشرقية والرومانية المسيحية : فعن الثقافية اليونانية قد أخذ هنا فكرة التحول إلى طبيعة أعلى باستمرار في سلم من التصاعد الروحي . والعلاء على الذات بالقضاء المستمر على الصورة الراهنة من أجل الارتفاع إلى صورة أسمى وأتم ، مما يتمثل في القول اليوناني المشهور المنسوب إلى پندار : صِرْ إذن من تكون ! أي تحول وفقاً لإمكانياتك ، محققاً إياها من جديد شيئاً فشيئاً ، ولا تستقرّ عند حالة واحدة ، لأن حركة التحول أو التحقق بالصورة ليست نهائية بل في سير مستمر . وعن الروح الشرقية أخذ فكرة العشق الإلهى الذي يحاول فيه المرء أن يفنى ذاته ، أي صورته الراهنة ، لكي يتحد بصورة عليا هي صورة الصور ، وهي هي الله . وهذا العشق نوع من احتراق المحبّ في نار المحبوب ، مما قد تغنى به الصوفية الفرس خصوصاً وغالبية الصوفية المسلمين . وعن الروح المسيحية قد تلقى فكرة العزوف عن الدنيا والنزوع إلى عالم أسمى . ولكن جيته لا يستسلم لأية نزعة من هذه النزعات الثلاث ، ولا يأخذها بحروفها ، بل هو يحيلها كلها في بوتقة نفسه إلى طبيعته هو الخاصة ، مكوناً تجربة واحدة طريفة لا يمكن أن تسمى إلا بتجربة جيته ونظرته في الوجود .

وهذه القصيدة ، وقصيدة « لقاء » (في « كتاب زليخا » من هذا الديوان) ، هما القطبان اللذان يدور من حولهما كل الديوان .

— ١٧ —

ألا فليبدُ يراع كي يشيع في العالمين العذوبة !

وألا ليت قلمي يقطر بما هو جميـــل !

هذه القصيدة الصغيرة هى نوع من الخاتمة للكتاب الأول كله . وقد تأثر فيها أولاً حافظاً الشيرازى فى قوله : «أى يراع عجيب هو قلمك ، أىْ حافظ ! إنه ليحمل ثماراً أعذب وأشهى من العسل والسكر» (حرف التاء رقم ١٦ ، جـ ١ ص ٦٩ من ترجمة همّر) ، وثانيا السعدى ، حين قال عن نفسه فى «جلستان» : «إن الكلم السائل من يراعه يُتذوق كأنه السُّكّر» (مقدمة «جلستان» ، ص ١٦ من الترجمة الفرنسية لدفرمرى ، باريس سنة ١٨٥٨) .

حافظ نامه

كتاب حافظ

فلنسم الروح عرسا
ولهذا اللفظ عروس ؟
قد درى ذا العرس مطرب ،
حافظاً ، هذا النفيس

— ١ —

لقب*

الشاعر

إيه شمس الدين قل لى لم لقبت بحافظ ؟

حافظ

لم لقبت ؟ لأنى حافظ الذكر الحكيم ،
ساهر الوعى عليه ذلك الإرث العظيم
من أعادى الدهر أحمى كنز مبعوث كريم
وأنا المؤمن حسبى ذاك فى اليوم الجسيم

الشاعر

وأنا أيضاً أرى صدق ذا الرأى المتين
فإذا كنا نرى ما يراه الآخرون
اشتبهنا أجمعين

---

* القصائد المسبوقة بهذه العلامة مترجمة نظما .

واشتهينا نحن أيضاً ! فمن السِّفر المقدّسْ
قَبست نفسى صورَه مثلما رَفّت بملْبَس
صورةُ الغادِى الأنسْ
وعن النكران رغماً نَشرتْ بالصدر نورَه

كتاب حافظ : أعلن جيته عن هذا الكتاب فى « مجلة الصباح للطبقات المثقفة » (سنة ١٨١٦ ، برقم ٤٨ ص ١٨٩) كما يلى : « هاهو ذا حافظ تامه ، أو كتاب حافظ ، وقد كُرِسَ لوصف هذا الرجل العظيم وتقديره وتمجيده . كما أن به تعبيراً عن الصلة التى تربط بين الشاعر الفارسى والشاعر الألمانى الذى تحمّس له وتعلق به إلى درجة من الوجد هائلة ونعته هنا بأنه لا يستطيع أن يبلغ شأوه ، ولا أن يلحق به » .

وكما قال جُنْدولف (ص ٦٤٤ من كتابه : « جيته » ، ط ٤ ، برلين سنة ١٩١٨) : « هذا الكتاب ، كتاب حافظ ، وكتاب زليخا هما عمودا هذا الديوان كله . فكتاب حافظ يعرض نظرة جيته فى الحياة وأحواله وموقفه ، جيته الشيخ ، من وجهة نظر عامة غير شخصية ، فى لحظات مفردة غنائية ؛ بينما كتاب زليخا يعبّر عن التجربة الحية الخاصة التى أشاعت الحركة والشعور فى هذه الحال العامة » .

الشعار : هذا الشعار قد وضع فى الأصل على أنه شعار « للديون الألمانى » المتأثر خصوصاً بحافظ . وقد وضع قبل ٣٠ / ٥ / ١٨١٥ . وهو تعبير آخر عن الشعار الذى وضعه فون همر لديوان حافظ . وأخذه من الغزل رقم ١٠٩ من حرف الدال ، وهو : « لم يكشف أحد القناع عن أفكار رائعة كما فعل حافظ ، منذ عُقِصت غدائر الكلم العروس » .

لقب : أنشئت فى بركا فى ٢٦ / ٦ / ١٨١٤ ، ونشرت لأول مرة فى كتاب الجيب للسيدة سنة ١٨١٧ (برقم ٢٦ ص ط) .

وفى هذه القصيدة تعبير واضح عن تمجيد الكتب المقدسة ؛ فهو يوقر الإنجيل كما يصون حافظٌ القرآن . وجيته فى الواقع قد أعجب كثيراً بالكتاب المقدس كله ، وبخاصة التوراة (راجع ما قلناه فى الفصل الأول من التصدير ص ٤) . وأسلوبه فى كل كتابه يكشف عن هذا التأثر ، حتى قال هو النشيد الأول من أناشيد هرمن ودوروتيه التسعة : « إنه ملىء بالقيمة العليا للكتب المقدسة » .

كما أنه يعبر عن تجربة روحية خاصة ، هى تجربة المعرفة عن طريق الإيمان الساذج . لذا يشير إلى انطباع وجه المسيح على ثوب ڤيرونيكا الأبيض ، كما تزعم الأساطير المسيحية ، التى تقول إن ڤيرونيكا كانت امرأة يهودية قد مسحت عن وجه المسيح ، وهو يصعد الجبل الذى صلب عليه ، بقماش أبيض فانطبعت عليه صورة وجه المسيح . وتعتبر ڤيرونيكا قديسة . وعن هذه الحادثة تعبر لوحات تصويرية عديدة رأى جيته بعضها فى مجموعة صور بواسريه .

— ٢ —

شكوى

أتدرى لمن يقوم الشيطان بالمرصاد .
فى الفيافى بين الصخور والأسوار ؟
وكيف يحيل فيهم النظرات الحداد .
مقتاداً إياهم إلى أبواب النـــار ؟
إن هؤلاء هم الكذّابون الأشرار .

والشـــاعر ، لماذا إذن لا يرتاع ،
من الدخول فى زمرة هؤلاء الرعاع !

فهل يعرف إذن من يرافق ويصاحب ،
هذا الذى لا يعمل إلا فى حال من الجنون غالب ؟
سيهيم على وجهه فى القفار والبيد
لا يحدوه غيرُ حبٍّ عنيد
وأغانيه الشاكية المسطورة فى الرمال
ستجعلها الريح أبداً فى ترحال
إنه لا يعى ماذا يقول ،
وما يقوله لا يقوم عليه كحافظ ووكيل

والناس سيتركون قصيده يذهب حيث شاء
لأنها لا تتفق والقرآن
فعلّموا الناس إذن أيها الراسخون فى العلم ،
والمتدثرون بدثار الحكمة ،
علّموا المسلمين المخلصين واجبهم المتين

إن حافظاً خصوصاً يخلق المخازى والفضائح
وميرْزا يقذف بالروح فى هاوية المجهول
فأنبئونا ماذا منها نأخذ وماذا ندع ؟

شكوى : أنشئت فى ١٠ /٣/ ١٨١٥ . وهذه القصيدة والتاليتان تكوّن وحدة : فموضوعها هو حرية الشاعر وشريعة الله . ومطلعها مأخوذ من سورة « الشعراء » (آية ٢٢١ — ٢٢٥) : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَن تنزّلُ الشياطين ؟ * تنزّل على كلِّ أفّاك أثيم * يُلقُون السَّمعَ وأكثرُهم كاذبونَ * والشُّعراءُ يتّبعُهم الغاوون * ألمْ ترَ أنهم فى كلِّ وادٍ يهيمون * وأنّهم يقولون ما لا يفعلون » .

ومرزا اسم لثلاثة شعراء فرس مشهورين ، ولكن جيته لا يشير إلى أحد منهم هنا ؛ بل يشير مجرد إشارة إلى شاعر ممتاز كحافظ .

— ٣ —

فتوى[1]

أغانى حافظ تسلك إلى الحق السبيل القويم
وإن جارت حيناً قليلا عن نطاق المرسوم
فإن شئت السير مأمون النهج والمساق
فاعرف كيف تفرق بين سمّ الأفعى والترياق
ولكن أسمى فعال الرغبة الطاهرة :
أن تنذر نفسك مسرور المزاج ،
وتتنكب سبيل من لا ينشدون غير الأحزان ؛
نعم ! اهجرهم فى حكمة غير متوان
فهذا خير ما يجعلك لا تفقد الأحسن :
سطرتْ هذا يراعةُ الفقير أبى السعود
غفر الله له كل ألوان الذنوب

فتوى : أنشئت هذه القصيدة فى يوليو سنة ١٨١٤ فى بركا ، وعنوانها الأول هو : « فتوى فارسية » ، لتتميز بينها وبين الفتوى الآتية بعد ، برقم ٥ .

ومصدر هذه الفتوى . كما أشرنا من قبل فى « التصدير العام » (ص ٥٥) فتوى أصدرها أبو السعود أفندى المفتى الأكبر للإسلام فى أيام السلطان سليمان الأول : حين رفع إليه أمر رجل طعن فى حق رئيس العلماء

الذى أفتى بعدم قراءة ديوان حافظ . وصورة هذه الفتوى قد أوردها صاحب « كشف الظنون » (ج ٣ ص ٢٧٢ — ص ٢٧٣ من نشرة فليجل ؛ ج ١ ، ص ٣٨٩ من نشرة دار الطباعة المصرية سنة ١٢٧٤ هـ = سنة ١٨٥٧ م القاهرة) فى نصها التركى ، وترجمتها هكذا (وقد وفقنا بين النصين المختلفين فى هاتين الطبعتين) : « صورة فتوى : إذا قال زيد المذكور فى حق حافظ هو لسان الغيب ؛ وقال عمرو إن التعبير عنه بلسان الغيب خطأ ؛ وقد أفتى رئيس العلماء بعدم قراءته ؛ وإذا أساء زيد المذكور فى حق رئيس العلماء وقال : إن هذا من الذوقيات وليس من ملعقة فمه (أى لا يستطيع مثل رئيس العلماء ، هذا الفقيه ، أن يتذوق شعر حافظ أو الشعر إطلاقاً) ؛ فماذا يلزم فى حق زيد شرعاً ؟ » فأجاب مولانا أبو السعود : « وقعت فى مقالات (أى قصائد) حافظ فى مواضع كثيرة كلماتُ حق من حكم واثقة ، ونكت فائقة . ولكنها تحمل فى تضاعيفها جُزَافات خارجة عن نطاق الشريعة الشريفة . والذوق الصحيح هو فى تمييز بيت من بيت ، وعدم حسبان السم الزعاف ترياقاً ؛ وفى تحصيل مبادئ ذوق النعمة ، والاحتراز عن أسباب الخوف الأليم (أى عذاب السعير) . كتبه الفقير أبو السعود ، عُفِى عنه » .

وهذه الفتوى قد ترجمها فون همَّر إلى الألمانية وأوردها فى ترجمته لديوان حافظ (ج ١ ص لد) ومن هنا عرف جيته أمرها .

— ٤ —

الألمانى يشكر

أبا السعود ، أيها الولىّ الطاهر ! لقد أصبت شاكلة الصواب

إن الشاعر فى لهفة إلى أمثال هؤلاء الأولياء الأنجاب

فهـــذه الشطحات الخارجة عن نطاق الشريعة

هى عينها التراث الذى يخلفه الشـــاعر
حين يفيض ، وهو مسرور ، حتى فى مواكب الأحزان
ولا مناص له من أن يقدم هذا وذاك :
سمّ الأفـــاعى والـــترياق
والأول لن يقتل ، والثانى لن يشفى :
لأن الحياة الحقة هى البراءة الخالدة للفعل
تلك التى تبدو وكأنها لا تضر شيئاً أكثر مما تضر نفسها
وهكذا يستطيع الشاعر القديم أن يتملى برجاء
رجاء أن تحسن الحوريات فى الجنة استقباله كفتى مستنير .
أبا السعود ، أيها الولىّ ، لقد أصبت شاكلة الصواب

الألمانى يشكر : أنشئت هذه القصيدة فى ١٨ / ١٢ / ١٨١٤ . والألمانى هنا هو جيته الذى يشكر لأبى السعود تسامحه الواسع فى هذا الحكم .

ولعل الأبيات من ١٠ إلى ١٢ أن تكون متأثرة خصوصاً بالآية ٤٦ من سورة « فصلت » : « مَن عَمِل صالحاً فلِنفسِه ، ومَن أساءَ فَعليْها ، وما رَبُّك بِظَلاّمٍ للعَبِيد » . ويقول فريد الدين العطار ، الشاعر الصوفى الفارسى العظيم : « الخير أو الشر الذى يأتيه امرؤ إنما يأتيه ضد نفسه أو له » (پندنامه ، فصل ٣٢) . وقد قرأ جيته هذا القول فى ترجمة فرنسية لسلفستر دى ساسى ، نشرت فى « كنوز الشرق » التى يشرف على إخراجها فون همّر (جـ ٢ ص ٢٢٩) .

وجيته هنا يطبق هذه الفتوى على أشعاره هو ؛ فيهيب بالناس أن يحكموا بعدل وإنصاف على شعره كما فعل أبو السعود فى حكمه على أشعار حافظ . ولاحظ خصوصاً البيت التاسع : ففيه كشفٌ عن فلسفة جيته كلها ، تلك الفلسفة التى تقوم على تمجيد الفعل .

— ٥ —

فتوى

قرأ المُفْتى قصائد « المصرى »
الواحدة تلو الأخرى تجرى ،
وبعد تفكير ألقى بها فى النار ؛
فاحترق الكتاب ذو الخط السارّ
وصاح القاضى الجليل : « ألا فليُحرق
كل من يعتقد كالمصرى —
وليُستَثْنَ هو وحده من عذاب النار :
لأن الله قد منح كل شاعر هبة الأشعار ،
فإن أساء استخدامها إبان خطاياه ،
فعليه أن يُعنى بإرضاء الله » .

فتوى : أنشئت فيما بين ١/٢٥ و ١٨١٥/٢/٨ . وعنوانها الأصلى : « فتوى تركية » ، تمييزاً لها من الفتوى الفارسية الواردة برقم ٣ . فالأولى قصد منها إلى تبرئة القصائد ؛ وهذه إلى تبرئة الشاعر .

وجيته قد عرف أمرها من فقرة فى كتاب تودريني بعنوان « أدب الترك » (ترجمة هوسلويتز ، كينجسبرج سنة ١٧٩٠ ، ج ١ ، ص ٢٠٧) ، لفت نظره إليها كنبل ، وهى : « إن الشاعر التركى ، مصروى ، قد اتهم بأنه قليل الإسلام بسبب ما ورد فى أشعاره وبعض أقواله . ورفع الأمر إلى المفتى ليقضى فى أمرها ، وهل هى تتفق أو لا تتفق مع القرآن . فأصدر الفتوى التالية : « إن معانى هذه العقائد لا يعلمها إلا الله ومصرى » . فأبيح تداول أشعار مصرى ، ولكن مع هذا التحذير الذى يقول : « بعد أن

قرأ المفتى هذه الأشعار والأقوال ، قذف بها فى النار ، وأصدر هذه الفتيا : إن من يتحدث ويعتقد كما فعل مصرى أفندى ، يجب أن يحرق ؛ أما مصرى أفندى فيستثنى من هذا الحكم : لأنه لا يمكن إصدار فتوى ضد من استولى عليهم الوجد والإلهام » .

ومن أقوال مصرى المشهورة قوله من قصيدة : « أنا الخاتم العظيم الذى خُتمت به الظواهر والغيوب ؛ أنا من وهبت جوهرى الوحيد لكل مخلوق ؛ أنا دائماً مع المسيح ، وسآتى معه أبداً ؛ أنا المصرى ، قد كنت لنفسى مَلك مصر . ما أعمق معانى أقوالى . ولكن لها تفسيراً سرياً ينطوى على سر مكنون » .

— ٦ —

غير محدود

أما أنك لا تستطيع الانتهاء ، فهذا ما يجعلك عظيما !

وأما أنك لا تبدأ أبداً . فهذا نصيبك !

إن قصيدك يدور كما تدور الأفلاك :

فالبدء والنهاية دائماً عنده سيان

وما يأتى به الوسط هو بعينه

ما يبقى إلى النهاية ، وما كان منذ البداية

أنت ينبوعُ السرور الحقيقىُّ بين الشعراء

والأمواج تجرى منك أفواجاً تلو أفواج

أنت فم متأهب أبداً للتقبيل

أنت نشيد من الصدر جميل

أنت غدير ساحر السقيا ،
أنت قلب يفيض بالمنح العليا

وليَفْنَ العالم كله ، أىْ حافظ !
فإنى لا أريد أن أنافس غيرك ،
غيرك أنت وحدك !
فلنتقاسم سويا ، نحن التوأمين ،
كل إيلام وكلَّ سرور
فما تحبه أنت وما تحتسيه ،
يجب أن يكون مفخرتى ، بل وحياتى ،

فهيا الآن غنينا ، بنار الوجد المشبوب !
لأنك الأقدم ، ولأنك الأحدث .

غير محدود : لعلها أنشئت فى ١٨١٤/١١/١٠ ؛ وكانت تحمل هذا العنوان : « طبيعة حافظ الشعرية » . ولما نشرت أوّلاً كان عنوانها : « حافظ » ، وذلك فى « كتاب الجيب للمرأة » ، لأن فيها تعبيراً عن طبيعة شعر حافظ الشرقية : من انسياب وتوالٍ فى الترتيب . وقد أوحى بها إلى جيته ، ما قاله فون همر فى ترجمته لديوان حافظ (ج ١ ص كه) : الخمر والحب ، والساقى والحبيبة ، والوردُ والبلبل ، والربيع والشباب ، ولذة الوصال ومرارة البعاد والانفصال ، والأتقياء المزيفون ، والسخرية من الزهد ، والإشادة بالجمال ، وتمجيد الشاعر لنفسه والفخر ، تلك هى الأقطاب التى يدور من حولها فى أنينٍ وحنينٍ عالمُ حافظ بين الشمس والقمر ، ونجوم الصباح ونجوم الثريا ».

وفون همّر قد أشار أيضاً إلى طابع السيولة فى الشعر الشرقى فقال :

« إن وحدة الكل الجميل ، وكمال الأثر الفنى المصبوب فى قالب واحد ، هذا كله لن تجده فى قصائد حافظ ؛ فإذا فككت البناء الجميل ، ونثرت الأبيات فرادى ، فإنك حينئذ تمتلئ إعجاباً بهذه الدرر اليتيمة الكثيرة » :

أما قوله : لأنك الأقدم ، ولأنك الأحدث — أما الأقدم فلأن جيته كان قد بلغ الذروة فى النضوج الشعرى قبل معرفته حافظاً ؛ والأحدث من حيث أنه أتى فأثر فى جيته حديثاً ، أو لأنه يبدو فى شعره حديثاً وجديداً كل الجدة .

— ٧ —

محاكاة

رجائى أن أشارك فى مذهبك الشعرى :
إن فى التكرار لنفسى لذةً وانتشاء ؛
سأكون أوّلا معنى ، وسرعان ما أجد اللفظ ؛
وللمرة الثانية لا أريد لرنين أن يتجاوب ،
وإلا وجب أن يكون ذا معنى جديد ،
كما فعلت أنت ، أيها المحظىُّ قبل الجميع

وكما أن الشرارة قادرة على أن تحرق مدينة السلطان
إذا سار اللهيب ، وأنتج بنفسه الريح ،
فاشتعل من ريح نفسه ؛ حتى إذا ما انطفأ
اختفى فى أعلى السماء :
كذلك احترق بلهيبك الخالد

قلبُ ألمانىٌّ قد أشعتَ فيه القوة من جديد

إن الإيقاعات الموزونة لتسحر حقاً

والقريحة تسر بها كل السرور ؛

لكن ، ما أقبح القناعات الجوفاء

لعارية عن المعنى ، الخالية من الدم !

إن الروح نفسها لتبدو غير سعيدة ،

حينما لا تقضى على تلك الصورة الميتة

بعد أن تكون قد أفكرت فى صورة جديدة

محاكاة : أنشئت فى ١٨١٤/١٢/٧ ، وكانت تحمل العنوان الآتى : القوافى الفنية . ثم صرح جيته بأنه يدين بإلهامه الشعرى هنا لحافظ (الأبيات ١١ وما يليه) ، ولكنه ينكر تقليد الصناعة الفنية للقوافى الموجودة فى الشعر الشرقى ، فلا يحاول محاكاتها (الفقرة ٣) .

والقصيدة يبدو فى الظاهر أنها تنقسم إلى قسمين ، يناقض الثانى (الفقرة ٣) منهما الأول (الفقرة ١ ، ٢). ولكنها فى مجموعها تبين عن موقف حافظ . فهو يقول هنا إن قصائده الشرقية لا يقدمها كمحاكاة ظاهرية ، فى الشكل والصورة ، لأشعار حافظ ، بل كمحاكاة حرة ألمانية لها ، فلا يلتزم فيها تلك القيود القاسية فى القافية التى يلتزمها الشعر الشرقى ، وبخاصة الفارسى وإنما المهم فى شرقية قصائد جيته هو تأثرها بالروح الشرقية عامة ، لا بهذا الشكل الخارجى الصناعى الفني ، مما استلهمه جيته من شعر حافظ . وقد لا يكون جيته قد قصد من هذا إلى الحط من قدر هذه الصناعة الفنية ، إنما الذى عناه خصوصاً هو الروح الشرقية فى صفاتها وجوهرها ، لا فى مظهرها الخارجى ، ذلك المظهر الذى تعلق به ريكرت وپلاتن فجعلا

أنفسهما أسيرين لتلك القيود التى يعسر اتباعها فى الألمانية ، وقد تكون أيسر فى الفارسية أو العربية .

و « الشرارة » التى يشير إليها فى أول الفقرة الثانية هى حافظ .

— ٨ —

سر ظاهر

لقد لقبوك ، أى حافظ الأقدس ،
اللسان الصوفى .
ولكنهم ، وهم العلماء
لم يفهموا قيمة كلماتك

أنت تسمى عندهم الصوفى
لأنهم يفكرون فى شعرك تفكيراً أحمق
ويقدمون خمرهم المدنسة
باسمك أنت

حقاً إنك لصوفى ولكن لسبب واحد :
هو أنهم لا يستطيعون فهمك
أنت ، يا من أنت سعيد ، من غير أن تكون تقيا
ولكنهم لا يريدون بهذا لك اعترافاً

سر ظاهر : أنشئت فى ١٨٤١/١٢/١٠ .

وكان همر قد أورد فى مقدمته لترجمة ديوان حافظ (ص يج و ص يه) ، اعتماداً على المترجمين والشراح الشرقيين لحافظ أن حافظاً قد لُقّب بأنه « لسان الغيب » بسبب المعنى السرّى المغيب فى أشعاره . إذ لم ...

الجمهرة العظمى من الشرقيين أن تفسر حافظاً بحسب الظاهر كما أشرنا إلى هذا من قبل فى « التصدير العام » عند كلامنا عن تفسير حافظ فى فصل « جيته وحافظ » . ومما أورده همر قول دولتشاه فى ترجمته لحافظ : « إن كلمات حافظ فى معناها الظاهر بسيطة خالية من التمويه ؛ ولكنّ لها مع ذلك معنى عميقاً باطناً يكشف عن السر والحقيقة والكمال المطلق . إن شعره أقل أفضاله ومزاياه ، لأنه ليس أقل شهرة فى باب قراءة القرآن والزهد والمجاهدة » . فنظراً لما فى ظاهر معنى قصائده من حسية وشهوانية ، أحال المتشددون من الشراح والمترجمين له أشعاره الحسية إلى أشعار ذات معان سرية صوفية ، فاعتبروا لغته لغة سرية صادرة من وحى الغيب ، لا من وحى الحس والمشاهدة ، ولذا نعتوه بأنه « لسان الغيب » .

وجيته قد ثار على هذا التفسير كما عرفنا ذلك بالتفصيل فى « التصدير العام » فنكتفى هنا بالإشارة إلى الفصل الخامس من هذا التصدير . ويبدو هذا بوضوح من مجرد عنوان هذه القصيدة . أجل ، هكذا يقول جيته فى هذا العنوان ، إن حافظاً سر ، ولكنه سر ظاهر ، وليس سراً مخبياً ، كما يزعم هؤلاء المتزمتون .

وقد فسرنا البيت التاسع وفقاً لملاحظة شيلدر الوجيهة (تجربة جيته الروحية فى الشرق » ص ١٧٦ ، فى التعليق على رقم ٢٤) .

— ٩ —

نظرة

وهم ، مع هذا ، على صواب ، هؤلاء الذين أزجرهم :

فمن البيّن الظاهر

أن الكلمة لا تعنى شيئاً بسيطاً

ألا إن الكلمة لمروحة !

بين ثناياها ، يرنو زوجٌ من العيون فتان .
وما المروحة إلا نسيج بديع ،
أجل .. إنها تخفى عنى وجه الحبيب ،
ولكنها لا تخفى الغادة نفسها
لأن آجمل ما لديها ، وهو عينها ،
ترنو برّاقة إلى عيونى .

نظرة : أنشئت هـذه القصـيدة بعد ١٨١٤/١٢/١٠ ، وقبـل ١٨١٥/٥/٣٠ ، وكان قد أعطاها هذا العنوان : « استدراك » أو « تَسْخ » لما قاله فى القصيدة السابقة .

ذلك أن جيته قد اعترف فى إنشائه لقصيدة « الشتاء وتيمور » (وهى القصيدة الأولى من « تيمور نامه » من هذا الديوان) أن تفسيره لحافظ كصوفى كان خاطئاً ؛ وبأن قصائد حافظ تتضمن أيضاً بالأحرى معنى ثانياً أعمق هو المعنى الصوفى . لذا كان عليه أن يتجنب التناقض الواقع بين رقم ٨ هنا وبين قصيدة « الشتاء وتيمور » التى يجب أن تفسَّر تفسيراً صوفياً ؛ فلهذا وضع هذه القصيدة . ولعل جيته قد تذكر هنا قول شرف الدين السعدى فى « البستان » (ترجمة أوليارس ص ٨٣) : « كل قول من أقوالى . . . كقناع مُسْبل على محيا غادة رائعة الجمال ؛ . . . فتحت كل حرف اختفى معنى ، كما تختفى الصورة الجميلة تحت غطاء » . فهذا يشبه كثيراً ما ورد فى الأبيات الأربعة الأخيرة من هذه القصيدة » ؟

— ١٠ —

إلى حافظ

لقد عرَفتَ ما يريده الكل
وفهمته خير الفهم :

لأن الحنين يقيدنا جميعاً
بأصفاد شداد ، من التراب إلى العرش .
إنه يؤلم أولا ، ومن بعـــد يسر ؛
فمن يقوى على مقاومته ؟
إذا تحطمت رقبة الواحد ،
فسيظل الآخر مستقيما فى ثبات

ألا فلتغفر لى ، أيها الأستاذ ،
فأنت تعرف أنى كثيراً ما أضل الطريق ،
حين يجذبَ البانُ السائر
إليه عين العاشق الناظر

إن أقدامها لتهادى كشعيرات الجذور
ملاطفةً الأرض فى رقة وحبور
وإن تحيتها لتذوب بيسر كما تذوب الغيوم
وإن أنفاسها لتهمس كالنسيم

وهذا يُزجى بنا ، تحدونا الأمانى والخواطر ،
إلى حيث تعانق الغدائرُ الغدائر
نامية فى وفرة من السُّمْرة ذات الزرافين ،
وفرةٍ سرعان ما تهمس فى أعطاف الريح الحنين

وها هى ذى النجمة ترف فى بَرَقَان
كى تصقل قلبك وتضفى عليه اللَّمَعان
فأرعى السمعَ إلى هذا القصيد الجذلان الصريح
وأرقدى فيها كل الروح

فإذا ما تحركت الشفاه
بكل رقة وأناقة وأناه
تركت لك كل سبيل
للولوج فى هذى القيود والدخول

لا يريد النَّفَسُ بعد أن يرتد ويعود ،
والنَّفْس إلى النفس لا تقر ولا تقود
إن العطور لتدور على حفافى الهناء
مثيرة غيوماً تسرى فى خفاء

فإذا اشتعلَتْ بكل قوتها وحالها ،
فأمْسِكْ سريعاً بشالها
وليسرع الساقى في المسير
ولْيأتِ مرة بل ليأت مرات متواليات.

إن عينها لتُبرق ، وقلبها فى خفقان ،
وآمالها تتعلق بأقوالك
تود إذا ما سمت بالروح الخمر والكاس.
أن تستمع إليك وهى عالية الإحساس.
هنالك تَتفتَّح الأكوان ،
وفى الباطن يشيع نظام وأمان
والصدر يعلو والشَّعر يبدأ الاسمرار
آه ! لقد استحال شاباً من جديد

وإذا لم يبق لديك من بعد سر

مما يحتويه القلب والأكوان
فتلفت إلى الحكيم فى إخلاص وحنان
حتى يتكشف لك المعنى المكنون

وليبق لنا كنز الأمراء
معقوداً بلواء العروش
وهب الشاه أطيب الكلم
وهبه أيضاً للوزير المُعْلَم

كل هذا أنت تعرف ،
وتغنى اليوم والغد تغنى
فلتحملنا صُحبتك إذن فى إخاء
خلال الحياة بما فيها من نعيم أو أعباء

إلى حافظ : أنشئت هذه القصيدة فى كَرْلِزْباد فى ١٨١٨/٩/١١ ؛ ونشرت لأول مرة فى نشرة الديوان الأولى ١٨١٩ فى « التعليقات » على الديوان ، ثم نشرت فى هذا الموضع من الديوان نفسه فى مجموع مؤلفاته (المنشور سنة ١٨٢٧) فى الجزء الخامس من هذا المجموع الذى بدئ ينشر فى اشتوتجرت وتيبنجن سنة ١٨٢٨ وما يليها . وفى النشرة الأولى اتبع القصيدة بهذه التعليقة : « إن شاء الخبراء أن يروا صورة حافظ فى هذه القصيدة ، فإن هذه المحاولة ستسرّ قلب الغربى » ، أى جيته نفسه يسره أن يرى الخبراء صورة حافظ جلية فيها ؛ فهذا « الغربى » يصور نفسه هنا على أنه تلميذ وتابع لحافظ ، ويصرح بأن كل ما تغنى به أستاذه (حافظ) فى قصائده من حب وخمر ، ونصح للشباب ، واتصال بالشيوخ

الحكماء ، ومدح للشاه والوزير — قد ملأ حياة الشاعر الغربي (جيته) وشعره .

والتشبيه بغصن البان السائر الشهور معروف فى الشعر العربى ، ومنه انتقل إلى الشعر الفارسي فأصبح كثير الورود جداً فيه . ومنه قول جامى فى غزلياته : «قد هفت نفسى وقلبى مع البان السائر ، حين مرّت بى تَثَنّى ، مروراً لست أنساه» (عن ترجمة ريكرت ، المنشورة فى «مجلة الجمعية الشرقية الألمانية» ج ٢ ص ٣٥) .

والفقرة الأولى تكشف عن الشبه الكبير بين مسلك كل من جيته وحافظ : فكلاهما قد خبر الحياة بكل ما فيها ، وتعلق بكل أجزائها من أدناها (من التراب) حتى أعلاها (إلى العرش) ، ولم يقتصر فى شعره على اتخاذ جانب واحد من جوانب الوجود ؛ ولم يتأثر كثيراً مما يجرّه عليه هذا من قيود . فحافظ قد ارتبط بشاه شجاع ، وجيته هو الآخر قد تعلق بكارل أوجست ، دوق فيمار . ولا ضير على الفن من هذا التصفيد ؛ فإن على الشاعر أن يحافظ على التوازن بين مقتضيات الفن الخالص ومطالب الحياة العامة ، بدلا من التضحية فى سبيل الواحد بالآخر .

ثم ينتقل جيته فى الفقر التالية إلى تأثره بحافظ فى أوصافه وتشبيهاته فيتغنى بالحب (إلى البيت رقم ٣٢) وبالخمر (إلى البيت رقم ٤٤) ، وبالحكمة (إلى البيت رقم ٤٨) وبإزجاء المدح للشاه والوزير (إلى البيت رقم ٥٢) .

فى الفقرة الثالثة يتغنى بالمحبوبة مشبهاً إياها بغصن البان السائر المتنقل ؛ وفى التالية وما بعدها يتغنى بمواطئ الأقدام وأنفاس الثغور المتبرّدة ، متأثراً فى هذا بذكر طيب النَّشر ونَضْخ العبير فى الشعر الشرقى . ويقصد جيته من العطور المذكورة فى الفقرة الثامنة خصوصاً رائحة المِسك ، لأنها

المميز الرئيسى للعطر الشرقى كما يتغنى به الشعراء الشرقيون ؛ كما فى قول المُرَقِّش الأكبر :

النَّشر مِسك والوُجوه دنا   نيرٌ وأطرافُ البَنان عَنَمْ

أو فى قول علقمة :

كأن فَـأرة مِسكٍ فى مفارقها   للباسط المُتعاطى وهو مَزكوم

(راجع « المفضليات » ج ٢ ص ٣٨ ، ص ١٩٧ ، من نشرة الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، طبع القاهرة ، سنة ١٣٦٢هـ = سنة ١٩٤٣ م) .

وتفتّح الأكوان (فى الفقرة ١١) يأتى من استيعاب تعاليم حافظ : فبواسطتها سيستحيل جيته إلى شاب من جديد ، فيزول البياض من رأسه ويستعيد الشَّعر سمرته ثم تنتزى فيه قوى النماء ، فيعلو صدره وتسرى به سَوْرة الحياة الشابة المتوثبة .

عشق نامه

كتاب العشق

أنبئيني ما الذي يهواه قلبي ؟
إنما قلبي لديك فاحفظيه

— ١ —

نماذج*

إن الأحبة ستةٌ ،
العشق بينهما مَثَلْ .
زوج هدته كلِمةٌ :
روذا ورستمٌ البطل .
عاشا ولم يتعارفا :
هذي زليخا يوسفَ :
عشقا بحب لم يَجِدُ :
شيرين تلك وفَرْهدُ .
هاما فجُنّ أخو الهوى :
ليلى ومجنون الفلا .
نعما بحبهما الطويلْ :
هذي بثينة معْ جميلْ .
هَوِيا على مرّ النسيم :
بلقَى وسَلمان الحكيم .

فإذا عرفت هواهمُ ،
أيقنت أنك منهمُ .

كتاب العشق : أعلن جيته عن هذا الكتاب فى « مجلة الصباح » (سنة ١٨١٦ ، رقم ٤٨ ، ص ١٨٩) هكذا : « كتاب العشق يعبّر عن وجد مشبوب بموضوع خفى مجهول . وإن كثيراً من القصائد التى به لا تنكر الحسّية ، ولكن كثيراً منها أيضاً يمكن أن يفسر تفسيراً روحياً على الطريقة الشرقية » . وكان العنوان الأول لهذا الكتاب هو : « زليخا نامه . كتاب زليخا الأول » ثم استبدل به هذا العنوان « كتاب العشق » ؛ وهذا إنما يدل على أنه فى هذا الكتاب إنما يتحدث عن العشق عامة ، أما فى « كتاب زليخا » فقد تحدث عن تجربة غرامية خاصة به ، هى تجربة غرامه مع مريانه فون فليمير ، بينا هو فى كتاب العشق يقصد العشق عامة ، لا تجربة معينة .

الشعار : هذا الشعار مستعار من حافظ (ترجمة فون همر ، جـ ١ ص ١٥٢) حين يقول : « انظر ! إن قلبى يقف أمام الباب ! ولكن مَجْدُهُ مع هذا وبَجَلُه » (حرف التاء ، ٧٠) .

نماذج : أنشئت فى مايو سنة ١٨١٥ أو قبل هذا بقليل ، وكان عنوانها الأول : « عُشّاق » .

وجيته يذكر هنا أسماء ستة أزواج من العشاق المشهورين ، وكل منهم يمثل نوعاً خاصاً من العشق :

فالفردوسى يحدثنا فى « الشاهنامه » كيف التهب قلبا زال وروذابه بالعشق من مجرد الأخبار التى يرويها الآخرون لكل منهما عن الآخر قبل أن يتلاقيا . وجيته قد خلط بين زال وبين ابنه رستم ، البطل الفارسى المشهور ،

فظن أن ذلك العشق كان بين رستم وروذابه . فهذا العشق بالخبر هو ما قصده جيته من قوله : « هدته كلمة » أى أوصاف الآخرين منهما عن الآخر .

أما الزوج الثانى فهو زليخا امرأةُ قُطفير ، ويوسف النبى . وما كان بينهما أمره معروف وخصوصاً كما ورد فى سورة « يوسف » وفى قصص الأنبياء . أما تصوير جيته لهذا العشق على أنه تم دون أن يعرف أحدهما الآخر فمرجعه إلى تصوير الشعراء الفرس لهذا العشق بينهما على أنه المثل الأعلى للحب العذرى البرىء . فقد قرأ فى كتاب ديتس بعنوان « ذكريات عن آسيا » (ج ١ ، ص ٣٠) : « لما كان هذا الحب قد انبثق من رؤية جمال يوسف الباهر ، وظل دون أن يظفر بإشباع حِسِّى ، فقد نظر إليه المسلمون على أنه النموذج الأعلى للحب العذرى البرىء ، وإن كان عنيفاً ؛ هذا الحب يفضى إلى الحب الإلهى ، لأنهم يروون أن زليخا قد اهتدت فى نهاية الأمر إلى الإيمان . فكان هذا مصدراً لقصة كتبها چامى بالفارسية بعنوان « يوسف وزليخا » . وفيها صُوِّر العشق على أنه الميل إلى كل ما هو جميل وخير ونبيل ، ومن شأنه أن يرتفع إلى حب الله وعبادة خالق كل جمال ، عن طريق تأمل الجمال الحسى » .

أما الزوج الثالث فهو فَرْهاد وشيرين اللذين عرف جيته أمرهما من كتاب فون همّر بعنوان : « شيرين » ، قصيدة فارسية عاطفية مأخوذة من المصادر الشرقية ، فى جزئين ، ليپتسج سنة ١٨٠٩ » .

فهم يذكرون أن المعمار فَرهاد قد فقد عقله حينما رأى الأميرة الأرمنية شيرين ، زوج الشاه خسرو الثانى المعروف بخسرو أبرويز (سنة ٥٩١ — سنة ٦٢٨) . ولما جاءه نبأ وفاتها ، وكان نبأ كاذباً ، ألقى بنفسه يائساً من فوق قمة جبل بيستون . وشيرين بدورها قد انتحرت بعد موت فَرْهاد

وخسرو ، لأن الشاه قد أراد إرغامهما على حبه ، فقد مات كلاهما إذن من أجل الآخر ، ولم يسعدا بحبهما ، لذا قال جيته : « ماتا بحب لم يَجِدْ » .

وغرام ليلى والمجنون معروف جيداً لكل قارئ عربى فلا داعى لذكره ، إنما نكتفى بالإشارة إلى أنه كان موضوعاً لقصة جميلة كتبها جامى بعنوان « مجنون ليلى » وترجمها َهرْتمن إلى الألمانية (ظهرت فى امستردام ؛ فى جزئين سنة ١٨٠٨) ؛ ثم لقصة أخرى كتبها نظامى أروع من قصة جامى وأشهر ، كما كانت موضوعاً لقرابة عشرين قصة غرامية أخرى فى الشرق (راجع ڤولهيم : « الأدب القومى عند شعوب الشرق » ، ج ٢ ص ١٣٣ ، تعليق رقم ٣) .

والأمر على هذا النحو أيضاً بالنسبة إلى غرام جميل وبثينة ، الذى قال عنه جيته فى « التعليقات » : إن جميلا وبثينة : قد بقيا مرتبطين بالغرام حتى سن متقدمة جداً » . وقد عرف جيته أمر غرامهما من كتاب هربوليه : « المكتبة الشرقية » (پاريس سنة ١٧٨١ — سنة ١٧٨٣) ، ترجمة ى . شولتس (هلّه ، سنة ١٧٨٥) .

والزوج الأخير : سليمان وبلقيس ملكة سبأ ، قد عرف جيته قصته من كتاب « شيرين » لفون همر كما عرفه أيضاً من العهد القديم » ، فى كتاب « الملوك الأول » ، اصحاح ١٠ : ١ — ١٣ ؛ و « الأخبار » ، اصحاح ٩ : ١ — ١٢ ، أو من « نشيد الأناشيد » . كما عرفه أيضاً من سورة « النحل » الآيات : ٢٠ — ٤٥ .

— ٢ —

وزوج آخر

أجل ، إن الحب لنعمة كبرى !

فمن ذا يجد كسباً أجمل منه ؟

نعم ، لن تكون به أقوى ولا أغنى ،
ولكنك ستكون مثيلا لبطل الأبطال .
إن الناس سيتحدثون عن وامق وعذراء
كما يتحدثون عن الرسول
أو بالأحرى لن يتحدثوا، بل لاسمهما سيذكرون:
فاسمهما معروف العالمين .
ماذا فعلا ، ماذا أتيا :
هذا ما لا يعرفه إنسان !
أما أنهما أحبا ، فهذا للكل معلوم .
وكفى هذا ، حين يسأل عن وامق وعذراء

زوج آخر : نشرت لأول مرة فى « التعليقات » فى الفصل الموسوم بعنوان : « الديوان المُقْبل » ، مع هذه الكلمات : « وامق وعذراء مثلا ، اللذان لا نجد عنهما خبراً عدا اسميهما ، يمكن أن يقدما هكذا . . . » .

ويحتمل أن تكون هذه القصيدة قد أنشئت فى خريف سنة ١٨١٨ حينما قرأ خبر هذا الزوج من العشاق فى كتاب همّر بعنوان « تاريخ فنون القول الجميلة عند الفرس » (ڤينا ، سنة ١٨١٨) ص ٣٥ ؛ وفيه يذكر همر أن قصة غرام هذين العاشقين تقع فى زمان النبى ، والمخطوطات التى فيها ذكرت قصيدة غرامهما قد مُزّقت بفعل التعصب ؛ ولم يتبق لدينا عن هذه القصة إلا قصة تركية .

والأصل فيها قصة فارسية يزعم أنها مأخوذة من أصل فهلوى ؛ وأنها قدمت فى نيشاپور إلى الأمير عبد الله بن طاهر (المتوفى سنة ٣٣٠ = ٨٤٤ م) على هيئة كتاب قديم مهدى إلى خسرو الأول أنوشروان (٥٣١ —

٥٧٩ م) ؛ وأن الأمير عبد الله بن طاهر قد أمر بإحراقها لأن كاتبها زرادشتى . وأيا ما كان الأمر فقد وضعت شعراً ، وضعها عُنصرى الشاعر الفارسى الكبير ، ومن بعد وضعها فصيحى الجرجانى فى سنة ٤٤١ هـ (= ١٠٤٩م) . وهناك ما لا يقل عن ست تصويرات لها ، كلها فقدت وفى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى كتب مرزا محمد صادق ، تحت اسم مستعار هو نامى ، قصة منظومة تحمل نفس العنوان .

وتناول هذا الموضوع من بعد فى لغة تركية عثمانلية بهشتى (وكان معاصراً للسلطان بايزيد الثانى) وأدخلها فى كتابه « خمس » . ومن المحتمل أنه وضعها وفقاً لقصة عنصرى وفصيحى . كما تناولها لامعى (المتوفى سنة ٩٣٧ هـ = ١٥٣٠م أو سنة ٩٣٨ هـ = ١٥٣١ م) . وخلاصة هذه القصة الأخيرة أن وامق ، ابن إمبراطور الصين ، هام غراما بعذراء ، ابنة أحد الملوك ، وارتحل سعياً وراءها ، مر بكثير من الصعاب والعقبات التى استطاع اجتيازها بفضل الجن . ثم وجد حبيبته ، ولكنه وقع فى أسر العدو . فلما أرسل إلى الهند ، حيث أراد الناس إحراقه بالنار ، لم تمس النار وامقاً ، فعبده الهنود كإله . فتخلص البطل من أيديهم ، ووجد عذراء وتزوجها . (انظر « دائرة المعارف الإسلامية » ، تحت المادة) .

— ٣ —

كتاب قراءة

إن أعجب الأسفار سِفر الحب :
لقد قرأته بكل إمعان واهتمام :
قليل من صفحاته تتحدث عن سرور الصب ،
ومصاحف بأسرها تفيض بالأسقام

فالفـــراق له قسم الأقسام
أما اللقيا من جديد ففصلها ضـــئيل نحيل
وأســـفار الأحزان ، تطيل منها .
والتفاسير ، أوه ما أطولها ، إنها بلا انتهاء ؛
أى نيشانى ! — لقد استطعت فى النهاية ،
أن تكتشف الطريق القـــويم ؛
هذا السرُّ المستغلق ، من ذا يقدر على كشفه ،
فيتلاقى العشاق من جـــديد ؟

كتاب قراءة : أنشئت فى نهاية ديسمبر ســـنة ١٨١٥ ، أو يناير سنة ١٨١٦ .

وجيته هنا إنما يحاكى أبياتاً للشاعر التركى المعروف نيشانى ، الذى كان على عهد سليمان الأول (سنة ١٥١٩ — ١٥٦٦) ، يقول فيها : « حينما بدأت تعلم فن الحب ، قرأت بكل عناية فصولا عديدة من كتاب ملئ بنصوص الآلام وفصول الفراق . أما فصل الوصال فما كان أقصره وأوجزه ، بينما أسهب فصل البعاد والفراق والسقام ، وامتلأ بالشروح بلا حد ولا نهاية . إيه يا نيشانى ! فى النهاية قد هداك دليل الحب سواء السبيل . وإن الأسئلة العديدة المستعصية الحل لا تجد لها جواباً إلا عند المحبوب » . ويضيف ديتس (« ذكريات من آسيا » ، جـ ٢ ، ص ٣٧١) ، الذى قرأ جيته فى كتابه هذا القول ، التعليق التالى : « إن قوله : دليل الحب والمحبوب ، يشير هنا إلى الله . وكل بيت من هذه الأبيات لا يتحدث إلا عن الحب الإلهى » ؛ غير أن جيته قد خلط بينه وبين الشاعر الفارسى نظامى فى « التعليقات » على الديوان (ولذا كتبه فى القصيدة هكذا بدلا من : نيشانى) .

— ٤ —

أجل ، لقد كانت العيون هى التى ردت إلىّ ،
وكان الفم ، هو الذى قبّلنى ،
والأفخاذ ضيقة ، والجسم مستدير ملىء
يكاد ينبئ عن نعيم الفردوس .
أكانت هناك ؟ وإلى أين ذهبتْ ؟
نعم لقد كانت إياها ، وهى التى أعطتنيها ،
وأسامت قيادها وهى فارّة ،
وملكت علىّ كل حياتى .

أجل ، لقد كانت العيون : أنشئت فى ١٨١٨/٧/٣١ تحت تأثير ذكرى مريانه فون ڤليمير ، ولذا نشرت فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

وفيها حنين عنيف إلى الأيام العذبة التى قضاها مع مريانه ، وما نعم به منها من لذائذ تفوق كل وصف ، وكلها تعبق بذكرى غرامية تكنفتها شهوات جامحة .

— ٥ —

متنبه*

لذ لى التصفيدُ فى قيد الغدائر ،
فجرى ، حافظُ ، لى ما قد جرى لك
ضفّروا من شعرها زوج الضفائر
فعرفنا بينها عذب المعارك
إنما العاقل من لا يؤسرُ :

فإذا خاف قيــوداً تكسـر ،
كان يسرى فى قياد ، يحصر

متنبيه : إن ذكرى مريانه (فى القصيدة السابقة) وغدائرها السمراء تجعلنا نؤرخ هذه القصيدة قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ . وكان عنوانها الأول « غدائر وعقائص » ، وفيه سخرية من طريقة تصفيف الشعر واختلافها بين الشرقيين والغربين المحدثين ، الذين يعقص النسوة منهن شعورهن على هيئة ما يشبه الخوذة فوق الرأس ، بينا ترسل الشرقيات غدائرهن على ظهورهن .

وجيته قد استلهم فيها قول حافظ فى مطلع الغزل رقم ٦١ من حرف التاء (جـ ١ ص ١٣٨ من ترجمة فون همر) : « فى أحابيل غدائرك أُختِلب قلبى » ، ثم قوله فى الغزل رقم ٦٧ : « إننى نشوان من نشر غدائرك المجدولة » .

— ٦ —

غارو

هذا الرأس المستدير ملىءٌ بالغدائر المتجعّدة !
فإذا ما تنقّلتُ بأيد مبسوطة فى مثل هذا الشعر الجُفَال ،
شَعَرتُ من أعمـــاق قلبى بالشفاء .
وإذا قبلت الجبين والحاجب والعـــين والفم ،
أصابتنى هزة واستحلت أبداً إلى جريح .
إن المُشط ذا الأسنان الخمس أين يجب أن يوضع ؟
لقد عاد من جـــديد إلى الغـــدائر .

والأذن لا تحجم عن اللعب ،
فليس هنا لحم ، وليس هنـــا جلد ،
إنه أنيق حتى المزاح ، لطيف كل اللطف !
فإذا لاطف المـــرء الرأس ،
تنقل مرتحلا دائماً بين هذا الشعر الجُفال .
وهـــذا ما فعلتَه أنت من قبل ، حافظ ،
أما نحن فقد أوشكنا على البدء به .

غاره : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣٠ . وكان عنوانها الأول « غدائر » مما يدل على ارتباطها كل الارتباط بالقصيدة السابقة .

وهي مزاح على طريقة الشعراء الفرس .

أما المُشط ذو الأسنان الخمس فهو اليد .

وهي تشبه أيضاً ما يقوله حافظ (القصيدة الثانية من حرف التاء) : هل مشطت غدائرك العنبرية بمشطك ؟ لأن ريح الصبا تتنفس رائحة المسك ، والأرض تعبَق بالعنبر » .

— ٧ —

مُقلوه

هل لي أن أتحـــدث عن الزمردْ
الذي يكشف عنه بنانك الرَّخْص ؟
أحياناً يحوج الأمر إلى الكلم ،
وغالباً يكون من الخير الصمتُ
وأقول إن اللون أخضر ،

ويبـــدو مثيراً للعيون !
ولا تقُل لى : إن الألم والنُّدْبة
علىٰ وشك أن يثيرا الفزع
ليكن ! وفى وسعك أن تقرأيه !
فلمـــاذا تؤثرين ... كل هذا التأثير !
« إن جوهرك خطـــر
بقـــدر ما الزمرذ مثير »

مقلوب : أنشئت فى ١٨١٥/٩/٣٠ فى مَنهيْم ، فى نفس اليوم الذى أنشئت فيه قصيدة « حاتم » (« إن الغدائر تختلبنى ») . ولهذا فإن المقصود بها هنا هو مريانه ، الذى كان تأثيرها فيه مثيراً للقلق والخطر والإنعاش معاً ، وأكفها الجميلة كانت تشبه الزمرذ الأخضر ، وهذا ما أشار إليه فى أول الفقرة الثانية . وجيته قد قال فى « الأنساب المختارة » (ق ١ ، ف ٦) : « إذا كان الزمرذ يسر المحيا بلونه الرائع ، أجل بل أيضاً يحدث تأثيراً كالترياق فى هذا الحس النبيل ، فإن الجمال الإنسانى يؤثر تأثيراً أعمق وأقوى فى الحس الخارج والباطن » .

فالمُقلِق هنا هو هذا التعارض بين شفاء العيون بلونها الأخضر الزمرذى ، وبين الجرح الذى يحدثه فى القلب البنانُ الحامل لفص من الزمرذ .

وكان الأقدمون يعرفون تلك الخاصية للزمرذ ؛ لذا نسبوا إليه قيمة أعلى من الياقوت . فهم يذكرون أن خاتم پوليكراتس المشهور كان من الزمرذ .

— ٨ —

حبيبى ، أواه ! فى أصفاد ثقال
غُلّت الأناشيد الطليقة
التى ترنق هنا وهناك
فى أرجاء السماء الصافية الزرقاء ،
كل ما فى الكون يفنيه الزمان
وهى وحدها باقية على الدوام !
فكل سطر منها يجب أن يكون خالداً ،
خالداً خلود الحب نفسه

حبيبى أواه ! : أنشئت فى منتصف أغسطس سنة ١٨١٩ ، ونشرت فى سنة ١٨٢٧ فى هذا الموضع . ويبدو أن جيته قد جعلها كإهداء لنسخة الديوان التى أهداها إلى مريانه .

وفيها يقول إن ما بهذا الديوان من قصائد خالد خلود حب جيته لمريانه .

— ٩ —

سلوى بائسة*

فى هزيع الليل ذرّفت الدموع
زافراً أبكى على بُعدك عنى
فأتت حينئذ أشباحُ ليلٍ ،
إذ تبدّت ، خجلت نفسى منى :

« أيها الأشباح إنى أشتكى ،
بعد أن كنت أرى فى النوم أسبحْ .
إنما يعوزنى أعظم خير ،
لا تسىء فهمى إذن يا ليل واصفح .
إن من لقبتَ من قبل حكيما ،
قد عرته الآن أحداث جسام ! »
قلت هذا ، فمضت كالحةً ،
بالحجا والحمق من غير اهتمام .

سلوى بائس : أنشئت فى ١٨١٥/٥/٢٤ فى ايزناخ فى يوم ملىء بالأغانى .

وفيها توسُّع لما يقوله حافظ (حرف اللام ، رقم ٢) : « من أجل الدم الذى زرفته عيناى فى ليلة الأمس ، استحيت نفسى من أشباح الليل » (ترجمة هر ، ج ٢ ، ص ١٣٢) . ويذكر فُرْم أن جيته تأثر هنا أيضاً سفر « أيوب » (أصحاح ٤ : ١٣ — ١٧) . ولكنه فى الواقع تأثر بعيد ، لأن الأشباح التى تبدّت هنا فى الليل لها معنى غير المعنى الذى يرمى إليه جيته فى هذه القصيدة .

— ١٠ —

راهب

واهم أنت إذا ما كنت تحسب
أن بالحب تقاد الغانيات .
إن هذا ليس بالآمر لُبى :

ملَقاً يفهمن معسول الصفات

الشـــاعر

سعيدٌ باقتنائها ؛
وعذرى عن تجنبها :
بأن الحب ، ذا جودُ ،
وفى التمليق تمجيدُ

راصهر : الأشبه أنها قد أنشئت بعد ١٨١٥/٥/٢٤ م

والشاعر هنا يقول إنه إذا كان من الخطأ أن يظن الإنسان أن المرأة تقاد بالحب الخالص ، كعاطفة بريئة من كل تملق أو تمجيد أنانى ، فإنه كشاعر لا ضير عليه من أن يتملقها وأن يسلك سبيل الملق من أجل الظفر بحبها ؛ وعذره فى هذا أن الحب منحة يهبها صاحبها حراً مختاراً فلا يقدر إنسان على قسره عليها ، ويكفيه هو أن يتغنى بها لأن ما يعنيه حقاً هو أنه يحبها ، لا أنها هى أيضاً تحبه .

— ١١ —

تحية

آه ، ما أسعدَ جــدّى !
فى بلاد الهُدهد ،
سِرْتُ ؛ عن قوقع بحرِ
باحثاً فى كل صخرٍ ؛
فأتى الهــدهد قربى ،

ناشراً تاجاً بهُدْب ؛
وعلى الميْت المسجَّى
كلُّ حيّ قد تجنى .
قلتُ : « يا هدهد ، ويلكَ !
طائرٌ للحسن أحكى ،
فسراعاً اذهَبْن
لحبيبيَ واعلِنَن
كلّ حبي أبدا
وغرامى المُخلَدا .
كن رسولى بالنَّبأ
مثلما فى الحِقَب
بين بلقيس سبأ
وسليمان النبى

تحية : تاريخها فرنكفرت فى ١٨١٥/٥/٢٧

وفيها كما فى القصيدتين التاليتين يعيد جيته ذكرى قصة الهُدْهد مع سليمان النبي ، حين كان رسولا للغرام بينه وبين بلقيس ملكة سبأ ، كما وردت هذه القصة فى « العهد القديم » (« الملوك » الأول ، ١٠ ؛ « والأخبار » الثانى ، ٩) ؛ وكما أوردها القرآن خصوصاً فى سورة « النمل » (آيات : ٢٠ — ٤٥) ، ورددها همّر فى مقدمة ترجمته لديوان حافظ (ج ١ ، ص لو) وديتس فى « الذكريات » (ج ١ ، ص ١١٥) . وقد تغنى بها حافظ فقال : « نبأ يسرُّك يا فؤادى ! فالريح الشرقية قد عادت ، وعاد معها الهدهد من سبأ بالنبأ السعيد » (ترجمة فون همر ، ج ١ ، ص ٢٦٧) . وقد رأى جيته هدهداً حين كان يمر فى ناحية فرنكفورت فى المنطقة المائية الواقعة

بين تاونس وأودنفلد ودونرزبرج ، فلما رآه توسم فيه رسولا لحب جديد . وقد ذكر جيته هذا أيضاً فى رسالة من رسائله إلى مريانه .

أما قوله : « ناشراً تاجاً بهدب » ، فلعله تأثر فيه قول فريد الدين العطا فى قصيدة « منطق الطير » حين قال الهدهد فى هذه القصيدة : « إن من يبدو رسولا ، لا بد أن يحمل فوق رأسه تاجاً » .

— ١٢ —

تسليم*

« أنت تَفنى ، ثم تبدو كالخليل ،
أنت تَضوى ، ثم تشدو بالجميل »

الشـــاعر

إن حبي دائماً يقسو عَلَيّ
ويح نفسي منـــه جباراً عَتِيّا
إنما أشـــدو بقلب يختنق

ألمُ الحب أوى ركنا خليّا
فرأى فيهِ فؤادِي الصِّفْرَ حيّا
فثوى الإثنان فى القفر سويا

* تسليم : بتاريخ ١٨١٥/٥/٢٧ فى فرنكفورت ، ونشرت فى « كتاب الحبيب للمرأة » (لسنة ١٨١٧) تحت عنوان : « مشاركة » . فيما عدا الأبيات الأربعة الأخيرة التى أدخلت فى سنة ١٨٢٧ .

وهى تشارك القصائد رقم ١٠ ، ١٤ ، ١٥ فى موضوع : مشاركة الناس

الشاعر فى غرامه ، ومن هنا كان عنوانها الأصلى : مشاركة .

وفيها تأثر جيته حافظاً فى قوله :

سلوا ، أيها الأخوان عن حال حافظٍ

شُموعاً دواماً فى احتراق وفى صَهَر

(ترجمة فون همّر الألمانية ، ١ ، ص ١٤٣) ؛ وقوله :

احتَرقْ كالشمْع فى بشرٍ أليم شاكراً ، ما دمت تحظى بالصديق

(ترجمة فون همّر ، ج ٢ ، ص ٣١) .

ويعلق فون همر على هذا الموضع فيقول : « تعلم من الشمعة كيف تضحك وتبكى معاً : لأن الشمعة تضحك فى نور باهر خلال الاشتعال ، بينا هى تسكب ، منصهرةً ، دموعاً حارة » .

والفقرة الأخيرة أيضاً متأثرة بقول حافظ : (حرف اللام ، ١) :

لم يَجِدْ سُقْمك قفراً مثلما فى القلب ألاّ

ولذا اختار مضيق الـ قلب وكراً فيه حلاّ

(ترجمة فون همر ، ج ٢ ، ص ١٣١ ؛ ترجمة روزنتسفيج ، ج ٢ ، ص ١٨٣) .

ولكن ماس E. Mass يرى فى كتابه : « جيته والأوائل » (ص ٤٤٤ ، برلين سنة ١٩١٢) أن جيته إنما تأثر فى هذه الفقرة مقطعة افلاطون الهجائية ضد أرستوفانيس : « إن اللطائف (وهم بنات ڤينوس من چوپيتر أوباخوس أجلايا ، طاليا وأويفروزينه ، وكن عذراوات جميلات يخدمن على ڤينوس) قد نشدن منزلا لأنفسهن لا ينهدم أبداً : هنالك وجدوا نفس أرستوفانيس » .

— ١٣ —

لا مناص

من ذا يستطيع أن يرجو الطائر ،
أن يصمت وهو على المرج الناضر ؟
ومن ذا يمنع الشاة أن ترتعص ،
أثناء ما صوفها يجز ويقص ؟

فهل أتبرم إذن وأتمرد ،
حينما صوفى يتجعّد ؟
كلا ! فإن الجزار الذى يقصنى
ليحول بين التبرّم وبينى .

من ذا يريد أن يحول بينى
وبين الشدو مسروراً ، للسماء أغنى ،
مستودعاً غنائى السحاب ،
مثل ما حدث معى فى سالف الأحقاب ؟

لا مناص : تاريخها : ڤيزبادن ، ١٨١٤/٨/٣١ ، ونشرت سنة ١٨١٦ « فى كتاب الجيب للمرأة » لسنة ١٨١٧ بعنوان : « غير صابر » : وكان عنوانها فى المخطوطة : « حرف الشين غزل رقم ٢٢ » ، وفى هذا إشارة إلى أنه تأثر هنا حافظاً فى قوله (حرف الشين غزل رقم ٢٢) :

أين من يرجو من الأطيار صَمْتا
وهى تشدو بالأغانى فى المروج ؟

فإذا كنتُ إلى إثرك أصبو
فإذن أين أناتى ، أين صبرى !

(ترجمة فون همر ، جـ ٢ ، ص ٨٧) .

— ١٤ —

سر *

على عيون الحبيب ،
دارت جميع القلوب ؛
إنى بهذا عليم ،
معناه عندى مقيم

معناه أنى بهواها
أحيا وما لى سواها
فامضوا بهذا الحنين
أو بالهوى فالأنين

حقا ! بعين قوية
جلّت بجو البريّة
رامت تزف السعادة
للصب عند الوسادة

سر : تاريخها كالسابقة ؛ وقد نشرت أولا بعنوان : « سر سعيد » ، وأعلن عنها هكذا فى « مجلة الصباح » سنة ١٨١٦ ، برقم ٤٨ : « وجد مشبوب بموضوع خفى غير معلوم » .

وقد استلهم فيها أبياتاً لحافظ يقول فيها (حرف الدال ، ١١٠) :

دُهِش الأغرار من عيْن حبيبى ؛
وأنا مثلُ الذى أبدو عليه ،
بينما يدرون من أمرى خلافه

(ترجمة فون همر ، ج ١ ، ص ٣٦٨) .

— ١٥ —

أكبر سرا

« نحن فى جد واهتمام ، كى نعرف ،
نحن المولعين باصطياد النوادر ،
من ذا يكون حبيبك ،
وهل كان لك كثير من الأصهار

أما أنك مُدلّه بالغرام ، فهذا بادٍ نراه
فليت نفسك تنعم بمن تهواه
أما أن حبيبك هكذا يهواك
فهذا ما لا نستطيع أن نؤمن به »

ألا فلتبحثوا عنها ما شئتم يا أحبائى ،
ولكن استمعوا إلى قولى :
سترتاعون حين تكون واقفة هناك !
فإذا غالت ، ناغيتم خيالها

فهل تعرفون كيف خلع شهاب الدين

ثيابه وهو فوق عرفات :
إنكم لا تصفون بالحمق
من يأتي مثل ما فعل

فإذا ذكر اسمك
أمام عرش السلطان
أو أمام الحبيبة
فليكن ذلك لك أعظم جزاء

لذا كان أعظم الأحزان ،
أن يطلب « المجنون » وهو يموت
أن لا يذكر اسمُه بعدُ
أمام « ليلاه »

أكبر سرا : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣١ :

وهذه القصيدة تتعلق بمارية لدوفكا ، امبراطورة النمسا الفاتنة الشابة التي كان جيته يقدسها حتى العبادة . ولكنها شاءت ألا يذكرها الشاعر في أي مؤلف من مؤلفاته . فوعدها جيته بأن يظل مخلصاً لها في قلبه ؛ وأن يضلل الباحثين عن تقديمه لها ، بأن يجعل إشاراته إليها عسيرة الفهم كل العسر ، فلا يستطيع « المولعون باصطياد النوادر » أن يعرفوا « ماذا يكون حبيبه » .

وفى الفقرة الرابعة يرمز جيته إلى مكانته العالية لدى هذه الحسناء الممتازة بقصة عرفها من « كنوز الشرق » (ج ٤ ، ص ١٧٠) تُروى عن الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي ، شيخ مشايخ الصوفية في عصره : وخلاصة القصة أن الشيخ كان يصعد جبل عرفات ؛ فلما رأى خلقاً كثيراً

قد تبعه قال لنفسه : أوَتحسبين أن مكانتك عند الله كما يتصورها هؤلاء الناس ؟ هنالك ظهر أمامه عمر بن الفارض وقال له : « إنى أحمل إلى قلبك رسالة سعيدة ! اخلع ثيابك (كى تظهر شكرك لله) ؛ لقد كنت موضوع تفكير من تهواه ، على الرغم من كل ما فيك من عيوب ونقائص » . فخلع الشيخ شهاب الدين ثيابه ودخل الحرم .

أما الفقرة الأخيرة فتعبّر عن شعور الشاعر بعذاب الفراق ، رامزة إلى هذا بقصة مأخوذة من « بستان » للسعدى (ترجمة أوليارس ، ص ٤٤) : « قال مجنون (لليلى) : إنى لا أستطيع أن أكون رضىّ البال ، لأنى بعيد عنها كل ذا البعد الكبير . فسأله الآخر : فهل لديك شىء أكون رسولك إليها به ؟ ولكن المجنون أجاب : لا حاجة لأن أنكر حيث هى توجد » .

ولما كانت مارية لدوفكا قد توفيت فى ١٨١٦/٤/٧ ، فقد كان لهذه الفقرة الأخيرة معنى مؤثر كل التأثير فى جيته حينما نشر الديوان سنة ١٨١٩ .

تفكير نامه

كتاب التفكير

— ١ —

استمع إلى النصح تسديه القيثارة ؛
وما يفيـد إلا إن كنتَ ذا جداره ؛
إن خـير الكلم ليقابل بالازدراء ،
حين يكون السامع ذا أذن صماء .

« بماذا تغنى إذن القيثارة ؟ » إنها ترن :
« إن أجمل العرائس ليست خيرهن ؛
ولكن، إذا كان علينا أن نعدك من بيننا ،
فعليك أن تريد الأجمل الأصلح »

كتاب التفكير : أعلن عنه جيته فى « مجلة الصباح » (سنة ١٨١٦ ، برقم ٤٧ ، ص ١٨٠) هكذا : « إن كتاب التفكير نوع من الأخلاق العملية وحكمة الحياة ، وفقاً لعادات الشرق وطباعه » .

وكما يلاحظ جُنْدولف (ص ٦٥٥) على هذا الكتاب بحق ، إن هذا الكتاب غير ظاهر الوحدة ، يكاد أن يكون مجموعة من الخواطر المتناثرة التى وضعها جيته فى ظروف مختلفة ثم جمها من بعد فى هذا الكتاب ؛ ثم فى كتاب « الأمثال » الذى يشبهه فى هذا التفكك .

والطابع البارز فى هـذا « التفكير » هو النزعة الواقعية الساخرة فى تشاؤم رشيق .

اسمع إلى : أنشئت في يوليو سنة ١٨١٤ .

وتعتبر هذه المقطوعة شعاراً « لكتاب التفكير » كله . وفيها تأثر حافظاً حين قال (حرف الياء ، رقم ٧١ ؛ ترجمة فون همر، جـ ٢ ، ص ٤٥٩) :

اسمع النصح من القيثار يُسْدَى !
ليس يجدى النصح إلا كنتَ أهلا

— ٢ —

خمسة أشياء

خمسة أشياء لا تلد خمسا ؛
فأرْعِ سمعك لهذا المذهب :
القلب الصفيق لا ينبت الصديق ؛
أبناء الوضاعة سوء الأدب عندهم بضاعة ؛
لا يبلغ السوءُ مهما علا أيَّ علُا ؛
الحسود لا يرحم المفقود ؛
الكاذب الميّان ينشد عبثاً الإيمان .
احفظ هذا عني ولا تدع أحداً يسلبك إياه

خمسة أشياء : أنشئت في ١٨١٤/١٢/١٤ في يينا ؛ والمخطوطة تذكر كمصدر لها الفصل السادس والأربعين من « پند نامه » (كتاب الإرشاد) لفريد الدين العطار ، وقد قرأه جيته في ترجمة سلفستر دى ساى الفرنسية (المنشورة في « كنوز الشرق » ، جـ ٢ ص ٢٢٩) ، وفيه يقول العطار : « إن خمسة أنواع من الأشياء ليست مطلقاً ناتجة عن خمسة أخرى ، ولا يمكن أن تصدر عنها : فانقش في ذاكرتك هذه النصيحة التي تتلقاها عني :

إن الصداقة لا توجد مطلقاً فى قلوب الملوك ؛ فتلك حقيقة لا شك فيها تؤيدها شهادة الراسخين فى العلم أجمعين . لن تجد أدباً عند قوم لئام . الرجل السيئ الخلق لن يبلغ مكانة عظيمة أبداً . الحسود ليس أهلا لأن تتوقع منه إخلاصاً » .

— ٣ —

خمسة أخرى

أى شىء يَقصِر الزمان ؟

إنه العمـــل !

أى شىء يجعله غير محتمل ؟

إنها البطـــالة !

أى شىء يجلب الخطايا ؟

المثـــابرة والتساهل

أى شىء يأتى بالكسب ؟

عدم التفكير الطويل

أى شىء يرتفع بك إلى صدر الشرف ؟

النخـــوة والمروءة

خمسة أخرى : أنشئت فى ١٨١٤/١٢/١٦ كمقطوعة معارضة للمقطوعة السابقة ، كما يظهر خصوصاً من العنوان الأصلى الذى وضع لها : « خمسة أشياء عقيمة » و « خمسة أشياء منتجة » .

وفى « الشىء » الأول إشادة بالعمل والنشاط ، مما يمثل نزوع جيته الأصيل . فهو قد أشاد بالفعل فى كل مؤلفاته ، فجعل « الفعل » فى البدء

لا « الكلمة » ، أى التفكير والعقل ، كما فى « فاوست الأول » ؛ وكرر هذا المعنى هنا فى هذا الديوان ، فقال : « لا زال النهار ، فانهض أيها الرفيق ! لا تُضع من وقتك فتيلا ! فقد أوشك الليل على المجىء ، حيث لا يستطيع العمل إنسان » . وقال : « لأن الحياة الحقة تحيا فى براءة الفعل الخالدة ، دون أن تؤذى فى هذا أحداً غير نفسها » . وقال فى « پندورا » : لا أريد لنفسى أعياداً أو حفلات ! فإنى لست أهواها : فالليل يكفل للمتعب الراحة والسلام . والفعل البديع هو العيد الحقيقى للإنسان » . كما قال أيضاً فى « الأمثال المُقفّاة » : « هات شيئا أعمله ! إن ذا خير الهدايا ! ليس يرتاح فؤادى : إنه ينشد خلّفا » . ويقارن بين العقل والفعل فى « سنوات تنشئة فلهلم ميستر » فيقول : « إن العقل يوسّع ، ولكنه يُضعف . والفعل يُحيى ، ولكنه يَحُدّ » . وقيمة الفعل عنده فى عملية الفعل ، لا فى نتيجته : « عملية الفعل هى البديعة ، لا الشىء المفعول »

وهذا الميل هو الذى جعله فى « الشىء » الربح يعتبر الكسب من نتاج عدم التفكير الطويل . لأن هذا هو الذى يجعل المرء يشك ، بينما قلة التفكير تجعل العزيمة ماضية . وفى هذا المعنى قال لاتسلتر فى سنة ١٨٢٨ : « نحن لا نُعرف إلا طالما كنا لا نعرف إلا القليل : فكلما ازددنا تعلماً ، ازددنا شكّاً » .

— ٤ —

ما أجمل نظرة الغادة حين ترنو بعينيها ،
وما أبدع نظرة الشارب قبل أن يشرب ؛
وسلام على السيد الذى يستطيع الأمر ؛
وتحية للشمس المضيئة فى أيام الخريف .

ولكن الأروع من ذا كله أن ترى بعينيك
أكُفًّا ناحلة تزاحم فى لطف
من أجل عطايا صغيرة ،
شاكرة برقة وهى تتلقى ما تقدمه إليها ،
أى نظرة ! أى تحية ! وأى سعى جميل !
تأمله جيداً ، تجدْ دائما

ما أجمل : أنشئت إبان الرحلة فى تبرنجن فى ١٨١٤/٧/٢٦ . وقد طبعت هذه والتالية من أجل إعانة المحاربين ، فى «عطايا المحسنين» لجوبتس (ج ٢ ، ص ١ ، برلين سنة ١٨١٧) بعنوان مشترك هو : «لذة العطاء» .

وفى هذا المعنى قال جيته أيضا : «لو كانت للإنسان عين ترى أى جمال فى اليد الآخذة الهبة ، لأعطى كثيراً من الصدقات» . وقال مرة أخرى فى «الأمثال المُقَفَّاة» : «إن شئت أن تحظى بخير من الخير الذى فى داخل نفسك ، فاصنع الخير فى العالم الموجود خارج نفسك» .

— ٥ —

ما ورد فى «پند نامه» مسطور فى صدرك :
كل من تعطيه بنفسك ، يحبك كما تحب نفسك :
فقدّم الدرهم مسروراً ، ولا تكنز من الذهب تراثا ،
وقدم الحاضر على الذكرى .

ما ورد فى پند نامه : أنشئت ونُشرت كالسابقة .

والموضع فى «پند نامه» الذى تشير إليه القصيدة هو الفصل التاسع الستون من كتاب العطار هذا ، وفيه : «إن أردت التصدق بشىء ،

فلتكن يدك هى التى تقدمه ، ولتكن ثروتك التى توزعها بنفسك وصية وهبة لإقامة أوَد الفقير . فالأفضل أن تعطى درهما بيدك من أن تخلف مائة بعد موتك » ، (من ترجمة دى ساسى ، فى «كنوز الشرق » ، ج ٢ ، ص ٤٥٩) .

و « الذكرى » (فى البيت الرابع) هى الذكرى بعد الموت .

— ٦* —

لست تدرى ، حين بالقَيْن تمُر ،
أىَّ يومٍ ينتهى نعلُ جوادِك ؛
لست تدرى ، حين بالكوخ تمرُّ ،
إنْ يكن فيه ثوىٰ مهوى فؤادك ؛
ربما تلتقى فتىً ذا فتنــةٍ ،
لست تدرى ، غالبٌ أم تغلبه ؛
عن يقين تنبئنْ عن جفنةٍ
أنها تحمل خيراً تطلبُه ؛
وهنا بالكون والدنيا تسرْ
وعدا هذا فلا أبغى أكررْ

أنشئت فى فرنكفُرْت فى ١٨١٥/٥/٢٧ .

وهذه القصيدة غامضة فى معناها ، غموضها فى مصدرها . ولعل جيته يقصد منها إثارة الاهتمام بكل شىء حتى ولو بدا حقيراً ؛ فلعلك أن تجد يوماً ، فى الكوخ الذى تمر به ، مهوى فؤادك ومنتهى آمالك ، وعلى الإنسان إذن أن يلاحظ كل شىء ، حتى المشكوك فيه ، الباعث على القلق . كما يهيب بنا أن نتروى قليلا ونحد من مطامحنا ، لأننا « لا ندرى متى ينتهى

نعل جوادنا » ، أى لا نعلم مصير ما نأتى به من أفعال ، ومتى تتم ، وعلى أى نحوٍ ستتم .

— ٧ —

تحيـــة المجهول بجيِّئها كالخليل
وبعـــدما قليل توادُع الرحيـــل

لمشرق تســـير ومغرباً يدورُ
وتغيرُ الدهـــور كلا كما يحـــور

هنا اللقا من ثان فيهتف الإثنان :
« أأنت حقاً دانى من بعدذا الزمان !

من بعد ما ارتحال وكـــثرة التجوال
فى البحر والأدغال فى الماء والرمال ! »

تبادلا البضـــائع وقسما المنـــافع
ورفّا المـــدامع لحسن هذا الطالع

وأول التحيـــة ذو قيمة سنيّة
فبـــادل التحية من يبدأ التحية

أنشئت فى يينا فى ١٨١٩/٧/١٢ وأدخلت فى الديوان فى سنة ١٨٢٧ ، وهى موجهة إلى الكونت فون جنسيناو اكستسيل ، لأنها رد على خطاب أرسله هذا إلى جيته ، فكتب جيته هذه القصيدة وأرسلها إلى أوتيليا فى ١٨١٩/٧/١٢ مع هذه الكلمات : « إن ذكاءك لن يعدم من يعرف ما فيها

من إشارة موجهة إلى الكونت جنسيناو ، كما ترين : جواب ، وذكرى ، واعتذار ، وشكر وماذا أيضاً مما أتوسم منه خيراً » .

وجيته قد تأثر فيها بالآية : « وإذا حُيِّيتم بتحية فحيُّوا بأحسنَ منها ، أو رُدُّوها ؛ إنَّ اللهَ كانَ على كلِّ شيء حَسيبا » (النساء : ٨٨) ؛ ثم بكثير من الأمثال الألمانية التي من هذا الباب .

— ٨* —

هُمْ تغنّوا بخطاياك كثيراً ،
بذلوا فى نشرها جهداً كبيراً
ليتهم أيضاً بخير تملك
حدثوا ، أو أىّ درب تسلك !
ليتهم ! ! واهاً إذن مَجدت منْ
بالثنا الصافى عليه الكل ضنّ
صرت تلميذاً يروّيني الحِكَم ،
فإذا أخطأت أدرانى الندم .

هم تغنوا بخطاياك : أضيفت فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

وفى هذه القصيدة يرد جيته على هؤلاء الذين دأبهم الإنكار والجحود واقتناص الشارد من الأخطاء ؛ والاقتصار على هذا النقد السلبى ، وإن كانوا يزعمون من ورائه أنهم يقصدون به التقويم لا التحطيم . فهو يقول لهم : إن ذكر الأخطاء والنقائص وحدها لا يفيد فى التوجيه والتهذيب ، بل لا بد أن ينضاف إليها أيضاً ذكر المحاسن وتعداد الفضائل . ويا ليتهم قد دلوا على السبيل القويم مع هذا النقد! إنهم سيكونون صادقين فى النقد

مشكورين ، وسيكون المرء على استعداد لأن يتلقى عنهم هذه العظات وأن يكون لهم تلميذاً ، وأن يفيض عليهم بالحمد والثناء الجميل ؛ فأندمُ حينئذ على ما أرتكب من أخطاء ؛ وهذا الندم سيكون أستاذى الأكبر .

- ٩ -

إن السوق ليغرياك بالشراء ،
ولكن العلم فى ازدياد ونماء .
إن من ينظر حواليه فى سكون وانتهاد ،
يعرف كيف يهديه الحبُّ سبيلَ الرشاد .
فإن كنت أجهدت نفسك فى الليل والنهار ،
راغباً فى السماع وللعلم فى استكثار :
فاستمع إلى باب آخر
كيف يخلق بك أن تعلم .
إن كان الحق عندك واحداً
فاشعر فى الله بما هو حق
وإن من يحترق بلهيب الحب
لهو الناعم برضا الرب

إن السوق ليغريك بالشراء : أضيفت هى الأخرى فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

وهى سلسلة متوالية من الأمثال التى تدور حول موضوع أن العلم بدون الحب ليس بذى غَناء ولا قيمة . ودُنتسر ، شارح جيته المشهور ، يفسر كلمة السوق هنا على أنها معاهد العلم . ونظن أن هنا إشارة إلى « أوهام السوق » التى تحدث عنها فرنسيس بيكون ، وهى الناشئة عن العلم الموروث المحفوظ فى اللغة .

والمعنى الباطن لهذه القصيدة هو أن المعرفة الحقيقية هى تلك الصادرة عن الحب ، لا تلك المأخوذة من بطون الكتب . وهذا الحب هو الحب الإلهى الصوفى الذى هو عاطفة ومعرفة معاً . والذى يجعل له هذه القيمة هو أنه تجربة حية روحية ، وليس نوعاً من المعلومات التى لا تتصل بدم الإنسان .

- ١٠ -

سعيتُ — هباءً — أن أكون مهذّبا
فأمضيتُ من عمرى السنين معذّبا
تهذبت ، لكن ما تهذبت مشربا
فحاولت أن أُنْقى لئماً وثعلبا
ولكن نفسى لم تُطق ذاك مطلبا
فقلت لها : الأوْلى بقائى مهذّبا ؛
فذلك أبقى ، رغم أن كان أصعبا

سعيت هباءً ... : أضيفت أيضاً فى طبعة سنة ١٨٢٧ .
وفيها بسط لمثل ألمانى قديم يقول : « الشريف يلوم ، والنذل يهوم » ، ولمثل آخر يقول : « الشرف يُغنى ، وإن كان ببطء يأتى » .

— ١١ —

لا تسل من أىّ باب
فى بلاد الله جئتَ ،
والتزم دون ذهاب
أيّما بيتـا نزلتَ
وتفقد بعـد هـذ

كلّ قَرْم وحكيم ؛
فخذ الحكمة عن ذا
واستفد بأس العظيم
فإذا صرت مفيـداً
وسـعيداً فى البلاد
صِرْتَ محبوباً فريداً
ليس يقليك العباد
وهنا ، كلُّ أمـير ،
يعرف الإخلاص حقا ؛
وإلى جَنْب الأخير
القديمُ العهدِ يبقى .

أنشئت فى ١٨١٥/٥/٣٠ فى فيزبادن ، كتحية لليوبيل الخمسينى للخدمة للمستشارين كرمس وشرْت فى ڤيمار . وفى ذلك اليوم كانت لا تشتمل إلا على هذه الفقرات الأربع ؛ ولكن أضيف إليها فى ١٨١٥/٦/١٠ الفقرات التالية :

فإذا أتممت ، بقوة ورفق ،
الدائرة الطاهرة لمجرى حياتك
صرت أيضاً صورة نموذجية
للشباب يحتـذون مثالك

وهكذا أنتما ، يامن يحتفل بكما اليوم
أيها المختاران قبل عديد الألوف
اشعروا ، من جديد بهذا الواجب

الذى كان عندكم دوماً مقدساً
ولتغفر أيها الحفل السعيد
لهـذا المتأخر من النشيد
الذى يمجد يومكم الجميل
من ضفاف الرين العتيق

وفى هذه الصورة أرجلها جيته فى ١٨١٥/٦/١١ من ڤيزبادن إلى ڤيمار باسم أوجست فون جيته ، مع هذه الكلمة : «سلّمها إلى الاثنين المحتفل بهما مع تحيتى الحارة الجميلة» . وفى الفقرة الأخيرة من هذه الفقر الجديدة يعتذر عن تأخره فى الاحتفال بهما .

ثم أدخل جيته القصيدة فى «الديوان الشرقى» فى سنة ١٨٢٧ على الصورة الأولى (أى الأربع فقرات الأولى وحدها) ، ووضعها فى هذا المكان لأنها تكوّن والقصيدة التالية نظرة فى حياته .

وهو فى الأبيات ٩ — ١٤ قد تأثر ديتس («كتاب قابوس» ، ص ٨٤١ ، برلين سنة ١٨١١) : «بعد أن وجدك القيصر أهلاً للخدمة ؛ وأنك ساهر مخلص أمام بابه : فإن ثقته بك ستنمو وتزداد» .

— ١٣ —

جئت من أين ؟ وما أصل سبيلى
كيف عشتُ ، كيف سرتُ ، لست أدرى ؛
فى ليالى الأنس واللهو الجميل ،
تلتقى الأحزان أخدانا لبشرى ؛
آه ما أسعد لقيـا الحالتـين !
فوحيداً كيف لهوى ، كيف حزنى ؟

جئت من أين . فى ١٨١٨/٧/٢٥ التقى جيته ، إبان رحلته إلى كرلزباد بالدوقة أودونل ، التى كانت وصيفة نشيطة للقيصرة ماريا لُدوفكا التى توفيت فى ١٨١٦/٤/٧ ؛ وكان التقاء من غير انتظار فى عودته من رحلته ، مر فى ١٣ سبتمبر بفرنتسنبادن وحيداً ، فانسابت الخواطر فى نفسه ذكرى لتلك المحادثة ؛ وعبر عنها فى هذه القصيدة الصوفية التى هى « تحية أرواح عذبة فى اللانهاية ، وصدى حلو أخير لأيام اجتماع أليف قد مضت » .

والقصيدة تتضمن أفكاراً شرقية وغربية معاً . ففيها تشابه مع قول حافظ : « لماذا أتيت ، ومن أين جئت ، هذا مجهول على الدوام » (حرف الميم ، ١٩ فى ترجمة فون همر ، جـ ٢ ص ١٨٠) ومع ما ورد فى « أمثال سليمان : « دروب الإنسان تأتى من المنان . فأى إنسان يفهم دَرْبه وسبيله ؟ » (أصحاح ٢٠ : ٢٤) كما تتفق مع أمثال ألمانية قديمة شائعة مثل : « أنا أحيا ، ولكن لست أدرى إلى متى ؛ وسأموت ، ولكن لست أدرى متى ؛ أنا أسافر ، ولكن لا أعلم إلى أين : وإنى لأعجب من كونى مسروراً » .

وجيته قد كرر هذا المعنى ، فقال فى « اجمونت » : « إلى أين المسير ، من يدرى ؟ إنه لا يكاد يذكر من أين أتى » (٢ : ٢) ؛ وقال مرة أخرى : « لماذا ؟ متى ؟ أين — لا جواب عنه من السماء ! اقتصر على كيف ، لا تسأل عن لِم ! » (الله والقلب والعالم) .

وفى البيت الأخير تعبير مؤثر عن حزن جيتـــه العنيف على ماريا لدوفكا .

— ١٣ —

الواحد تلو الآخر يجرى وسير ،

بل وقبل الآخر أحيـــاناً يصير ؛

فاجعل سُبُل الحياة إذن تنساق
مندفعة سريعاً فى جرأة وانطلاق
إن الأزهار تنظر إليك عن عُرض بتباه،
مستوقفةً إياك كى تقطف منها ما تهواه ،
ولكن لا شىء أدعى إلى النكوص
من أن تكون من قبل زائف الطريق .

الواحد تلو الآخر : أضيفت إلى الديوان فى طبعة سنة ١٨٢٧ ، وفيها استمرار لتأملات جيته فى سبيل الحياة . وهى متأثرة بأنشودة روحية ليوهان پاپُس بعنوان : « التوكل على الله » ، مطلعها : « فوضت أمرى للإله » ، وفيها يقول : « المرء يحمل الواحد تلو الآخر » . وقد اقتبس جيته هذا البيت فى خطابه إلى كنيبل (١ : ١٠) . ويماثله أيضاً قول جلال الدين الرومى (ترجم فى « كنوز الشرق » ، ج ٥ ، ص ٢١٣) : « اليوم يموت هذا ، وغداً يموت ذاك ؛ فانتفع بالفرصة سعيداً بها ؛ فهذه هى اللحظة التى يمكن فيها فعل الخير على الأرض » .

— ١٤ —

حذارِ من النسوان فى كل مَدْرج ؛
بَراهن من ضِلعٍ ، إلهى ، أعوجِ
ولم يستطع إبراءهن قويمـةً
فإن شئت أن تثنى ، تكسرْن فجأةً
وإن شئت أن تبقى ، تلوين أكثرا
آدم ؛ حقاً كان أمرُك أعسرا ؟

حذار من النسوان في كل مطلعٍ
فلا خير تجنى أنت من كسر أضلع

حذار من النسوان: أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣٠ .

وهي ترديد للحديث النبوي المعروف : « إن المرأة من ضِلَع ، وإنك إن تُرد إقامة الضِّلع تكسرها ، فدارها تعش بها » ؛ أو في صيغة أخرى : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج » ؛ أو في هذه الصورة : « إن المرأة خلقت من ضِلَع عوجاء لن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها ، استمتعت بها وبهـا عوج ، وإن ذهبتَ تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها » (عن أبي هريرة) .

وقد قرأ جيته هذا الحديث مترجماً في « كنوز الشرق » (ج ١ ، ص ٢٧٨) ، وهو قد قال في محادثاته مع أكرمن (١٨٢٨) : « إن النسوة أوان من الفضة نملأها نحن بالفاكهة الذهبية ؛ وإن فكرتي عن المرأة ليست ناشئة من التجربة الواقعية ؛ إنما ولدت معي ، أو نمت يعلم الله كيف » ؛ ولكن حكمه هنا على المرأة فيه متابعة للشرق أولى من أن يكون معبراً عن رأيه الحقيقي فيها .

— ١٥ —

إنما الدنيا مزاحٌ   أسقم الفم ومَرا
فالذي يعوز زيداً   غيرُ ما يُعوِز عَمرا
ذاك يكفيه قليل   ثم ذا يبغي الزيادة
والذي في الوُسع يلهو   بالذي فيه السعادة

وإذا البؤس تجلّى   حُمّل المرء كريها
هكذا حتى يُوارى   دون أن ينعم فيها

إنما الدنيا : أضيفت إلى الديوان فى طبعة ١٨٢٧ ، لارتباطها بالقصيدة التالية :

وفيها نظرة متشائمة كتلك التى تشيع فى أكثر كتاب التفكير هذا

— ١٦ —

حيـــاةُ المرء فى الدنيا   كمثل الوَزّ فى السير
فكلٌّ يبلغ المقصـــو   د بالقدر الذى يجرى
ولا يبغى به وفقــا

تقول الناس إن الوَ   زّ معتوهٌ ؛ فلا تحفل
بمـــا قالوهُ بهتانا   فإن الوز إن أجفَل
أشــارت نحوهُ خلفا

ولكن الذى فى الكو   ن ، حيث الدفعِ ، مقلوب
فإن أخفقت لن يسأل   صـــديق عنك محبوب
وما خلفاً يُرىَ طرْفا

حياة المرء : أنشئت فى بينا فى ١٨١٤/١٢/١٥ .

وقد اختُلف فى المعنى المقصود من التشبيه بالإوَزّ ، فقال بعض النقاد إنه يشير إلى لعبة خاصة من نوع النرد تلعب على لوحة مقسمة إلى خانات تقوم فيها أشكال إوز تدفع إلى أمام بالقدر الذى توضع فيه نقط فى الخانات . ولكن بعضاً آخر منهم يرى أنه لا يشير إلى شىء من هذا هنا .

وعلى كل حال فالمعنى واضح على العموم : وهو أن الناس فى الدنيا يدفع بعضهم بعضاً فى طريق الحياة ؛ ومن يسقط منهم لا يحفل به الآخرون ، بل يستمرُّون فى سيرهم قُدُماً دون أن يلتفتوا إلى الوراء .

— ١٧ —

تقول : « إن الأيام قد أخذت منك فى غير إقتار :
أخذتْ لذة التلاعب بالمعـانى والأفكار ،
وذكرى المداعبات العذاب
ولا غنـاء فى التجوال
خلال الأرض الواسعة التى عرفناها فى غابر الأزمان ؛
بل ولا رونق المجد يُعترف به من الأعلون
ولا الثناء الذى كان قبـلا يسرك ؛
ولا لذةً بعدُ تفيض مما تأتى به أنت من أفعال
بل تُعوْزك عربة تدفع بكل جسارة !
ولست أدرى ماذا بقى لك بعد خاصةً ؟ »
بقى لى ما يكفينى : بقيت الفكرة والحب !

تقول إن الأيام : أنشئت فى ١٨١٨/٢/١٩ فى نُزُل الصنوبر فى كامسدورف بالقرب من يينا ونشرت فى طبعة ١٨٢٧ .

والشاعر فى هذه القصيدة يريد أن يتأسى على العهود الخالية التى كانت الدنيا تعطيه فيها أكثر مما تأخذ ، بينما العهد الحالى يأخذ أكثر مما يعطى ؛ وهذا شبيه بقول هوراس المشهور : « إن السنوات المقبلة (أى الشباب) تأتى بالكثير ، بينما السنوات المدبرة (أى الشيخوخة) تسلب الكثير » . فمن

بين ما سلبته إياه الشيخوخةُ ، يذكر جيته السرور بالحب (بيت ٢)
والمزاح فى الغرام (بيت ٣) .

ولكنه إذا كان قد سُلب الكثير من الحياة الواقعية بالممارسة مباشرة
فقد بقيت لديه الفكرة والحب كذكرى .

وبهذا المعنى أيضاً قال جلال الدين الرومى : « اعزِفْ عن الدنيا ،
تكن سيد الورى ! » ؛ « اعزف عن النفس والعالم ، كيما تحظى بالنفس
والعالم » (همّر ، تاريخ فنون القول الجميلة » ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٥) .

— ١٨ —

ضع نفسك دائماً أمام العارفين
فهذا ، على أى حال ، مكان أمين .
فإن عذبت نفسك طويلا ،
عرفوا ما يعوزك وإن كان فتيلا ؛
ولك أيضا أن تأمُل فى الثناء ،
لأنهم يعرفون قدرك حق المعرفة

ضع نفسك : أنشئت فى ١٨١٩/١١/١٦ وأضيفت إلى طبعة سنة ١٨٢٧ .

وهذه قاعدة اتبعها جيته ، إبان حياته ، فأفاد منها كثيراً ، خصوصا
فى أبحاثه فى العلوم الطبيعية ، بفضل استماعه إلى نصح الكسندور فون
هُمبولت . وقد يكون تأثر بمثل فارسى (أورده شاردان : ج ٥ ، ص ١٦٥)
يقول : « الرغبة فى سؤال الحكماء نصف الحكمة » .

— ١٩ —

الأجـــواد سيُخدعون
والبخـــلاء سيُنزفون
والعالمـــون سيضلون
والعقـــلاء سيهيمون
وسيُتخلص من القاسى
وســـيعتقل الأبـــله
فانتصر على أقوى الأكاذيب
واخدع أيها المخـــدوع

الأجواد سيخدعون : أنشئت قبل ١١٨٥/٥/٣٠ .
وجيته هنا يبين كيف يسير العالم ، وكيف أن كل شىء فيه لا يلقى جزاءه الحقيقى ، وفيها لهجة شرقية ، ألمانية معا .

— ٢٠ —

من يَسْتطعْ للأمر يزجر
وإذا أراد كذاك يمـــدحْ
أىْ خادمى الموثوق فيه
اسمـــع كلا الأمرين تُفلح

يُطرى القليلَ ؛ وغالباً ،
حيث المديحُ يحق ، يزجر
فإذا بقيت مثـــابراً
فى الخير مُمتحَناً تُقدَّر

فعليكمـــوا يا ســـادتى
أن تفعلوا نحـــو الإلـٰـ
ـه كفعل عبدٍ نحـــوكم :
قاســـوا ولكنّ أخلصـــوا

من يستطع للأمر : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣٠ . وقد استلهم فيها قول السعدى فى « جلستان » : « إن خشيت الله كسبوك وسبّحت بحمده ، فمن ذا الذى لن يقول إنك ملاك !

— ٢١ —

إلى شاه شجاع وأمثاله

خلال الرنين خلال الهديرْ
ورا النهر حتى بُخارى يسير
غنائى ! جريئا على أرضكم ؛
ولا خوف ما دمت أحيا بكم
فمـدّ إلٰهى إذن عُمره
وصُن مُلكه ، رافعا قدره

إلى شاه شجاع وأمثاله : لعلها أنشئت فى الفترة ما بين يناير ومايو سنة ١٨١٥ ؛ وفيها حاكى الشعر الشرقى فى المدح ، ويوجهها هنا إلى دوق فيمار ، كارل أوجست ، الذى كان فى تلك الأثناء يحضر مؤتمر فينا .

أما شاه شجاع فهو جلال الدين بن محمد المُظفّر ؛ وقد تولى الأمر فى شيراز وما حولها بعد عزل أبيه مبارز الدين سنة ٧٥٩ (أغسطس سنة ١٣٥٨ م) . غير أن مبارز الدين قد استطاع بعد بضعة أشهر أن يستولى

على القلعة التى كان معتقلا بها ؛ وتحصن فيها . وبعد حرب مع ابنه شاه شجاع عُقد بينهما صلح اشترط فيه أن يعود مبارز الدين إلى شيراز وأن يذكر اسمه فى الخطبة . ولكن بعض أتباعه حاول بعد فترة قتل شاه شجاع ؛ غير أن مؤامرتهم اكتشفت وقتلهم شاه شجاع ، وسجَنَ أباه من جديد ؛ وعدا هذا قد نشب النزاع بينه وبين أخيه شاه محمود . ولما غزا تيمور لنك بجنوده بلاد فارس . بعث إليه شاه شجاع بالكثير من الهدايا النفيسة استرضاء لهذا الغازى الكبير . وقد طلب منه تيمور ، كضمان لإخلاصه وولائه له ، ابنته لأحد بنيه . وتوفى شاه شجاع ، فى أكثر الروايات شيوعاً ، فى ٢٢ شعبان سنة ٧٨٦ (= ١٣٨٤/١٠/٩) وسنه إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة وبضعة أشهر .

وفى عهده عاش حافظ الشيرازى ؛ وكان هذا يكره مبارز الدين ؛ فلما استولى شاه شجاع على الملك تعلق به حافظ ومدحه بالكثير من القصائد ، فقال :

« الآن عهد الشاه شجاع   عهد العدالة والحِكم »

(ترجمة فون همر ، ج ١ ، ص ١٩٧) . وقال فيه أيضا :

إن جَدّى معلق   بعُلا الشاه والنِّعَم
بامتدادِ لعمره   ثم سلطانه السَّنِم

(همر ، ج ١ ، ص ٤٤٢) .

وجيته يصور نفسه هنا فى صلته بالدوق كارل أوجست ، بحافظ فى صلته بشاه شجاع . فكما كان شاه شجاع فى نضال ومنازعات ، كان كارل أوجست فى حرب التحرير التى قامت بها ألمانيا وبقية أمم أوربا ضد نابليون . وهذا ما عناه فى قوله : « خلال الرنين خلال الهدير » . فهو يقصد من هذا قعقعة السيوف فى الحرب بين شاه شجاع وأبيه ثم أخيه شاه

محمود ؛ ويطبق جيته هذا على تلك الحرب الدائرة فى أوربا فى ذلك الحين .

— ٢٢ —

النعمة العظمى

حينما كنت جموحا شرس الطبع ، وجدت
سيّدا
بعدها صرت سليما ذاب لطفا ، فوجدتُ
سيّده
محضانى فإذا بى مخلصاً حقا وُجِدتُ
أبدا
حفظانى وكأنى كنز إخلاص وُجِدتُ
جيّدا
ليس فى الوسع معا خدمة اثنين ؛ وُجدتُ
مُسعَدا
بهما ، قد أطلعا بهجةً لى إذ وُجدتُ
مُفردا
قد تجلى نجم سعدى إذ كلا ذين وجدت
فرقدا

النعمة العظمى : بتاريخ ١٨١٥/٥/٢٧ ، فى فرنكفُرْت .

وقوله « سيد » يمكن أن يفسر رمزيا على أنه الساقى ، و « سيدة »

على أنها الحبيبة : كما يمكن أيضا أن يفسر على أنه الدوق كارل أوجست ، والدوقة لويزة ؛ وبذا تكون هذه استمراراً للقصيدة السابقة .

وجيته قد سار في التزام القافية على طريقة الشعر الفارسي ، فجعل الأبيات الزوجية تنتهي دائما بكلمة واحدة في القصيدة هي : « وجدت » ؛ وحاكيناه نحن هنا في هذا .

— ٢٣ —

الفردوسي يقول :*

« أيها العالَم كم إنك سافل !
أنت تغذو ، أنت تُنشي ، أنت قاتل »

إن من ، عززه ربُّ السماءْ
نفسَه يغذو ويُحْيي في ثراءْ
ما الغنى ؟ إن الغنى شمس تضيء
وبها المسكين يَدْفا كالوضيء
ليس للمُثْرى إذن أن يشنآ
لذة المسكين إذ ما يهنآ

* الفردوسي يقول : العنوان يتعلق بالبيتين الأولين فحسب . وفي الآخرين إجابة جيته عليهما : أما الأوّلان فمأخوذان من « الشاهنامه » للفردوسي حين يقول :

« أيها العالم كم كنت دنيء
أنت تغذو وتربّى و تبيد »

وقد عرفهما جيته من «كنوز الشرق» (ج ٢ ، ص ٦٤) .

وفى رد جيته عليهما مناقضة واضحة للشاعر الفارسى . فقوله : «يحيى فى ثراء» يناقض به قول الفردوسى «يبيد» ؛ لأن الله هو الذى يغنونا أجمعين .

والبيتان الأخيران يستقلان بأنفسهما وإن ارتبطا بكلمة «ثراء» فى البيت السابق عليهما مباشرة .

— ٢٤ —

جلال الدين الرومى يقول* :

« إن تُقِم فى الكون ولّى كفرار الحُلُم
فإذا جُلْت تبدى ضيقاً مثل الفم
أنت لا تحتمل البر د ولا الحر الطويل
وإذا أزهر شيءٌ صابه حالا ذبول »

جلال الدين الرومى يقول : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣٠ . ولا يعلم على وجه الدقة الموضع الذى يشير إليه جيته هنا من أقوال جلال الدين الرومى ؛ إذ لا يوجد فى مجموعة أشعاره المختارة التى ترجمها همر («تاريخ فنون القول الجميلة») ولا ترجمة «مثنوى» التى قام بها روزن . وعلى كل حال ، فى هذه المقطوعة تعبير عن العزوف عن الدنيا والزهد فيها مما يتجلى فى شعر جلال الدين الرومى ؛ فلعل جيته قد قصد هنا إلى التعبير عن روح شعر جلال الدين الرومى العامة ، لا إلى ترجمة قول خاص .

– ٢٥ –

زليخا تقول : *

« تنبئ المرآةَ نفسى آنى تاج الجمال !
أنت تُنبى أن حُسْنى هـــو أيضاً للزوال
كل ما فى الكون باق أبداً عنـــد الإلـه
فأَحبِ اللهَ فى ذا تى تظفـــرْ بالنجاه »

زليخا تقول : هذة المقطوعة معارضة للمقطوعة السابقة ، فزليخا ترد عليه قائلة إنها جميلة ؛ والجمال ينقض هذه النظرة السوداء إلى العالم ؛ لأن الله يحقق بواسطة الجمال الخلود فى الزمان . فعليك أنت ، أى جلال الدين الرومى ومن يذهب مذهبك ، أن تحب الجمال ، حينئذ ستعرف معنى الخلود ، وستعلم أن كل شىء باق أبداً عند الله .

وزليخا هنا إنما تعبر عن نظرة جيته الخاصة ، تلك النظرة المقبلة على الحياة بكل ما فيها ، والتى تريد أن تنعم بكل ما فيها ، والتى تريد أن تنعم بكل ما يتجلى لها منها ، بدلاً من الزهد فيها ، مما لا يجعل للحياة أدنى قيمة . فإذا كان قد انساق أحياناً وراء الروح الشرقية السلبية المستسلمة الزاهدة ، فان ذلك لم يكن إلا من أجل إتقان التمثيل والمحاكاة ، لا عن إيمان . وهاهو ذا هنا يعود إلى طبيعته الحقيقية ، فيفند زعم هؤلاء العازفين عن الدنيا ، الزاهدين فيها ، صارخاً فى وجوههم : انظروا فيما فى الدنيا من جمال ، تنكروا نظراتكم هذه السود ، وتعرفوا أن الدنيا جديرة بأن يحيا فيها الإنسانُ أعمق حياة .

رنج نامة

- كتاب الحزن (أو سوء المزاج)

— ١ —

« أنّى لك هذا ؟
وكيف أمكن أن يأتيك ؟
وكيف استخلصت
من أسمال الحياة هذه، الذبالة
التى تيسّر لك من جهد
أن تمضأ آخر شعلة
فى نيرانك ؟ ».

ولا يخطرنّ ببالك
أن هذه الشعلة معتادة ؛
فى أقصى الأقاصى ،
فى محيط النجوم ،
لم أضلّ
بل كنت أحيا حياة جديدة .

فى الليالى الرهيبة
تحت تهديد الغارات
بينما هدير الإبل
ينفذ فى الأذن والنفس

ويملأ الحـــداة
بالخيال والفخر

وباستمرار تقدم السير
وباستمرار اتسع المكان
وسيرنا كله
بدا فراراً أبدياً

وخلف البيداء والجيش ،
يرفّ شريط أزرق من بحر خدّاع .

كتاب الحزن : فيما يتعلق بالروح العامة التى أملت هذا الكتاب راجع ما يقوله جيته فى « التعليقات » حيث يذكر أنه على الرغم من مشاعر الرحمة والإحسان والتسامح ، فإن للحزن حظّه ، ويطالب دائماً بنصيبه ؛ وهو متكبر ، لا يسرّ أحداً ؛ لكن الإنسان لا يستطيع دائماً أن يكبت هذه النوازع ، بل هو مضطر إلى التفريج عنها بانفجارات من الحزن .

وقد أشار إليه جيته فى « أحاديثه مع أكرمن » بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٢٤ ، وأعلن عنه فى « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ (برقم ٤٨ ص ١٨٩) فقال : إن هذا الكتاب يتضمن قصائد أسلوبها ولهجتها ليسا غريبين عن الشرق . لأن الشعراء فى المشرق يفقدون كل اعتدال حين لا ينالون الجوائز من ممدوحيهم أو لا يجازون الجزاء الوافى . ثم هم كثيراً ما يقعون فى نزاع مع الصوفية والمتملقين ، ومع الدنيا أحياناً » .

أنى لك هذا : ألفت هذه القصيدة قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ ، وقد قصد بها أن يرد على الأسئلة السخيفة التى وجهها إليه البعض متسائلين كيف نشأ الشعر الشرقى فى هذا « الديوان » :

وفى الفقرة الثانية يجيب قائلا إن هذا الشعر ليس الشعلة الأخيرة من إلهام أعيد إشعاله ، بل هو بعث أثارته رحلة إلى الأقاصى القاصية ، فى محيط الكواكب :

وفى الفقرات الثلاث الأخيرة يعرض مناظر مميزة لهذا العالم الجديد المجهول : ففى الثالثة يعرض حياة الرعى الرقيقة لدى البدو وكرمهم ؛ وفى الرابعة يذكر الغارات الليلية التى يقوم بها الصعاليك ضد القوافل ، وفى الخامسة يصف السير المضنى خلال الصحراء وما يلقاه المسافر من وعثاء الطريق والعطش وأوهام السراب .

والفقرة الأخيرة تقوم على أساس ما ورد فى ديوان حافظ (ج ٢ ص ٥٤٧) حيث يقول : « هل يرتوى الظمآن فى البيداء من سراب الماء ؟ وقد علق على هذا يوسف فون همّر فشرح ظاهرة السراب وكيف تغدو الأفراس وراء السراب طمعاً فى الظفر بالماء ، ولكن دون جدوى :

— ٢ —

لن تجد شويعراً
لا يظن فى نفسه أنه أفحل الشعراء
ولا عويزيفاً لا يفضل
أن يعزف ألحانه هو
وما كنت لألومهم ،
لأننا لا نستطيع أن نغدق الشرف على الآخرين
دون أن ننال من أنفسنا .

هل يحيا الإنسان إذن ، إذا كان الآخرون يعيشون ؟ »
وهذا ما وجدته فعلاً

فى بعض غرف الانتظار
حيث لم يكن يعرف التمييز
بين زِبْل الفأر والكزبرة
إن المكانس العتيقة تــكره
هذه المكانس الجديدة الصلبة
وهذه بدورها لاتريد أن تقرّ
بما كان مكانس من قبل
وحين يفترق الشعوب
فى ازدراء متبادل بين بعضهم وبعض
فلا واحد منها يريد الإقرار
بأنهم جميعاً يهدفون إلى نفس الغاية
وهذه الأثرة الفاحشة
أنحى عليها باللوم
قوم يعزّ عليهم
أن يكون للآخرين شئ من الفضل.

ألفت هذه القصيدة فى ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ إبان الرحلة من إيزناخ وفولدا ؛ فيما عدا الفقرة الأخيرة فقد نظمت فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨١٤ :

وفيها نقد لاذع للأثرة التى لاتريد للاعتراف بالفضل لأهله ، وتهكم بالشاعر المغرور الذى لايريد أن يصغى إلاّ إلى شعره هو ، وسخرية من أهل البلاط والنفاق ، والشعوب التى تتناطح ويزدرى بعضها بعضاً ، ويسود بينها سوء التفاهم :

والفقرة الأولى تذكر بما ورد فى « تسكلانات » شيشرون ٥ : ٢٢ ،

٦٣) : والثانية قصد بها التهكم . والثالث تذكر بغرف الإنتظار فى قصور الأمراء . والخامسة تشير إلى الكراهية التى تفصل بين الفرنسيين والألمان . وقد قال جيته فى رسالة إلى ساره فون جروتوس بتاريخ ١٨١٤/٢/١٧ : ويود الألمان فى هذه المناسبة (التحرر من سيطرة فرنسا) أن يقوموا بالخطوة العظيمة الثانية ، وهى أن يعترف كلا الشعبين بما قام به الآخر من أعمال جليلة فى العلم والفن ، لا أن يتنازعا كما كانت الحال حتى الآن ، وأن يعملا معاً . . . وأن يتغلبا على نوازع الحقد والارتياب فيما بينهما .

— ٣ —

ما يكاد المرء يشعر بالراحة والصفاء
حتى يأخذ جاره فى تعذيبه بالعناء ؛
وطالما عاش ذو الفضل أو عمل
راح الناس يرجمونه عن طيب خاطر
حتى إذا ما مات
أسرعوا فى جمع الاكتتابات
ليشيدوا له نصباً تذكارياً
تمجيداً لشقائه فى الحياة
لكن الجمهور ينبغى عليه أن يدرك
أين مصلحته :
فيرى من الأفضل
أن ينسى هذا الرجل الفاضل ، إلى الأبد .

نظمت هذه القصيدة فى ٧ فبراير سنة ١٨١٥ .

وفيها يتهكم بالحساد الذين يسعون بكل طاقتهم انتقاص قدر الممتاز فى

حياته ، حتى إذا مات تلهفوا لفتح اكتتاب لتخليد ذكراه لكنه لا يشير إلى تمثال بالذات .

- ٤ -

تستطيع أن تدرك جيـداً
أن القوة العالية لا يمكن نفيها من العالم ؛
ويطيب لى التحـدث
مـع المـاهرين والطغـاة .

لمـا كـان الحمقى المضطهدين
يتباهـون عـلى نحوٍ وقاح
والمساومون والمحـدودون
تهيأوا لإخضاعنا تحت نيرهم

فقد أعلنت أنى حـرّ
من الحمقى ومن الحـكماء ؛
ففريق أدعـه وشأنه ،
والفريق الآخر أتمنى أن يمزق نفسه

إنهم يحسبون أنه ينبغى علينا ،
فى القهر والحب أن نتحد
وهم يغلّلون شمسى بالظـلام
وينتزعون من الظل نضارتـه

وحـافظ هو الآخر وأُلْرِش ُهوتّـن
اضطرا إلى حمـل السلاح من غير شك

ضد أصحاب الخِرَق السَّمراء والزرقاء ؛
وأعدائى يروحون ويجيئون كسائر النصارى
« إذن ! قُلْ لنا ما أسماء أعدائك ! »
لا أريد لأحد أن يميّزهم :
فحسبى ما أعـانيه
منهم بين النـاس .

نظمت فى ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ .

ويدافع فيها عن أرستقراطية نظراته ، التى تتجلى خصوصاً فى إعجابه البالغ بنابليون ضد ، أولئك الذين ينزعون إلى تسوية القيم وبالتالى إهدارها ، وجيته عدوّ لدود لهذه التسوية التى تسوّى بين الوضيع والنبيل ، بين العالى والسافل ، بين القيم النبيلة والقيم الوضيعة .

وألرش فون هوتّن (١٤٨٨ — ١٥٢٣) مصلح دينى مشهور ، انضم إلى لوثر فى حركة الإصلاح الدينى ، ولقى فى سبيل ذلك أشد الاضطهاد ، ولقب بشيشرون ألمانيا وديموستينها لأنه كان خطيباً فحلاً . وقد مجّد هردر كفاحه ضد الرهبان فى عصره . أما عن حافظ فجيتة يتذكر هنا بعض أشعار حافظ فى هذا المعنى وخصوصاً ما ورد فى ديوانه (جا ص ٨) .

ألا يا أيها الساقى أدر كأساً وناولنى

وادفن همومى فى الخمر ؛ ناولنى الكأس وصبّ الخمر ، واطّرح الخرقة الزرقاء ؛ ولقد يرن هذا كأمرٍ غريب فى أذن الحكيم ، لكنى لا أهتم بالسمعة » :

— ٥ —

إذا استرحت فى الخير بسلام
فلن أنحِى عليك باللائمة ؛
وإذا صنعت الخير
فيسضفى عليك النُّبْل ! .
لكنك إذا أقمت ســداًّ
حول ما لديك من خير
فسأحيا حرًّا ، نعم حراً
لايخدعنى أحد

لأن الناس أخيار
وكانوا سيبقون أفضل
لو أن ما يفعله الواحد
لا يفعل مثله الآخر فى الحال

وهناك مثل برئ من الذمّ
يقول : إذا قصدنا نفس المكان
فأولى بنا أن نسير معا فى الطريق

وسنلقى خلال المسير
صعاباً جمّة :
وفى الحب لا يرجو المرء
عوناً ولا رفيقاً أبداً ،
والمال والشرف يود المرء

أن ينالهما وحده ؛
والخمر ، هذا الصديق الأمين .
ينتهى بإشاعة الاضطراب فى نفسك

وعن كل هذه المتاعب
تكلم حافظ ،
وحطم رأسه بالتفكير
فى كثير من البلايا
ولست أرى فيماذا يفيد
النجاة من هذه الدنيا
فإن ساءت الأمور إلى أقصى حد
فأنت حرّ فى خوض المعارك .

نظمت فى ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ فى فولدا ، مثل القصيدة الثانية والرابعة .

والمعنى الإجمالى هو : أن الراحة فى الخير الذى أسداه المرء أمرٌ مقبول ، والسعى إلى الخير أمرٌ حميد ؛ لكن الأفضل هو الاعتزال فى الخير الخاص بالإنسان : إذ يستطيع المرء حينئذ أن يعيش بالحرية اللازمة . ويمكن الاشتراك مع الغير والعيش معاً أثناء رحلة فحسب ، وإن كان الكثير من الأحداث قد يفصل بيننا مثل المنافسة على الحب ، وتنازع المصلحة ، والخمر . وبالجملة لاجدوى فى الفرار إلى خارج العالم : وإذا ساءت الأمور إلى الحد الأقصى فعند المرء دائما الوسيلة للتحرر فى النضال ، بالتزاحم بالأكتاف بين الناس والظفر والانتصار .

وعلى الرغم من اللهجة الشخصية فإن المقصود من القصيدة أن تعبر عن حقيقية عامة ، والشاهد على ذلك إشارته إلى حافظ الشيرازى ، وكذلك كون العنوان الأصلى لهذه القصيدة كان : « مسير العالم » .

— ٦ —

كما لو كان الأمر يقوم على الاسم فحسب
مما لا ينفتح إلا في الصمت !
نعم ، إني أحب الجمال والخير
كما يصدران عن الله .

أحب إنساناً ، هذا ضروري ؛
ولا أكره أحداً ، لكن إذا كان عليّ أن أكره
فأنا أيضاً مستعد لذلك ،
وفي الحال أكره جماهير عديدة !

أتريد مزيداً من العلم بهم ؟
انظر إلى الخير ، وانظر إلى الشر :
إن ما يسمونه جيداً
من المحتمل ألا يكون هو الخير

إذ لتعرّف الخير
لا بد أن يعيش المرء بجد وعمق
وثرثرة الدجالين
تبدو لي سعياً لا غناء فيه

ماذا ! إن المُنكر يمكن
أن ينضم إلى المنتقِص
بحيث يبدو أخيراً المدمّر
أنه هو الأفضل !

حتى يتيسر ، أثناء التجديد ،
أن يسمع كل إنسان شيئاً جديداً باستمرار
وفى نفس الوقت يقضى التشتيت
على حمل إنسان من الداخل

وهذا ما يريد ، مواطننا ويرجوه ،
سواء سمّى نفسه « ألمانيا » أو « جرمانيا »
فالأغنية تتردد فى همس :
كان الأمر هكذا وسيكون كذلك دائماً

نظمت هذه القصيدة فى ٢٧ يوليو سنة ١٨١٤ ، فى اليوم التالى لرقمى ٢ ، ٤ ؛ وأعاد النظر فيها فى ١٨١٤/١٢/٢٣ .

والمعنى العام : إنى أحب الخير ، وأكره ؛ كل ما يقف فى سبيل الخير ، ولا أسأل عن اسمه ، بل أعتمد على تقديرى وحكمى (الأبيات من ١ — ١٢) . والحىّ حياة مليئة يدرك الخير ، أما أعمال الثرثارين والمتفقهين فلا قيمة لها ، (الأبيات ١٣ — ٢٠) . ومن هذا النوع الأخير الصحف اليومية : فهى تريد شيئاً جديداً كل يوم ، فتنشر أسباب التحطيم والتدمير . ويظهر هجومه على الصحف من الصورة الأولية لهذه القصيدة ، فقد كانت :

« والصحيفة الصباحية يمكن أن تنضم إلى الماجنين
وهنالك يبدو المتأنقون أنهم الأفاضل »

وهذا ما ظنه المواطنون فى كل الأزمان ، ولكنى أعلم أن هذا لن يغير فى الأمر شيئاً .

— ٧ —

« المجنون » يعنى – لا أريد أن أقول
إن هذا يعنى من فقد عقله ؛
لكن ينبغى عليك ألا تتهمنى
حين أفخر بأننى « مجنون »

حين يفيض القلب الملىء بما فيه
ابتغاء إنقاذك ،
فلا تصيحن : هذا هو المجنون !
هاتوا حبالا ! احضروا قيوداً وسلاسل !

وإذا رأيت فى النهاية
أن أحكم العقلاء يئنون فى القيود
فستستشعر بما يشبه الإحراق
وأنت تتأمل هذا المنظر دون أن تستطيع شيئاً .

نظمت قبل ٣٠ مايو ١٨١٥ .

وفيها يهاجم أولئك الذين ينعتون العبقرى بأنه مجنون : فى اليوم الذى فيه ترون النفوس الممتازة تئن فى الأغلال والقيود ستشعرون بالندم الشديد على ما ارتكبتم من جريمة .

والذى دفع جيته إلى نظمها هو تضايقه الشديد من عدم اعتبار رأيه فى مسألة الصحف .

— ٨ —

هل أسديت إليكم نصائح
فيما يتعلق بإدارة شئون الحرب ؟
وهل قرّعتكم حين أردتم
عقد السلام بعد أعمالكم الجليلة ؟

وكذلك تركت الصياد
يطرح شباكه فى هدوء ،
ولم أحتج إلى تلقين النجار الماهر
كيف يستخدم الزاوية

لكنكم تريدون أن تعلموا
المزيد مما أعرف وما تأملت فيه
فيما يتعلق بما منحتنى الطبيعة
من مواهب خاصة

فإن استشعرتم مثل هذه القوة ،
إذن فاعرضوا شئونكم !
وإذا رأيتم أعمالى
فتعلموا أولاً أن تقولوا : هكذا أراد أن يعمل

نظمت قبل ٣٠ مايو ١٨١٥ ، وترتبط بالقصيدة السابقة فى الدعوة إلى حرية الشخصية .

وفيها هجوم على الحمقى الأدعياء الذين يدعون أنهم يعلمون أكثر من أولئك الذين كرّسوا حياتهم لدراسة الموضوع .

— ٩ —

طمأنينة المسافر :

ألا لا يشكونّ من الوضاعة إنسان

لأنها هي الأقوى ، مهما قيل لك

إنها تؤكد نفسها في الشرّ لصالحها الأكبر ،

وتتصرف في الخير وفقاً لهواها ونزواتها

أيها المسافر ! — أتريد التمرد على هذا القدر ؟

دع دوّامة الرمال

والطين الجاف يدورا ويثيرا الغبار !

نظمت في ١٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ في ڤيمار .

المعنى : الوضاعة والحقارة قوة تحكم العالم ؛ ولا جدوى من التمرد عليها .

وقد استلهم جيته في الفقرة الأخيرة ما ورد في « الشاهنامه » حيث يرد في ترجمة ديتس (ص ٢٠٢ ، برلين سنة ١٨١١) : « أسعى إلى العزلة ، حين يدور العالم في دوّامة ، ودوران الحظ أسوأ من أسوأ غبار في العالم. » وقد عرف جيته هذا النص لأول مرة من المقال الذي كتبه يوسف فون همّر عن كتاب ديتس Diez ، في « مجلة ڤينا الأدبية » (عدد يناير سنة ١٨١٣ ص ٧١) ، ونقد فيه ترجمة ديتس ، واقترح بدلا منها ترجمة هذا معناها : « إني أنشد العزلة ، حتى إذا ما دار القدر ، مثل دوامة التراب ، واضطرب العالم ، لم يصبني من ذلك شيء » . وقد جمع جيته في الفقرة الأخيرة بين كلتا الترجمتين .

— ١٠ —

من يود أن يطلب من الدنيا
ما توده الدنيا وتحلم به ،
ويتلفت إلى الخلف أو إلى الجوانب ،
تاركاً نهار اليوم يمضى ؟
إن سعيه ، ونيته الطيبة
يتشبثان بالحياة السريعة وحدها ،
وما كان من الممكن أن يكون مفيداً لك فى سالف الأيام
تريد الحياة أن تهبك إياه اليوم

نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

وفيها مثل السابقة دعوة إلى الاستقلال بالنفس عن الدنيا لأنها لا تحقق أبداً رغبات المرء فى الوقت الذى يرجو فيه أن تتحقق ، بل الحياة تدور دورتها السريعة دون أن تحفل بأمانى الناس .

— ١١ —

أن يمدح المرءُ نفسَه : هذا خطأ
لكن يرتكن كل من يفعل خيراً ؛
فإن لم تُخفِ فى كلامه شيئاً ،
فإن الخير يظل ، رغم كل شىء ، خيراً أبداً

فدعوا إذن أيها الحمقى هذا السرور
للحكيم الذى يعتقد فى نفسه الحكمة ،

حتى يبدّد ، أحمق مثلكم ،
الشكر الأحمق للعالم .

نظمت فى ٥ يناير سنة ١٨١٦ .

وفيها استخدم مثلا أورده ديتس (ج ٢ ص ٥٤) يقول : « أن يكشف المرء عن حماسته ، هذا حسن ؛ أما أن يمدح نفسه فهذا خطأ » .

والفقرة الثانية فيها تهكم رومنتيكى يبدو فى تعارض مع ما ورد فى الفقرة الأولى . ويحتمل أن يكون قد أضافها جيته فيما بعد .

— ١٢ —

أتظنّ أن ما يذهب من الفم إلى الأذن
مكسب شريف حق ؟
أيها الأحمق ، لعل النقل نفسه
أن يكون مجرد وهم !
لكن هاهى ذى لحظة الحكم والقرار :
من أغلال الإيمان
يمكن العقل وحده أن يخلّصك
لكنك تخليت عن العقل من قبل .

نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

والمعنى : أن النقل الشفوى فى أمور الدين غير دقيق ، ويتلوّن بلون شخصى ويرتبط بحكم العادة . ولهذا تحتاج إلى العقل لتصحيح النقل ، لكن الإيمان قد اطّرح العقل من قبل .

— ١٣ —

من يتبع الطريقة الفرنسية أو البريطانية
أو الإيطالية أو الألمانية
كل منهم لا يريد إلا ما يريده الآخرون
مما يقتضيه حب الذات

لأن المرء لا يقر بسموّ الكثير
أو واحد من هذه الآداب
إلاّ إذا كان يخدم ناحيته
يريد أن يلمع فيها

ألا فليجدن الحق غداً
أعوانه يصطفون معه
بشرط أن يحتفظ الشر
بمكانته اليوم ومنزلته

إن من لا يستطيع أن يحسب
حساب ثلاثة آلاف سنة من التطور
عليه أن يبقى جاهلا فى ظلام
وأن يعيش من يوم إلى يوم .

نظمت فى ٣٠ مايو سنة ١٨١٨ :

وفيها يهاجم لوثة أولئك الذين يلهثون وراء البدَع (الموضات) الأدبية . تلك اللوثة التى يملها الغرور ويُضَحّى بالحق فيها للجدة الذائلة . فالذى لا يقدر على استيعاب ثلاثة آلاف عام من التطور الأدبى سيظل دائماً غارقاً فى التفاهة

ويعيش من يومه ليومه فجيته ينصح الأدباء بعدم التعلق بما هو جديد لأنه جديد ، وإلا لصار الأديب نهباً لكل نزوة أدبية طارئة .

— ١٤ —

قديماً حين كان المرء يستشهد بالقرآن الكريم
كان يذكر اسم السورة والآية ،
فكان كل مُسلم ، كما هو الواجب ،
يشعر براحة الضمير والهيبة والطمأنينة .
ولا يستطيع الدراويش المحدثون أن يفعلوا خيراً من هذا
إنهم يثرثرون عن القديم ، ويصفون الجديد ،
فيزداد التشويش كل يوم
أيها القرآن الكريم ! أيتها الطمأنينة الخالدة !

لا يعرف تاريخ نظمها .

وقد دعاه إلى نظمها تطور اللاهوت الجديد على نحو غيّر في المضمون الحيّ للكتاب المقدس ، تطوراً طغى اليوم على علماء الدين ذوى النزعة القديمة الذين يهتمون خصوصاً بتحديد السورة والآية .

— ١٥ —

النبي يقول :

إذا اغتاظ أحدٌ من أن الله
شاء أن يهب محمداً الأمن والسعادة
فليربط حبلاً متيناً بأقوى الأعمدة
في قاعة بيته

وليشنق نفسه به ! فهذا مفيد له :
إذ سيشعر حينذاك بأن غيظه سيذهب عنه .

نظمت فى ٢٢ فبراير سنة ١٨١٥ فى فيمار ، وأشار تحتها إلى السورة ٢٢ (سورة الحج آية ١٥) : « مَنْ كان يظنُّ أنْ لن ينصرَه الله فى الدنيا والآخرة فليمدُدْ بسبب إلى السماء ثم ليقطعْ ، فلينظر هل يذهبنّ كيدُه ما يغيظ » .

وقد استلهم فيها جيته الآية القرآنية ، وقد قرأها فى كتاب ك . ا . أولزنر عن النبىّ (ص ٢١٧ ، تعليق ١ ؛ فرنكفورت على العين سنة ١٨١٠) .

— ١٦ —

تيمور (يقول :)

ماذا ؟ هل تقدحون فى العاصفة العاتية
للكبرياء ، أيها الفقهاء الكذابون !
لو قدر الله علىّ أن أكون دودة ،
لخلقنى دودة .

فى هذه الكلمة يدافع تيمور عن امتياز الشخصية العبقرية الفذة ضد المتفيهقين والمنافقين ، ويقرر جيته بها حق العبقرية وامتيازها ، ويبسل أحكام التافهين والوضعاء الذين يسوؤهم امتياز الممتاز وتفوق المتفوق ، لأ

حكمت نامه

كتاب الحِكَم

١

سأنثر الطلّسمات فى هذا الكتاب

ومن شأن هذا أن يحدث توازناً؟

إن من يخط غرزة بإبرة الإيمان

يسرّ دائماً بالكلمة الطيبة .

كتاب الحِكَم : أعلن جيته عن هذا الكتاب فى « صحيفة الصباح » (سنة ١٨١٦ برقم ٤٨ ص ١٨٩) على النحو التالى : « كتاب الحكمة أشد إبهاجاً . ويتألف من قصائد قصيرة ، استلهمت فى الغالب أمثالاً شرقية .» — لكنه فى نفسُ الوقت استعان بأمثال ألمانية ، أخذ فى دراستها ابتداءً من أكتوبر سنة ١٨١٢ ، فاستعار من مكتبة ڤيمار مجموعات من كتب الأمثال : وخصوصاً مجموعة أجريكولا ومعظم الأمثال الوارِدة فى « الديوان الشرقى » تاريخ نظمها فى مستهل سنة ١٨١٥ ؛ والبعض الآخر أضيف فى نهاية السنة نفسها وأوئل سنة ١٨١٦ .

وهذه القصيدة الأولى بمثابة مدخل إلى الكتاب ، وفيها يقول إن القارئ الذى يلتقط من الحكم الواردة فيه بيد مؤمنة سيجد فيه كلمة طيبة وموعظة حسنة .

والقصائد من ١ إلى ٥ نظمت فى نهاية سنة ١٨١٤ أو أوائل سنة ١٨١٥ .

— ٢ —

لا تطلب من هذا اليوم ومن هذه الليلة
إلاّ ما جاءك به الأمس

هذه القصيدة نظم لكلمة كانت مكتوبة على خان ، وأوردها شاردان (حـ ٨ ص ٣٨) ، ومؤداها : لا تطلب من هذا اليوم ومن هذه الليلة إلاّ ما كان لك من قبل » .

— ٣ —

من وُلِد فى أيام نَحْسٍ
سرّه النحس

نظم لمثل مستخلص من مجموعة أمثال نثرية جمعها ديتس ، وهذا المثل يقول : « من لم يعش أيام سعد يحسب أيامه النحس سعداً » (مجموعة أمثال أوغز خان ، ديتس : ذكريات من آسيا » حـ ١ ص ١٩٢) .

— ٤ —

كم الشيء سهل
هذا أمرٌ يعرفه من ابتدعه و صنعه

مثل مأخوذ من نفس المجموعة ، وأصله فيها : «كم الأمر سهل ، هذا ما يعرفه صانعه ، ومنه نستفيد » (ديتس : « ذكريات من آسيا » حـ ١ ص ١٩٥) .

— ٥ —

البحر تهدر أمواجه باستمرار
ولا يحتفظ أبداً باليابسة

كان جيته ينظر إلى المد والجزر على أنه رمز المجهود الأوّلى الأعمى العابث (راجع « فاوست » ، البيت رقم ١٠١٩٨) .

— ٦ —

لماذا تسومنى العذاب كلَّ ساعة ؟ —
إن الحياة قصيرة ، واليوم طويل
والقلب يودّ دائماً الانطلاق
ولست أدرى هل ذلك نحو السماء
لكنه يريد دائماً الانطلاق هنا وهناك ،
ويودّ لو يفرّ من نفسه .
ولو حلّق على صدر حبيبته ،
فإنه يستريح فى السماء من دون شعور
إن دوّامة الحياة تسوقه إلى بعيد ،
وهو دائماً يتشبث بموضع واحد ،
ومهما أراد ، ومهما أضاع
فإنه يبقى فى النهاية مجنوناً بنفسه

نظمها فى ٢٢ يوليو سنة ١٨١٨ ، ونشرها فى سنة ١٨٢١ فى « سنوات أسفار ﭬلهلم مايستر » ، ثم نقلها إلى « الديوان الشرقى » فى هذا الموضع سنة ١٨٢٧ ، لكن كتاب « الحِكم » ليس موضعها المناسب ، وكان الأحرى وضعها فى كتاب « العشق » أو كتاب « التأملات » :

— ٧ —

إذا امتحنك القَدَر ، فهو يعلم جيداً لماذا :
إنه يريد منك القصد والاعتدال : فأطع واسكت

أستلهم فيها جيته ديوان حافظ (ترجمة يوسف فون همر ، ج ١ ص ١٣٢) حيث يقول : « إن أمهلك القدر ، فلا تهمل الطريق ، ولا تسأل لمَ وكيف ، بل كن كالعبد المطيع ، يعمل كل ما يأمر به السلطان » :

وقد نظمها جيته فى الفترة مابين سنة ١٨١٩ وأبريل سنة ١٨٢٠ .

— ٨ —

لا يزال النهار طالعاً والإنسان فى حركة !

فإذا أقبل الليل لم يستطع أحدٌ الحراك !

فى هذين البيتين نظر جيته إلى ما ورد فى إنجيل يوحنا (الفصل التاسع ، آية ٤) : « طالما كان النهار طالعاً فلابد لى من القيام بأعمال من أرسلنى ، وسيأتى الليل الذى لايمكن أحداً فيه أن يعمل » .

كذلك نظر إلى ما ورد فى « بوستان » السعدى (أوليارس ، ص ٩٦) : « طالما كنا نعيش فخليق بنا أن نكون مبتهجين نشطين ، أما إذا جاء الموت وأشاع فينا النوم ، فماذا نستطيع أن نأتى من أمر مفيد ؟ وإذا حلت الشيخوخة محل الشباب ، صار النهار ليلاً » .

— ٩ —

ماذا تريد أن تغير فى العالم ؟ لقد تمّ صنعه

ورب الخلق قد دبّر كل شىء .

وتحددّ نصيبك ، فاتبع الطريق المرسوم .

لقد بدأ الطريق ، فأتمّ الرحلة :

فالهموم والغموم لن تغير من الأمر شيئاً ،

كل ما هناك أنها ستلقى بك خارج الاتزان .

هذه الأبيات منقولة عن « الشاهنامه » للفردوسى حيث ورد : « ماذا تريد أن تصنع بالدنيا ؟ لقد تم صنعها : ورب الخلق وفّر كل شىء : ورزقك مقسوم : فماذا يفيدك أى شىء آخر ؟ وكما هو مكتوب ، ستتم رحلتك ، ومتى ما دخل قلبُك فى قصر الهموم ، هاجمك السمّ والنوم بغير مهادنة » .

وتاريخ نظمها ربما كان فى ٢٩ يونيه سنة ١٨١٨ فى ڤينا ، وأن جيته غارقاً آنذاك فى قراءة كتاب يوسف فون همر : « بلاغة الفرس » (ڤينا ، سنة ١٨١٨) وفيه أورد هذه الأبيات نقلاً عن « شاهنامه » فردوسى .

— ١٠ —

حين يشكو المظلوم
أنه محروم من العون والأمل
يبقى له دائماً بلسم الكلمة الحلوة .

كتبت فى ٢٢ يوليو سنة ١٨١٨ ، وأدرجت فى « الديوان الشرقى » فى سنة ١٨٢٧ .

— ١١ —

« كم أسأت التصرُّف
حين حل الحظ ببيتك ! »
لم يستأ الحظ من ذلك ،
فعاود المجىء مرتين .

لايعرف تاريخ نظمها ، نشرت لأول مرة سنة ١٨٢٧ ، وفيها نظرة متفائلة تصف الحظ بأنه كالفتاة اللعوب التى تعاود بذل الآمال .

— ١٢ —

ما أروع ميراثى ، وما أوسعه وأوفره !
فالزمان صنعتى ، والزمان حقلى .

ربما تأثر جيته فى هذين البيتين بما ورد فى كتاب « تاريخ بلاغة الفرس» ليوسف فون همر (ص ١٢٦) حيث ورد الاقتباس التالى : « اللغة والزمان الذى نعيش فيه ، هما غناى وزمانى . . . إنى أعزو إلى الزمان والمكان الفهم والعقل . ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، فالزمان ملكى» ؛ وهذا القول يذكر بقول آخر أورده جيته فى رسالة إلى فرتس فون اشتين بتاريخ ٢٦ أبريل سنة ١٧٩٧ : « . . . وإن كنت أعترف بأن شعارى القديم أهمّ وهو : « الزمان ثروتى ، والزمان حقلى » :

وقد نظمها جيته ، فيما بين نهاية سنة ١٨١٩ وأبريل سنة ١٨٢٠ ، ونشرها لأول مرة فى « سنوات أسفار فلهلم ما يستر » سنة ١٨٢١ .

— ١٣ —

افعل الخير من أجل الخير فحسب !
وسلّمه إلى دمك ؛
فإن لم يبق لأولادك ،
فسيستفيدون منه أحفادُك .

طبعت فى « الديون الشرقى » لأول مرة فى سنة ١٨٢٧ ، وتمثل رواية أخرى لرقم ٢٥ .

— ١٤ —

يقول أنورى ، وهو رجل عظيم بين الناس ،
يعرف خفايا القلب ، وقمة الفكر :

فى كل زمان ومكان يفيدك الاستقامة
وسداد الرأى والاحتمال .

نظمت بين ٣ مايو و١٢ أغسطس سنة ١٨١٨

وتقوم على أبيات للشاعر الفارسى أنورى ، أوردها يوسف فون همر فى « تاريخ بلاغة الفرس » (ص ٩٢) ، يقول فيها أنورى : « يارجل الزمان ، عاقلا كنت أو أحمق ، قدّم ثلاثة على كل الأمور . . . فإن شئت أن تعرفها فاعلمها الآن : الاستقامة ، وسداد الرأى ، والاحتمال » راجع عن أنورى « التعليقات والمباحث » التى كتبها جيته على « الديوان الشرقى » .

— ١٥ —

لماذا تشكو من أعدائك ؟
أنّى لهم أن يكونوا أصدقاءك
وجوهر مثلك يظل دائماً فى صمت
مصدرَ ملام أبدى لهم ؟

كلمة عظيمة صادقة فيها عزاء للممتازين الذين لا يجدون من الناس حبا ولا صداقة ، لأن امتيازهم بمثابة تقريع دائم للناس لضآلة منزلتهم بإزائهم .

— ١٦ —

لا حماقة أشق فى الاحتمال
من قول الحمقى للعقلاء :
فى الأيام العظيمة
ينبغى أن تبينوا عن تواضع .

— ١٧ —

لو كان الله جاراً سيئاً
مثلى ومثلك
لكان لنا من الشرف نصيب أقل ؛
إنه يدع كل امرئ كما هو .

محاكاة لمثل قاله سعدى هو : « الله العظيم يرى كل شىء ويضع حجاباً على كل شىء ؛ وجارى لا يرى شيئاً ، ومع ذلك يتبرّم وينهر ولا يدعنى فى سلام » . (« جلستان » ، ترجمة أوليارس ص ١٨٤) .

— ١٨ —

اعترفْ ! بأن شعراء الشرق
أعظم منا نحن شعراء الغرب .
لكن الأمر الذى نبلغ شأوهم تماما فيه
هو كراهية بعضنا لبعض

فكرة شبيهة بتلك التى عبّر عنها حافظ الشيرازى فقال : « قلبى مشغول دائماً بمن ينافسنى : فالقاص يكره القاص » (ديوان حافظ ، ترجمة فون همر ، جـ ٢ ص ٩١) .

— ١٩ —

فى كل مكن يريد كل إنسان أن يكون رئيساً
وهكذا الحال فى العالم
ويمكن كل إنسان أن يكون وقحاً
لكن فقط فيما يُحْسن فهمه .

كل إن مايريد أن يكون له الصدارة ؛ ولكنه لايحق له أن يُشعِر بتفوقه وافتخاره وتكبّره إلا حين يكون متفوقاً حقاً .

— ٢٠ —

اللهم ارفع غضبك عنّا !
إن أقزام الملوك صارت لهم الكلمة .

القطع من ٢٠ إلى ٢٢ ترجع إلى مصدر واحد هو شاردان .
ولئن كان مقصد جيته متوجهاً إلى ميدان الأدب ، فإن رأيه هنا يمكن أن ينطبق على سائر الميادين .

— ٢١ —

إذا أراد الحسد أن يمزق نفسه
فدعه يشبع نهمه

— ٢٢ —

لفرض الاحترام على الناس
ينبغي أن يكون المرء قوى الشكيمة ؛
إن الإنسان يصيد كل شيء بالصقر ،
فيما عدا الخنزير البرّى .

قرأ جيته لدى شاردان (ج ٤ ص ٩٣) عن الصيد بالبزاة أوالصقور :
« ويدربونها على مهاجمة كل الحيونات الوحشية فيما عدا الخنزير البرىّ » .

— ٢٣ —

ماذا يفيد رجال الدين
أن يسدّوا على الطريق ؟
ما لا يمكن أن يُدْرَك على استقامة
لا يمكن أن يُعرَف على التواء وقَبْل

قطعة يهجو فيها جيته التدين المحدود الذى دعا إليه الرومنتيك . وقد نظمها في ٢٧ يناير سنة ١٨١٦ ليهاجم التقوى الزائفة المحدودة الأفق التى انتشرت بين معاصريه من الرومنتيك .

— ٢٤ —

مدح البطل والتنويه به
من شأن المناضل الجسور
ولا يمكن أن يقرّ بقيمة إنسانٍ
إلاّ من عانَى الحرّ والزمهرير .

الأرقام من ٢٤ إلى ٢٨ نظمت بعد نهاية ديسمبر سنة ١٨١٥

ومصدر القطع ٢٤ ، ٢٥،٢٦ ، ٢٨ هو كاتبي رومى فى كتابه « مرآة البلدان » ، وهو وصف لرحلة ، ومؤلفه عاش فى القرن السادس عشر ؛ وقد قرأ ذلك جيته فى ترجمة ديتس .

والقطعة التى أمامنا مصدرها ديتس ج ٢ ص ٢٣٩ وما يتلوها : « هل يمكن أن يعرف قيمة إنسان إلاّ مَنْ عانى الحرّ والزمهرير ؟ »..

— ٢٥ —

افعل الخير من أجل الخير فحسب ؛
وما تفعله لن يبقى لك ،
وحتى لو بقى لك
فإنه لن يبقى لأولادك

وردت فى ماردان العبارة التالية : « لا تقل إن ما تفعله يبقى لك ؛ لو بقى لك ، فلن يبقى لأولادك » (ديتس ، ج ٢ ، ص ٢٤٤) .

— ٢٦ —

إذا أردت ألا تُنْهَب نهباً شائناً

فاكتم ذهبك وسفرك ، وإيمانك

نفس المصدر : حيث ترد العبارة التالية : « قلت لأصحابى : اعملوا بالمثل الذى يقول : خبّىء ذهبك وذهابك وإيمانك » . (ديتس ح ٢ ص ٢٤٦) . كذلك يورد يوسف فون همرّ فى « كنوز الشرق » (ج ٣ ص ٣٤٦) حديثاً نبويا بهذا المعنى : « اكتم ذهبك وطريقك وفرقتك » .

— ٢٧ —

كيف حدث أنه فى كل مكان

يسمع المرء الكثير من الأمور الحسنة ومن الحماقات ؟

إن الشباب يرددون أقوال الشيوخ

ويعتقدون أنها لهم ومن عندياتهم :

يسخر جيته من ادعاءات الشباب الذين يكررون أقوال الشيوخ ويزعمون مع ذلك أنها من ابتكارهم .

— ٢٨ —

لا تدع نفسك أبداً

تنساق إلى المجادلة والمناقضة !

فالعقلاء يقعون فى الجهل

إذا جادلوا الجهّال .

المعنى أخذه جيته من « مرآة البلدان » حيث ورد : « لا تجادل فى الحب ، ولا تتنازع ، ياقلبى ، مع الأتقياء ! فالعقلاء يقعون فى الجهل إذا تجادلوا مع الُجهلاء » (ديتس ، ج ٢ ص ٢٣٦) .

— ٢٩ —

« لماذا كانت الحقيقة نائية بعيدة ؟
ولماذا تختبئ فى أعماق الهاوية ؟ »
لا أحد يفهم فى الوقت المناسب ! —
لو فهم المرء فى الوقت المناسب ،
لكانت الحقيقة قريبة وانتشرت واسعاً
وصارت لطيفة رقيقة محبوبة

خاتمة رسالة بعث بها جيته إلى بواسريه فى أول مايو سنة ١٨١٨

— ٣٠ —

ما الفائدة فى البحث
عن المكان الذى يفيض إليه الإحسان ؟
أَلْقِ بكعكك فى الماء ،
فلا يدرى أحد من سينعم بها .

إشارة بالكرم ، عن مثل شرقى واسع الانتشار ، أورده ديتس بالرواية التالية : « افعل الخير ، و أَلْقِ بخبزك فى الماء ، فسيردّ لك ذلك ذات يوم » (ديتس : كتاب اقابوس ص ٣٣٤ ، برلين سنة ١٨١١ وتعليق رقم ٣) . ويشير جيته إلى هذا المثل فى رسالة إلى روزتّه اشتيدل Rosette Städel بتاريخ ١٨١٥/١٠/١٠

— ٣١ —

لما قتلت عنكبوتاً ذات يوم
تساءلت هل كان ينبغى علىّ أن أفعل ذلك ؟
ألم يشأ الله أن يكون لها مثلى
نصيبها من هذه الأيام ؟

استلهم فيها جيته قطعة فى « جلستان » سعدى ورد فيها : « ألا تعرف بماذا تشعر النملة حين تكون تحت قدمك ؟ إنها تشعر بمثل ما تشعر به حين يطؤك فيل » (ترجمة أوليارس ص ١٧) . وقد استبدل جيته العنكبوت بالنملة ، لأنه ورد فى القرآن (سورة العنكبوت آية ٤١) : « وإن أَوْهَنَ البيوت لبيتُ العنكبوت » .

والقطع ٣١ إلى ٤٩ نظمت قبل ٢٦ يناير سنة ١٨١٥

— ٣٢ —

« الليل مظلم وعند الله النور » ،
فلماذا لم يبرأ الله على هذا النحو ؟ »

مصدر هذا القول غير معروف بعدُ

— ٣٣ —

يا لها من جماعة مختلطة متنوعة !
إلى مائدة الله يجلس الأصدقاء والأعداء .

مصدر هذه القطعة هو مقدمة سعدى « لبوستانه » (أوليارس ص ١) حيث يقول : « الأرض سماطه (سماط الله) المحدود أمام كل الناس ، حيث لافارق بين صديق وعدو » . كذلك وجد جيته عند شاردان هذه الجملة « إلى مائدة الله يجلس الصديق والعدو » .

— ٣٤ —

أنت تقول عنى إننى بخيل ،
أعطنى إذن ما أستطيع تبذيره !

استلهم فيها جيته مثلاً عربياً أورده أوليارس ، يقول ما معناه : إن

الطبيعة لم تجعلنى بخيلاً ؛ يعوزنى ما أستطيع أن أنفق منه عن سعة وكرم »
(أوليارس ص ١١٧ برقم ١٨) .

— ٣٥ —

إذا أردت منى أن أريك المنطقة المحيطة بنا
فعليك أولاً أن تصعد إلى السطح

نفس المصدر مثل رقم ٣٤ (أوليارس ص ١١٨ برقم ٤١) حيث ورد : « إذا كنت لا تريد الصعود على السلم ، فإنك لن ترقى إلى السطح » ، وكذلك ورد : « خادم القوم سيدهم » .

— ٣٦ —

من يلزم الصمت لا يهاب إلا قليلا ؛
فالمرء مخبوء تحت لسانه .

مأخوذة من المثل الوارد فى البيت الثانى ، وهو مثل عربى شائع جداً ، وقد أورده ديتس فى «كتاب قابوس» ص ٣٨٣ .

— ٣٧ —

مَنْ له خادمان
لا يُخْدَم جيداً .
والدار التى فيها امرأتان
لا تكنس كنساً نظيفاً

نفس المصدر («كتاب قابوس» ص ٦٢٩ برقم ٣٦) إذ ورد فيه : « إذا أمرت فلا تأمر رجلين فى نفس الوقت إذا أردت أن يُنَفَّذ ؛ إذ يقال : إن طعاماً يطبخه شخصان سيكون إما كثير الملح أو بغير ملح ، والدار التى فيها امرأتان لن تكنس كنساً نظيفا » .

— ٣٨ —

مكانكم يا إخوا ،
وقولوا فقط : هو نفسه قال هذا !
لماذا نقول طويلاً : رجل وامرأة ؟
لقد كُتِب : آدم وحوّاء .

هجوم على الإيمان الأعمى بالسلطة . وكلمة : « هو نفسه قال هذا » (antos epha) كانت الصيغة التوكيدية التى يستخدمها أتباع فيثاغورس لتأييد أقوال رئيسهم . « وآدم وحواء » الصيغة التقليدية لعقيدة الكتاب المقدس التى يؤمن بها جمهور الناس إيماناً أعمى ، بدلاً من معنى « الرجل والمرأة » التى هى فكرة طبيعية تحتاج إلى بحث طويل مفصل . فجيته يسخر إذن من المتمسكين بالتقليد الأعمى .

— ٣٩ —

لماذا أشكر الله أجزل الشكر ؟
لأنه فصل بين الألم والمعرفة .
ولو عرف كل مريض عِلّته
كما يعرفها الطبيب لانتابه اليأس

يقول بورداخ إن بين هذه القطعة وبين بيتى شعر شلر : « الخطأ وحده هو الحياة ، والعلم هو الموت » — شبهاً .

— ٤٠ —

من الجنون أن يفرض كل إنسان
فى كل حالةٍ رأيه ويمجّده !
إذا كان « الإسلام » معناه التسليم لله
فعلى الإسلام نحيا ونموت جميعاً

راجع ما قلناه فى التصدير فى الفصل الخاص بـ « جيته والدين » . وكان جيته يؤمن بوجوب التسليم المطلق لإرادة الله ، والإيمان الواثق بالعناية الإلهية التى نظمت كل الأشياء .

— ٤١ —

من يأت إلى الدنيا يبْنِ بيتاً جديداً
ثم يرحل ويتركه لثانٍ
يرتبه على نحوٍ آخر
ولا أحد يُتِمُّ البناء

يقول شاردان أن الفارسىّ يكره أن يسكن البيت الذى توفى فيه أبوه ، وبهذا يفسّر قصيدة لسعدى يوردها وجيته يترجمها هنا : وقد جذبه إليها ما ترمز إليه من قانون طبيعى للتنافر بين الأجيال ، إذ كل جيل يستأنف نفس المهمة دون أن يصل أبداً إلى غاية ونهاية .

وقصيدة سعدى وردت فى مقدمة « جلستان » (ترجمة أوليارس) وهذه ترجمتها كما فى الأصل . كيف نمضى أزمان الحياة الجميلة ؟ إننا نملؤه بالمرارة من جراء الترّهات : هذا يبدأ فى البناء ، وذاك يستمر فيه ، وقبل أن يسكن فيه حقاً ، عليه أن يرحل إلى دار الظلام » . وقد أرسل جيته هذه القصيدة فى ٣٠ مارس سنة ١٨١٦ إلى هانز جرانافون اشلنس .

— ٤٢ —

من يدخل بيتى يمكنه أن يذم
ما تحملته طوال عدة سنوات ؛
لكن ينبغى عليه أن ينتظر لدى الباب
إذا أبيتُ اعتقادَ أنه يستحق .

يعنى : إن الزائر الأجنبي له حق فى أن ينتقد كل ما يجرى فى بيتى . لكن إذا صار خارج الباب ، فعليه أن يتحمل دوره ويعانى بدوره النقد الذى أبداه .

— ٤٣ —

رب ارضَ
عن هـذا البيت الصغير !
يمكن بناء ما هو أكبر ،
لكن لن ينتج عن ذلك شىء أكثر .

« البيت الصغير » يقصد به « الديوان الشرقى » ؛ وفى رسالة كتبها جيته إلى كوز جارتن بتاريخ ١٦ يوليو سنة ١٨١٦ أشار إلى أن قطعة بهذا المعنى ينبغى أن يختم بها « الديوان الشرقى » ، إذ قال : « وأود فى ختام أن أضع مثلا شرقياً ، مضمونه هكذا تقريباً : رباه ! تقبل هذا البيت الصغير ، إن الأمر ليس بكبر الحجم ، فالتقوى هى التى تصنع المعبد » .

— ٤٤ —

ها أنت ذا متردّد
بما لا يستطيع أحد أن يسلبك إياه :
صديقان ، بغير همـوم ،
كأس من الخمر ، ومجموعة من الأغانى

المقصود بالصديقين اللذين لا يسببان هموما : كأس الخمر ، ومجموعة من الأغانى .

— ٤٥ —

« أى شىء لم يأت به لقمان
الذى نعتوه بالدمامة والقبح ؟ »
ليست الحلاوة فى العُود (البراع)
بل السكر هو الحــلو

تقول الأخبار إن لقمان كان معاصراً لموسى أو نوح أو داود ، وأنه كان عبداً حبشياً ، أسود دميما مثــل إيسوفوس صاحب الخرافات (إيسوپ) ، وبيع لليهود . وكان غليظ الشفتين ، ملتوى الساقين .

وقد ترجم أوليارس حكم لقمان : وألحقها بترجمة لجلستان سعدى.

والفقرة الأخيرة (البيتان الأخــيران) حاكى فيهما سعدى فى جلستان (ترجمة أوليارس) ص ١٠٣ ، برقم ٧٦) حيث يقول سعدى : « حلاوة السكر ونفاسته ليست من العود الذى يوجد فيه ، بل من طبعه » .

— ٤٦ —

إن الشرق اجتاز
البحر المتوسط اجتيازاً باهراً مجيداً ؛
ومن يعــرف حافظاً ويحبّه
هو وحده الذى يدرك ما تغنى به كالدرون

فى رسالة كتبها جيته إلى جريس بتاريخ ٢٩ مايو سنة ١٨١٦ أثنى على كالدرون وقال عنه « إنه لم يتنكر لثقافته العربية » . وكان جيته يعد كالدرون من بين الشعراء « الشرقيين الغربيين » وقد أيد هذا الرأى جوندولف فى كتابه

عن جيته ص ٦٩٠ ؛ بينما أنكره ك . ڤولف فى مقال له نشر فى «كتاب جيته السنوى » (الذى ينشره جيجر فى فرنكفورت ابتداء من سنة ١٨٨٠) المجلد ٣٤ ص ١٣٢ . وعلى كل حال فإن مسألة تأثر كالدرون بالثقافة العربية الإسلامية لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحث ، وعسى أن تتاح لنا فرصة للدراسة هذا الموضوع

— ٤٧ —

« لماذا تزيّن إحدى يديك
أكثر مما ينبغى ؟ »
ماذا ينبغى أن تفعل اليسرى
إذا لم تزينها اليُمْنى ؟

استلهم فيها جيته حكاية أوردها سعدى فى « جلستان » (ترجمة أوليارس ، ص ١٠٩ برقم ١٤٤) : «كان جمشيد أول من زين يده بخاتم . وقد سأله أحدهم : لماذا وضع كل الزينة فى اليد اليسرى ، بينما اليمنى أحق بذلك ؟ فأجاب جمشيد : يكفى اليمنى زينة أنها يُمْنى » .

وقد فسّر ليبر هذه القطعة بأنها ترمز إلى ما عسى أن يوجه إلى جيته من نقد ولوم ، من أنه مدح الشرق على حساب الغرب فى هذا « الديوان الشرقى » .

— ٤٨ —

لو بُعِث إلى مكة بحمار المسيح
فلن يكون بهذا أحسن شأناً
بل سيظل دائماً حماراً

هذه القطعة مأخوذة عن سعدى ، إذ ورد فى « بوستانه » : « لو أرسل

حمار المسيح إلى مكة فلن ينصلح شأنه ، بل سيظل دائماً حماراً » (ترجمة أوليارس ، ص ٧٨) .

— ٤٩ —

الطين المدوس
ينداح ولا يتصلّب
لكنك لو ضربته بشدة
فى قالب صلب لاتخذ شكلاً
وستتعرف أمثال هذا الحجر
ويسميه الأوربيون پيزه

مأخوذة عن مثل أورده ديتس (ج ١ ص ١٩٦) وانتشر بين التتر ، وأصله : « إذا دست على الطين عثرت . أما البيزه فطين مضروب على هيئة حجر الخاتم ؛ وربما استمد جيته معلوماته عنه من ديتس « تذكارات من آسيا » ج ٢ ص ٥٢٤ وما يتلوها .

— ٥٠ —

لا تحزنى أيتها النفوس المطمئنة
لأن من لا يخطئ يعرف متى يخطئ الآخرون
لكن من يخطئ فى وضع أحسن ،
إنه يعرف بوضوح ما فعلوا من خير

تهكم من دعاة الأخلاق الذين يثورون ضد الشاعر : فإن من لا يخطئ يعرف جيداً متى يخطىء الآخرون ، لكن من يخطىء يقدّر أيضاً ما يأتون من أفعال حسنة ، الأول مشغول بنقائص الغير ، أما الثانى فيقر لذوى الفضائل بفضائلهم .

وهذه القطعة والقطعتان التاليتان نظما سنة ١٨١٥ وسنة ١٨١٦ حتى شهر مايو.

— ٥١ —

« أنت لم تشكر
كفاء ما قدّم لك من خير ! »
لم ينلني مرض بهذا السبب
وصنائعهم تحيا فى قلبى

كان جيته من أشد الناس حرصاً على الاعتراف بالجميل والإقرار بالفضل لأصحاب الفضل. وبما يدين به للسابقين ؛ وصنائعهم ظلت تحيا فى قلبه باستمرار .

— ٥٢ —

اظفر بحسن السمْعة
وميّز جيداً بين الأمور ؛
من يرد أن يفعل أكثر يضِـعْ

مصدر هذه القطعة هو « پند نامه » لفريد الدين العطار ، بترجمة سلفستر دى ساسى (وردت فى « كنوز الشرق » ليوسف فون همّر جـ ٢ ص ٩) : « ينبوع السعادة أمران : حسن السمعة وسلامة التميز ، وكل من يريد غير هذين يضل ويهلك » . وهو نفس مصدر « خمسة أشياء » ، « الألمانى يشكر ، وما هو مكتوب فى « پند نامه » .

— ٥٣ —

تيار الشهوة يعصف عبثاً
مهاجماً الأرض الراسخة غير المقهور

ويلقى بلآلئ شعرية على الشاطئ
وهـــذا مكسب للحياة

نظمت فى مستهل فبراير سنة ١٨١٦ ، ونشرت أولا كشعار فى « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ رقم ٧١ ص ٢٨١ ، ثم دخلت فى « الديوان الشرقى » طبعة سنة ١٨١٩ كخاتمة لحكمت نامه .

ولا نعرف المصدر الذى استمد منه جيته هذه القطعة .

— ٥٤ —

أمين السر

لقد حققتَ العديد من الالتماسات
حتى لو كان فيها ما يؤذيك ،
وهذا الرجل الطيب لا يطلب إلا شيئاً بسيطاً
وهذا الشىء البسيط ليس فيه خطر

الوزير

هذا الرجل الطيب لا يطلب إلا شيئاً بسيطاً
وإذا حققته له فى الحـــال
لضـــاع فوراً

نظمها جيته فى ١٢ يناير سنة ١٨١٦ ، ويرى بورداخ (نشرة اليوبيل جـ ٥ ص ٣٧٢) أن الباعث عليها مناسبة شخصية جداً
ولا يعرف مصدرها بعدُ .

والأبيات ٥٤ ــ ٥٦ أضيفت إلى حكمة نامه فى طبعة سنة ١٨٢٧ التى تشمل مجموع مؤلفات جيته ، عند الناشر كوتا فى اشتوتجرت وتوبنجن .

— ٥٥ —

من المؤسف — لكنه أمر يقع كثيراً —
أن الحقيقة تتسلل وراء الباطل ؛
وأحياناً يكون هذا هواها ؛
فمن يستطيع أن يسأل هذه المرأة الجميلة (الحقيقة) عما تفعل ؟
إذا شاء السيد « باطل » أن ينضم إلى « الحقيقة »
فإن السيدة « حقيقة » لا بد ستتضايق من ذلك

نظمت فى « فندق الدُّلب » فى كامسدورف فى ٦ أبريل سنة ١٨١٨ وربما كان جيته قد تذكر « السيدة حقيقة » فى قول هانز ساكس : « السيدة حقيقة لا تريد أن تؤوى أحداً » .

— ٥٦ —

اعلم أنى أتضايق جــداً
من كون كثير من الناس يغنُّون ويتكلمون !
من يطرد الشعر من العــالم ؟
— الشــعراء !

يقول جيته فى رسالة إلى ريومِيه Riomao بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٨١٤ : « إن جمهرة الشعراء هى التى تتسبب فى تقليل اعتبار الشعر وتأثيره :

تيمور نامه

كتاب تيمور

— ١ —

الشتاء وتيمور

هكذا أحاطهم الشتاء بغضبته الهائلة
ناشراً أنفاسه الثلجية بين الناس
مثيراً كل الأرياح ضــدهم
وأعطى السلطة المطلقة عليهم للعواصف المزوّدة بإبر الجليد
ونزل فى مجلس استشارة تيمور ،
وناداه بتهديدات شديدة وقال :
على رسلك ، رفقاً ، أيها البائس !
تقدّم ، يا طاغية الظُّلم
أما من بُدّ أن تحترق القلوب وتستهلك فى الحرائق بعدُ ؟
إذا كنت أحد الأرواح اللعينة ، فاعلم إذن أننى الروح الآخر
أنت عجوز ! وأنا أيضاً ! وقوتنا تحجّر الأرض والناس .
أنت المرّيخ ! وأنا زُحَل ، وكلانا كوكب نَحْس
فى قراناتنا أفظع الحوادث والكوارث .
إذا قتلت النفوس ، وبرّدت الهواء .
فإن أهويتى أشد بروداً مما تستطيع أنت
إن جيوشك الوحشية تصب العذاب على آلاف المؤمنين

ليكن ، في زماني — إن شاء الله — سأجد ما هو أسوأ
وأيم الله إني لا أقلُّ عنك في شيء .
ليسمع الله ما أعرضه عليك !
نعم ، والله ! لن يستطيع حمايتك من الموت ،
أيها اليَفَن الكبير ، ، لهيب النار الكبيرة
ولا أيّ نار في شهر كانون

كتاب تيمور : أعلن عنه جيته في « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ في مدينة عدد رقم ٤٨ ص ١٨٩ كما يلي : « كتاب تيمور يعكس أحداثاً عالمية كبرى في مرآة نرى فيها ، لعزائنا أو لبلائنا ، انعكاس مصائرنا نحن » . وراجع ما يقوله جيته في « تعليقاته » .

الشتاء وتيمور : نظمها جيته في ١١ ديسمبر سنة ١٨١٤ في مدينة يينا كبرهان على إمكان التفسير الرمزي للشعر الشرقي ، لأن بواسريه (ج ١ ص ٢٦٤) يصف حملة تيمور في الشتاء بأنها مناظرة لحملة نابليون في الشتاء على روسيا وموسكو .

ودعا جيته إلى نظم هذه القصيدة في مقال في « مجلة يينا الأدبية » (عدد مارس سنة ١٨١٤) ألهمه فكرة مادة للملحمة وطنية ألمانية . كذلك كان جيته يتذكر عبارة وردت في رسالة كتبها كارل أوجست إلى الكونتيسة أردونل بتاريخ ٢٩ ديسمبر سنة ١٨١٢ ، تصف هروب نابليون عائداً من روسيا ماراً بڤيمار : « لقد مرَّ المتجمد العظيم (= نابليون) من هنا دون إعلان عنه وهو يركب أقذر عربة » .

أما مصدر القصيدة فهو قطعة شعرية وردت في كتاب « عجائب المقدور في نوائب تيمور » لابن عربشاه ، وترجمها جونز إلى اللاتينية Poeseos Asiaticae Commentarorum Sex ، نشرة يوهان جوتفريد

ايشهورن ليبتسك سنة ١٧٧٧) وكان تيمور قد هلك أثناء الاستعداد لحملة فى الشتاء ضد إمبراطورية الصين . ومن هنا أدرك معاصرو جيته فى الحال الشبه بين هلاك تيمور وبين ضياع نابليون فى حملة روسيا الشتوية التى أدت إلى نهاية نابليون .

– ٢ –

إلى زليخا

لملاطفتك بأطيب العطور
وإشاعة المزيد من الحبور
لا بد لآلاف من براعم الورود
أن تفنى أولا فى اللهيب

لإحراز قارورة صغيرة
تحتفظ بعطرك إلى الأبد
رفيعة مثل أطراف أناملك النحيلة
ثم حاجة إلى عالمٍ بأسره

عالمٍ من دوافع الحياة ،
فى اندفاعها الحافل
تستشعر حب البلبل
وغناءه الذى يهزّ النفوس

هل لا بد لهذا العذاب أن يعذبنا ،
لأنه يزيد فى سرورنا ؟

ألم يستهلك طغيان تيمور
آلافاً مؤلفة من نفوس بنى الإنسان ؟

نظم جيته هذه القصيدة فى ٢٧ مايو سنة ١٨١٥ فى ڤيزبادن ؛ وكانت فى الأصل بعنوان « زيت الورد » ولا تضم غير ثلاث فقرات ؛ أما الرابعة فقد أضافها جيته لما وضع هذه القصيدة فى كتاب تيمور ورأى ما فى ذلك من تعسف واصطناع ، فأراد بهذه الفقرة الرابعة أن يبرر وضعها فى كتاب تيمور ؛ ولكن هذا لم يُجْدِ ، فلا تزال فى غير موضعها رغم كل ذلك .

زليخا نامه

كتاب زليخا

حلمت في الليل أني
رأيت في النوم بدرا
فما تنبهت إلا
والشمس تطلع فورا

— ١ —

دعوة

ينبغي عليك ألا تهرب أمام النهار
لأن اليوم الذي ستبلغه
لن يكون خيراً من اليوم الحاضر ؛
لكنك إذا بقيت مسروراً في هذا المكان
الذي أتجنب فيه العالم ابتغاء اجتذاب العالم إليّ
فستكون في أمانٍ معي :
اليوم هو اليوم ، والغد هو الغد
وما يتلو وما مضى
لا يسوق ولا يبقى ساكناً
ابقَ يا حبيبي الأعزّ ؛
لأنك أنت الذي تأتي به وتعطيه

كتاب زليخا : يقول جيته وهو يعلن عن هذا الكتاب في « صحيفة الصباح »

(سنة ١٨١٦ برقم ٤٨ ، ص ١٨٩) : «كتاب زليخا يحتوى على قصائد عاطفية عنيفة ، ويتميز من كتاب العشق بأن المحبوبة مذكورة بالاسم ، وأنها تتجلى بطابع واضح صريح شخصى على أنها شاعرة تنافس الشاعر ، الذى لا ينكر علوّ سنه ، فى الوجدان المشبوب . والمحيط الذى تجرى منه هذه الدراما الثنائية كله فارسى . وهنا أيضاً تنفذ بعض المعانى الروحية ، وحجاب الحب الدنيوى يخفى علاقات أسمى» .

والكتاب تعبير عن الحب المشبوب بين ماريانة فون ڤليمر وجيته على النحو الذى عرضناه فى «التصدير» بالتفصيل ، فليراجع هذا الفصل قبل قراءة هذا الكتاب .

الشعار : هذه الأبيات الأربعة (وقد نظمناها شعراً) نظمت فى الوقت اللاحق على ٢١ أغسطس سنة ١٨١٤ ، وقصد بها فى الأصل أن توضع فى «كتاب الحِكَم» .

وهو ترجمة منظومة لمثنوى للسلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) ترجمة ديتس فى «ذكريات من آسيا» (ج ١ ص ٢٥٤) .

لكن عند تقسيم «الديوان الشرقى» إلى كتب ، وضع جيته هذا الشعار هنا ، تعبيراً عن الحادث المفاجئ الجميل ، حادث حبه لماريانة فون ڤليمر ، الشمس التى أشرقت فى سماء غرامه فجأة على غير توقع .

دعوة : نظمت هذه القصيدة فى ليلة رأس السنة لسنة ١٨١٤ وكان القصد بها أن تكون جملة ختامية «للديوان الألمانى» .

ولا ندرى على وجه الدقة من المقصود «بالحبيب الأعز» هنا : هل يقصد به محبوبة معينة ، أو يقصد به كارل أوجست . لكن بعد أن وضعت فى هذا المكان أصبح من الممكن تفسيرها بأن يكون المقصود هو حبيبته الجديدة (التى عرفها بعد نظم القصيدة) مريانة فون ڤليمر .

وثم شبه بينها وبين قول حافظ الشيرازى (ديوانه ، ترجمة فون همّر ، جـ ١ ص ٢) : « أتريد أن تعثر على الحبيب ؟ إذن دع الدنيا بما فيها » .

— ٢ —

ما من عجب فى أن تسحر زليخا يوسف

فقد كان شاباً ، وللشباب امتيازه

وكان ، فيما يقال ، جميلاً جمالاً خلاباً

وهى الأخرى كانت جميلة ، فكان فى وسع كليهما أن يسعد الآخر

أما أنك ، يا من جعلتنى أطيل الانتظار ،

ترشقينى بنظرات مشبوبة فتيّة

وتحبّينى اليوم ، وغداً تغمرينى بالنعيم ،

فهذا ما ستغنّى به قصائدى ،

وستكونين عندى زليخاى إلى أبد الآبدين

— ٣ —

ولما كنت منذ الآن ستدعين زليخا

فلا بد لى أنا أيضاً من اسم

حين تتغنين بحبيبك ،

حاتم ! هكذا ينبغى أن يكون اسمه .

فإن تعرّفنى أحدٌ تحت هذا الاسم

فان يكون هذا ادّعاءً :

فمن يلقب نفسه بلقب فارس القديس جورج

لا يحسب نفسه فى التوّ أنه كفءٌ للقديس جورج .

فأنا بما أنا عليه من فقر لا يمكن أن أكون
حاتم الطائى أكرم الكرماء
ولا حاتم الطغرائى ، أسخى الأحياء
بين الشعراء ؛
لكن أن أضع كليهما نُصْبَ عينىّ
هـــذا أمرٌ ليس بالذميم تماماً ،
فقبول مواهب السعادة وبذلها
سيكون دائماً لذة بالغـــةً
وأن يحب كلانا الآخر ، ويبذل نفسه للآخر
هذا فيه نعيم الفردوس .

هاتان القصيدتان مرتبطتان ، وقد نظمتا فى يوم ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ وفيهما ذكريات الأيام الحافلة بالسعادة والوجد المشبوب التى قضاها جيته مع مريانة فون ڤليمر .

وقد اختار جيته اسم زليخا لقباً لحبيبته ماريانة ، لأن حبّه عذرى ؛ وعبد الرحمن الجامى فى قصيدته الكبرى « يوسف وزليخا » (راجع التصدير) صوَّر الحب بين يوسف (سيدنا يوسف ، النبى) وبين زليخا (امرأة العزيز ، فرعون مصر) على أنه حب طاهر لم تخالطه شهوة ، بل أفضى إلى إيمان زليخا بالله . وجيته يرمز إلى حبّه لماريانه بهذا الرمز الصوفى ، ليقول إن حبهما عذرى هو الآخر ، حب روحى خالص خالد ، وهذا اللون من الحب هو نعيم الجنة حقاً .

أما لماذا سمّى جيته نفسه باسم « حاتم » فأمر لم يفهمه النقّاد حتى الآن ، ولكننا فسَّرناه فى التصدير ، فنحيل القارئ إليه :

وكان جيته قد قرأ عن حاتم الطائى فى ترجمة يوسف فون همر لديوان حافظ الشيرازى (ج ٢ ص ٤٤٥) إذ ورد فى شعر حافظ : «من يحب حبًّا يعدلْ ألف حاتم» وقد علق يوسف فون همر على ذلك بقوله : «حاتم الطائى هو أكرم العرب» .

أما حاتم الطغرائى فقد قرأ عنه جيته فى «المكتبة الشرقية» لدربوليه (ج ٢ ص ٤٨٨ ، طبعة ١٧٨٧) أنه : «رجل غنى بالفضائل والصفات الحميدة ، لطيف الطبع ، مؤدب مع جميع الناس» .

— ٤ —

حاتم

ليست الفرصة هى التى تخلق اللص
بل هى نفسها أسوأ اللصوص
لأنها سلبتنى بقية الحب
الذى كان لا يزال فى قلبى

ثم أسلمتها إليك
يا أعظم مكسب فى حياتى
حتى صرت أنا المسلوب
لا أرجو الحياة إلا منك

بيد أنى أستشعر الرحمة
فى رفيف نظرتك
وأنعم بين ذراعيك
بمصير جـديد

— ٥ —

زليخا

أما وقد غمرنى حبك بالسعاد
فلست أنحى باللائمة على الفرصة
حتى لو كانت بالنسبة إليك لصاً ،
فما أسعدنى بهذه السرقة !

وفيمَ التحدث عن السرقة ؟
هبى نفسك عن طيب خاطر ؛
ويلذ لى كثيراً أن أعتقد —
نعم ، إننى أنا الذى سرقتك .

إن ما أعطيته بإرادتك
سيجلب لك كسباً رائعاً ؛
وراحتى ، وحياتى الحافلة
أقدمهما إليك بسرور ، فتقبلهما !

لا تمزح ! ولا تتحدث عن الافتقار !
أوَلا يجعلنا الحب أغنياء ؟
حين أمسك بك بين ذراعىَّ ،
لا تقل سعادتى عن أية سعادة .

هاتان القصيدتان متكاملتان .

والأولى (رقم ٤) نظمت فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨١٥ ، وهى أقدم قصيدة وجهها جيته إلى مريانه . والثانية (رقم ٥) قصيدة من نظم مريانة نفسها ردت بها على جيته فى اليوم التالى .

وفى قصيدة جيته شبه بقصيدة لحافظ الشيرازى (ترجمة يوسف فون همر ، ج ٢ ص ١٣٩) يقول فيها : « سرقت قلبى ، وأعطيتك نفسى بنفسى » .

— ٦ —

العاشق لا يضلّ
مهما أظلمت الدنيا من حوله .
لو بعثت ليلى ومجنون
لعرفا منّى طريق الحب .

نموذج هذه القطعة فى « بوستان » سعدى (ترجمة أوليارس ص ٧٤) حيث ورد : « لو أحببت إنساناً حباً صادقاً لوجّهْتَ إليه قلبك وأغمضت عينيك عن سائر ما فى الدنيا . لو بعثت ليلى والمجنون من جديد ، لتعلما فن الحب من كتابى » . كذلك بنفس المعنى يقول حافظ الشيرازى (ترجمة يوسف فون همر ، ج ٢ ص ٤٠٥) : « من لم يسلك طريق الحبّ ، فماذا يعرف عن الحب » .

— ٧ —

أهذا ممكن ، يا حبيبتى ، أن ألاطفك
وأن أستمع إلى صوتك الإلهى ؟
مستحيلة تبدو الوردة دائماً ،
والبلبل يبدو غير مفهوم .

راجع ما يقوله جيته فى « التعليقات » .

وفيها استلهام لما يقوله حافظ (ج ٢ ص ٥٩) : « البلبل يغرّد ويتغنى

بكيف جعل الورد صديقه ، لقد تعلم البلبل الغناء من الورد ». وكذلك لما يقوله جلال الدين الرومى (أورده فون همر فى « تاريخ البلاغة عند الفرس » ص ١٨٦) : « العالم لا يحيط بصورة الوردة ، والخيال لا يحيط بالوردة » .

والقصيدتان رقما ٦ ، ٧ ربما نظمتا قبل نهاية يناير سنة ١٨١٥ وتبعاً لهذا ليستا موجهتين إلى مريانة ؛ وربما قصد بهما أن توضعا فى كتاب « الحكم » . لكن بعد وضعهما فى كتاب زليخا صار من الواجب تفسيرهما على أساس أنه قصد توجيههما إلى مريانة .

وقد وضعهما جيته هنا ليفصل بين الحوار السابق والحوار التالى :

— ٨ —

زليخا

لما كنت أركب السفينة فى الفرات
انزلق الخاتم الذهبى
الذى تلقيته منك
على طول إصبعى وغاص فى أعماق الماء

هكذا حلمت . ورفّ الفجر
فى عينىّ خلال الشجرة .
قل لى ، أيها الشاعر ؛ قل لى ، أيها النبىّ
بماذا تعبّر هذه الرؤيا ؟

— ٩ —

أنا على أتم استعداد لتعبيرها !
ألم أرْوِ لك مراراً
كيف تزوج دوج البندقية
بالبحـــر ؟

وهكذا من أناملك الرّخصة
وقع الخاتم فى نهر الفرات
آه ! أيها الحُلْم الرقيق
أنت تلهمنى آلاف الأناشيد السماوية !

أنا الذى هِمْت من الهندوستان
حـــتى دمشق
حتى أمضى إلى البحر الأحمر
مع قوافل جديدة

وأنت تزوجيننى بنهرك
وبهذه الرابية وهذه الخميلة
وهنا ستظل نفسى مخلصة لك
حتى آخر قُبلة .

هاتان القصيدتان نظمتا فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨١٥ .

وفيهما مزج بين معالم الشرق والغرب : الشجرة والرابية والخميلة عند جرير ميله على اليمن ، ونهر الفرات ، ورحلة دوج البندقية على

على السفينة بوشنتيرو فى أثناء الاحتفال بتزويجه بالبحـــر عن طريق إلقاء خاتم فى الماء ، والبحر الأحمر والقوافل الغادية إليه من هندوستان ودمشق .

— ١٠ —

إنى أعرف تماماً نظرات الناس
الواحد منهم يقول : « إنى أحب وأعانى الآلام !
وأرجـــو ، بل وأيأس ! »
وآلافاً أخرى من الأمور التى تعرفها الفتاة ؛
وكل هذا لا يفيدنى فتيلاً ،
وكل هــذا لا يؤثّر فىّ ؛
لكن النظرات ، أىْ حاتم ،
تهب اليوم رُواءه .
لأنها تقول : إنها هى التى تعجبنى ،
أكثر من أى شىء آخر حتى الآن ،
إنى أشاهد وروداً وأشاهد أقاحى
وهى زينة كل الحدائق وشرفها ،
وأيضاً صفصافاً وآساً وبنفسجاً ،
خلقت لتكون زينة الأرض .
إنها تحت زينتها أعجوبة
تحيطنا بالدهشة والإعجاب
وتجدّ نفوسنا ، وتشفينا ، وتبارك حولنا ،
حتى لنودّ ، ونحن فى تمام الصحّة ، أن نصير مَرْضى »

هنالك شاهدتَ زليخا
ولما وجدت الصحة في المرض
والمرضَ في الصحة
تبسمت وأنت تنظر إليّ
كما لم تبتسم من قبل للعالم .
وزليخا تستشعر في هذه النظرة
اللغة الخالدة : « إنها هي التي تعجبني ،
أكثر من أي شيء آخر حتى الآن » .

نظمت في ١٢ ديسمبر سنة ١٨١٧ . وفيها مشابه من قول حافظ الشيرازي (ترجمة فون همّر ج ٢ ص ١٧٠) : « لا طبيب لديه دواء لحزني ، إني بالحبيب فقط أصحّ وأمرض » .

— ١١ —

جنجو بيلوبا

ورقة هذه الشجرة التي جاءت إلى الشرق
وأودعت في حديقتي
تكشف عن معنى مستور
يلهم العارفين

هل هي كائن حيّ واحد
انشق إلى شقين من نفسه ؟
أو اثنان اختار كل منهما الآخر ،
حتى ليعدان شيئاً واحداً ؟

للجواب عن هـذا السؤال ،
أعتقد أنني عثرت على المدلول الصحيح ؛
ألا تحسّ من أغانيّ
أنني واحد واثنان معاً ؟

أرسل جيته هذه القصيدة فى آخر سبتمبر سنة ١٨١٥ مكتوبة بخط يده على ورق مزوّق مع ورقة الشجرة إلى مستشار البلاط كرويتسر هيدلبرج ذكرى لحديث جرى بينهما دار حول المعنى المزدوج فى الأساطير اليونانية . فكأن الورقة بمثابة رمز لما فى الأساطير ، وفى الطبيعة كلها ، من ثنائية : انقباض وانبساط .

وجنجو بلوبا Gingo Biloba : شجرة عجيبة نمت منذ أقدم الأزمان حول المعابد فى الصين ، حيث تعدّ نباتاً مقدساً . ولا يعرف لها وجود على هيئة برية ، وإن كان يقال إن منشأها فى غربى الصين . وهى شجرة ناعمة الملمس غير وافرة الأغصان ، ترتفع أحياناً إلى ١٢٠ قدماً ، وتتساقط أوراقها كل عام ، وعرض الورقة من ٢ إلى ٤ بوصة وطولها حوالى بوصة واحدة . ونظراً إلى قدمها فهى تعد كنوع من « الحفريات الحية » وبقيت بدون تغيير حوالى عشر ملايين سنة ، أو أقدم من أيّ شجرة حية نعرفها . وتزرع كشجرة زينة فى المناطق المعتدلة ، وتنمو بدون حماية فى كثير من أنحاء أوربا وشمال أمريكا .

وبالجملة فالقصيدة تعبّر عن الثنائية فى الطبيعة بوصفها قانونها الأساسى .

وقد قال بواسريه (جـ ١ ص ٢٧٩) عن هذه الشجرة : « هل هى كائن واحد ينشق إلى اثنين أو ثناء يتحد فى واحد » .

وتفسير القصيدة يذهب مذاهب شتى : الرمز إلى ثنائية الطبيعة ؛ الرمز إلى الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ، إلى تضافر الواقع والخيال عند

الشاعر ؛ الرمز إلى التعاون بين جيته ومريانة فى نظم كتاب زليخا الرمز إلى ما شب بينهما من غرام . . . الخ .

— ١٢ —

زليخا

قُلْ لى : لقد كتبت كثيراً
ووجهت قصيدك هاهنا وهاهناك ،
وخططت بيدك كتباً جميلة ،
فاخرة التجليد ، ذات جوانب مُذَهّبة
متقنة فى كل شىء ،
مجـــلدات أنيقة فاتنة ؟
وإلى حيث وجهتها ،
لا شك أنها كانت رهائن غرام ؟

حاتم

نعم ، النظرات القوية والرقيقة
والبسمات الساحرة ،
والأسنان ذات البريق الباهر ،
والأهداب التى ترشق بالسهام ؛ والغدائر كالأفاعى ،
والجيد الفاتن والصدر المثير ،
— كل هذا أوقعنى فى آلاف الأخطار !
قدّرى إذن منذ أىّ زمان كان التنبؤ بزليخا

نظمت فى ٢٢ سبتمبر فى هدلبرج .

وبعض الصور الواردة هنا له مشابه عند حافظ الشيرازى ، مثل قوله (ترجمة فون همر ج ٢ ص ٢٥٠) : « لا تجرح قلبى بسهام الأهداب » .
وقد ادعت مريانه فون فليمير أنها هى التى نظمت هذه القصيدة ؛ لكن النقاد بوجه عام متفقون على أن أسلوبها أسلوب جيته المحكم الموجز ، وكان نصيب مريانه لا يتجاوز المداعبات المتعلقة بغراميات جيته القديمة ؛

— ١٣ —

زليخا

ها هى ذى الشمس أقبلت ! يا لروعة منظرها !
إن الهلال يعانقها بقوة .
من ذا الذى استطاع أن يجمع هذين الزوجين ؟
هذا اللغز كيف يُفسّر ؟ كيف ؟

حاتم

السلطان استطاع ذلك ،
نعم ، جمّع بين أعظم زوجين فى العالم ،
ابتغاء تكريم الممتازين الصفوة
أشجع الشجعان فى جيشه الأمين

وليكن هذا رمزاً لسعادتنا !
هأنذا أرانا ، أنت وأنا ،
أنت تنادينى ، أى حبيبتى ، بقولك : يا شمسى ،
فتعال ، أيها القمر ، وضمّنى بين ذراعيك !

كانت مريانه قد اشترت لجيته من سوق فرنكفورت كقناع ساخر وساماً تركياً مؤلفاً من الشمس والقمر ، وفاجأته به ، فاتخذ منه رمزاً عميقاً ، هذا الجمع بين الشمس والقمر ، على الجمع بينه وبينها . وتذكر جيته هـــذا الحادث وهو ينتظر لقاءها فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨١٥ فى هيدلبرج . فهذا الوسام العثمانى الذى يجمع بين الشمس والقمر صار صورة الحب الذى يجمع بين مريانة وجيته .

— ١٤ —

إلىّ ، إلىّ ، أيها الحبيب ! ضع العمامة على رأسى !
فمن يدك وحدها تكون العمامة جميلة ؛
وإن عباس ، على أعلى عرش فى إيران ،
لم ير رأسه تُوّج بعمامة أجمل وأروع !

وكانت عمامةً تلك التى تهدلت من رأس الإسكندر
على هيئة عُقَد جميلة ،
وأعجبت كل خلفائه من بعده
كزينة تليق بالملوك .

وكذلك كانت عمامةً تلك التى زينت إمبراطورنا ؛
وهم يسمونها تاجاً . ولا مشاحّة فى الأسماء ؛
جواهر ولآلئ ! يا لها من فتنة للعين !
على أن أجمل زينة هى دائماً الموصلىّ

وهذه الزينة الصافية المُفَوَّفة بالفضة ،
لفّها ، يا حبيبى حول جبينى .

ما السموّ إذن ؟ إنه مألوفٌ لى !

أنت تنظرين إلىّ ، وأنا كبير مثله .

نظمت فى ١٧ فبراير سنة ١٨١٥

ومعنى القصيدة أن علامة السلطة هى العمامة ، منذ أقدم الأزمنة ، العمامة المؤلفة من الشيلان الموصلية . والشكل والاسم تغيرا .

وقد قرأها جيته لمريانة ، فاستفادت منها فى الاحتفال بعيد ميلاد جيته فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨١٥ . أما شاه عباس فقد حكم إيران من سنة ١٥٨٦ إلى ١٦٠٨ ؛ ولهذا فإن ذكره هنا تخلف تاريخى ، إذ المفروض أن الشاعر يعيش فى عصر حافظ الشيرازى (المتوفى سنة ١٣٨٩ م) وتيمور لنك (المتوفى سنة ١٤٠٥ م) .

والبيتان الأخيران محاكاة لبيتين لڤولتير فى « العذراء » (نشيد ١ بيت شعر ٧٦ — ٧٧) : « آه ! ليكن ملكاً ، ولكن ليحمل حسداً لى : إن لى قلبك ، فأنا ملك أكثر منه » .

وتوجد شذرة تصور القصيدة على هيئة حوار هكذا :

[زليخا]

لكن خبرنى إذن كيف ألِفتها ؛

فكل طبقة تحملها على طريقتها .

[حاتم]

يطيب لى أن أشعر بيدك على رأسى ،

حتى يرى الناس بعد ذلك أننى لك :

هذا يا حبيبتى هو طبقتى ومركزى.

— ١٥ —

قليلٌ ما أطلبه
لأن كلّ شيء يرضيـني
وهذا القليل ، منذ زمان بعيد
يعطيني العالم إياه عن طيب خاطر

مراراً أجلس مسروراً فى الحانة ،
ومسروراً أيضاً فى بيتى المحدود ؛
لكنى ما أكاد أفكر فيك
حتى تنفتح روحى وتشرع فى الغزو

إن ممالك تيمور يجب أن تكون ملك يمينك
وأن يدين لك جيشه العرمرم بالولاء
وأن تدفع لك بدخشان جزية من الياقوت ،
ويدفع لك بحر هورقانيا جزية من الفيروز

ولك الفاكهة المجففة الحلوة كالشهد
من بخارى ، وبلاد الشمس ،
وآلاف القصائد الجميلة ،
على أوراق حرير من سمرقند

وينبغى عليك أن تقرئى بسرور
كل ما أتيت به من أجلك من هرمز

وكيف إن كل هيئة التجارة
إنما تحركت حبًّا فيك

وكيف من بلاد البراهمـــة
آلاف الأصابع اشتغلت
من أجل أن تزهر لك
كل مفاتن هندوستان على الصوف والحرير

نعم ، واحتفاءً بالحبيبـــة
كيف نقب فى سيول سُمّليور
وفصل من الطين والحصى
والحصباء ، الماسُ من أجلك ؛

وكيف قام الجسورون من الغوّاصين
فانتزعوا من الخليج [العربى] كنز اللؤلؤ
وسرعان ما أخذ ديوان من العارفين المهرة
متلهفين على سلْكها من أجلك

وإذا أضافت البصرة كتقدمة أخيرة
الأفاويه والبخور
فستأتى لك القافلة
بكل ما يفتن الدنيا

لكن كل هذه النفائس الملوكية
ستبهر فى النهاية نظراتك

والنفوس العاشقة حقاً

لا تشعر بالسعادة إلاّ مع بعضها بعضا

نظمت القصيدة بحسب ما ورد تحتها فى ١٧ مارس ، ١٧ مايو سنة ١٨١٥ ، وربما كان التاريخ الثانى هو تاريخ إضافة الأبيات من ١٧ — ٣٢ .

والشاعر يتصور نفسه أنه فاتح العالم مثل تيمورلنك ، لأنه يحلم بأنه يأتى إلى حبيبه من كل البلاد بخير ما فيها : من بدخشان على نهر سيحون ، وبحر هورقانيا (بحر الخذر) ، وبخارى فيما وراء النهر ، وسمرقند فى شرقى بخارى ، والبصرة على مصب نهر الفرات ، والخليج العربى ، ومن هرمز على الخليج العربى ، وسمليور فى إقليم البنغال (بنجاله) .

ويقطع هذا التعداد الأبيات ١٧ — ٣٢ حيث يزعم أن الحبيبة تقرأ فى « أوراق حرير سمرقند » أصناف الهدايا التى أوصى بها حبيبها من هرمز على الخليج العربى ، أو من سمليور فى بنجاله .

ولهذا تساءل النقاد : ربما كانت الأبيات ١٧ — ٣٢ إضافة لاحقة أضافها جيته ، وأيدوا ذلك بالتاريخ المزدوج (١٧ مارس و١٧ مايو سنة ١٨١٥) الذى وضعه جيته للقصيدة .

— ١٦ —

هل أتردد لحظة واحدة ،

أى حبيبتى الحلوة ، فى أن أهبك

بلخ وبخارى وسمرقند ،

والنشوة والبهرج فى هذه المدن ؟

إسألى الإمبراطور
هل يوافق على إعطائك هذه المدن ؟
إنه أروع وأعقل ،
لكنه لا يعرف كيف يحب المرءُ .

أيها الحاكم ، إنك لن تقدر أبداً
أن تهب مثل هذه الهبات !
إذ لا بد أن تكون لك حبيبةٌ مثل حبيبتى ،
وأن تكون شحاذاً مثلى .

نظمت فى ١٧ مارس سنة ١٨١٥

وقد استوحى فيها حافظاً الشيرازى (ترجمة فون همر ، ج ١ ص ١٣) ، حين قال : او أخذ الفتى الجميل من شيراز بقلبى فى يديه لوهبته سمرقند وبخارى من أجل خال وشرحها فون همر (ج ١ ص XVII) فقال : « سأل تيمورلنك كيف خطر بباله أن يهب خير مدنه لفتى . فأجاب حافظ : « ياسلطان العالم ، انظر إلى الواهب ، وستغتفر له وقوعه فى هذه الزلّة » .

كذلك يقول حافظ (ج ١ ص ٢٤٤) : « لا تحتقر الشحاذين فى الحب : فهؤلاء الناس ملوك بغير تيجان ولا عروش » .

— ١٧ —

هذه الأسفار المكتوبة بخط جميل
المزدانة بالتذهيب البهيج ،
هذه الأوراق الفيّاشة
تثير فى نفسك الابتسام ؛
أنت غفرت لى أن أتباهى

بحبك وبنجاحى الراجع إليك
وغفرت لى التغنى بمديحِ نفسى بلطف
مَدْح النفس ! لا تنبعث منه رائحة كريهة إلا فى أنوف الحسّاد
وله عطر زكىّ الرائحة فى أنوف المحبين
وعلى حسب ذوقى أنا !

السرور بالوجود عظيم
وأعظم منه التمتع بالوجود
فحين تغمرينى ، أى زليخا ،
بسرور لا حد له ومتعة
وحين تلقين إلىّ بوجدانك
كأنه كُرَةَ ،
حتى أتلقاها وأمسك بها ،
وأبعث إليك فى مقابل ذلك
بذاتى المخلصة المكرّسة لك :
فتلك لحظة عظمى !
ثم ينتزعنى منك
الفرنجى أو الأرمينىّ .
لكن الأيام تمرّ ،
والأعوام تكرّ حتى أَخْلُقَ من جديد ،
وفيض سخائك يتزايد إلى غير نهاية
ويحل عِقْد لآلئ سعادتى ،
الذى خلطته آلاف المرات
أى زليخا !

لكن ها هى ذى ، فى مقابل ذلك ،
لآلئ شعرية
ألقى بها التيار العَرِم لوجدانك .
على شاطئ حياتى المهجور
وقد اختيرت بتأنق
بأنامل رخصة
ووضعت فى حلية غنية من الذهب .
فتنازلى واحمليها فى جيدك
وعلى نحرك !
هذه القطرات من وابل ا.
نضجت فى محار متواضع .

نظمها جيته فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨١٥ بعد وصوله إلى هيدلبرج بيوم وفيها يشكر للحبيبة (مريانة) ما أثاره حبها فى نفسه من دوافع على الشعر الرقيق المشبوب العاطفة .

وفيها شابه مما يقوله حافظ الشيرازى (ج ١ ص ١٧ من ترجمة فون همّر) حين يقول عن قصائده إنه « يود لو تنظم هذه اللآلىء فى سلك ، يزين نحور معاصريه » .

ولما كانت قد نظمت فى ٢١ سبتمبر فإنها لا يمكن أن تشير إلى قصائد مريانة عن الريح الغربية والريح الشرقية لأنها بعدها بأيام .

— ١٨ —

حُبّ بحبٍّ ، وساعة بساعة
وكلمة بكلمة ، ونظرة بنظرة

وقبلة بقبلة من ثغر أمين ،
وتَنفّس بتَنفّس وسعادة بسعادة .
هكذا فى المساء ، وهكذا فى الصباح !
لكنك تشعرين فى أناشيدى
دائماً بما يشبه أثر الهمّ المستور ؛
بودى لو استعرت فتنة يوسف
لأجيب بها عن جمالك .

نظمت فى اليوم الأخير من لقاء جيته ومريانه فى هيدلبرج ، فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨١٥ .

— ١٩ —

زليخا

الشعب والخادم والظافر
يعترفون فى كل وقت :
بأن الخير الأسمى لأبناء الأرض
هو الشخصية وحدها .

كل حياة يمكن احتمالها
إذا لم يُضيِّعْ المرء نفسَه ؛
ويمكن المرء أن يفقد كل شىء
بشرط أن يظل كما هو هو

حاتم

هذا جائز ! وهذا ما يعتقده الناس ؛
لكننى أقتفى أثراً آخر :
فكل ما تنطوى علية الأرض من سعادة ،
أنا لا أجده إلاّ فى زليخا .

فلتبذل نفسها لى
تصبح ذاتى أثمن عندى ؛
ولو انصرفت عنى
لأضعت ذاتى فى الحال .

وحينذاك سينتهى حاتم ؛
لكنى اخترت مصيراً آخر :
سأتجسـد حالاً
فى العاشق السعيد الذى تغازله

وأود أن أكون ، إن لم أكن رَبَّانياً
فتلك فكرة لا تخطر ببالى ،
بل أود أن أكون الفردوسى أو المتنبِّى ،
أو على الأقل الإمبراطور .

نظمت فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ فيما عدا الفقرتين الأخيرتين فقد أضيفتا فيما بعد .

ومعنى الفقرات الأربع الأولى أن من الجائز سلوك أى حياة بشرط ألا يضيع الإنسانُ ذاتَه ، وأن يبقى هو ما هو ، أى أن يحافظ على شخصيته .

لكن حاتم يعارضها قائلا إنه بدون زليخا لا توجد سعادة ، لأنه من دونها سيفقد ذاته ، ولا تصبح له شخصية .

— ٢٠ —

حاتم

مثلما دكان الصائغ فى السوق
يرفّ بالجواهر التى تعكس جوانبها الأضواء
كذلك الفتيات الجميلات
يُحطن بالشاعر الذى وخط الشيبُ رأسه .

الفتيات

هل تريد أن تتغنى بزليخا من جديد !
لسنا نقوى على احتمال هــذا ،
إننا لا نحسدها عليك أنت —
بل على قصائدك فيها .

لأنها حتى لو كانت قبيحة ،
فأنت تجعل منها أجمل المخلوقات ،
كما قرأنا مراراً
عن جميــل وبثينة

لكن لأننا جميلات حقاً
فإننا نود أيضاً أن نُرْسَم
فإن قمت بهذا بثمن قليل ،
دفعنا لك أجرك بلطف

هاتم

تعالى ، أيتها السمراء ! الأمور تسير ؛
غدائر ، وأمشاط كبيرة وصغيرة
تزيّن الصفاء الفاتن لرأسك ؛
كما تزين القُبَّةُ المسجدَ .

وأنت أيتها الشقراء ، أنت أنيقة ،
أنت لطيفة جميلة فى كل شىء ،
لم يخطئ المرء إذن
حين يذكر المآذن فى الحال .

وأنت ، هناك فى الخلف ، لك عينان
فرد وحبَّان ، وتستطيعين الاستعانة
بكل واحدة منهما على حدة كما تشائين ؛
لكنّ ينبغى علىّ أن أتجنبك .

تحت ضغط الجفون الرقيق ،
الجفون التى تحمى الحدقة ،
الواحدة تكشف عن أخبث الخبثاء ،
بينما الأخرى تنظر ببراءة ونزاهة

فبينما الواحدة تلقى بالصنارة التى تجرح
تبدى الأخرى عن معاونة وإشفاء
ولن أعدّ سعيداً
من يفتقر إلى هذه النظرة المزدوجة

وهكذا أستطيع أن أمدحكنّ جميعاً ،
وأن أحبكنّ جميعاً ،
لأننى وأنا أطرى مناقبكنّ
أمجّد أيضاً سيدتى .

الفتيات

يطيب للشاعر أن يصبح عبداً
لأنه بهذا يظفر بالسيطرة ؛
لكنه قبل كل شىء ينبغى أن يعتبر نفسه سعيداً
إذا كانت حبيبته نفسها تنظم الأغانى :

فهل هى تعرف نظم أغانٍ
مثل تلك التى تزهر على شفاهنا ؟
لأنها تثير الريبة والظنّة
إذ هى تعمل فى السرّ .

هاتم

أوه ، من ذا يعرف ماذا تتقن !
أو تعرفنّ سرّ عمقها ؟
إن قصيدة استشعرتها لتنبثق من قلبها
وإن قصيدة نظمتها لتنبثق من شفتيها .

لا واحدة منكن أيتها الشاعرات
تعـــدلها ،

لأنها تغـنى لترضينى
أما أنتن فلا تغنين ولا تحببن غير أنفسكن

الفتيات

لاحظ إذن أنك
ذكرت زوراً إحدى تلك الحوريات !
فليكن ! لكن لا تدعين
واحدة على الأرض أنها منهن .

نظمت فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨١٥ فى مينجن .

ويتصور الشاعر نفسه فى دائرة من الفتيات اللواتى يحسدن زليخا لأنه يصر على التغنى بها والإخلاص لها مثل إخلاص جميل لبثينة .

وهن يرجين أن يصورهن بثمن رخيص ، وهنالك يعدنه بمكافأة شريفة . — فيوافق حاتم على هذا العرض ، ويتغنى بالسمراء وبالشقراء ، وباللعوب التى تعرف كيف تغمض إحدى عينيها بينما الأخرى مفتوحة كلها أمامه . ويلذ لى أن يتغزل فيهن جميعاً ، لأنه يجد فى كل واحدة منهن ملامح من حبيبته . — فتجيبه الفتيات :

هل زليخا شاعرة ؟ — فيرد حاتم قائلا : إن عظمة زليخا فى أنها تنظم الشعر من أجل إرضائه فقط ، بينما الفتيات لا يفكرن إلا فى أنفسهن . وتختم القصيدة بفقرة هازلة تعزى فيها الفتيات أنفسهن بأن تتهمن حاتماً بأنه زور لهن صورة إحدى الحوريات اللواتى يتخذن صورة المحبوبات من أجل الاحتفاظ بعشاقهن فى الفردوس . وهن يوافقن على ذلك بشرط ألا تندس إحدى هؤلاء الحوريات على الأرض .

— ٢١ —

حاتم

أيتها الغدائر ، أنت تأسرينني
في دائرة المحيّا !
ولست لديَّ ما أحتمي به
من هذه الأفاعي السمراء المحبوبة .

وهذا القلب وحده يعتصم بالثبات
إنه ينتفخ في ازدهار شبابه ؛
وتحت الثلج والضباب
ينفجر أمامك بركان كبركان أتنا .

أنت تسربلينني بالخجل مثلما يفعل الفجر
في جدار هذه القمم الكابي ،
ومرة أخـــرى يشعر حاتم
بأنفاس الربيع وشواظ الشمس .

هيا أيها الساقي ! إليَّ بزجاجة أخرى !
إني أشرب هذه الكأس على ذكر الحبيبة !
فإن وجدت كومة صغيرة من الرماد ،
فستقول : لقد احترق من أجلي .

نظمت في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨١٥ .

وقد لاحظ ريكرت Rückert وبعده سمروك Simruck أن البيت

الحادى عشر يقتضى وضع اسم «جيته» بدلاً من «حاتم» حتى يتفق مع القافية الواردة فى البيت التاسع .

ويبدو أن الفقرة الرابعة أضيفت فيما بعد : فإن رد زليخا احتجاج ضد «الغدائر ...» ، لا ضد فكرة التضحية فى الحب الواردة فى البيتين الأخيرين .

— ٢٢ —

زليخا

لا أريد أبداً أن أفقدك !
إن الحب يُقوِّى الحب ؛
وأنت تزيِّن شبابى
بعاطفتك المشبوبة القوية .
آه ! كم تهـتز عواطفى
حين يمدح أحدُ الناس شاعرى ؛
لأن الحياة هى الحب
والروح هى حياة الحياة !

نظمت بعد السابقة بوقت قصير ؛ ومن المشكوك فيه أن تكون من نظم مريانة نفسها ، وإن كانت هى تدَّعى ذلك .

— ٢٣

لا تسمحى لفمك العذب الذى يشبه الياقوت
أن يلعن المضايقات والفضول ؛

أى سبب ومبرِّر لدى آلام الحب
غير أن ينشد شفاءه ؟

استلهم جيته فى هذه القطعة أشعاراً شرقية أوردها ديتس (« ذكريات من آسيا » ج ٢ ص ٢٣٦) ورد فيها : « من العار ، أيها الساقى ، أن تقابل بين القمر وياقوت الحبيب . — أى غاية لآلام الحب غير البحث عن دواء ! » .

— ٢٤ —

إذا كنت مفْصُولاً عن المحبوبة
انفصال الشرق عن الغرب :
فإن القلب ينطلق خلال كل الفيافى ،
ومعه صحبة تصحبه باستمرار ،
وعند المحبين بغداد ليست بعيدة .

نظمت فى فيمار فى ٣١ يناير سنة ١٨١٦ .

واستلهم فيها ما أورده ديتس (« ذكريات من آسيا » ج ٢ ص ٢٣٢) :
« لو كان ما بينك وبين الحبيبة بُعْد ما بين الشرق والغرب ، فاجْر أيها القلب لأنه عند المحبين بغداد ليست بعيدة » .

— ٢٥ —

فليجبر نفسه بنفسه
عالمك المكسور !
هذه العيون الصافية تلمع
وهذا القلب يخفق دائماً من أجلى .

— ٢٦ —

أو ه ! لماذا تعددت الحواسّ !
إنها لا تحدث غير التشويش فى السعادة .
حين أراك ، أود لو كنت أخرس
وحين أسمعك ، أود لو كنت أعمى .

— ٢٧ —

وحتى على البُعْد أنا منك جدُّ قريب !
وفجأة يأتى الألم :
هنالك أسمعك من جديد ،
وفجأة تكونين هنا من جديد !

فى ٢٥ استلهم جيته حافظاً الشيرازى (ج ١ ص ١٨٤) : « منذ الآن لم يبق شىء أعمله فى أمور الدنيا ، فإن طلعتك زينت لعيون الدنيا » وربما كان نظمها فى سنة ١٨١٥ ، ولكنها لم تنشر إلا فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

— ٢٨ —

أنَّى لى أن أبقى هادئاً
وأنا بعيد عن النهار والنور ؟
كأننى أريد أن أكتب الآن ،
وما عندى رغبة فى الشراب

ولما جذبتنى إليها
تعطلت لغة الكلام

ولما توقف اللسان

توقف القَلم كذلك

اسقنى مرة أخرى ، أيها الساقى الحبيب

واملأ الكأس فى سكوت

لا أقول غير : تَذَكَّرْ !

فمعلومٌ ما أريد »

— ٢٩ —

حين افكر فيك

يسألنى الساقى فى الحال :

« سيدى لماذا أنت ساكت ؟

إن الساقى يريد باستمرار

أن يعرف شيئاً عن مذاهبك

إذا نسيت نفسى

تحت البان

لا يهتم ؛

وفى المجلس الهادئ

أكون حكيما عاقلاً

ماهراً مثل سليمان .

هاتان القطعتان متكاملتان ، والأولى نظمت فى أول أكتوبر سنة ١٨١٥ ؛

والشاعر يتذكر فى الوحدة حين يرى شجرة البان (وبها يشبه قوام

الحبيب فى الشعر العربى والفارسى) ويكون فى حضر الساقى الشاب ، يتذكر

الحبيبة البعيدة . والساقى ، وهو يريد أن يعرف المزيد من كلمة الشاعر ، يتضايق حين يراه غارقاً فى تأمل صامت عميق تحت شجرة البان .

— ٣٠ —

كتاب زليخا

بودى لو ركّزت هذا الكتاب
حتى يكون موجزاً بقدر سائر الكتب
لكن أنى لك بإيجاز الكلمات والصفحات
إذا اقتادك جنونُ الحبّ بعيداً ؟

يحاول الشاعر أن يبرر طول هذا الكتاب بالنسبة إلى سائر كتب « الديوان الشرقى » ، إذ فيه ٤٧ قطعة شعرية ، مما يجعله غير متناسب مع سائر أجزاء « الديوان » . نشرت فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

— ٣١ —

على هذه الغصون المتفتحة
ألقِى نظرة ، أيتها الحبيبة !
ودعينى أُرِك الثمار
محاطة بقشرة خضراء ذات أشواك
هذه الثمار معلقة هناك منذ زمان طويل متكوّرة
فى صمت ، لا تعرف نفسها ؛
والغصن الذى يتحرك برقة
يهدهدها فى صبر .

لكن بقوة باطنة تنضج

وتنتفح النواة السمراء
إنها تود أن تستنشق الهواء .
وتود أن ترى الشمس .
وتنفجر القشرة ، فتنفصل
البذرة وتساقط فى سرور ؛
وهكذا تساقط أغانىَّ
وتتجمع فى صدرك .

نظمها جيته فى ٢٤ سبتمر سنة ١٨١٥ واستلهم فيها نزهة جميلة قام بها مع مريانة فى مخارف الكستناء حول قصر هيدلبرج وجيته يشبه الإلهام الشعرى وانبثاقه من القلب بانطلاق الكستناء من قشرتها الخضراء .

— ٣٢ —

زليخا

على حافة الينبوع الضاحك
الذى يتلاعب على هيئة شباك من الماء ،
لم أدرِ ماذا أمسك بى ؛
لكن كان قد نقش هناك
بيدك ، رمزى المرقوم ،
فخفضت عينى وأحببتك

وهنا عند نهاية القناة
فى المشى الكبير الرائع النظام ،
أنظر من جديد فى الهواء
وأرى حينئذ مرة أخرى

حروف مرقومة بأناقة :

ابقَ ، ابقَ ، واجِبْني !

حاتم

ألا ليت المياه المتدفقة المتماوجة

هي وأشجار السرو تعترف لك :

من زليخا إلى زليخا

جَيئتي وذُهوبي .

نظمت فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨١٥ ، قبل وصول مريانة بيوم ؛ ولهذا لا تصف تجربة جيته فى لقاء هيدلبرج بين جيته ومريانة ، بل استلهم منها قراءاته الشرقية : وصف پييترو دلاّ قله للقناة الكبيرة فى أصفهان » وما أورده شاردان ج ٥ ص ١٦٨ وما يتلوها) .

وفيها يعبر جيته عن رجائه المشوب فى اللقاء المنتظر مع مريانة .

— ٣٣ —

زليخا

لم أكد ألقاك من جديد

وأنعشك بقبلاتي وأغاريدي ،

حتى صرت ساكتاً منطوياً على نفسك ؛

ماذا يضايقك ويرهقك ويشيع الاضطراب فيك ؟

حاتم

آه ، يا زليخا ، هل لي أن أفصح ؟

بدلاً من أن أمدح ، أودّ أن أتشكّى !

من قبل كنت لا تتغنين إلاّ بأغاريدى ،
متجددة دائماً ومتكررة باستمرار .
ربما كان علىَّ أن أمتدح تلك أيضاً ،
لكنها مُولجة فحسب ؛
وليست لحافظ ، ولا لنظامى ،
ولا لسَعْدِى ، ولا لجامى

إنى أعرف كل أغاريد أجدادى ،
مَقْطعاً مقطعاً ، ونغمة نغمة ،
كلّها منقوشة فى ذاكرتى ،
لكن هذه ولدت حديثاً جداً .

لقد نُظِمت بالأمس ،
قولى لى هل تعهدت بعهود جديدة ؟
وهل تجرئين ، فى حياتك المسرورة ،
أن تنفخى فى وجهى نَفَساً غريباً ؟
نَفَساً يبعث فيك الحياة أنت أيضاً ،
ويُحلّق فى الغرام
ويجذبنا إليه ، ويدعونا إلى الاتحاد
فى انسجام مثل أنفاسى ؟

زليخا

ظل حاتم بعيداً وقتاً طويلا
وحبيبته تعلمت شيئاً ؛

لقد تغنى بها أجمل التغنى ؛

ثم وضعها الفراق موضع التجربة ،

ومن الخير ألا تبدو لك هذه الأغاريد غريبة ؛

إنها لزليخا ، إنها لك !

نظمت فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٨١٥ .

وفيها يتذكر جيته أيام لقائه النهائية مع مريانة فى هيدلبرج فى الفترة من ٢٣ إلى ٣٥ سبتمبر سنة ١٨١٥ . ومن المفروض أن جيته كان قد تلقى منها قصيدتها ؛ « ماذا تعنى الحركة ؟ » (التى نظمتها فى ٢٣ سبتمبر) و « آه ، كم أحسدك أيتها الريح الغربية » (ونظمتها فى ٢٦ سبتمبر) .

وجيته يمدح هنا ملكتها الشعرية ، ويتظاهر بأنه يستشعر نبرة جديدة فى قصائدها الأخيرة ، ويخشى أن يكون قد ظهر له منافس فى حبها . ولكن زليخا تطمئنه ، وتعترف له بأنه فى غيبة حاتم عرفت كيف تستفيد مما علمها إياه ، وأنه إنما يجد فى قصائدها نفس الحنين الواله الذى ألهمه هو إياها .

— ٤٣ —

يقال إن بهرا مجور اكتشف القافية

وكان ينطق بحماسة عن دافع من نفس صافية ؛

وسرعان ما أجابت عليه دلارام ، صديقة عمره ،

بكلمات وأنغام مماثلة .

وهكذا قيّضتِ لى يا حبيبتى ،

لاختراع استعمال القافية الحلو الرقيق

حتى لم يعُدْ ينبغى لى أن أحسد

بهرامجور الساسانى : فقد ظفرت بنفس النعمة .

لقد ألهمتِني هذا الكتاب ، ومنحتنى إياه ؛
لأن ما قلته فى فرحة قلبى
لم يكن غير صدى لحياتك الفاتنة ،
كما تجيب النظرة على النظرة والقافية على القافية .

ألا فلتصل إليك هذه الأنغام ، ولو مِنْ بعيد ؛
والكلمة تصيب الهدف ، حتى لو اختفت النبرة والرنين .
أليست هذه عباءة النجوم المنثورة ؟
أليس هذا هو الكل المتسامى للحب ؟

نظمت فى ٣ مايو سنة ١٨١٨ أثناء طبع كتاب زليخا

ولهذا ينبغى أن تفهم على أنها خاتمة وتوديع لتجربة غرامه ، وتوديع للتجربة الشعرية ، وشكر لمريانة على إسهامها فى هذا الكتاب . وفى الوقت نفسه هى إهداء جديد للكتاب إلى حب الشاعر الراسخ لحبيبته .

وقد استلهم فيها جيته أسطورة اختراع بهراجور الساسانى للقافية وحبيبته دلارام ، أَمَتَه .

— ٣٥ —

أن أتألف مع نظرتك ،
مع فمك ، مع صدرك ،
وأن أدرك صوتك ،
كان آخر لذاتى وأولاها .

وبالأمس ، وا أسفاه ، كانت آخر لذة
وبعدها انطفأت الشعلة والمصباح ؛

وكل هذا المزاح الذى أمتعنى ،
صار عندى حافلاً بالأخطاء غالياً .

وقبل أن يشاء الله
أن يجمعنا من جديد ،
لن تعطينى الشمس والقمر والعالم
غير مناسبات للبكاء

ربما تكون قد نظمت فى ١٩ سبتمبر ، من ارتحال جيته من فرنكفورت ، أو فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨١٥ ، بعد انفصاله عن مريانة فى هيدلبرج

- ٣٦ -

زليخا

ماذا تعنى الحركة ؟
هل تأتينى الريح الشرقية بنبأ سارّ ؟
إن رفرفة أجنحتها النضرةَ
تسكّن حرارة جُرْحِ قلبى العميق

إنها تغازل ، لاعبةً بالغبار ،
وتنيره على هيئة غيوم رقيقة ،
وتزجى إلى عريش الكرم الأمين
الأسراب الهانئة من الحشرات

ويخفف برقّةٍ حرارة الشمس

وتلطّف أيضاً خدودى المشبوبة
وفى مرورها تقبّل الأعناب
التى تزْهى فوق الحقول والروابى .
ويأتينى هَمْسُها الرقيقُ
بآلاف من تحيات الحبيب ؛
وقبل أن ينتشر الظلام على هذه الروابى ،
تحيينى آلافُ القبلات .

وهكذا تستطيع أن تتابع مسيرك !
عاون الأصدقاء والمكروبين .
وهنالك ، حيث تتعدّ الأسوار العالية
سأعثر على الحبيب العزيز عما قليل
آه ، إن أنباء القلب الصادقة ،
ونَسْمة الحب ، والحياة المنتعشة
تأتينى من فمه وحده ،
ولا يستطيع أن يعطينى إياه غير نَفَسِه

نظمتها مريانة فون ڤليمير أثناء الرحلة من درمشتات إلى هيدلبرج فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨١٥

وهنا أيضاً استلهمت مريانة ، شعر حافظ الشيرازى حيث يقول (ج ١ ص ٦ من ترجمة يوسف فون همّر) : « أيتها الريح الشرقية ، هل تمرين ببرج الورد ، بلّغى أنبائى إلى الحبيب الأمين » .

والأبيات ١٣ ــ ٢٠ كانت فى الصورة الأولية لها هكذا :

وعلى همسها الرقيق
أن يأتينى بتحية جميلة من الحبيب ؛

وقبل أن تنتشر الظلال على هذه الروابى
سأجلس ساكتة عند قدميه

وتستطيع الآن أن تتابع المسير ،
عاون الأصدقاء والمكروبين ،
وهناك حيث تتعدّ الأسوار العالية
سأجد حبيـــبى العزيز .

وقد علقت مريانة على التعديل الذى أجراه جيته بقولها : « لم يغيّر جيته غير فقرة واحدة ، ولا أفهم حقاً لماذا عدّلها ، فإنى أرى أن نظمى لها جميل حقاً » (« الحوليات البروسية » ج ٢٤ ص ١٣ ، ١٨٦٩) .

والبيت رقم ١٩ يشير إلى قصر هيدلبرج .

— ٣٧ —

صورة سامية

الشمس ، هليوس اليونان ،
تتابع سيرها الرائع فى طريق السماء
وهى واثقة من الانتصار على العالم
وتتلفت حواليها فى أسفل وإلى أعلى

وهو يرى أجمل الآلهات تبكى ،
بنت الغيوم ، طفلة السماء ،
ويبدو أنه لا يشرق إلا من أجلها وحدها ؛
أعمى عن كل الأماكن الأثيرية .

إنه غارق في الألم والحزن ،
وعبرات الإلاهة كفيض باستمرار ؛
ويمزج اللذة بأحزانه ،
ولدى كل دُرَّة قُبْلة بعـــد قبلة .

والآن تستشعر قوة نظرته ،
وتتطلع إلى أعلى دون أن تحول نظرها
ويلوح أن اللآلىء تود أن تتخذ شكلاً ،
لأن كل واحدة منها تلقت في داخلها صورته
وهكذا ، وهو متوّج بتاج ذي ألوان
ومحياه يضيء في هدوء ،
يمضي إلى لقائها ؛
لكنه ، وا أسفاه ، لا يستطيع اللحاق بها .

وهكذا ، بقرار قاس من القدر
تنصرفين عني أيتها العزيزة المحبوبة ؛
وحتى لو صرت « هِلْيوس » الكبير ،
فماذا عسى أن يفيدني عرشي العربة ؟

نظمت في ٧ نوفمبر سنة ١٨١٥ في ڤيمار

وتعبر عن حب حاتم وزليخا برمز قائم على فكرة التسليم . فعبثاً يمرّ هِلْيوس (الشمس) الظافر في السماء ، غامراً بأشعته إلاهة الغيوم وقوس قزح ، حبيبته إيريس ، مضيئاً كل قطره تتحلّب منها : فيشرق وجه إيريس هكذا في قوس قزح ، وهليوس يطاردها باستمرار دون أن يقدر على اللحاق بها أبداً .

— ٣٨ —

خاتمة

كم يرنّ جميلا رائعاً أن يشبه الشاعر نفسه
مرة بالشمس ومرة بالإمبراطور ؛
لكنه يحجب سيماءه الحزينة
حين يتسلل فى الليالى الكابيـــة .

إن زرقة السماء الصافية ،
وهى محاطة بسيور السحاب ، قد تحولت إلى ليل وظلام ؛
وخـــدودى نحلت وشحبت
ودموع قلبى صارت رمادية اللون .

لا تتركنى هكذا لليل والألم ،
أى عزيزى . أىْ محيا القمر !
يا نجمة صباحى ، يا شمعـــتى ،
يا شمسى ، يا نورى !

نظمت فى نفس اليوم كالسابقة .

والبيتان ٥ ، ٦ يمهدان لتأثير الريح الغربية ؛

والأبيات ٩ — ١١ فيها شبه بما يقوله حافظ الشيرازى (ج ٢ ص ٢٨٤) : « وجهك الذى يشبه القمر ، أيها الحبيب ، هو ربيع الجمال » ، وقوله (ج ٢ ص ٢٩٣) : « مادام لا يضىء نجم فى ليل الفراق ، فتعال إلى الشرفة وأضئْ الليل بوجهك الذى يشبه القمر » .

— ٣٩ —

زليخا

أيتها الريح الغربية كم أحسدك
على أجنحتك الرطيبة :
لأنك تستطيعين أن تحملى إليه
نبأ ما أعانيه من آلام الفِراق !

إن خفقان أجنحتك
يثير فى قلبى حنيناً ساجياً ؛
والأزهار ، والعيون ، والغابات الروابى
كلها تذرف الدموع فى هبوبك.

لكن نسيمك العليـــل الرقيق
يرطِّب جفونى المقروحة ؛
آه ، سأهلك من الألم
إذا لم أرَجّ رؤياه من جديد :

طيرى إذن إلى حبيبى ،
واهمسى فى قلبه برقة وحنان ،
وتجنبى مع ذلك أن تضايقيه وتحزنيه
وأخْفِ عنه آلامى

قولى له ، لكن قوليه بتواضع وحياء :
إن حبَّه هو حياتى ؛
والشعور بالسرور فى كليهما
سيتحقق بقربه .

هذه القصيدة من نظم مريانة فون ڤليمر فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ أثناء عودتها من هيدلبرج ، حين كان لا يزال ثم أمل فى أن يمر جيته بفرنكفورت وهو فى طريق عودته إلى ڤيمار .

وهذه القصيدة معارضة لقصيدة الريح الشرقية (رقم ٣٦) .

ولم يغير جيته فيها غير تغييرات طفيفة جداً فى البيت الرابع .

وفى القصيدة محاكاة لما يقوله حافظ الشيرازى (ج ٢ ص ٥٢٨) : « أيتها الريح الشرقية أنبئيه ، أرجوك بكل رقة وحنان ، إن مئات الألسنة تتحدث عن لهيب القلب . ولا تكلميه بحزن ، حتى لا تبعث الحزن فى نفسه . قولى الكلمة ولكن قوليها بفطنة » .

— ٤٠ —

عودة اللقاء

أهذا ممكنٌ يا كوكب الكواكب ،
أن أضمك إلى قلبى من جديد !
أواه ، يالَلَيْلِ الفِراق من هاوية ،
ويا له من ألم !
أجل ! أنتِ أنتِ شريكتى العذبة فى النعيم
إنى لأتذكر آلامى الماضية
فأقشعرُّ فزعاً من الحاضر .

حين كان العالم ، فى الهاوية اللانهائية ،
يرقد على الحضْنِ الأبدى لله ،
أمر بأن تكون الساعة الأولى

فى رغبته السامية للخلق
وقال الكلمة : ليكن العالم !
هنالك رنت آهة أليمة !
حينما تتأثر الكون ، بقوة هائلة ،
فى تفاصيل الواقع

وانبثق النور : وفى نفس اللحظة
انفصلت عنه الظلمات بفزع ،
وإذا بالعناصر ، فى الحال
تنفصل عن بعضها بعضاً وتهرب .

وبسرعة ، فى أحلام وحشية مبهمة ،
اندفع كل شىء إلى بعيد ،
متصلّباً ، صوب النواحى اللانهائية ،
دون حنين وبغير رنين .

وران الصمتُ على كل شىء ، ساكناً قفراً ؛
ولأول مرة كان الله وحيداً !
هنالك خلق الفجر ،
الذى أشفق على هذه الوحشة ؛
فنمّى الفجر ، من الوسط العكر ،
اللعبة المنسجمة للألوان ،
وهنالك أمكن أن يتجاوب من جديد
ما كان قد افترق وانفصل .

وبحماسة متلهفة
بحث كلٌّ عما ينتمى إليه ؛
وصوب الحياة اللانهائية
توجهت العاطفة والنظرة .
طوعا ، أو كرهاً ، ماذا يهم ،
ما دام ثم تماسك واعتناق !
ولم يَعُد الله بحاجة إلى أن يخلق بعد هذا
فإننا نحن الذين سنخلق عالمه

وهكذا طِرْتُ إلى ثغرك
على أجنحة الفجر الوردية
والليل المرصع بالنجوم
يُوَثِّق ما انعقد بيننا من رباط بآلاف من خواتمه
وكلانا على الأرض
مَثَلٌ نموذجى فى السّراء ، والضّراء
ولن تستطيع كلمة ثانية : « كُنْ ! »
أن تفرّق بيننا من جديد .

نظمت هذه القصيدة فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨١٥ فى قصر هيدلبرج

وهى أعظم قصيدة فى « الديوان الشرقى » ، ومن أعظم قصائد جيته عامةً . وفيها مزيج من أفكار أفلاطون (فى « المأدبة » « وفدرس ») والأفلاطونية المحدثة ، والكتاب المقدس من ناحية والقرآن الكريم من ناحية أخرى ؛ فضلاً عن نظريات جيته فى البصريات .

وقد لخصناها فى « التصدير » ، وبيّنّا ما فيها من أفكار ، وخلاصتها أن الله خالق الفجر ، أعنى التلاعب بين الألوان والنغمات وفقاً لقوانين العدد . ومن ثم نشأت فى العالم النزعةُ إلى الاتحاد ، وذلك هو الحب الذى يدفع الكائنات التى انفصلت عن بعضها البعض فى فعل الخلق الأول — إلى الاتحاد من جديد . والرابطة الجديدة بين زليخا وحاتم هى مثل على هذه الظاهرة نفسها : أعنى شوق كل نصف إلى الاتحاد بنصفه الآخر الذى انفصل عنه نتيجة فعل الخلق الأول .

وجيته يريد أن يكشف عن نظرته فى العالم وهى تتلخص فى أنه يرى أن قوى الطبيعة كلها فى الكون تؤلف وحدة .

وكان فى الصورة الأصلية لهذه القصيدة أبيات تأتى بعد البيت العشرين هذا نصها مترجماً :

« وهنالك دوّى فى نواح
ما كان يربط الأبدية
وفى أيام شديدة أليمة
شعر بأنه وحيد . »

وبعد البيت رقم ٢٤ :

« لأن الأعلى والأدنى
أدركا لأول مرة
وتحت دائرة السماء الطلقه
بنى عماء الأرض العميق .
وهكذا تم الانفصال إلى الأبد ،
وقُضى الأمر !

مياه النار فى السماء

ومياه الأمواج فى البحار » .

لقد عثر حاتم على زليخا بعد فراق أليم ، وهذا اللقاء الجديد صار عند الشاعر رمزاً للاتحاد النهائى بين روحين اجتذبت كل منهما الأخرى بالقانون السّرى للأنساب المختارة ، وبوجه عام رمزاً لتاريخ الكون : فعند نشأة الكون حين كان العالم لا يزال مدفوناً فى حضن الألوهية السرمدى ، أمر الله بأن توجد الساعة الأولى ، ونطق بكلمة الخلق : كُنْ ! (« كلمة الحضرة » فى اصطلاح الصوفية) . هنالك ألقى الكون بنفسه فى الواقع ، بمجهود أليم ثقيل ، فانبثق النور ، وانفصلت عنه الظلمات فى فزع ؛ وتبددت العناصر وفرّت : وكل منها ألقى بنفسه جثةً هامدة فى الامتداد الهائل بغير رغبة ولا ضوضاء . هنالك بقى كل شىء صامتاً ، ساكناً ، خاوياً ، موحشاً : ولأول مرة كان الله وحيداً . لكنه أشفق على هذه الوحشة . ولهذا خلق الفجر فى هذا العالم الكئيب الموحش ؛ ومن التقاء النور بالظلمات نشأت الألوان . ومن هنا بدأت حركة فى الاتجاه المضاد : حركة اتحاد وتركيب ، بعد الفراق والانفصال : فالعناصر ، بعد أن انفصلت بشدة بواسطة فعل الخلق ، تنحو من جديد إلى الالتقاء وفقاً للأنساب القائمة بينها ، والتى جعلها جيته موضوعاً لقصته الخالدة « الأنساب المختارة » (راجع ترجمتنا لها والتصدير) . فسرت فى الكون كله رعدة حب طويلة » وانضم الجزىء إلى الجزىء ، وكل روح بحثت عن الروح التى انفصلت عنها . وهكذا يطير حاتم ، على أجنحة الحب الوردية ، إلى زليخا التى صارت له وصار لها منذ الآن إلى أبد الآبدين .

— ٤١ —

نيلز البدر

سيدتى خبرينى ، ما معنى هذا الهمس ؟
ولماذا هذه الحركة الرقيقة من الشفاه ؟
أنت تنفثين دائماً همساً
أرقّ من هِزّة الخمر المذاق !
هل تودين أن تجذبى إلى شفتيك
شفتين آخريين ؟

« أريد قبلة ! قبلةً ! قلتُ لك . »

انظرى ! فى الظلام المبهم
تتقد كلُّ الغصون المزهرة ،
وتمر نجمة وراء نجمة ،
وآلاف الومضات
تصب أضواء الزمرد خلال الخمائل :
لكن روحك تظلّ بعيدةً عن كل هذا .

« أريد قبلة ! قبلة ! قلتُ لك . »

وحبيبك ، على النّأى ، ممتحن
بحلاوة المرارة هو الآخر ،
يستشعر سعادة مصنوعة من الألم .
وعدت نفسك وعداً مقدساً

بأن أحييك فى ليلة البدر ؛

وها هى ذى اللحظة المنشودة

« أريد قبلةً ! قبلة ! قلتُ لك . »

فى عشية ارتحال جيته من جربرميله ، فى ١٨ أكتوبر سنة ١٨١٥ ، عند ما أثر البدر ، تعاهد الحبيبان (جيته ومريانه) على أن يتلاقيا بالروح فى ليلة البدر فى الشهر التالى ، فيفكر كل منهما فى الآخر ، ويتصلان على البعد بالروح والفكر . وبالفعل أرسلت مريانه فى ١٨ أكتوبر سنة ١٨١٥ إلى جيته رسالة رمزية (راجع « التعليقات ») ومعها هذه الأبيات من شعر حافظ الشيرازى : « ما لى حيلة إلاّ أن أحبها فى صمت . فإن لم أستطع عناقها ، فماذا سيؤول إليه أمرى ؟ إن قلبى يحنُّ دائماً إلى الشفاه . » — وفى ٢٤ أكتوبر رد عليها جيته بالحوار الجميل بين العاشقة وقهرمانتها ، وهو يعالج نفس الموضوع ، وفيه يمتزج مع كلمات حافظ السابقة أشعار أخرى لحافظ يقول فيها : « بالأمس ، رأيت بين الغدائر خدود حبيبتى ؛ وكانت تضمها كما تضم الغيومُ البدرَ . أقول لها : « أريد قبلة ، قبلة » ، فتجيب :

انتظر حتى يخرج البدر من برج العقرب » .

والأبيات ٨ — ١٣ كانت فى الصورة الأولى هكذا :

انظر ! إن الورود النضرة

ترفُّ فى الليل البليل

والنجم يجرى فى إثر النجم .

وآلاف الومضات

تصب الزمرد خلال الخمائل

لكن روحك بعيدة عن هذا كله .

— ٤٢ —

كتابة رمزية

أيها الدبلوماسيون ، أرهفوا
لهذا الأمر غرار عزائمكم ،
وأسدوا إلى مواليكم الأقوياء
صادق الرأى وسديد النصيحة !
وليشغل العالم
بإرسال كتابات رمزية ،
حتى تتخذ هذه المسألة كلها
وضعاً يتسم بالاتزان .

والكتابة الرمزية من سيدتى العذبة
مألوفة لى
وأجد متعة بالغة
فى كونها هى التى اخترعت هذا الفن :
إنه فيض الغرام
فى أمتع مقام
والإرادة العذبة المخلصة
هى التى تجمع بيننا
إنها باقة من مختلف الأزهار
من آلاف وآلاف البراعم ،
وبيت كله عامر

بالأرواح الملائكية ؛
وسماء مرصَّعة
بطيور متعددة الريش ،
وبحر يرنّ بالأغانى
تهب عليه نسمات عاطرة .
إنها التعبير المُستَتِرّ المُبْهَم
عن وجدان مطلق ،
ينفذ فى لُبّ الحياة
مثل سَهْم يتلوه سهم .
وما كشفتُ لكم عنه
كان منذ زمانٍ بعيدٍ استعمالاً تقيًّا ،
فإن حَزَرْتم ما هو ،
فاسكتوا واستخدموه .

نظمت فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨١٥ فى هيدلبرج .

وجيته يشير هنا إلى الرسائل الرمزية التى تبادلها مع مريانه ، ويشبهها بالرسائل الرمزية التى يتبادلها الدبلوماسيون المجتمعون فى مؤتمر ڤينا بعد سقوط نابليون . وكان الحبيبان (جيته ومريانه) قد اتفقا على استخدام هذا اللون من المراسلة حين رحل جيته عن فرنكفورت فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨١٥ .

— ٤٣ —

انعكاس

وقعتْ لى مرآة
يلَذّ لى أن أنظر فيها

وكان أمر الإمبراطور
معلق فى رقبتى بلمعان مزدوج ؛
وما ذلك لأننى أبحث
فى كل شىء عن نفسى على نحوٍ أنانى ؛
لكنى أحب الاجتماع
وهذه هى الحالة المعروضة هنا .

حين أقف أمام المرآة
فى بيتى الهادئ أنا الأرمل
تتجلى فجأة
حبيبتى وتتطلع فىّ
وفى الحال أتلفتُ حوالَىّ ، ومن جديد
تختفى تلك التى رأيتها ؛
هنالك ألقى نظرة على قصائدى ،
ومن جديد تكون ماثلة هناك .

وأنا أنظمها أجمل باستمرار ،
وعلى نحو مناسب لذوقى ،
رغم التويقدين ، والسويخرين ،
من أجل متعتى اليومية .
وصورة حبيبتى ، فى إطار ثمين ،
تزداد جمالاً
بين أغصان الورد الذهبية
وإطارات الزرقة السماوية .

هذه القصيدة لغز وحلّه ، وربما نظمها جيته فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨١٥ .

والمرآة يقصد بها هنا القصائد الواردة فى «كتاب ژليخا» هذا ، التى تتألق فيها صورة الحبيبة البعيدة لحبيبها الشاعر وهو فى بيته الخاوى من الأحباب (بيت أرمل) .

– ٤٤ –

زليخا

بأى سرور باطن ،
أيتها الأغنية ، أدرك معناك !
يبدو أنك تريدين أن تقولى
إننى بجواره .

فليفكر فىَّ دائماً ،
وليوجِّه دائما هناء حبه
إلى الحبيبة النائية
التى كرّستْ له حياتها .

نعم ، إن قلبى هو المرآة ،
يا حبيبى التى فيها تأملت نفسَك ؛
وهذا الصدر الذى نقش خاتمك
عليه قُبلة تلو قبلة .

أيها الشِّعْر العذب ، أيتها الحقيقة الصافية ،
قيِّدانى فى المشاركة الوجدانية !

صفاء الحب المتجسد خانصاً
تحت غلالة الشّعْر

هذه القصيدة من نظم مريانه ، فيما عدا الفقرة الثالثة إذ أضافها جيته .

وقد نظمتها فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨١٥.

وفيها تحلّ اللغز الذى وضعته القصيدة السابقة رقم ٤٣ .

وقد استلهمت فيها حافظا الشيرازى فى قوله (جـ ١ ص ١٤١) : « تأمل فى محياك معجزة إلهية ، وإنى مرسل إليك مرآة الله هدية ، وعلق على هذا الشعر يوسف فون همر قائلاً إن معناه هو : « أريد أن أبعث إليك بقلبى حتّى تستطيع أن ترى فيه نفسك كما تراها فى مرآة »

— ٤٥ —

دَعْ للإسكندر مرآة العالم ،
إذ ماذا تُظْهِر ؟ — هنا وهناك
شعوبا هادئة يريد هو أن يضمها إلى غيرها
بقهرها وهزّها واحداً بعد آخر .

أما أنت ! فلا تَسْعَ إلى بعيد ، إلى الغريب !
غنِّ لى ، أنا التى جعلتها لك بأغانيك .
وَفكّر أنك استوليت علىّ .

تقول الأسطورة الشرقية للإسكندر إنه كان يستخدم مرآة كان فيها يرى كل خِطَط دارا ملك الفرس (يوسف فون همر ، ترجمة ديوان حافظ ، جـ ١ ص ٩ تعليق ١) . وحافظ الشيرازى كثيراً ما أشار إليها ؛ ومن أمثلة ذلك قوله : « إن روح حبيبتى كالمرآة التى ينعكس فيها العالم » (جـ ١ ص ١١١) .

— ٤٦ —

العالم كله جميل للنظر
وعلى الأخص عالم الشعراء جميل ؛
وعلى الحقول المتعددة الألوان ، الصافية
أو الفضية الكابية ، تلمع الأضواء فى الليل والنهار .
واليوم كل شىء رائعٌ عندى ؛ آه لو دام هذا !
لأنى أتطلع اليوم من خلال منظار الحب .

نظمت فى ٧ فبراير سنة ١٨١٥ ، وهو يتذكر مريانه .

— ٤٧ —

قد تحتجبين تحت آلاف الأشكال
ومع ذلك أيتها الحبيبة ، فوراً أتعرّفك ؛
وتستطيعين أن تتنقبي بنُقُبٍ سحرية ،
أيتها الحاضرة فى كل شىء ، ومع ذلك فوراً أتعرفك

فى انطلاقة السَّرْو الصافية الفتيّة ،
يا ذات القوام الرائع ، فوراً أتعرّفك ؛
فى تموج أمواه القناة الصافى ،
أيتها الفاتنة ، فوراً أتعرفك ،

وحين تنتشر نافورة الماء وهى تصّاعد ،
أيتها اللعوب المرحة ، ما أسعدنى أن أتعرفك ؛
وحين يتكون السحاب ويتحوّل ،

أيتها المتغيرة دائماً ، جيداً أتعرّفك ؛

فى بساط المروج المفوّف بالأزهار ،
تحت زينتك المؤلفة من آلاف النجوم ، جميلةً أتعرّفك ،
وحين يتمدد اللبلاب بآلاف سواعده فى كل النواحى ؛
أيتها المعانقة للكل ، أتعرفك .

وحين يتوهج الجبل فى الفجر
فى الحال ، أيتها المثيرة باستمرار ، أحييك ؛
وإذا استدار فلك السماء من فوق ،
يا مَنْ تفتحين القلوب ، أتنفّسُك .

وما أعرفه بحواسّى الخارجية والباطنية ،
يا منبع كل علم ، أعرفه بك ؛
وحين أُسَمّى الله بأسمائه المائة ،
مع كلّ اسم منها يرنّ اسمهُ من أجلك .

نظمت هذه القصيدة فى ١٦ مارس سنة ١٨١٥ .

وفيها نوع من التالية للمحبوبة بوصفها قوة الطبيعة ، وكأنها نموذج الأنوثة الخالدة .

ساقى نامه

كتاب الساقى

— ١ —

نعم ، كنت أغشى الحانات ،
وسمونى نصيبى مثل غيرى ،
وكانوا يثرثرون ويتصايحون ويتحدثون عن اليوم ،
فرحين أو حزينين ، حسبما يقتضى اليوم ؛
لكنى كنت أجلس ، سعيداً فى أعماق نفسى ،
وأفكِّر فى حبيبتى ، — كيف تحبّ ؟
لست أدرى ؛ لكن ما يضايقنى
هو أنها أحبُّها كما يأمر القلب
الذى بذل لها نفسه وصار لها عبداً هى وحدها .
أين كان البرشمان ، وأين اليراع
اللذان قيدا هذا ؟ — ومع ذلك قد كان الأمر هكذا ، نعم هكذا !

كتاب الساقى : أعلن جيته عن هذا الكتاب فى « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ رقم ٤٨ ص ١٩٠) هكذا : « تنازع الشاعر مع صاحب الحان المعتاد ، واختار صبياً زَوْلاً ، زاد فى متعة الشراب بحسن الخدمة اللطيفة ، وسيكون الفتى تلميذه ، وأمين سرّه ، وإليه سيفضى بالأفكار العالية . وتشيع الحياة فى الكتاب كله بفضل ميل متبادل » .

وقد تأثر جيته هنا بكتاب الساقى لحافظ الشيرازى (ترجمة يوسف فون

همر ج ٢ ص ٤٨٩ وما يليها) وفيها يتغنى حافظ بالساقى وبالخمر كرمز على الحب الطاهر والحماسة الصافية ؛ كما تأثر أفلاطون فى « المأدبة » ونظرته فى الحب .

نعم ، كنت أغشى . . . : نظمت قبل ٢٧ سبتمبر سنة ١٨١٥ . وهى بمثابة تمهيد للانتقال من « كتاب زليخا » إلى « كتاب الساقى » .

— ٢ —

إذا جلست وحدى ،
هل ثَمّ ما هو أفضل ؟
خمرى
أشربه وحدى ؛
لا إنسان يفرض علىّ قيوداً ،
وهكذا تكون كل أفكارى لى وحدى .

نظمت قبل يونيه سنة ١٨١٨ .

— ٣ —

مولاى اللص استطاع
حتى فى سُكْره أن يكتب خطًّا جميلاً

نظمت قبل يونيه سنة ١٨١٨ .

لكن لم يتبين ماذا يقصد جيته بـ « مولاى اللص » هذا .

— ٤ —

هل القرآن قديم ؟
هذا أمرٌ لا أسأل عنه !

هل القرآن مخلوق ؟
لست أدرى !
أما أنه كتاب الكُتُب ،
فهذا ما أؤمن به ، كما هو فرْضٌ على كل مسلم ؛
أما أن الخمر قديم منــذ الأزل ،
فهذا ما لا أشك فيه ؛
أو أنه خُلِق قبل الملائكة ،
ربما هذا أيضاً ليس حديث خرافة .
فالشارب ، مهما يكن ،
ينظر إلى الله فى وجهه بجسارة .

نظمت فى ٢٠ مايو سنة ١٨١٥ .

وجيته يشير هنا إلى مشكلة خلق القرآن المشهورة[1] والتى أحدثت الكثير من الخلافات العنيفة بين المتكلمين والفقهاء المسلمين ، وكان من رأى المعتزلة أن القرآن مخلوق ، بينما يرى أهل السنة والجماعة أنه قديم . وفى عصر المأمون امتحن كثير من أهل السنة والجماعة فى هذه المحنة ، إذ رأى المأمون فرض رأى المعتزلة فى هذه المسألة ، وبسببها امتحن أحمد بن حنبل امتحاناً شديداً فسجن وعُذّب إلى أن أفرج عنه فى عهد المتوكل الذى انحاز إلى مذهب أهل السنة والجماعة .

وجيته ، الشاعر ، لا يريد أن يحطم رأسه بهذه المشاكل الكلامية ، ويكفيه أن يمجِّد الخمر شأن شعراء العصر العباسى الأول وشعراء الفرس مثل حافظ الشيرازى .

---

(١) راجع « مقالات الإسلاميين » للأشعرى ج ٢ ص ٢٣١— ٢٣٥. القاهرة سنة ١٩٥٤ .

- ٥ -

سُكارى ينبغى أن نكون أجمعين !
والشباب هو السكر من غير خمر ؛
وإذا الشيخوخة جَدّدت شبابها بالشراب
فتلك فضيلة عجيبة .
والحياة العزيزة تهتم بتزويدنا بالهموم ،
ومهمة الأعناب طرد الهموم

نظمت فى الفترة بين يونيو سنة ١٨١٤ و٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

والبيت الثانى مأخوذ عما أورده ديتس فى «كتاب قابوس» (ص ٤١٩) : «فى عهد الشباب يكون الناس سكارى من غير خمر» .

- ٦ -

لا أحد بعد يهتمُ بهذا !
الخمرُ مُحرّم حقاً .
فإن كان لا بد من الشراب ،
فعلى الأغل لا تشرب غير أجود الخمر :
وستكون زنديقاً مرتين
بمواجهة العذاب بسبب الخمر الرديئة .

نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

وتقوم على أساس ما ورد فى ديتس : «كتاب قابوس» (ص ٤٤٤) : «ومن هنا فإن الخمر حرام . فإن ارتكبت هذه الكبيرة ، فارتكبها على الأقل فى سبيل أجود الخمور ؛ وإلا فإنك سترتكب الذنب مرتين : مرة بسبب

الحرمة ، ومرة ثانية بسبب رداءة الخمر . والله إن هذا سيكون أسوأ السيئات » .

— ٧ —

طالما كان المرء فى صَحْوٍ
اغتبط بالسوء ،
وإذا شَرِب
عرف الخير ؛
لكن سرعان
ما يكون ثَمَّ إفراط !
أى حافظ خَبِّرنى
كيف فهمت هذا الأمر !

لأن رأيى
لا مبالغة فيه :
من لا يعرف الشراب
ينبغى ألا يعشق ؛
أما أنتم أيها الشاربون
فلا تحسبوا أنفسكم بهذا أفضل :
إذا لم يعرف المرء كيف يحبّ
فينبغى عليه ألا يشرب .

فى العنوان الأصلى إشارة إلى حرف نون الغزلية رقم ١٥ ؛ حكم صائب » — ولكن هذه إشارة إلى قصيدة لحافظ لا تتفق مع قصيدتنا هذه .

ولهذا افترض النقاد أن المقصود ربما أن يكون إلى الإشارة إلى ديوان حافظ جـ ٢ ص ٢٢٣ (ترجمة فون همر) حيث يقول : تلقيت من الساقى فتوى تقول إن الشراب حرامٌ حيث لا يوجد الحبيب » .

و قد نظمها جيته فى ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ إبان رحلته من إيزناخ إلى فولدا ؛ وطبعت أولا فى « لوحة الأغانى » لتسلتر سنة ١٨١٨ .

— ٨ —

زليخا

لماذا تكون فى أحيانٍ كثيرة سيئ الأدب ؟

حاتم

أنت تعلم أن الجسم سجن ؛
حُبِسَت فيه الروح بالخديعة ،
ولا تستطيع أن تمد ذراعيها فيه بحرية .
ولما كانت تريد أن تنجو من هنا ومن هناك
فقدْ قُيِّد السجن نفسه بالأغلال :
وهكذا الروح المسكينة فى خطر مزدوج ،
ولهذا تتصرف مراراً تصرفات غريبة .

نظمت فى ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ فى ايزناخ .

وتعبِّر عن المعنى الشائع فى الشعر العربى والفارسى والأوربى ، والمأخوذ من أقدم المذاهب ، وبه قال خصوصاً أفلاطون ، وهو أن الروح سجينة فى البدن .

— ٩ —

إن كان الجسم سِجْناً ،
فلماذا هذا السجن شديد العطش ؟
إن الروح ترتاح فيه ،
وتود لو تبقى راضية هادئة ؛
لكن لا بد لهذا من أن تدخل
فيه زجاجة خمر ، ثم أُخْرى .
والروح لا تستطيع أن تتحمل أكثر ،
وتكدسها عند المدخل

نظمت فى ٢٧ مايو سنة ١٨١٥ فى فرنكفورت .

— ١٠ —

إلى النادل

أيها الجلف ، لا تصنع الإبريق
هكذا أمام أنفى بجفاف !
إن على من يقدم إلى الخمر أن يتلقانى بطلعة حلوة
وإلاّ لتعكر نبيذ السنة الحادية عشرة فى كأسى .

نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥
وبها يبدأ القسم الثانى من « كتاب الساقى » .

١٠ مكرر

إلى الساقى

أيها الصبىّ اللطيف ، تعالَ ، ادخل ،
لماذا تبقى هكذا على الوصيد ؟

كنْ ساقِيَّ منذ الآن ،
وكل خمر ستكون لذيذة صافية .

كانت هاتان القصيدتان واحدة ، ثم فصل بينهما فى أول يوليو سنة ١٨١٥ .

— ١١ —

الساقى يقول :

أنت بغدائرك السمراء
اذهبى عنى أيتها القحبة الخبيثة !
حين أصب لسيدى على هواه
يقبلنى فى جبينى .

أما أنت ، فإنى أراهن
أن هذا لن يكفيك
خدودك ، ونهودك
تبعث الملال فى نفس صاحبى .

أتظن أنك تخدعينى
وأنت تبتعدين وعليك سيما الخجل والاضطراب ؟
سأنام على الوصيد
وأستيقظ إذا تسللْتِ إليه .

نظمت فى أكتوبر سنة ١٨١٤ .

محاكاة حرفية لحافظ الشيرازى فى تفضيله الساقى على المحبوبة .

— ١٢ —

بسبب سُكْرنا
ألحوا علينا باللائمة ،
ومع ذلك فإنهم لم يقولوا كل شيء
فيما يتعلق بسكرنا
فى العادة يبقى الخُمار حتى الصباح ؛
أما أنا فخُمارى
جعلنى أهرول طول الليل ،
إنه خُمار الحب ،
الذى يعذبنى على نحوٍ أليم ،
ومن النهار إلى الليل ، ومن الليل إلى النهار
يتردد فى قلبى باهتزاز .
فى قلبى الذى ينتفخ ويضطرب
فى نشوة الأغانى ،
حتى لا يجسر سُكْر ناصع
أن يساوى نفسه به ،
سُكْر الحب ، والغناء ، والخمر
فى الليل وفى النهار
سُكرٌ إلهى
يسحرنى ويعذّبنى

نظمت فى هيدلبرج فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٥
وفيها إشادة بالنشوة محاكاة للغزليات ، مثل رقم ٤

— ١٣ —

آه ! أيها الخبيث الصغير !
أن أبقى صاحيا فى وعيي ،
هذا هو المهم .
وهكذا أبتهج
أيضا بحضورك ،
أيها الفتى العزيز ،
إن كنت سكران .

نشرت لأول مرة فى طبعة الديوان سنة ١٨٢٧

ويقول فيها جوندولف ص ٦٥٠) : « الآن وصل إلى الحكمة وإلى قمة النزعة الأپولونية ، فصار يرى فى كل ارتفاع فى قوته ارتفاعا فى علمه ، وصار على ديونوسوس أن يخدم أپولون ، بتحول الدم إلى روح : لأن الخمر روح » .

— ١٤ —

واعجبا لما كان اليوم فى الحانة
من ضجيج عند مطلع الفجر !
صاحب الحان والخادمات ! والمشاعل ، والناس
أية مشاعل ، وأية شتائم !
كان الناى يعزف ، والطبل يدقّ !
وكان ثمّ نزاع شديد . —
ومع ذلك فقد شاركت بنصيبى
وأنا ممتلئ سروراً وحبّاً .

أما أنّى لم أتعلم شيئاً من الأخلاق ،
فقد لامنى الكلُّ على هذا ؛
لكنى أبتعد بحكمة
عن منازعات أصحاب المذاهب والمنابر .

نشرت فى طبعة سنة ١٨٢٧ من « الديوان الشرقى » ، وتاريخها فى المخطوط ١٨١٨/٩/٨ .

وفيها استلهم حافظاً الشيرازى (ج ١ ص ٣٩٢) : « آه ! آه ! كم كان فى الحانة صباح اليوم من ضجيج ! حيث الساقى والحبيب والمشعل والنور كانت كلها فى أشد اضطراب ، وحيث (وإن كانت أقاصيص الحب ليست فى حاجة إلى تفسير !) الناى والطبلة فى اصطخاب . ومن دخل فى هذه الزمرة من المجانين حباً فى النزاع والعراك ، ابتعد عن نزاع المذاهب والمنابر » .

— ١٥ —

السافى

على أى حالٍ يا سيدى تتسلّل
هكذا من غرفتك !
الفرس يسمُّون هذا « بى دماغ بودن »[1]
والألمان يقولون « بلاء القط »[2]

(١) فارسية بمعنى : « يصير بلا دماغ » يذهب عقله من السُّكر والخمار .
(٢) أى التدويخ الناجم عن شدة السكر .

الشاعر

دعنى وشأنى الآن ، يا ولدى العزيز !
العالم لا يلذّ لى ،
ولا عطر الورد ولا لألاؤه ،
ولا غناء البلبل ؛

الساقى

وهذا عينه هو الذى أريدُ أن أعالجه
وأعتقد أن هذا سيفلح ؛
خذ ، استمتع بهذا اللوز الطازج ،
وستجد الخمر شهىّ المذاق .

ثم أريد أن أقتادك إلى الشرفة
لتستروح الهواء العليل ،
وحين أنظر إليك ،
ستعطى الساقى قُبْلَة .

انظر ، إن العالم ليس كهفاً ،
إنه غنىٌّ دائماً بالأوكار والمولودين ،
بعطور الورد وزيت الورد !
والبلبل أيضاً يغنى مثل بالأمس .

تحمل القصيدة تاريخ سنة ١٨١٤ ، ويرى جريف أنه ربما كان الأصح أن يكون سنة ١٨١٥ .

وكان جيته قرأ عند شاردان (ج ١٠ ص ١٢٠) أن « الفرس يسمون هذه الحالة باسم « بى دماغ بودن » أى بغير سرور ولا بهجة ، وأن يكون الدماغ خاوياً مضطرباً » .

ومعنى القصيدة أن الخُمار الذى أصاب رأس الشاعر السكران بالتدويخ والدوار يمكن أن يزول بكلمات الساقى الساذجة ، الذى يتصور العالم على أنه ينبوع لا ينفد من الحياة المتجددة أبداً .

— ١٦ —

هذه الثرثارة المخيفة
هذه اللعوب الداعرة ،
التى نسميها الدنيا ،
قد خدعتنى
مثل سائرهن .
انتزعتْ منى إيمانى ،
ثم رجائى ؛
والآن أرادت
أن تنازعنى الحب
هنالك انطلقت وأفلتُّ .
ولأحافظ إلى الأبد
على الكنز الذى استنقذته ،
وزعته بحكمة
بين زليخا والساقى .
وكل واحد منهما
تنافس مع الآخر

فى أن يعطينى فائدة أكبر .
وهأنذا أغنى مما كنت :
استردت الإيمان !
الإيمان بحبها ؛
وهو ، بالكأس ، يعطينى
الشعور الرائع بالحاضر —
فماذا أعمل بالرجاء !

نظمت فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨١٥

والفكرة التى تقول إن الدنيا كالبغىّ منتشرة فى الأدب الأوربى والشرق الفارسى على السواء . وقد أورد ذلك ديتس (ص ٢٦٩ تعليق ١ فى « كتاب قابوس ») ، كذلك ورد هذا التشبيه عند حافظ الشيرازى (ج ١ ص ٦١) : « لا تثقنّ بالدنيا ولا تأمن لها ، فإنها بغىٌّ فاجرة ؛ ولها آلاف العشاق هذه العروس السيئة السيرة » .

— ١٧ —

الساقى

اليوم أكلت أكلة طيبة ،
لكن شربت أكثر ؛
وما نسيته أثناء الطعام
وقع فى هذا الحوض .
انظر ، نحن نسمّى هذا « بلشونا »
كما يطيب للضيف الشبعان ؛
وهذا هو ما آتى به لبلشونى

الذى يتبختر على الأمواج .
ويزعم الناس أنهم يعرفون أن البلشون وهو يغنى
إنما ينشد نشيد رثاء نفسه ؛
وأنا أعزف عن كل غناء
قد يشير إلى نهايتك .

— ١٨ —

الساقى

ينادونك باسم الشاعر الكبير ،
حين تظهر فى السوق ؛
وأنا أصغى بشغف حين تغنى ،
وأصيخ السمع ، حين تسكت .
لكن أحبك أكثر
حين تقبِّل قبلة الذكرى[1] ؛
لأن الكلمات تمضى
لكن القبلة تبقى فى أعماق القلب .
نَظْمُ القافية تلو القافية أمرٌ له قيمته ،
والأفضل زيادة التفكير ،
غَنِّ إذن لسائر الناس
وأبق صامتاً مع الساقى .

نظمت هاتان القصيدتان فى أكتوبر سنة ١٨١٤ ، وأرسلتا فى أول يناير سنة ١٨١٥ إلى ابن الأستاذ پاولس ، الأستاذ فى هيدلبرج ، وكان ابنه فى سن الثالثة عشرة .

وكلمة « بلشون » (= بجعة) فى البيت الخامس من القصيدة الأولى يتلاعب به جيته بثلاثة معان : الأول بمعنى دارج للدلالة على الحلوى آخر ما يقدم فى المأدبة ؛ والثانى بمعنى بلشون حقيقى ، والثالث فيه إشارة إلى نشيد البلشون ، إذ يقال إن البلشون حين يشعر بدنوّ أجله يغنى ، ومن هنا جاء التعبير : « نشيد البلشون » للدلالة على آخر الأعمال الفنية للشاعر أو الكاتب .

— ١٩ —

الشـــاعر

هيا أيها الساقى ، هاتنى كأساً أخرى

الســـاقى

سيدى ، لقد شربت بما فيه الكفاية ؛
إنهم يسمونك الشارب المتوحش !

الشـــاعر

هل تأتينى أبداً مجندلاً على الأرض ؟

الســـاقى

النبىّ حرّمها .

الشـــاعر

عزيزى !
لا أحد يسمع ، سأُخبرك .

الســـاقى

إذا تكلمت يوماً بارتياح
فلا حاجة إلى سؤالك طويلاً

الشـــاعر

اسمع ! إننا معاشر المسلمين
يجب علينا أن نظل فى صَحْو ؛
بينما هو فى حماسته المقدسة
يكون هو وحده النشوان بالإيمان .

نظمت قبل ٢٣ فبراير سنة ١٨١٥

— ٢٠ —

الساقى

فكّر ، يا سيدى ، أنك حين تشرب
يصّاعد حولك لهيب النار !
وآلاف الشرارات تلمع وهى تتواثب ،
ولست تدرى ، أين هذا يستقرّ .

إنى أرى فى الزوايا رهباناً ،
حين تضرب على المنضدة ؛
إنهم يختبئون فى نفاقٍ
بينما أنت تفتح قلبك .

قُلْ لى فقط لماذا الشباب ،
دون أن يتحرّر بعدُ من نقائصه ،
وقد خلا من كل فضيلة
لماذا الشباب أعقل من الشيخوخة ؟

أنت تعرف كل ما فى السماء

وكلّ ما تحمل الأرض ،
ولا تخفى الاضطراب
الذى يعجُّ فى قلبك .

حـــاتم

ولهذا ، أيها الصبي العزيز ،
ابْقَ شاباً وابْقَ حكيماً ،
إن الشعر هبة من السماء حقاً
لكنه خداع فى الحياة الأرضية .
يبدأ المرء بالهدهدة فى السرّ
ثم يثرثر من الصباح حتى المساء !
وعبثاً بصمت الشاعر ،
فالشعر نفسه كشف وخيانة .

لا يعرف تاريخ نظمها ، وطبعت لأول مرة فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

— ٢١ —

ابن صيف

الشاعر

غربت الشمس ،
لكنها لا تزال تلمع فى المغرب ،
بودى أن أعرف كم من الزمان
سيستمرّ هذا البريق الذهبي ؟

الساقى

إن شئت ، يا سيدى ، بقيت
أنتظر خارج هذه الخيام ؛
وحين يتغلب الليل على البريق
سأهرع لإنبائك .

لأنى أعلم أنك تحب النظر
إلى الأعالى وإلى اللانهائى
حين يمدح كل منهما الآخر ،
هاتان النّاران فى زرقة السماء .

والأصفى يريد فقط أن يقول :
« الآن ألمع فى مكانى ؛
لو شاء الله أن يزيد فى نورك
لكان لمعانك أشدّ من لمعانى » ؛

إذ كل شىء أمام الله رائع ،
لأنه هو الأحسن ؛
وهكذا تنام الآن فى أوكارها
الصغيرة والكبيرة — كلُّ الطيور :

أحدهما يجثم من غيرتك
على أغصان السَّرْو ،
حين يهدهده النسيم العليل
حتى الوقت الذى فيه يندى الهواء بأنداء الفجر .

هذا ما علمتنى إياه ،
أو شىء مثل هذا ،
وما سمعتــه منك
لن يُفْلِت من قلبى .

كالبومة أريد أن أجثم
على الشرفة من أجلك
حتى اللحظة التى فيها أشد
الدورة الثنائية للنجم القطبى .

هناك سيكون منتصف الليل
حين توقظنى مراراً قبل الوقت ،
وسيكون أمراً رائعاً ،
أن أتملّى معك بالكون

الشاعر

لا شك أن البلبل يغنى
طوال الليل فى هذه الحديقة العاطرة ؛
لكنك تستطيع أن تنتظر طويلا ،
حتى اللحظة التى يكون فيها الليل قد انتصر

فى أوان فلورا هذا ،
كما يسميها شعب يونان ،
أرملة القس ، أورورا ،
تتقد حباً فى هسپروس

تلفّتْ حواليك ! إنها تعدو بسرعة !
فوق امتداد حقول الأزهار !
لألاء هنا ، ولألاء هناك ،
نعم ، إن الليل قد أُحْدِق به .

وعلى أقدامها الرشيقة الوردية
تهرع لتمسك ، فى ضلالها ،
بمن هرب مع الشمس
ألا تستشعر نفحة غرام تهبّ ؟

اذهب إذن ، يا أعز الأولاد ،
إلى أعمق مأواك ، وأَغْلِق الأبواب ،
فقد تخطف جمالك
حاسبة أنه هسپروس

فى أطول النهارات فى السنة لا يكون ثمّ ليل بمعنى الكلمة فى بلاد الغرب ، بل يكون ثمّ أصيل متواصل من حين غروب الشمس حتى مطلعها فى اليوم التالى .

وفى هذه القصيدة يقترح الساقى على الشاعر أن يجثم على الشرفة كالبومة ليعلن للشاعر اللحظة التى فيها يكون الظلام تاماً ؛ كان الشاعر يبين له خطأه ، مستخدماً رموزاً مستعارة من الأساطير اليونانية . ففى ليالى الصيف القصيرة تندفع الإلهة أورورا (للفجر) التى خلّفت وراءها زوجها العجوز تيثونوس الذى حبسته فى غرفة بيتها ، تندفع مليئة بالحمّية الغرامية ، على إثر هسپروس ؛ نجم المساء . لكن على الرغم من أن البريق الوردى للأصيل يلمع

فى الشرق والغرب ، مضيئاً المكان المخصص لليل ، فإن أورورا لن تلحق أبداً بحبيبها ؛ فليدخل الساقى إذن إلى داخل البيت ، حتى لا تخطفه أورورا حاسبة أنه هسپروس .

وقد بدأ جيته نظم هذه القصيدة فى يونيو سنة ١٨١٤ ، وانتهى منها فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨١٤ فى مدينة ييذا .

— ٢٢ —

الساقى (وقد غالبه النعاس)

لقد حصلت عليه منك أخيراً
حضور الله فى كل العناصر .
كم وهبتنى هذه الهبة بلُطف !
لكن اللطف الأكبر هو أنك تحب .

حاتم

إنه ينام برقة وله الحق فى النوم .
أيها الصبى الطيب لقد سقيتنى ،
ومن الصديق والمعلّم ، بغير قهر ولا عقاب ،
تعلمت شاباً ما يفكر فيه العجوز .
والآن ينفذ فى أعضائك
ملاء من الصحة حتى تتجدّد .

إنى لا أزال أشرب ، لكنى مع ذلك هادئ ، **هادئ** ،
حتى تبهجنى بعدم إيقاظك .

نظمت فى ٢١ يوليو سنة ١٨١٨ ، ونشرت فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

وهى خاتمة هادئة جميلة رقيقة ، فيها تعبير عن الشعور الأبوى الذى يُحسُّ به الساقى نحو الشاعر الذى علّمه بغير قهر ولا عقاب ، وخير جزاء له عن تعليمه إياه هو النوم الهانئ .

مَثَـــل نامه

كتاب الأمثال

- ١ -

من السماء نزلت فى رُعْب البحار العاصفة
قطرة مرتعدة ، ضربتها الأمواج بعنف ؛
لكن الله جازى شجاعة الإيمان المتواضعة
ووهب القطرة قوة ورسوخاً .
فغلّفها المحار الهادئ .
ومنذ ذلك الوقت رفت اللؤلؤة ،
لمجدها وجزاء خالداً لها ، على تاج إمبراطورنا
بلمعان غريب وبريق رقيق .

كتاب الأمثال : أعلن جيته عنه فى « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ (برقم ٤٨ ، ص ١٨٩) هكذا : « كتاب الأمثال يتضمن تصويرات مع تطبيقات على الأحوال الإنسانية » . وراجع « التعليقات » .

من السماء لا بد أن تكون قد نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ ، وربما فى الفترة من ٨ إلى ١١ ديسمبر سنة ١٨١٤ .

وقد تأثر فيها جيته ما قرأه فى كتاب جونز : « أشعار آسيوية وشروحها » حيث ورد : « نزلت قطرة من غيوم العاصفة فى صخب البحر المائج ؛ لكنها لما رأت الأمواج تهدر بشكل هائل ، توقفت فزعة وسكتت من فرط الحياء وزفرت وهى قائلة : وا أسفاه ! ما أشقانى ! بسبب هذا

اليوم المشئوم الذى أُهِينْتُ فيه أكثر من قشرة التمرة ؛ وعلى الرغم من أننى لمعت بالأمس بين الغيوم ، فإنى أشعر اليوم بأننى فى العدم . وما كادت القطرة الصغيرة تقول هذه الكلمات بمذلة وتواضع ، حتى لمعت فجأة ؛ لأن الإله غطّاها بزينة نبيلة وأودعها فى محار ، جزاء تواضعها » (ص ٢٢٨ وما يتلوها ، ليبتسك سنة ١٧٧٧) .

— ٢ —

غناء البلبل فى الليل يصاعد
خلال القشعريرة إلى عرش الله الوضاء ،
وجزاء غنائه الرخيم
حبسه فى قفص ذهبى .
هذه أعضاء الإنسان .
والفقير يشعر حقا بالضيق ؛
لكن إذا فكرنا فى الأمر كما ينبغى
فإن الروح الصغيرة تأخذ دائماً فى الغناء من جديد .

أنشئت فى الفترة ما بين ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، لما قرأ جيته لأول مرة ديوان حافظ ، و ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

وقد استلهم فيها حافظاً الشيرازى (جـ ٢ ص ١٠٩) حين يقول : « هذا البلبل الحبيس ، الذى يسمى الروح ، لا يخدم البدن ، الذى هو على العكس قفصه » .

— ٣ —

الإيمان بالمعجزات

حطمتُ يوماً كأساً جميلة

وكنت على وشك اليأس ؛

ورعونتي واندفاعي

ألقيت بهما للشياطين .

في البداية ثارت ثائرتي ، وبعد ذلك بكيت بهدوء

وأنا أجمع البقايا المتناثرة بحزن ؛

فرق الله لحالي ، وخلق الكأس من جديد

كاملاً صحيحاً كما كان .

نشرت في طبعة سنة ١٨٢٧ .

وهي مستوحاة من المثل الفارسي الذي أورده شاردان (ج ٤ ص ٢٥٨) : الزجاجة المكسورة تُشَعَّب ، فكم بالأحرى يعاد سبك الإنسان بعد أن يحطمه الموت ؟ »

— ٤ —

اللؤلؤة التي نجت من محارها

أجمل اللآلي ومن أصل نبيل

للصائغ ، الرجل الطيب ،

قالت : لقد ضِعتُ !

إذا ثقبتني فإن كياني الجميل

يتحطم فوراً ،

لا بد لى ، كما يحدث فى حالة حالة ،
أن أُنْظَم مع أخوات لى أسوأه

« إنى لا أفكر الآن إلا فى مكسبى ،
فعليك أن تغفرى لى :
لكن إذا لم أَقِسْ معك ،
فأنّى للعِقْد أن يتم ؟ »

وجيته يعبّر فيها ساخراً من هذه الفكرة وهى أنه إذا أريد نظم عقد جميل فعلى الدرّة اليتيمة أن تذعن فتنظم جنباً إلى جنب مع لآلئ أقل قيمة . وهكذا الشأن فى الممتازين : مقدر عليهم أن يذعنوا لوضعهم بين الأوساط والأردياء .

— ٥ —

شاهدت بدهشة وارتياح
ريشة طاووس بين صفحات القرآن :
مرحباً بك فى هذا المكان المقدس ،
أيها الكنز الثمين الأرفع بين المخلوقات الأرضية
فيك ، كما فى نجوم السماء ،
ندرك فى الأشياء الصغيرة عظمة الله ،
ونرى أنه وهو الذى يحيط العوالم بنظرة :
قد وضع هنا طابع عينه ،
وزين هذه الريشة الخفيفة
زينة لم يفلح الملوك

فى محاكاة روعتها فى هذا الطائر .
انعمى فى تواضع جم بمجدك ،
تكونى جديرة بالمعبد الذى ترقدين فيه .

نظمت فى ١٧ مارس سنة ١٨١٥ .

وتأثر فيها بموضع فى « جلستان » سعدى ورد فيه : « قُلْتُ اريشة طاووس جميلة شاهدتها موضوعة بين أوراق المصحف : من أين لك بالمكانة التى تجعلك جديرة بأن توضعى فى هذا الكتاب العظيم ؟ — فأجابتنى كما يلى تقريباً : الجميل أكثر حرية من الدميم فى أن يضع قدمه حيث يريد ، ولا يمكن أية يد أن تبعده عنه بسهولة »

— ٦ —

كان عند إمبراطور محاسبان ،
أحدهما للدخل ، والثانى للمنصرف ؛
والأول كان تفيض يداه بالمال ،
والثانى لم يكن يعرف أين يجد المال .
ومات المُسْرِف ؛ ولم يدر السلطان
لمن يكل أمر الصرف .
ولم يكد يمضى وقت للالتفات
حتى كان المحصِّل قد صار غنياً غنى لا حد له ؛
ولم يُعْرَف ماذا يُفْعَل بكل هذا الذهب ،
لأنه لم يُصْرَف شىء طوال يوم واحد .
هنالك فقط صار واضحاً لدى الإمبراطور
السبب فى كل البلاء .

معرف كيف يستفيد من الصدفة ؛

وقرر ألاّ يكل أمر هذه الوظيفة (الصرف) لأحد .

نظمت فى ٢٥ فبراير سنة ١٨١٥ .

ليس من المؤكد أن لهذه القصيدة مصدراً شرقياً . ولكن قيل بوجود تشابه بينها وبين هذه الفقرة فى « كتاب قابوس » : « يجب عليك أن تكون محاسباً دقيقاً ، أعنى أن تعرف الدخل والمنصرف عند الإمبراطور وألاّ تبذر فى أمواله . ويجب عليك أن تتقن التجارة لتعرَف ممن ينبغى أن تشترى وإلى من ينبغى أن تعطى . » (ديتس : « كتاب قابوس » ص ٧٧٢) »

على أن جيته استخدم هذا القول بتهكم وسخرية .

— ٧ —

يقول القِدْر الجديد للمقلاة :

كم بطنك أسود !

« هذا هو المعتاد عندنا فى المطبخ :

تعال ههنا ، أيها الصعلوك اللامع ،

تسقط عنك كبرياؤك فى الحال .

إذا كان وجه المقبض صافياً ،

فلا تغترّ

وما عليك إلا أن تنظر فى مؤخرتك » .

نظمت فى سبتمبر سنة ١٨١٨ ، ونشرت لأول مرة سنة ١٨٢٧ ، ومصدرها ما ورد فى ديتس : « ذكريات » (جـ ١ ص ٢٠٠) من مَثَل يقول : « التعب يقول للتعب : مؤخرك أسود، وقد أصلحه يوسف فون همر (مجلة يينا الأدبية يناير سنة ١٨١٣ ص ٦٠) هكذا : « قال قدر اللحم لقدر اللحم . . . » . — وقد جمع جيته بين هاتين الترجمتين المتعارضتين :

— ٨ —

كل الناس ، كباراً وصغاراً ،
ينسجون لأنفسهم نسجاً رقيقاً ،
حيث يجلسون فى الوسط بلطف
ومعهم مقصاتهم الحادّة .
لكن إذا جاءت ضربة مكنسة
شكوا وقالوا :
لقد حُطِّم أجمل قصر .

نظمت فى ١٧ مارس سنة ١٨١٥ .

يسخر جيته هنا من أوساط الناس الذين يقومون بأعمال عادية أو تصدر عنهم أفكار مبتذلة ، لكن يخيل إليهم أنهم أتوا بالأعاجيب ، فإذا هدم أو نقد المرء أعمالهم وأفكارهم صاحوا وصرخوا : لقــد هُدِّم القصر المنيف ، يا لها من جريمة نكراء ! وما هو إلا غرورهم بتفاهتهم هو الذى يهوّل عليهم شأن ما يفعلون أو يقولون .

— ٩ —

لما نزل عيسى من السماء
أتى معه بالكتاب المقدس ، الإنجيل
وقرأه على حوارييه ليل نهار ،
وفعلت الكلمة الإلهية فعلها ونَفَذَتْ .
ثم صعد إلى السماء وحمل معه الكتاب ؛
لكنهم هم شعروا به وأحسّوا ،
وكل منهم كتبه ، سطراً سطراً ،

كما حفظه فى قلبه ،
أعنى على نحو متفاوت . لكن لا يهم :
فلم تكن لديهم جميعاً نفس المواهب .
لكن النصارى يمكن أن يعيشوا على هذا
حتى يوم الحساب الأخير .

— نظمت فى ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ .

يعتقد المسلمون أن الإنجيل كتابٌ أنزل على عيسى عليه السلام من السماء ، وأنه تلقاه بوحى من جبريل لينذر به قومه .

ولكن النصارى لا يتصورون الإنجيل على هذا النحو ، بل إن ما بأيديهم من أناجيل هو من وضع بعض الحواريين والرسل : متى ، لوقا ، مرقس ، يوحنا ، وأنهم إنما سجلوا تاريخ حياة المسيح وأوردوا أقواله بحسب إدراكهم .

وجيته يوفق بين الفكرتين ، كما فعل ذلك فى الكتاب الثانى عشر من « الشعر والحقيقة » حين قال : « قد يناقض واضعو الأناجيل بعضهم بعضاً ، لكن بشرط ألا يتناقض الإنجيل نفسُه » .

— ١٠ —

همس

على ضوء القمر ، فى الجنة ،
وجد « يهوا » آدمَ غارقاً فى سبات عميق
فوضع برفقٍ إلى جانبه
حوّاء لطيفة نامت هى الأخرى .

وهكذا رقدت ، فى غلافهما الأرضىّ ،
أجمل فكرتين من أفكار الله . —
حَسَنَ ! ! ! هكذا قال جزاءً عن عمله الرائع ؛
بل لم يبتعد إلاّ على أسفٍ .
فما من عجب إذن أن تنتابنا نشوة
حين تنظر العين فى العين ،
كما لو كنا وصلنا
إلى حدّ الصعود إلى ذلك الذى تصوّرنا .
وإذا صاح بنا : كُنْ !
لكن بنا نحن الاثنين معاً !
هنالك تعانقك هذه الأذرع
يا أعز أفكار الله كلّها !

نظمت فى ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ ، وقرئت لبواسريه فى ٦ أغسطس فأعجب بها أشد الإعجاب ، ورأى فيها مزيجاً من السموّ الرائع والبساطة الساذجة الجميلة « وأحدثت فى نفسى — كما قال — نفس الانطباع الذى تحدث أروع أعمال النحت اليونانى » .

واغتباط الله لما رأى آدم وحواء نائمين هو فى نظر الشاعر خير تبرير يتلمسه المحبون الذين يرى كل منهم فى الآخر « أعز أفكار الله كلها » .

پارسی نامه

كتاب البارسى

— ١ —

وصية الديانة الفارسية القديمة

يا إخوانى ! أية وصية يمكن أن تأتيكم
من ذلك الذى يفارقكم ، من هذا الرجل التقىّ المسكين ،
الذى أطعمتموه أيها الشباب ، بصبر وطول أناة
فشرفتم بعنايتكم أيامه الأخيرة ؟

حينما كنا نشاهد الملك مراراً يمرّ راكباً فرسه ،
ويرف كله بالذهب الذى عليه ومِنْ حوله ،
وتلمع الجواهر عليه وعلَى كبراء رجاله
وتنتشر كحبّات البَرَد الغليظة :

فهل حسدتموه يوما على هذا ؟
ألم تشبع عيونكم خيراً
حين هبّت الشمس ، على أجنحة الفجر ،
قائمة على الذرى العديدة لروابى درناوند ،

على شكل قوس ؟ من ذا الذى يستطيع أن يمنع نفسه
من النظر إليها ؟ لقد شعرتُ ، شعرت
ألف مرة ، طوال حياتى الطويلة ،
مدفوعاً معها ، عند قدومها ،

إلى تأمُّل الله على عرشه ،
لأسميه رب عين الحياة ،
ولكي أكون شاهد صدق على هذا المنظر السامي
ولأستمر في سيري على ضوئه .

لكن حين برز القرص المشتعل كلُّه ،
شعرتُ ، كأنما عشيت عيناى ، في الظلمات ،
فضربت على صدرى ، وأعضائى المنتعشة
مددتها ساجدة على الأرض ، وجبينى محنىّ .

والآن ها هى ذى وصية مقدَّسة
أستودعها إرادة الإخوة وذاكرتهم :
« الأداء اليومى للواجبات الشاقة » .
ولا حاجة إلى تنزيل آخر ووحى .

حين يحرّك الوليد يديه التقيتين
ليديروه في الحال صوب الشمس ،
غطّوه ، جسماً وروحاً ، في حمام الشمس
يشعرُ ببركة كل صباحٍ جديد .

وكِلوا أمواتكم إلى الكائن الحىّ ؛
والحيوانات نفسها غطّوا عليها بالتراب والحصباء ،
وإلى حيث يمتد سلطانكم ،
غَطّوا كل ما يبدو لكم نجِساً .

احرثوا حقلكم حتى يكون نظيفاً مرتّباً
وحتى تسطع الشمس على عملكم ؛
وإذا غرستم أشجاراً فاجعلوا صفوفاً منتظمة
لأنه لا يبارك إلاّ ما هو فى نظام .

والماء أيضاً ، فى القنوات ،
لا تحرموه أبداً من الانحدار والطهارة ؛
ومثلما السندرود ، من أعماق الجبل ،
يتدفق فى أمواج طاهرة ، طاهراً كذلك ينبغى أن يغوص فيه

وحتى لا يُبْطِئَ الانحدار الهادى للماء ،
احرصوا على تنظيف الحُفَر باهتمام ؛
فاليراع والغاب ، والسحالى والعظايا ،
كل هذه الوحوش اقضوا عليها معاً !

فإذا حافظتم على الأرض والماء هكذا طاهرين ،
لمعت الشمس عن طيب خاطر خلال الهواء ،
وإذا تُلُقّيت بالطريقة الجديرة بها ،
خلقت الحياة وأعطت للحياة الصحّة والعافية ؛

أما أنتم ، أيها المدوّخون من عذاب إلى عذاب ،
فتشجعوا : فالكل قد تطهر من الآن فصاعداً ،
وفى وسع الإنسان الآن أن يسعى ، كالكاهن ،
كى يجعل رمز الله ينبثق من الحجر .

وهناك حيث تحترق الشعلة ، أَقِرُّوا بابتهاج :
الليل صافٍ ، والأعضاء مستريحة .
وعلى اللهيب الرشيق فى الموقد
يتحلب من الخامة عصير الحيوان والنبات .

وإذا أحضرتم حطباً ، فأحضروه بابتهاج ،
لأنكم تحملون غصن الشمس الأرضية ،
وإذا قطفتم الپامبه ، تستطيعون أن تقولوا بثقة :
إنها ستكون الذبالة التى تحمل القديس .

وإذا توسمتم بتقوى ، فى شعلة كل مصباح ،
انعكاس نور علوىّ
فلن يمنعكم أىّ سوء حظ
من أن تعبدوا ، فى الصباح ، عرش الله .

إنها الخاتم السلطانى لوجودنا ،
وبالنسبة إلينا وإلى الملائكة هى مرآة الله ،
وكل ما يزمزم بحمد الأعلى
احتشد هناك فى دوائر حول دوائر .

أريد الانصراف عن شواطئ سندرود ،
وأن أنشر جناحىَّ ناحية قمة درناوند ؛
ومتى أشرقت الشمس ، سأذهب فرِحاً للقائها ،
ومن هناك فى أعلى سأبارك عليكم إلى الأبد .

كتاب البارسى : أعلن عنه جيته فى « مجلة الصباح » (سنة ١٨١٦ ،

برقم ٤٨ ، ص ١٩٠) هكذا : « هنا عرض لديانة عبدة النار ، وهو أمر لا غنى عنه ، إذ بغير فكرة واضحة عن هذه الديانة القديمة لظلت معرفتنا بأحوال الشرق وأطواره غامضة » .

وصية الديانة الفارسية القديمة : نظمت فى ١٣ مارس سنة ١٨١٥ وفيها يشرح شيخٌ پارسيٌّ من المجوس ، أتباع زرادشت ، وعبدة النار فى إيران القديمة ، مبادئ هذه الديانة لإخوانه فى الدين وهو على فراش الموت . إن الله يتجلى فى الشمس والنار وفى كل فِعْلٍ أرضيّ يتوجه لخدمة النور بسعى طاهر منظم مفيد ينفع بنى الإنسان ، وفى الكفاح ضد الليل والظلام ، وضد كثافة المادة ، وضد كل عمل خالٍ من المعنى والغرض .

ولا يجد الشاعر الغربى (جيته) غضاضة فى أن يؤمن بديانة النور الپارسية فى صفائها ، يرى فيها مظهراً من ظواهر « الظاهرة الأوّلية » للدين . راجع ما قلناه فى « التصدير » فى الفصل الخاص بـ « جيته والدين » .

وقد صرّح جيته فى حديثه مع إكرمن بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٣٢ قائلا : « لو سألنى أحد هل فى طبعى أن أقدّس الشمس ، لقلت : نعم ! لأنها تجلى الأعلى ، وأعظم ما قدر لنا نحن أبناء الأرض أن ندركه . إنى أعبد فيها النور وقوة الله الخالقة ، التى بها وحدها نحيا ونتنسج ونكون ، نحن وكل النباتات والحيوانات أيضاً » .

دماوند : وصوابه : دماوند ، ودُبُنْباوند ، جَبَلٌ فى كرمان ، فيه كثير من المعادن : الحديد والنحاس والذهب والفضة والنوشادر والتوتيا ، وهو جبل شاهق ، ارتفاعه ثلاثة فراسخ ، والنوشادر بخار يرتفع مثل الدخان من كهف فيه ، ويلصق حوله ، فإذا كثف وكثر خرج إليه أهل المدينة وما قاربها فيُقْتَسَم فى كل شهر أو شهرين (راجع « مراصد

الاطلاع » للمرزوقى ، ج ٢ فى مادة دمنذان ، ص ٥٣٥ ، ودماوند ص ٥٣٣ ودنباوند ص ٥٣٧ ؛ القاهرة سنة ١٩٥٤) .

وهذا الجبل مقدّس عند المجوس . ويعتقدون أن أرواح الموتى تهرع إليه قُبَيْل مطلع الشمس .

سندرود : « هو نهر السند ، من الملتان على ثلاث مراحل : نهر كبير عذب ، يفرغ فى مهران » (مراصد الاطلاع » ج ٢ ص ٧٤٦) .

ويقول شاردان (ج ٩ ص ١٥٠) أن البارسيين يضعون موتاهم على أبراج عالية لتأكل جثثهم الطيور الجارحة ، حتى يتجنبوا تنجس العناصر من جثث الموتى .

پامبه : أى القُطْن .

وفى ملحق سانسون على « رحلات » أوليارس (ص ٥٠) ورد عن البارسيين : « أنهم يهتمون فى وصاياهم ، حين يرقدون على فراش الموت ، أن يوصوا بمبلغ معين من المال ، على شرط أن ينظف المرء البرك من عدد معين من الثعابين والبلاعيم وما شابهما من الزواحف » .

— ٢ —

إذا كان الإنسان يوقّر الأرض
لأن الشمس تضيؤها ،
وإذا استمتع بالكرامة
التى تبكى تحت السكين القاطعة
لأنها تشعر بأن عصيرها
إذا اختمر أنعش الناس
وأهاج عند الكثيرين طاقات

لكنه يخمد طاقات أخرى عند ناس آخرين أكثر ، —
فهو يعلم أنه ينبغي أن يشكر للحرارة
التي جعلت كل هذا ينبع :
إن الإنسان السكران يتلعثم وهو يترنح ،
والإنسان الصاحي يبتهج وهو يغني .

نظمت في ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ .

وفيها مدح للخمر ، وهو أمرٌ طبيعي بالنسبة إلى عَبَدة الشمس ، وهم البارسيون . وقد قال جيته في تعليقاته : « إن كل الأعمال التي تجرى بنشاط هائل ؛ لكن الكرمة ، وهي أعز بنات الشمس ، كانت موضوع عناية خاصة جداً » .

خُلد نامه

كتاب الخلد

— ١ —

سَبُو مَزاو

المسلم الحقّ يتحدث عن الفردوس
كما لو كان هو نفسه هناك ؛
ويؤمن بالقرآن وما يعد به :
وعلى هذا الأساس تقوم العقيدة الطاهرة .

والنبي ، الذي أنزل عليه هذا الكتاب ،
يعرف نقائصنا ويكشفها في الأعالي ،
ويرى أنه على الرغم من رعود اللعنات
فكثيراً ما تأتي الشكوك لتسمّم الإيمان .

ولهذا يرسل إلينا من عليين
أعجوبة شباب لتجديد شباب كل شيء ؛
تنزل برقّة ، وفي الحال ،
تعانق رقبتي وتربطها بألطف الروابط .

وعلى حِجْري ، وعلى قلبي أضم
هذه المخلوقة السماوية ؛ ولا أريد المزيد .

ومن هنا أومن بالفردوس إيماناً راسخاً ،
لأنى أريد أن أقبلها إلى الأبد بإخلاص :

نظمت فى ٢٢ أبريل سنة ١٨٢٠ .

وفى المقطع الأخير يصور الحورية فى الجنة على أنها بمثابة الصورة الأفلاطونية للجمال التى يود الإنسان أن يتحد بها إلى الأبد . فنى الحب يحيا الشعور بالخلود ؛ والعاشق يرى فى المحبوبة واحدة من تلك الحوريات اللواتى فى الفردوس ، أو صورة الجمال بالمعنى الأفلاطونى . لكن فى القصيدة مزيجاً من الهزل والجد .

— ٢ —

ناس ممتازون

بعد معركة بدر تحت السماء المرصّعة بالنجوم

محمد (يتكلم)

لِيَبْكِ الأعداء موتاهم :
فقد جُنْدِلوا إلى غير رجعة ؛
أما أنتم فلا تبكوا إخواننا :
لأنهم يطوفون وراء هذه الأفلاك .

والكواكب السبعة كلها ،
وأبوابها المعدنية مفتوحة على اتساعها ،
وأحبابنا الممجَّدون ها هم يقرعون
أبواب الفردوس بجسارة .

ويجدون هناك ، دون توقع

ألوان البهاء التى لم يسمع بها والتى يمسها معراجى
حين يحملنى الفرس العجيب فى لحظةٍ
خلال السموات .

وأشجار الحكمة منظومة صنفاً صنفاً وقائمة كالسرو
ترفع إلى السماء الزينة المذهبية لتفاحاتها ،
وأشجار الحياة تنشر ظلاً وارفاً ،
وتعطى أرائك الأزهار وأبْسطة الخضرة

ثم يهب نسيمٌ عليلٌ من المشرق
فيأتى إلى هنا بكوكبة بنات السماء ؛
فتبدأ تستمع بناظريك ،
والرؤية وحدها تبعث فينا تمام الرضا .

وهن تفيض هناك سائلات : ماذا أنجزت ؟
مشروعات عظيمة ؟ معارك خطرة دامية ؟
أما أنك بطلٌ ، فهذا أمرٌ يعرفنه ، لأنك وصلت إلى هنا ؛
لكنك بطل من أىّ نوع ؟ إنهن يردن أن يعرفن .

وسرعان ما يكتشفن ذلك فى جُرْحِك
الذى يشيِّد لنفسه تمثالاً من المَجد .
والسعادة والعظمة ، كل هذا زل ،
وبقى فقط الجُرْح الذى أصِبْتَ به فى سبيل الإيمان .

فيقتدنك إلى خمائل وجواسق
فيها آلاف من الأعمدة الحجرية الوضاءة المتعددة ،

ويَدْعُنَّك إلى شرب العصير النبيل للأعناب الماجدة
ويقرّبن الكؤوس من شفتيك برشاقة ولطافة .

أيها الشاب ، وأكثر من شاب ، مرحباً بك !
نحن جميعاً وضّاءات صافيات ،
ولو ضممت إلى قلبك إحدانا
لصارت ملكة خطاياك وصديقتهن .

لكن أكملنا لا تغتبط
أبداً فى هذه الروائع ،
ساجية ، بغير حد ، بريئة ، تلاطفك
بكمالات سائر صواحبها المتعددة .

إحداهن تقتادك إلى احتفال الاخْريات
الذى تنظمه كل منهن بحماسة فائقة ؛
وسيكون لديك حينئذ نسوة كثيرات ويسود السلام فى البيت
وهذا يستحق أن ينال المرء الجنة من أجله .

فاهنأ إذن بهذا السلام :
لأنك لن تستطيع أن تستبدل به شيئاً ؛
إن أمثال هؤلاء الآنسات لن يُمْلِلنك ،
وأمثال هذه الخمور لن تُسكرك .

هذا هو القليل الذى يمكن ذكره
عن الأمور التى يباهى بها المسلم السعيد :

وفردوس الرجال أبطال الإيمان
قد جُهِّزت هكذا أتم تجهيز .

نظمت قبل ١٠ مارس سنة ١٨١٥ .

الاستشهاد فى سبيل الله ذو دلالة خالدةَ .

وجيته يصوّر النبي (عليه السلام) بعد معركة بدر فى يناير سنة ٦٢٤ م وهو يرثى المسلمين الذين قتلوا فى سبيل الله .

لم يمزج هذا الموقف بالإسراء ، حيث أسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم على البراق إلى السماء بقيادة جبريل الذى طوّف بالنبى السموات السبع حتى أتى به أمام عرش الله أو كاد — قاب قوسين أو أدنى — حيث سدرة المنتهى ، التى عندها جنة المأوى ، وسدرة المنتهى هى شجرة الحكمة ، وشجرة الحياة ؛ ويصف الجنة والحور العين ، وكيف تخدم الحوريات الأبرار فى الجنة . وقد استعان جيته فى هذا بما ورد فى القرآن الكريم عن الجنة والإسراء فى سورتى « الواقعة » و « الرحمن » ثم سورة « النجم » ؛ كما استقى من ترجمة يوسف فون همّر لديوان حافظ ، وكتابه « تاريخ فنون القول الجميلة عند الفرس » ، وكذلك كتاب أولزنر عن النبي محمد . لكن الذى ألهمه مجموع هذه القصيدة هو كتاب ى. ف . ريبندر I. V. Rehbinder عن النبي بعنوان : « محمد » ص ٣٦ (كوبنهاجن ، سنة ١٧٩٩) ، إذ ورد فيه رثاء النبي لقتلى المسلمين فى موقعة بدر .

— ٣ —

١

لن يصنع النساء شيئاً
إذا رجّين فى الأمانة الخالصة ؛

بيد أننا لا نعرف عنهن غير أربع ؛
هن اللواتى دخلن الجنة .

الأولى هى زليخا ، شمس الأرض ،
التى اشتعلت حبًّا ليوسف ،
وهى الآن نعمة الفردوس ،
تلمع بوصفها نموذج الزهد .

ثم المبَاركة بين الجميع ،
التى ولدت خلاص جميع الكافرين ،
ثم خُدِعت ، فى ألمها المرّ ،
فشاهدت ابنها يُفْقَد على الصليب

وزوجة محمد ، التى هيأت له
النجاح والمجد ،
وأوصت ألا يكون إلاّ
رب واحد وزوجة واحدة .

ثم تأتى فاطمة المحبوبة ،
الابنة ، والزوجة التى لا عيب فيها ،
ذات الروح الملائكية الطاهرة
فى جسمها الذهبى كالعسل .

هؤلاء هن اللواتى نجدهن هناك ؛
ومن رفع ذكر النساء

يستحق ، فى المقام الدائم ،
أن يتنزه بصحبتهن .

نظمت هذه القصيدة فى هذه الصورة فى خريف سنة ١٨١٥ ؛ وفيها تعديل لصـــورة أولى لها نظمها جيته فى ١٠ مارس سنة ١٨١٥ ، هذا نصها :

كذلك نحن هاهنا
أربعاً هن أجمل النساء
حتى إن الحوريات يخشين
إذا تطلعن فيهن أن تذهب أبصارهن

إن الأبناء المقدر لهم السرور
يتجددون فى ينبوع الشباب ،
ولهم نموذج خالد
فى جمالهم هم .

آسيا ، سيدة مصرايم
كان جبريل نفسه يميل إليها ؛
وراحيل لا تشبهها
الدودايم إلاّ من بعيد .

ويوسف لم يرتبط
بزليخا إلى الأبد ،
بل كان يمليخا ساهراً
لما وجدت هذه الصورة .

ثم مريم ، تاج العذارى ،
التى ولدت « الكلمة » .
وجزاء إيمانها الطاهر
لم تفقد شيئاً من قيمتها .

ثم عائشة ،
أحب الزوجات إلى النبى ،
المخلصة الشجاعة فى الضرّاء والبأساء ،
ولكنها لم تَخْلُ من المكر شأنها شأن الكثيرات .

ثم فاطمة ، المحبوبة
زوجة على ، ولا عيب فيها ،
مثل جسم من عسل ذهبى ،
ولها روح أطهر الملائكة .

هؤلاء ماجدات
فى أعلى دوائر الفردوس ؛
ولكن مئات مثلهن
سيكنّ لطيفات معك فى الفردوس .

وآسيا هى زوجة فرعون ، وملكة مصر ، وقد سميت هنا باسمها كما ورد فى الكتاب المقدس « آحيا » . — ودوداييم : أى ثمار اليبروح المستعملة فى تحضير أكسير الحب . — ويمليخا : — أحد فتية أهل الكهف السبعة . — « والكلمة » : أى عيسى عليه السلام ، بحسب ما ورد فى القرآن ، وفى إنجيل يوحنا (الفصل الأول) .

أما فى الصورة الثانية للقصيدة فنجد : (١) زليخا ، وقد عرفت لحبها العنيف ليوسف ، ثم زهدها وعزوفها ؛ (٢) مريم عليها السلام ؛ (٣) السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، زوجة الرسول وأم المؤمنين التى لم يتزوج بغيرها طول حياتها ؛ (٤) وفاطمة الزهراء ، ابنة الرسول ، وزوجة علىّ ، وأم الحسن والحسين ، رضى الله عنهم جميعاً .

وهنالك ثلاث مقطوعات ترجع إلى مرحلة أسبق لهذه القصيدة ، ر نظمت بين ٢٦ و ٢٩ يونيو سنة ١٨١٤ ، وهاك هى :

ولا بد أن المسيح يعلم هناك
فى جماعات أهل الجنة ؛
من ذا يستطيع أن يضمن
أن ما قاله حواريوه هو ما قصده حقاً .

والطبائع النسوية فى السماء
تتجول هناك فى المرج الفسيح
وهن فى المساء دائماً حوريات ،
وفى الصباح يصبحن عزراوات .

وكذلك أم الإله
التى ولدت ولداً
وعلى الرغم من عبث الشيطان
لم تفقد على س + ص شيئاً .

وهناك مسودّة لتعديل فى المقطوعة الثالثة هكذا :

ثم إن ملكة السماء
لأنها أنجبت ولداً
حُسِدت بوصفها عذراء ،

— ٤ —

السماح بالدخول

الحورية

أنا اليــوم حارسة
أمام باب الفردوس .
ولست أدرى جيداً ماذا أفعل ،
فأنت تبدولى مُريباً

هل أنت حقا شبيه
بالمسلمين الصادقين ؟
هل جهادك وفضائلك
هى التى بعثت بك إلى الجنة ؟

إنى كنت واحداً من هؤلاء الأبطال ،
فأرنى جِراحك
التى تنبئنى عن أفعال مجيدة ،
وحينئذ أسمح لك بالدخول .

الشاعر

دعيك من كل هذه المماحكات !
واسمحى لى بالدخول :
لأنى كنت رجلاً ،
ومعنى هذا أنى كنت محارباً .

أحدّى بصرك القوىّ !
وانفذى هنا أعماق قلبى ،
انظرى خساسة جِراح الحياة ،
انظرى شهوة جِراح الحب !

ومع ذلك فقد غنيت غناء الزمن الصادق :
فقلتُ إن حبيبتى أخلصت لى ،
وإن العالم مهما تدر به الأحوال ،
كان مليئاً بالحب وعرفان الجميل .

وبإتفاق مع الأفاضـــل
حملت حتى اليوم الذى حصلت فيه
على أن يلمع اسمى فى أجمل القلوب
ويتقد فى شعلات حب .

لا ، أنتَ لا تختارين غير جدير !
هات يدكِ حتى أستطيع كلّ يوم
على أناملك الرقيقة
أن أعد الأبديات .

نظمت فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٢٠ ، وطبعت لأول مرة سنة ١٨٢٦ فى الإعلان عن طبعة سنة ١٨٢٧ لمؤلفات جيتَه الكاملة .

وهذه القصيدة والقصائد الثلاث التالية ، ولكنها كتبت سنة ١٨٢٠ ، تؤلف مجموعاً من أربع قصائد ذات حوار ، وترتبط على نحوٍ ما بقصيدة « الهجرة » فى أول الديوان .

والشاعر هنا يطالب لنفسه فى الحق فى دخول الجنة مثل الأبطال الذين استشهدوا فى القتال فى سبيل الله ؛ فيجد لدى باب الجنة حورية ، يتعرف فيها زليخا التى أحبها على الأرض . وتردد الحورية أمام الشاعر ؛ وجواب الشاعر بفخر وتباه بأنه بطل فى معركة الحياة ، هذا هو موضوع القصيدة الأولى .

ومن المشكوك فيه أن يكون جيته — كما زعم البعض — قد تأثر بقصة للأروح لتوماس مور (سنة ١٨١٧) ، وما فيها من رومانتية عن « الجنة والپرى » .

ويرى ليمان Ggo (ج ٢٤ ص ٢٤١) أن البيتين ١٥ ، ١٦ تأثر فيهما جيته بسفر « أيوب » الفصل ٧ ، آية ١ ، ومواضع يونانية قديمة مثل ما ورد فى هيكاتيا ليوريپيدس (البيت رقم ٥٥٠) ؛ « ورسائل » سنكا (الرسالة رقم ٩٦) .

— ٥ —

رنين الذكرى

الحورية

هناك ، فى المكان

الذى كلمتك فيه أول مرة ،

كثيراً ما كنت أحرس الباب

بسبب الأوامر

هنالك سمعت زمزمة غريبة

كانت مزيجاً غريباً من الأصوات والمقاطع

تطالب بالدخـــول :

لكن لم يكن يُشاهَد أحد ،
واختفى كل شيء شيئاً فشيئاً ؛
لكن هذا رنّ تقريباً كما ترن أغانيك
ولا أزال أذكر ذلك من جديد .

الشاعر

أى حبيبتى الخالدة ! بأى لُطف
تتذكرين محبـــوبك !
كل الأنغام التى تتردد
فى الهواء وعلى طريقة الأرض ،
كلها تريد الصعود :
والكثير منها يختفى جملة ، هناك فى أسفل ؛
وغيرها بطيران الروح وسموّها
مثل فرس النبى المجنّح ،
تصاعد إلى السماء وتسمع منها صوت ناى ،
هناك فى الخارج ، أمام الباب
فإن سمعت رفيقاتك شيئاً مثل هذا .
فلينصتن إليه بعطف ،
وليسندن الصدى بحنان ومحبة ،
حتى يتردد أيضاً إلى أسفل ،
وليحرصن على كل حال
إنه حين يصل الشاعر إلى السماء
تفيـــد مواهبُه الجميعَ ؛
وسيكون هذا لصالح كلا العالمين .

وليهبنه جزاء حلواً ،
وأن يكن معه لطيفات مطاوعات ،
ويَدَعْنه يتم معهنّ :
إن الأخيار يسترضون بسهولة .

لكنك أنت من نصيبي ،
ولن أدعك تفارقين السلام الأبدى
ينبغى عليك ألا تتحرسى بعد اليوم ،
كلفنى بهذا الأمر أختاً لم تتزوج بعد .

أنشئت قبل ٧ يونيو سنة ١٨٢٠ ، وطبعت فى طبعة سنة ١٨٢٧ وهى استمرار مباشر للقصيدة السابقة رقم ٤ .

إن الحورية — الواقفة تحرس باب الجنة ، وقد سمعت الشاعر ينشد أشعاره — تتذكر منها صدى الأناشيد التى سمعتها من قبل . وهكذا تتعرف فى الشاعر حبيباً وأمين سرٍّ دائماً . وهذا الشاعر وقد أراد أن يضمن هذا الحب إلى الأبد ، يحرّم عليها أن تقوم بالحراسة بعد الآن !

— ٦ —

الشاعر

حبُّك ، وقبلاتك تأسرنى !
لا أريد أن أسألك عن أسرارك ؛
لكن قلْ لى : هل لم تتذوق يوماً
من لذات الحياة الأرضية ؛
لقد تخيلت مراراً ،
وأود أن أقسم على ذلك ، وأن أبرهن :
أنك كان اسمك يوماً زليخا .

الحورية

نحن خُلِقنا من العناصر :
من الماء والنار والتراب والهواء ،
مباشرةً ؛ وكل عطر أرضى
يتنافى تماماً مع ماهيتنا .
نحن لا ننزل أبداً إليكم ؛
نهتمُّ بكم أيمّا اهتمام .

فكما ترى ، حين وصل المؤمنون ،
الذين أوصى بهم النبيُّ خير وصية
واستقروا فى الجنة ،
كنا ، كما أراد ،
لطيفات ، فاتنات ؛
وبالجملة كنا كما لم يعرفنا الملائكة أنفسُهم .

لكن الأول ، والثانى ، والثالث
كلهم كانت لهم من قبلُ خليلة ؛
وبالمقارنة بنا ، كن مخلوقات مسكينات ،
لكنهم مع ذلك نظروا إلينا على أننا أقل منهن ؛
وكنا لطيفات ، مرحات ، مبتهجات ،
لكن المسلمين أرادوا النزول .

لكن مثل هذا السلوك
كان منافياً تماماً لمكانتنا السماوية ،
فتآمرنا ، وفى تمردنا ،

دبّرنا آلاف الخُطَط ؛
ولما مرّ النبي فى السموات
اقتفينا أثره ؛
وعند عودته ، ولم يكن يتوقع أمراً ،
توقف فرسه المجنَّح .

وهكذا كان فى وسطنا ! —
وبجدّ عزبٍ ، كما يليق بالأنبياء ،
أعطانا تعليماته ؛
لكننا كُنّا ساخطات كل السخط .
إذ للوصول إلى أغراضه
كان ينبغى علينا أن نوجّه كل شىء ؛
ومثلما فكرتم كان علينا أن نفكّر ،
لقد كان علينا أن نكون شبيهات بحبيباتكم

لكن كرامتنا ضاعت ،
وحكّت الفتيات آذانهن ،
لكننا قلنا لأنفسنا ، فى الحياة الآخرة
ينبغى التسليم بكل شىء
ومنذئذ كلٌ منكم يرى ما كان يراه ،
ويحدث له ما كان يحدث له ،
نحن الشقراوات ، نحن السمراوات ،
لنا أهواء ، ولنا تخيلات ،
وأحياناً تنتابنا نوبات جنون ،

وكلٌّ يتخيّلُ أنه فى بيته ؛
ونحن ، نحن فرحات راضيات
حتى إنكم لتحسبون أن الأمر هكذا .
أما أنت ، فحرّ المِزاج
وأنا أبدو لك فِرْدَوسية ؛
وأنت تتغزل فى نظراتى وقبلاتى ،
حتى لو لم أكن زليخا .
لكن لما كانت فاتنة كل الفتنة ،
فإنها لا شك كانت تشبهنى شبه الشعرة بالشعرة

الشاعر

أنت تبهريننى بنور سماوىّ ،
وسواء أكان إذن وهماً أو حقيقة ،
فهو يكفى ، وأنا أعجب بك قبلهن .
وحتى لا تقصِّر فى واجبها ،
وترضى رجلاً ألمانياً ،
وتتكلم الحورية بكلام منظوم مُقَفّى .

الحورية

نعم ، أنظم أنت أيضاً بغير كَلَل ،
حسبما تتدفق الأشعار من قلبك !
إننا معشر سكان الفردوس
نحب الأقوال والأفعال الصادرة عن عقل طاهر .
وأنت تعرف أن الحيوانات نفسها غير مستبعدة

إذا كشفت عن طاعة وإخلاص !
والكلمة الجافية لا تحزن الحورية ؛
إذ نحن نستشعر الكلمات الصادرة عن القلب ،
وما يتدفق من ينبوع حيّ
له الحق فى أن يجرى فى الفردوس .

أنشئت فى كارلذباد فى ١٠ مايو سنة ١٨٢٠ ، ونشرت لأول مرة فى طبعة سنة ١٨٢٧ من الديوان .

والحورية هنا قد تحولت إلى صورة زليخا ، تمجيداً لهذه الأخـيرة : والشاعر هنا يتصور أنه يرى فى الحورية صورة زليخا ؛ لكن الحورية تجيبه قائلة إنها خلقت من العناصر الأربعة مباشرة ، وإذا كانت تشبه زليخا فما ذلك إلا امتثالاً لإرادة النبى محمد الذى شاء لأبطال الإسلام أن لا يكونوا فى حاجة إلى الحنين إلى حبيباتهم على الأرض .

— ٧ —

الحورية

مرة أخرى ببنانك تلمسنى !
أتعرف كم من الدهور
أمضينا فى اتحاد وثيق ؟

الشاعر

كلا ! — ولا أريد أن أعرف . كلا !
أيتها الشهوة المتعددة المتجددة أبداً ،
أيتها القبلات الخالدة من عروس طاهرة ! —
إذا أشاعت فىّ كلُّ لحظةٍ قشعريرة حب ،
فلماذا أتساءل كم استمرت !

الحورية

أنت إذن غائب أحيانا ،
أنا أشاهد هذا جيداً ، غير قادر على القياس والعد .
إنك لم تفقد الشجاعة فى حضن الكون ،
وخاطرت بالولوج فى أعماق الألوهية ؛
والآن ابْقَ حاضراً إلى جوار حبيبتك !
أليس غِناؤك حاضراً ؟
بماذا كنت تتغنى فى الخارج ، أمام الباب ؟
وبماذا تتغنى اليوم ؟ — لا أريد الإلحاح عليك ،
غنِّنى قصائدك فى زليخا :
لأنك لن تفعل خيراً من هذا فى الفردوس .

— ٨ —

الحيوانات المحظوظة

كذلك بُشِّرت أربع حيوانات
بدخول الجنة ،
هناك يعيشون السنة الخالدة
مع الأولياء والأتقياء .
هنا حمار هو الذى يتقدّم ،
وقد جاء بخطى حثيثة :
لأن عيسى دخل مدينة الأنبياء
على ظهره .

وشبه هيّاب يأتى بعد ذلك ذئب
أمره النبى بهذا الأمر :
اترك هذه النعجة لهذا المسكين ،
وفى وسعك أن تأخذ نعجة من غنىّ .

ثم مع سيده الأمين
دائماً حفيّاً نشطاً أميناً ،
هاهو ذا الكلب ومعه بإخلاص
ينام نومُ أهل الكهف .

وأخيراً هاهى ذى هرّة أبى هريرة
تموء بالقرب من صاحبها وتلاطفه
لأن الحيوان الذى لاطفه النبى
يظلّ دائماً حيواناً مقدّساً .

نظمت هذه القصيدة فى ٢٢ فبراير سنة ١٨١٥ ، وتنسب زماناً وموضوعاً إلى المجموعة الأولى فى «كتاب الخلد» هذا فى طبعة سنة ١٨١٩ ، ولكنها فصلت عنها بوضع القصائد ٤ – ٧ .

والحيران الأول هو الحمار ، الذى دخل المسيح القدس راكباً عليه يوم أحد الشعانين .

والثانى هو الذئب . وجيته هنا يشير إلى حكاية الذئب الذى كلّم أهبان ابن أوس الأسلمى :

« قال ابن عبد البّر وغيره : كلم الذئب من الصحابة ثلاثة : رافع ابن عميرة ، وسلمة بن الأكوع ، وأهبان بن أوس الأسلمى – رضى الله

عنهم . قال : ولذلك تقول العرب : هو كذئب أهبان ، يتعجبون منه . وذلك أن أهبان بن أوس المذكور كان فى غنمٍ له . فشدّ الذئب على شاة منها فصاح به أهبان . فأقعى الذئب وقال : أتنزع منى رزقاً رزقنيه الله تعالى . فقال أهبان : ما سمعت ولا رأيت أعجب من هذا ! ذئب يتكلم ؟ ! فقال الذئب : أتعجب مِنْ هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذه النخلات — وأومأ بيده إلى المدينة — يُحَدِّث بما كان وبما يكون ، ويدعو الناس إلى الله وإلى عبادته ، وهم لا يجيبونه ؟ ! قال اهبان بن أوس: فجئت النبى — صلى الله عليه وسلم — وأخبرته بالقصة ، وأسلمتُ ؛ فقال لى : حَدِّثْ به الناس . . . واتفق مثل ذلك لرافع بن عميرة وسلمة بن الأكوع » (عن « حياة الحيوان » للدميرى ، طبع بولاق سنة ١٢٧٥ ، جـ ١ ص ٤٢٥) .

وكان جيته قد قرأ هذا الخبر عند شاردان (جـ ٧ ص ٤٤٥) لكن بصورة مقاربة لما ذكره جيته هنا .

والحيوان الثالث هو قطمير ، الكلب الباسط ذراعيه بوصيد الكهف وحارس السبعة النائمين ، بحسب قصة أهل الكهف .

والحيوان الرابع هو الهرّة (القط) ، وقد أخذ هذه الفكرة عن « جلستان » سعدى ، إذ ورد فيه ذكر هرة أبى هريرة . وورد فى تعليق أوليارس على هذا الموضع (ص ٥٢ تعليق ١) : « أبو هريرة رأى صاحب الهرة ... عاش فى زمن النبى وبعد وفاته ، وكان من صحابته المقربين » .

وأبو هريرة ، واختلف فى اسمه بين : عبد الرحمن بن صخر (النووى نشرة تستنفلد ص ٧٦٠) وعمير بن عامر (ابن دريد : « كتاب الاشتقاق » ص ٢٩٥) ؛ ولكنه عرف بلقب : أبى هريرة لأنه كان يحب القطط ويتلطف معها . وقد جاء المدينة سنة ٧ هجرية (٦٢٩ م) وأسلم وصحب النبى وكان من المقرّبين إليه . وكان فيه دعابة : « وكان يصلى خلف علىّ ،

ويأكل على سماط معاوية ، ويعتزل القتال ويقول : الصلاة خلف على أتم ، وسماط معاوية أدسم ، وترك القتال أسلم ! استعمله عمر على البحرين ، وروى عنه أكثر من ثمانمائة رجل » . وولى إمرة المدينة وكان أكثر الصحابة رواية إذ يقال إن المرويات عنه ٥٣٧٤ حديثاً نبوياً » كما قال الحافظ الذهبي (راجع « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلي ، جـ ١ ص ٦٣ — ٦٤ ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ) .

— ٩ —

أعلى والأعلى

إذا كنا نُعَلِّم هذه الأشياءَ
فلا يتضايقنّ منا أحدٌ :
وإذا أردت أن تعرف كيف يمكن تفسير هذا كله
فسأسأل أعمق عمائق ذاتك .

هنالك تعلم :
أن الإنسان الراضى عن حالته ،
سيرى ذاته وقد نجت
هناك وهاهنا .

وهذه الذات الغريزة ستحتاج
إلى كل أنواع الأطايب ؛
فالمسرّات التى استمتعت بها هنا ،
أزيدها أيضاً فى أبد الآبدين .

وهكذا البساتين اليانعة ،
والأزهار والثمار ، والفتيات الجملات

التى تعجب الكلَّ هاهنا ،
ستلذنا أيضاً وقد تجددت أرواحنا .

وهكذا ، كل أصدقائى
شباباً وشيوخا ، أود أن أجمعهم جميعاً ،
لنرطن باللغة الألمانية فى سرورٍ
بكلمات فردوسية .

لكن الناس يرهفون السمع الآن للهجات
التى بها يتمتّم الإنسان والملَك ،
وللنحـــو الغريب
الذى يُعشِّب الخشخاش والورود .

ثم إنه فى لغة النَّظَرات
يلذّ للناس أن يفيضوا بالبلاغة ،
ويحبون أن يرتفعوا إلى النشوة السماوية
بدون صوت ولا ضوضاء .

لكنّ الصوت والرنين يتحرران
من اللفظ الذى يُفهَم بنفسه ،
وعلى نحوٍ أشـــدّ حسما
يشعر صاحب النعيم أنه بغير نهاية .

فإذا كان مقدراً للحواس الخمس
أن تستعمل فى الجنة ،

فمن المؤكد أننى سأكتسب
حسًّا واحداً بدلاً منها .

ومنذ الآن أنفُذُ فى كل مكان
على نحوٍ أسهل خلال الدوائر الأزلية
التى تشيع فيها كلمة الله
على نحوٍ صافٍ حيّ .

وبغير عائق ، وفى سَبْحة مشبوبة
نصاعد دائماً دون أن نجد نهاية ،
حتى ينتهى بنا الأمر إلى أن نختنى ونزول
فى رؤية العشق الخالد .

أنشئت فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨١٨ .

يقول جوندولف (ص ٦٦٢) : « إن القصائد الثلاث الأخيرة فى هذا الكتاب لا توجد بينها وحدة باطنة . وقصيدة « أعلى والأعلى » تأسيس وتفسير للكتاب كله ، وتعبير عن حاجة النفس إلى تصوير الجنة والإشارة إلى الأفكار العلمية التى تصورها الصورة الحسية » .

وفيها إيضاح لهذه الفكرة التى عبر عنها جيته فى « التعليقات » : إن المبتذل اليومى إذا ما سمونا به أهابنا أجنحة ترتفع عليها درجة فدرجة ، حتى أعلى الذُّرَىٰ ، والإنسان يود أن يجد فى السماء إلى الأبد السعادات التى استمتع بها على الأرض وأن يرطن بكلمات فردوسية باللغة الألمانية » .

لكن الشاعر ينبهنا إلى أن الوجود السماوى سيكون أرفع من هذا وأسمى : فإنه لن يرطن فى الجنة بالألمانية ، بل سيتكلم لغة لا نحو فيها ولا إعراب ولاصَرْف ، وسيحل محل الحواس الخمس حس واحد أحد يغنيه عن

الخمس . وكلمة الله تنفذ خلال التعاريج وبها يرتفع المؤمن إلى أعلى عليِّين ، حتى يعاين الله ويتأمل الحب الخالد .

— ١٠ —

أهل الكهف

ستة من المقرّبين فى القصر
يهربون من غضَب الإمبراطور
الذى يريد أن يعبده الناس كإله ،
لكنه لا يكشف عن نفسه إلـهاً :
لأن بعوضـــة تمنعـــه
من الاستمتاع بأطايب المائدة .
وخدمه يطيّرون البعوضة بتحريك المروحة
لكنهم لا يستطيعون طردها .
إنها تطنّ حواليه ، وتلسعه ، وتحوِّم
وتعكّر كل المـــأدبة ،
ثم تعود من جـــديد
كرسول بعثه إله الحشرات الشرير .

فقال الخدَم : ماذا !
أتستطيع ذبابة صغيرة أن تضايق إلـهاً ؟
وهل يشرب الإله ويأكل
مثلنا نحن ؟ كلا ، إن الواحد
الذى خلق الشمس والقمر ،

ودَوَّر فوقنا قبة السماء ذات النجوم ،
هذا هو الله ، فلنهرب ! — والفتية
اللِّطاف ، ذوو الخفاف الخفيفة والزينة الرقيقة ،
آواهم راعٍ خبأهم
هم وهو معهم فى كهف صخرى .
ولم يشأ كلب الراعى أن يذهب ،
طردوه ، وانكسر حافره ؛
لكنه بقى ملتصقاً بسيّده
وانضم إلى الهارب المختبئ
وإلى أصحاب النوم .

أما الأمير الذى فرُّوا من وجهه
فقد أنكر فى عقابهم غاضباً ،
فأبعد السيف والنار ،
وبحجارة وجير
سدّ عليهم باب الكهف .

لكنهم ينامون باستمرار ،
والمَلَك الذى يرعاهم ،
يقول فى تقريره أمام عرش الله .
« لقد قَبّلتهم ذات اليمين وذات الشمال
حتى لا تضار أعضاؤهم الرقيقة
بما ينبعث من هذه الحُماة .
وفتحت شقوقاً فى الصخور

حتى تجدّد الشمس ؛ فى طلوعها وغروبها ؛
الألوان النضرة لخدودهم :
وهكذا يرقدون فى نعيم » .
والكلب الصغير ، مستنداً إلى قدميه الأماميتين وقد شُفيتا
ينام نوماً هادئاً .

وتمرّ الأعوام ، وتأتى السنون ،
وأخيراً يستيقظ الفِتْية ؛
والجدار ، وقد قرضه الزمان ،
تهدّم من القِدَم .
وقال يا مبليخوس الجميل
وهو خيرهم علماً وتربية ،
وقد شاهد الراعى خائفاً :
« سأعود ! وسآتيكم بطعام ،
وسأخاطر بحياتى وبقطعة الذهب ! »

وكانت مدينة أفسوس ، منذ سنوات عديدة ،
قد آمنت بمذهب النبى
عيسى ، عليه السلام .

وجرى مسرعاً ؛ لكن الباب ،
والأسوار والبرج وكل شىء كان قد تَغَيَّر .
كأنه أسرع إلى أقرب خبّاز
وطلب خبزاً وهو فى لهفة .

فصاح الخباز : « أيها الوغد !
هل وجدت ، أيها الفتى ، كنزاً ؟
إن هذه القطعة من الذهب تفضح أمرك ،
أعطنى ، قاسمنى إياه ونتفاهم ! »

وتنازعا . — وأمام المَلِك
عُرِضت القضية : والمَلِك هو الآخر
لا يريد إلاّ أن يقاسمه مثل الخباز .

هنالك تكشفت المعجزة
شيئاً فشيئاً بآلاف العلامات .
والفتى يستطيع أن يقرر حقه
فى القصر الذى بناه بنفسه .
لأن عموداً ، شُقّ ،
أفضى إلى كنوز نقشت فيها أسماء محدّدة .
وفى الحال تجمعت أسر
لتقدم دليلاً على قرابتها .
ولمع يامبليخوس كأول جدّ
فى زهرة شبابه
وراح يسمعهم يتحدثو
عن ابنه وأحفاده كما يتحدثون عن أجداد لهم ؛
وأحاطت به جماعة ذريته ،
وهم صفوة من كرام القوم ،
ليكرّموه ، وهو أكثرهم شباباً .

وجاءت علامة بعد أخرى

تتدافع لتتم البرهان ؛

بالنسبة إليه وإلى أصحابه

قد استعاد شخصيته .

ثم عاد إلى الكهف

يصحبه الشعب والمَلِك .

ومصطفى أسماء هذا

لا يلتفت إلى المَلِك ولا إلى الشعب :

لأن السبعة (وكانوا ثمانية إذا حسبنا الكلب)

قد انسحبوا من العالم منذ زمان طويل .

وقوة جبريل السرّية

حملتهم إلى الجنة

حسب مشيئة الله ،

وبدا الكهف مسدوداً .

بدأ جيته هذه القصيدة قبل ٢١ ديسمبر سنة ١٨١٤ فى يينا ، ثم استمر فى نظمها فى ڤيمار فى ٢٩ ديسمبر ، ثم أتمها فى ڤيزبادن قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

وقد استمد جيته مادتها من ج . ج . رتنش : « قصة النائمين السبعة » كما نقلها يوسف فون همر فى «كنوز الشرق» (ج ٣ ص ٣٤٧ وما يتلوها) وقد اجتمع فيها روايتان : نمرود الذى عذبه البعوض (البيت رقم ٥) ، وأهل الكهف الذين اضطهدهم القيصر دقيوس سنة ٢٥٠ بعد الميلاد (البيت رقم ٢٢ ثم الأبيات ٢٩ وما يتلوه) . وقد أوجز جيته القصة وتقع فى ٣٥

صفحة من القطع الكبير (الفوليو) فى هذه القصيدة المؤلفة من ٩٨ بيتاً.
وقد قام نقولا تومياروف Nic. Tumparoff بمقارنة بين الأسطورة وقصيدة جيته فى بحث أودعه بكتابه : « جيته والأسطورة » ص ١٥٣ وما يتلوها (برلين سنة ١٩١٠) .

ومن الواضح أيضاً أن جيته رجع فى قصة أهل الكهف إلى سورة الكهف فى القرآن الكريم : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عَجَبا * إذ أوَى الفتية إلى الكهف فقالوا : رَبَّنا آتنا من لَدُنْكَ رَحمةً وهيِّئْ لنا من أمرنا رَشَدا * فضرَبنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلَم أىُّ الحزبين أحْصَى لمـا لبثوا أمَدا * نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق : إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هُدًى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلـهاً ، لقد قلنا إذاً شططاً * هؤلاء قومنا اتخذوا مِنْ دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بَيِّن فمَنْ أظْلَمُ ممَّن افترى على الله كذباً * وإذْ اعتزلتموهم وما يعبدون إلاّ الله فأوُوا إلى الكهف يَنشُرْ لكم ربكم من رحمته ويهيِّئْ لكم من أمركم مِرْفقا * وتَرَى الشمسَ إذا طلعت تزاوَرُ عن كهفهم ذاتَ اليمين ، وإذا غربت تَقرِضُهم ذاتَ الشمال ، وهم فى فجوةٍ منه ؛ ذلك مِنْ آيات الله : مَنْ يهدِ اللهُ فهو المهتدى ، ومن يُضْلِل فلن تجد له ولياً مرشداً * وتحسَبُهم أيقاظاً وهم رُقُودٌ ، ونُقَلِّبهم ذات اليمين وذات الشِّمال ، وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد ، لو اطلَعتَ عليهم لولّيت منهم فراراً ، ولمُلِئت منهم رُعباً * وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم : قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعضَ يوم . قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ولا يُشعِرَنّ بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى مِلَّتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا *

وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازَعون بينهم أمرهم فقالوا : ابنوا عليهم بُنياناً — ربهم أعلمُ بهم . قال الذين غلَبوا على أمرهم لنتخذَنّ عليهم مسجدا * سيقولون : ثلاثةٌ رابعهم كلبهم ، ويقولون : خمسةٌ سادسُهم كلبهم ، رجماً بالغيب ، ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم . قل : ربى أعلمُ بعِدّتهم ، ما يَعلَمهم إلا قليل ، فلا تُمارِ فيهم إلاّ مِراء ظاهراً ، ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً . . . ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً » .

أما قصة النمرود وتعذيب الله له بالبعوض وكيف دخلت بعوضة فى منخره حتى وصلت إلى دماغه ، فتجدها فى « عرائس المجالس » للثعلبي ص ٨٥ (طبعة الحلبي بالقاهرة) .

— ١١ —

طاب مساؤكم !

والآن ، يا أغاريدى العزيزة ، استريحى

فى قلب شعبى !

وليكلأ جبريل بعنايته

أعضاء الشاعر المجهد

وينشر عليه غيمة يفوح منها المِسْك .

حتى يستطيع ، نشيطاً معافى ،

مسروراً كالعادة ومعاوناً عن طيب خاطر

— أن يشق جدران الصخور

ليتجول فى سرور

مع أبطال كل العصور
خلال باسطات الفردوس ،
حيث الجمال المتجدد باستمرار
ينمو فى كل ناحية
لتستمع به الجموع :
نعم ، والكُلَيب الصغير الأمين
سيحق له أن يرافق سيّده .

نظمت فى آخر ديسمبر سنة ١٨١٤ كخاتمة « للديوان الألمانى » .
وهى ارتباط وثيق بالقصيدة السابقة وقد مثل نفسه بالمصطفى بين أهل الكهف يوذ أن يعود فيما بعد ، وأن يعالج سائر أبطال الإنسانية لتنعم هذه بأفعال أبطالها .

أشعار نشرت بعد وفاة جيته

وتنتسب إلى « الديوان الشرقى »

خلّف جيته قصائد ومقطعات تدخل فى « الديوان الشرقى » ، وقد استخرجها اكرمن وريمر ونشراها سنة ١٨٣٦ فى مختلف كتب « الديوان الشرقى » فى الطبعة المعروفة بطبعة حجم الربُع Juartausgable . ثم نشرت بعد ذلك سنة ١٨٤٢ فى المجلد السادس عشر مما خلّفه جيته ولم ينشره إبان حياته . وقد رتبها بورداخ فى نشرته للديوان فى المجلدين السادس والسابع من مجموع مؤلفات جيته الذى نشر بتكليف من الدوقة الكبيرة صوفى فون ساكسن فى ڤيمار سنة ١٨٨٨ . وهذا الترتيب هو الذى راعيناه هنا كما فعل كثيراً من ناشرى « الديوان الشرقى » وعلى رأسهم رودلف رشتر .

ووفقاً لبحث بورداخ فى كيفية ترتيبه للقصائد ، تنتسب القصائد ١ ــ ٥ إلى كتاب « المغنّى » وكتاب « حافظ » ؛ والقصائد ٦ ــ ٧ تنتسب إلى « كتاب التفكير » ؛ والقصائد ٨ ــ ١١ إلى كتاب « الحزن » ؛ والقصائد ١٢ ــ ٢٦ إلى كتاب « العشق » وكتاب « زليخان » ؛ والقصائد ٢٧ ــ ٣٠ إلى كتاب « الساقى » ؛ والقصيدة ٣١ إلى كتاب « الأمثال » .

ــ ١ ــ

الغرب والشرق على السواء
يقدمان إليك أشياء طاهرة للتذوق .
فدع الأهواء ، ودع القشرة :

واجلس فى المأدبة الحافلة :
وما ينبغى لك ، ولا عابراً ،
أن تنأى بجانبك عن هذا الطعام .

نظمت فى مارس سنة ١٨٢٦ ، وفكر فيها فى البداية أن تكون مدخلاً ؛ وطبعت لأول مرة فى طبعة فيمار (١٨٨٧ — ١٩١٨ فى ٥٥ مجلداً) ج ٦ ص ٢٧٥ .

— ٢ —

من يعرفْ نفسه والآخرين
يعترف هنا أيضاً أن :
الشرق والغرب
لا يمكن بعدُ أن يفترقا .

وبودى أن أهدهد نفسى
سعيداً بين هذين العالمين ؛
وإذن فالتحرك بين الشرق والغرب
هو الملك الأفضل .

أنشئت فى مارس ١٨٢٦ ، وطبعت لأول مرة سنة ١٨٣٣ فى المجلد السابع مما نشر بعد وفاة جيته .

— ٣ —

إنى أسمعك فى أغانيك
أىْ حافظ ، تمتدح الشعراء ؛

انظر ، ها هو جوابى لك :

ماجِدٌ من رفعه الشكران !

نظمت فى سنة ١٨١٤ ، ولكنها طبعت لأول مرة فى طبعة الرّبع ضمن كتاب « الحكمة » .

— ٤ —

كان علىّ أن أمرّ ذات يوم بإرفورت

ولقد طالما جست خلالها منذ زمان ،

وبدا لى أنه بعد كل هذه السنين

استُقْبِلت بالترحاب والتقدير .

وحين كانت النسوة العجائز تحييننى

أنا العجوز ، من داخل حوانيتهن ،

كان يخيّل إلىّ أننى أشاهد من جديد زمن الشباب

الذى كنا جميعاً نشيع فيه نفحات الجمال .

إحداهن كانت بنت خباز

وإلى جوارها إسكافية ،

إحداهما لم تكن أبداً كالبومة ،

والأخرى كانت تعرف الحياة جيداً .

وهكذا نريد فى كل وقت ،

أن ننافس حافظاً ،

فنجد لذة فى الحاضر ،

ونستمتع فى الوقت نفسه بالماضى .

نظمها فى ٢٥ يوليوسنة ١٨١٤ ، بمناسبة مروره بارفورت إبان رحلة جيته فى وادى الرين .

وهو هنا يذكر الساعات الجميلة التى قضاها فى هذه المدينة فى قصر معادن والبرج .

وفى البيت التاسع وما بعده يحيي زوجة اسكافى كانت مشهورة بجمالها فى ذلك الزمان ، وهى السيدة فوجل ، ويحيي بنت خباز ، لابد أنه كان ينطبق عليها هذا البيت الوارد فى مسرحية « هاملت » : « يقال إن البومة كانت بنت خباز » .

— ٥ —

أىْ حافظ ! مساواتك
أىُّ جنون !
على أمواج البحر المائج
تتابع السفينة المسير .
وتشعر بأن شراعها ينتفخ .
فتمخر فخوراً جسوراً ؛
فإن حطمها البحر المحيط
سبحت ، خشبةٌ متعفنة ،
فى أغانيك الرشيقة السريعة
يتماوج سيلُك الرطيب .
والبحر يغلى بأمواج من نار ؛
والحريق يبتلعنى ؛

لكنى أحسّ بشائعة كبرياء
تشيع فى نفسى الجرأة .
وأنا أيضاً ، فى بلاد يغمرها النور
عشتُ وأحببت ؛

نظمت فى ٢٢ ديسمبر ١٨١٥ على نظام الغزليات .

يتردد حافظ فى أن يساوى نفسه بحافظ : ذلك أن حافظ يشبه السفينة الفخمة ، بينما جيته مثل لوح تتقاذفه الأمواج ؛ وأغانى حافظ تنتشر برقة و تتواثب كأمواج من نار ، أما جيته فقد ابتلعه الحريق .

ومع ذلك ففى وسعه أن ينافس الشاعر الشرقى ، حافظاً الشيرازى ، لأنه أى جيته عاش فى بلاد يضيؤها نور الشمس (والإشارة هنا إما إلى رحلة جيته إلى إيطاليا ، حيث الشمس والليمون ، أو إلى زيارته لوادى الرين الضحيان) .

قارن ديوان حافظ ترجمة يوسف فون همّر ج ١ ص ٨٧ ، ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٩٥ .

— ٦ —

سافرت فى عديد البلاد
وشاهدت جموع الناس فى كل مكان
وتأملت مليًّا فى مختلف الأركان
وكل سنبلة أعطتنى حَبًّا .
ولم أشهد مدينة مباركة ،
حورية بعد حورية ، وعروساً بعد عروس

ربما تكون قد نظمت بعد سنة ١٨١٦ ؛

وقد نظم فيها ما كتبه مرزا أبى الحسن خان ، سفير إيران فى بطرسبرج ، وقد أورده جيته فى « التعليقات » ، فراجعه هناك .

— ٧ —

لِتَزْدَدْ الدارُ روعة
كامتلاكِ أبدى ،
وليحرص الابن على الشرف
كما حرص الأبُ على المجد

نظمت فى الفترة ١٨١٥ — ١٨٢١ ، وطبعتَ لأول مرة فى الطبعة التى بحجم الربع فى باب « كتاب الحكمة » .

— ٨ —

إلى صداقة الألمان
لستُ فى حاجة ،
إن أبشع العداوات
فى خدمتها الأدب والتهذيب ؛
وكلما أظهروا التلطف
ازداد تهديدى ،
وما اعترانى الضيق
إذا كان الفجر والأصيل عَسكريْن ؛
بل تركت المياه تجرى
إلى السرور أو العذاب .

لكننى على كل حال
بقيت مالكاً زمام نفسى :
الكل أرادوا أن ينعموا
بما أتيتهم به الساعة ؛
ولم ألمهم على ذلك ،
فلكلٍّ متاعبه .
إنهم يبعثون إلىّ جميعاً بتحياتهم
ويكرهوننى كراهية الموت .

نظمت فى ١٥ مارس سنة ١٨١٨ فى كامسدروف قرب ڤينا ، وطبعت لأول مرة فى طبعة الرُّبع .

وفيها هجوم عنيف على نفاق الألمان ، إذ يتظاهرون بالمودة ويخفون كراهية زرقاء .

— ٩ —

لقد حاولوا منذ خمسين سنة كاملة
أن يزيّفونى ، ويبدّلونى ، ويحقّرونى ؛
ومع ذلك يبدولى أنك تستطيع أن تعرف
ماذا تساوى فى ميدان وطنك .
لقد تحامقت فى زمانك مع المتوحشين
عصابات الشباب العباقرة العفاريت
وسنةً بعد سنة انضمت برفق
إلى العقلاء والرِّفاق رِفقة إلهية .

لا يعرف تاريخ نظمها بالدقة ، وطبعت لأول مرة فى طبعة الربع ؛

حاول الناس فى حياة جيته أن يشوّهوا صورته ويزيفوها ويحقدوها ، طوال خمسين سنة . لكن هـــذا لم يفلّ من عزمه . ولم يقلل من تقديره لنفسه ، ولم يشع اليأس فى نشاطه ، بل ظل واثقاً بقيمته ، يتابع طريقه غير حافل بما تلوكه ألسنة الحاسدين والحاقدين .

ولقد تطور من جنون الشباب العبقرى إلى حكمة الكهولة والشيخوخة الهادئة الوديعة التى ترفرف عليها ظلال الألوهية .

— ١٠ —

الاستمتاع فى التسول الكريه
هذا شأن ذرية ابراهام المقدسة ؛
حين أشهدهم يتاجرون فى السوق
أجدهم يشترون برخص ، ويشترون الجيد .

لا يعرف تاريخ نظمها بالدقة ، وطبعت لأول مرة فى طبعة الربع .

— ١١ —

من الحزن فى أيام الحروب
أن يقتل الناس بعضهم بعضاً ،
وفى وقت السلام نفس البلاء !
النساء يَغْتَلْنك بألسنتهنّ .

نظمت قبل ٢٦ يناير سنة ١٨١٥ ، وطبعت لأول مرة فى فيمار ج ٦ ص ٢٨٥ .

— ١٢ —

ظِلٌ أسود يصحب غبار الحبيبة ؛

جعلتُ من نفسى غباراً ، لكن الظل مر علىّ دون أن يتوقف .

لا يعرف، تاريخ نظمها ، وطبعت لأول مرة فى الربع

مصدر هذه القطعة مثنوىّ بالفارسية للسلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) . ويلوح أن العاشق تحول إلى غبار حتى يقع عليه ظل المحبوبة التى يصحبها الغبار ؛ لكن الظل مرّ من فوقه دون أن يتحقق الوصال المنشود .

— ١٣ —

ألا أستطيع أن أستعمل رمزاً

على هواى ،

ما دام الله ضرب مثَل البعوضة

للرمز على الحياة ؟

ألا أستطيع أن أستعمل رمزاً

على هواى ،

لأن الله ، فى عيون محبوبتى ،

يتجلى هو نفسه رمزاً ؟

لا يعرف تاريخ نظمها بالدقة ، وطبعت لأول مرة فى طبعة الربع .

يطالب جيته بأن يكون له الحق فى ضرب الأمثال واستعمال الرموز ، فالله نفسه ضرب مثلاً بعوضة فما فوقها ؛ كما ورد فى القرآن . والله أيضاً متجلى فى عين الحبيبة . وقد تأثر فيها جيته بالقرآن أولاً فى الآية الكريمة : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما، بعوضةً فما فوقها (البقرة : ٢٦) » .

ثم يقول سعدى فى مقدمة « جلستان » : أيها البلبل تعلم حب الله من الفراشة التى تحوّم حول النور ، ثم تسكت وفيه تحترق ؛ وكذلك حافظ .

— ١٤ —

أنت رائعة كالمِسْك :

فأينما تكونى ، يلحظك الناس .

طبعت لأول مرة فى طبعة الربع ضمن كتاب زليخا . وقد تأثر فيها صورة شائعة فى الشعر الشرقى ، أورد لها مثالاً يوسف فون همّر « فى كنوز الشرق » (جـ ٣ ص ٣٠٢) : « الحب كالمسك لا يُكْتَم أبداً ؛ وحتى لو غطى بألف غطاء ، فإن رائحة المسك تفضحه » .

— ١٥ —

قُلْ لى ! فى أى قِران للكواكب

يقع اليوم

الذى لا يطير فيه قلبي من جديد

مع أن قلبي لى ؟

وإذا طار أمكن اللحاق به

فيكون قريباً منى كل القرب ؟

على الوسادة ، الرقيقة الوثيرة

التى عليها قلبي يرقد فوق قلبها .

نظمت فى ٨ يناير سنة ١٨١٥ .

ومعناها أنه فى الوصال والاتحاد الغرامى ففيه يجد الروح رضاها الكامل .

— ١٦ —

أيها الطفل الرقيق ، هذه الأسماط من اللآلئ
بقدر ما أستطيع ،
أود أن أعطيها لك عن طيب نفس
كذبالة لمصباح الحب .

تعال ، ولك علامة
معلقة فى عقدك ، هى من بين كل الأبركساس
قريناتها ،
أقبحها فى نظرى .

وهذا الجنون الحديث كل الحداثة
ينبغى عليك أن تأتينى به إلى شيراز !
هل يجب علىّ إذن أن أتغنى
بهذه الخشبة الجاسية المتقاطعة على الخشبة ؟

لقد اختارت لها جدًّا
أبراهام سيد النجوم :
وموسى ، فى تيه الصحراء
صار عظيماً بفضل الواحد الأحَد .

كذلك داود ، بعد أن ارتكب العديد من المعاصى
بل والعديد من الجرائم ،
استطاع أن ينجى نفسه بأن يقول :
لقد عبدت الواحد الأحَد .

ويسوع كان طاهر الشعور ، وفى الهدوء
لم يفكر إلاّ فى الله الواحد الأحد ؛
فمن جعل منه إلها
فقد أساء إليه وخالف إرادته المقدسة .

ولهذا ظهر الحق لمحمد
وبه نال الفلاح والنجاح ؛
فبفكرة الله الواحد الأحد
ساد الدنيا بأسرها .

لكنك إذا اقتضيت منى ، رغم هذا ،
أن أمجّد هذا الشيء الفظيع
فسأزعم ، اعتذارا عن ذلك ،
أنك لست وحدك التى تنتصرين

ومع ذلك وحدك ! — كما أن كثيرا من نساء
سليمان سُقْنه
إلى عبادة الآلهة بالتطلع إليها ،
الآلهة التى كانت تعبدها هذه المجنونات —

قرن إيزيس ، وشِدْق أنوبيس
قدّمن كليهما إلى كبرياء هذا اليهودى ،
وأنت تريدين أن تقدمى إلىّ على أنها إله
هذه الصورة البائسة للمصلوب على الخشب !

ولا أريد أن أبدو
خيراً مما جرى لى فعلاً :
لقد كفر سليمان بربه
وأنا أيضاً كفرت بربى .

واسمحى لى أن أنسى
فى هذه القبلة تأنيب المرتد :
لأن أى شىء كان
سيصير طِلّسْماً على قلبك .

أنشئت هذه القصيدة فى الفترة من ١ إلى ١٥ مارس ١٨١٥ ، وختمت فى ٢١ يونيو سنة ١٨١٥ فى ڤيزبادن . وقرأها جيته لبواسريه فى ٨ أغسطس سنة ١٨١٥ الذى وجدها مرة قاسية جداً . وطبعت لأول مرة فى طبعة الربُع .

لقد تضايق الشاعر لأن محبوبته ، وقد أهدى إليها عقداً من اللؤلؤ ، قد علقت فيه صليبا لتبيّن عبادتها للمسيح كإله . وجيته يقول لها إن أسلاف المسيحية كلهم إنما آمنوا بإله واحد أحد : إبرهيم الذى تجلت له عظمة الله وهو يتأمل السماء بما فيها من نجوم لا نهاية لها (راجع سفر التكوين ، فصل ١٥ ، آية ٥ — ٦) ؛ ثم موسى التيه على جبل الطور ؛ ثم المسيح نفسه ؛ ثم محمد (صلعم) . وقد تأثر جيته هنا بما ورد فى القرآن الكريم من آيات تؤكد أن « الله أحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، وتلك التى تؤكد أن المسيح رسول الله ليس إلا : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » (المائدة : ٧١ ، ٧٢) ؛ « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » (المائدة : ٧٥) ؛

« لن يستنكف أن يكون عبداً لله » (النساء : ١٧٢) ، « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم : خلقه من تراب » (آل عمران : ٥٩) ؛ « وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم : أأنت قلتَ للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » (المائدة : ١١٦) . وجيته إذن كان يتصور المسيح كما تصوره الإسلام .

لكنه فى سبيل الحب لا يجد حرجاً وقد رأى الصليب معلقا فى جيد الحبيبة أن يبدى أنه على استعداد للإقرار بألوهية المسيح ، وإن كان فى ذلك كفران بالإله الحق الواحد الأحد ، وأن ينظر إلى الصليب الذى رأى فيه ابركساس ، على أنه طلسم . ويغرى الشاعرُ نفسَه عن هذا الموقف الغريب بما وقع لسليمان الذى اضطر إلى الإيمان بإلهين مصريين : ايزيس وأنوبيس ، إرضاء لزوجاته المصريات ، وايزيس تصوّر برأس بقرة ، وأنوبيس برأس ابن آوى .

وربما كان الباعث على هذه القصيدة تجربة وقعت لجيته مع مريانة فون ڤليمر ، وكانت كاثوليكية تحمل صليبا على صدرها .

ومن الممكن أيضاً أن يكون جيته قد استلهم فى هذه القصيدة قصة « خسرو وشيرين » ، وتُصوِّر الحب بين كسرى الثانى ملك الفرس وشيرين الفتاة النصرانية الجميلة .

وبناء على نصيحة بواسريه استبعد جيته هذه القصيدة من طبعات « الديوان الشرقى » أثناء حياته ، نظراً لما فيها من فكرة عن المسيح لا بد مستؤذى شعور المسيحيين .

— ١٧ —

ذرنى أذرف العبرات ، محاطاً بالليل
فى الفلوات غير ذات الحدود .
الإبل تستريح ، وكذلك أصحابها ،
والأرينى يسهر ويحسب فى صمت ،
وأنا ، بجواره ، أحسب الأميال
التى تفصلنى . عن زليخا ؛ وأكرّر
المنعرجات الثقيلة التى تطيل فى الطريق .
ذرنى أذرف العبرات ! فليس فى هذا عار .
فالرجال البكاؤون أخيار .
ألم يَبكِ آخيل على حبيبته بريسيس !
واكسركسس بكى على الناجين من جيشه ؛
وعلى خليله الذى قتله بيده
بكى الاسكندر .
ذرنى أذرف العبرات ! فإن الدموع تُحيي التراب .
وهاهو ذا يخضوضر .

طبعت لأول مرة فى طبعة الرُّبع ضمن «كتاب زليخا» .

وآخيل (اخيلوس) بكى على بريسيس التى اختطفها منه أجاممنون («الإلياذة» ، والكتاب الأول ، البيت ٣٤٨ وما يتلوه) . واكسركسس الأول Xerxes (خامس ملوك الفرس ، من سنة ٤٨٥ إلى ٤٧٢ قبل الميلاد ، وهو ابن دارا وقد خلفه فى الملك ، وحارب اليونان ، وشرع فى الحرب

الميدية الثانية ، فعبأ جيشاً هائلا بلغت عدته ثلاثة ملايين رجل فيما يقال ، ودوّخ آسيا الصغرى ، وأحرق آثينا ، ثم ثيبا ، لكنه رأى أسطوله يباد فى معركة سلامين سنة ٤٨٠ ق . م) نقول إن اكسركيس بكى فى أبيدوس حينما استعرض جيشه الهائل فى زحفه على بلاد اليونان وتأمل وأنكر أنه لن يبقى منهم أحد بعد مائة عام (تاريخ هيرودوت ، المقابة السابعة ، ٤٥ وما يتلوها) . والإسكندر الأكبر بكى ، لأنه فى سورة غضبه وسُكْره قتل صفيَّه وحبيبه كليتوس .

— ١٨ —

ولماذا لا يرسل
قائد الفرسان
رُسُلَه
من يوم إلى يوم ؟
إن لديه خيلاء
ويعرف الكتابة .

إنه يكتب بخط تعليق
ويكتب أيضاً بخط نسخى
أنيق جميل
على أوراق من حرير .
وخطه يقوم عندى
مقام شخصه .

لمريضة لا تريد
لا تريد الشفاء

من آلامها العذبة ،
وهى التى أنباء
حبيبها
تشفيها بجعلها مريضة .

ربما كان نظمها فى سنة ١٨١٦ ؛ وطبعت لأول مرة فى طبعة الربع .

وربما كان الباعث على نظمها رسالة رمزية لمريانة فون ڤليمر شكت فيها من كونها بقيت مدة طويلة لا تتلقى أنباء من حبيبها . وزوجها ڤليمر ، وقد أقلقته مخاوف زوجته التى انزعجت من طول صمت الشاعر ، التمس من جيته أن يكتب إلى مريانة . كما أن مريانة أشارت إلى نفسها فى الرسالة بهذه الأبيات من حافظ الشيرازى (ج ١ ص ٤٠٤ س ١٩ — ٢٠ ، وص ٢٨١ س ٢٣ — ٢٤) : « منذ زمان طويل وحبيبي لم يبعث إلىّ برسالة ؛ ومنذ زمان طويل لم يرسل إلىّ برسالة ولا كلمة ولا تحية . ما أسعد المريض الذى يتلقى دائماً أنباء عن حبيبه » .

كذلك استلهم جيته هذه الأبيات لحافظ الشيرازى والتى وردت بعد المواضع التى أشارت إليها مريانة فى رسالتها مباشرة ؛ « كتبتُ مائة مرة ، لكن قائد الفرسان لم يبعث إلىّ برسول ولا بتحية » .

والخط النسخي معروف ؛ أما الخط التعليق فهو الذى يستعمله الفُرس عادة . وكان جيته يقرأ بمساعدة القاموس النصوص العربية ويفهمها ؛ لكنه لم يكن يعرف قراءة النصوص الفارسية . راجع : كروجر ڤستند : « جيته وفارس » ، فى « حوليات جيته GgB ج ٢٦ ص ٢٧٠ ؛ وكذلك راجع ڤرنكه : « جيته والمخطوطات الشرقية فى مكتبة ڤيمار » ، بحث فى « نحو مكتبة دوقية ڤيمار ١٩٠٨ — ١٩١٠ » ص كب وما يتلوها (ڤيمار سنة ١٩١١) .

— ١٩ —

الحبيبة العاشقة

لو كتب بخط نسخى

لعبّر عن إخلاصه ؛

ولو كتب بخط تعليق

فهذا جميل جداً ؛

— بهذه الطريقة أو تلك —

يكفى ! إنه يحب .

يحتمل أن تكون كتبت فى السنوات ١٨١٦ — ١٨١٩ ، وقد نشرت فى طبعة الربع ؛ وترتبط بالقصيدة السابقة كل الارتباط :

— ٢٠ —

لم أعُدْ أكتب على أوراق الحرير

قوافى منتظمة ؛

ولم أعد أحيطها

بإطارات مذهّبة ؛

إنها ترسم فى التراب الموّار ،

وتمحوها الرياح ، ولكن قوتها تبقى

حتى مركز الأرض

راسخة فى الأرض بالسحر .

ويمرّ الرحالة ،

العاشق . ولو داس

هذا المكان ، لارتعدت
كل فرائصه .
« هنا ، قبلى ، أحبّ عاشق .
هل كان هو « المجنون » الرقيق ؟
أو فرهاد القوىّ ؟ أو جميل الخالد ؟
أو واحداً من أولئك الآلاف
من البائسين السعدا ؟
لقد أحبّ ! وأنا مثله أحب ،
وأستشعر هذا ! »
لكنك أنت ، أى زايخا ، تستريحين
على الوسادة الناعمة الوثيرة
التى أعددتها وزينتها من أجلك ،
وأنت أيضاً تشعرين بفرائصك ترتعد .
« إنه هو الذى يدعونى ، حاتم .
وأنا أيضاً أناديك يا حاتم ، يا حاتم ! »

ربما يكون تاريخ نظمها فى أغسطس سنة ١٨٢٨ ، وطبعت لأول مرة فى « كتاب زليخا » .

وعلى الرغم من أن زمان الرسائل الغرامية الرمزية قد ولّى بالنسبة إلى حاتم وزليخا ، فإن قوة الحب لا تزال عرمة عنيفة يستشفها الشاعر بعد طول الزمان ، وزليخا أيضاً لا تزال تستشعرها .

— ٢١ —

الهدهد مع سعف النخيل الصغير ،
هنا فى هذا الركن ،
رابض ، يرقب ، ما أجمله !
هو دائماً فى سَهَر .

هذه القصائد الست فى الهدهد ، من ٢١ إلى ٢٦ ، كانت فى الأصل ملحقة برسائل جيته إلى مريانة ، فيما عدا رقم ٢٢ .

والأولى منها ، رقم ٢٢١ قصيدة شكر أنشأها جيته فى ديسمبر سنة ١٨١٩ يشكر بها مريانة على الهدية التى بعثت بها إليه فى عيد ميلاده ، والهدية كانت عصا للنزهة مصنوعة من خشب النخيل ، ولها مقبض مزين بهدهد ، ولا تزال العصا موجودة إلى جانب منضدة كتابة جيته .

— ٢٢ —

قال الهدهد : بنظرة واحدة
أفضت إلىّ بكل شىء ،
وقد أفدت من سعادتك
كما كنت أفيد دائماً .
لأنك تحب ! — فى ليالى الفراق
انظر ، ماذا كُتب فى النجوم :
حبك ، وقد انضم إلى القوى الخالدة
يبقى حافلا بالمجد ::

طبعت لأول مرة فى طبعة الربيع ضمن « كتاب العشق » .

ويرى هك Heck أن الإشارة إلى « بنظرة واحدة » إنما هي إلى الرسالة المرافقة لهدية ماريانه إلى جيته في عيد ميلاده .

– ٢٣ –

الهدهد رسول يحمل دعوة

قديماً بلغتك أغنيتي ،
والآن تود أن تذهب إليك بعيداً .
إني أغني طوال اليوم من الفجر حتى المساء ،
وهم يقولون : غنِّ غناءً أجمل ! وأنا أسمع هذا راضياً ؛
وإذا جاءت ورقة بين الحين والحين ،
تحمل تحية ، فلا تنزعج .
لكن هل بغداد بعيدة كل هذا البعد ؟
ألا تريد إذن أن تستمع إليَّ بعدُ ،

أنشئت في سبتمبر – ديسمبر سنة ١٨١٩ ، وطبعت لأول مرة في نشرة كريزناخ للرسائل بين جيته ومريانة فون ڤليمير (الطبعة الثالثة ، اشتوتجرب سنة ١٨٧٨) ، ص ١٣٤ .

والقصيدة نظمها جيته على لسان مريانة كدعوة منها لجيته لزيارة فرنكفورت .

– ٢٤ –

الهدهد يفسر موضعا مُلغزاً

تجاسر المصوِّر على رسم صُوَرٍ إلهية ،
وَعَرض رائعته

لكن ما يراه مستحيلا هو :

أن يصف للعاشق معشوقته .

فليجرؤ أيضاً ويحاول ! إن حُلماً يتولى الأمر

وخيال الظل سيكون مواتياً .

أنشئت فى ديسمبر سنة ١٨١٩ .

— ٢٥ —

الهدهد يلتمس هدية لرأس السنة

على شكل لغز

أداة ، ضرورية كل يوم ،

يحتاج الرجال إليها نادراً ، والنساء غالباً ،

أداة مستعدة باستمرار للخدمة بإخلاص ،

متعددة فى الوحدة ، حادّة مسنونة .

يكرر فعلها مراراً بسرور ،

ملساء من الخارج ، بينما نحن نتألم باطناً ،

لكن الاستعمال والزينة يجددان فينا المتعة ،

لو أن الحبّ بارك عليه ببركة حقة .

فى ديسمبر سنة ١٨١٩ التمس جيته من مريانة بواسطة رسول الغرام بينهما أن نعطيه مشطاً ، تباركه هى بخصلة من شعرها .

وطبعت لأول مرة فى نشرة كريزنآخ لمراســلات جيته ومريانة ص ١٣٥ . لكن سبق مع ذلك نشرها فى ١٨٢٧ مع خلاف بسيط فى رواية البيت الأخير فى طبعة سنة ١٨٢٧ لمجموع مؤلفات جيته ، ج ٣ ص ١٥٩ :

— ٢٦ —

الهدية جميلة ثمينة ،
لقد حُلَّ لغز الطلب ؛
هل حلّت فيها البركة ،
هذا غير مؤكد .

ألا يمكن تلافى السَّهْو ،
ما لم يسلبه هو ، فى احترامه للآداب ،
ألا تستطيع هى أن تسمح لنفسها به ؟!
أيها الهدهد ، إذهب وأنبئها بهذا »

جيته يجدد طلبه فى ٥ مارس سنة ١٨٢٠ كما ترسل إليه مريانة خصلة من شعرها ؛ راجع جوابها فى « رسائل جيته ومريانة » نشرة كريزناخ ص ١٣٩ .

طبعت لأول مرة فى المجلد السادس عشر من المؤلفات التى خلفها جيته .

— ٢٧ —

وا أسفاه ! لا أملك أن أبادلك الهدية بمثلها
ويالها من لذة أحدثتها لى ؛
تفضلى واقنعى بأغانىّ ،
بقلبى ، وبإخلاصى .

ربما كانت هذه المقطوعة جواب شكر عن خصلة الشعر التى أرسلتها

إليه مريانة فى نهاية أغسطس سنة ١٨٢٠ أو بعد ذلك بقليل . وقد طبعت لأول مرة فى طبعة الربع .

— ٢٨ —

الخمر لا يمكن أن تناسبك ،
ولم يسمح بها أىّ طبيب ؛
والقليل منها لن يزيد مُعدتك إلاّ فساداً
والكثير منها سيشعل رأسك .

طبعت لأول مرة فى طبعة الربع ضمن « كتاب الساقى » .

— ٢٩ —

أو تعرف معنى الجبيغة ؟
أو تعرف أى خمر أجّد ؟

طبعت لأول مرة فى طبعة الربع ضمن « كتاب الساقى » .

— ٣٠ —

بأية خمر
انتشى الإسكندر ،
أراهن بآخر نفَس فى حياتى
أن خمره لم تكن من الجودة كخمرى .

طبعت لأول مرة فى طبعة الربع ضمن « كتاب الساقى » .

— ٣١ —

أينما أظهروا لى الخبر
فذلك زجاجة خمر من السنة الحادية عشرة
بالقرب من الرين والمين ، فى وادى النكر
يحضرون لى فى ابتهاجٍ خمراً من السنة الحادية عشرة
ويمتدحون من كرام الرجال
أقلّ مما يمتدحُون خمر السنة الحادية عشرة
وإذا كان قد خدم الإنسانية خدمات جُلّى
فإنه مع ذلك ليس من خمر السنة الحادية عشرة ؛
والسادة الأفاضل يذكرون
تقريباً مثل خمر السنة الحادية عشرة ؛
وإذا أدوا أعمالهم بسرور ؛
شرب على ذكرهم خمر السنة الحادية عشرة ؛
وكثير من الأسماء أنا أذكرها همساً
وأنا أحتسى فى صمت من خمر السنة الحادية عشرة ؛
وهى تعرف ذلك ، دون سائر الناس ،
وهنالك أستمتع حقاً بخمرى من السنة الحادية عشرة ؛
وهم يتحدثون عن أغاريدى
ويمتدحونها كما يمتدحون تقريباً خمر السنة الحادية عشرة ؛
ويقطعون أزهارا وأغصاناً
لتتويجى مثل خمر السنة الحادية عشرة ؛
لكن هذه ستكون بركة أجمل —

وعن رضاً أُشْرِكَ معى فى خمر السنة الحادية عشرة ،
آه لو أخذ حافظ نصيبه منها
واحتسى معى خمر السنة الحادية عشرة !
ولهذا أهْرَع إلى الجنة
حيث ، وا أسفاه ، خمر السنة الحادية عشرة
لم يحظ بنشوتها المؤمنون . ومهما يكن خمر السماء
فاخراً ، فإنه ليس من خمر السنة الحادية عشرة ،
هيا ، يا حافظ ، أسرع !
هنا ينتظرك خابية (ريمر) مليئة نجمة السنة الحادية عشرة !

هذا التمجيد لخمر محصول سنة ١٨١١ رواية معدّلة ، نظمت فى صيف سنة ١٨١٦ ، لقصيدة أقدم بقيت فى ما خلفه إكرمن ، ونشرها لأول مرة : بورداخ فى « حوليات جيته » سنة ١٨٩٠ ، وكان جيته قد نظم هذه الرواية الأولى فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨١٥ ، وهاك نص هذه الرواية الأولى .

أينما أرانى الناس شيئاً طيبا
فهو زجاجة خمر من السنة الحادية عشرة ،
فى الرين والميِن والنكر
يأتى الناس مبتهجين بخمر السنة الحادية عشرة ،
وتذكر أسماء كريمة
يتردد ذكرها مثل خمر السنة الحادية عشرة :
فريدرش الثانى ، مثلاً
كحاكم مثل خمر السنة الحادية عشرة .

وكَنْت يذكر دائماً

على أنه مثير مثل خمر السنة الحادية عشرة .

وكثير من الأسماء فى صمت

أذكرها وأنا أحتسى خمر السنة الحادية عشرة :

وعن أغاريدى يتحدثون أيضاً

بتمجيد وسرور مثلما يتحدثون عن خمر السنة الحادية عشرة .

ويشربون على صحتى منادين معى

وكل هذا بخمر صافية من خمر السنة الحادية عشرة .

وهذا يزيد فى سرورى ،

أكثر من خمر السنة الحادية عشرة .

آه لو شرب حافظ المبجّل !

اشرب من خمر السنة الحادية عشرة .

نزلت إلى العالم السفلى مسرعاً —

حيث لا من خمر السنة الحادية عشرة

تشرب النفوس الصاحية

اذكر خمر السنة الحادية عشرة .

« أسرع يا حافظ ! اذهب ! هناك فى أعلى

توجد كأس فاخرة من خمر السنة الحادية عشرة ،

أهداها الحبيب إلىّ ،

إنه كريم ، بخمر السنة الحادية عشرة

احتفظ لى ، حتى أستمتع كل الاستمتاع

بفاخر خمر السنة الحادية عشرة .

أى حافظ ، أسرع ! وكرهينة

سأبقى أنا ، حتى تلتهم خمر السنة الحادية عشرة ،

فى الجانب المشرق من إقليم الرين

حيث يزكو خمر السنة الحادية عشرة .

وهنا فى الجانب المظلم : هنا يقشعر

من تعود خمر السنة الحادية عشرة . —

تعال راجعاً أيها العاقل

وأذهب عقلك بخمر السنة الحادية عشرة ،

حتى أحييك

وأنا أقول : مرة أخرى من خمر السنة الحادية عشرة ؟

فإذا رجعت ، قالت الحبيبة بحماسة :

« هل خمر السنة الحادية عشرة

قد جندلتك تماماً !

منتشيا بخمر السنة الحادية عشرة

كنت راقداً لا تشعر بملاطفاتى ،

وكأن خمر السنة الحادية عشرة

يمكن أن تقارن بقبلاتى :

تجنّب خمر السنة الحادية عشرة »

وهل لا تعلم أنك ، يا حافظ ،

بدلاً منى ، من خمر السنة الحادية عشرة

قد شربت ، وأنا حبًا فيك

ارتميت هناك بغير روح ! ولا بد أنها خمر السنة الحادية عشرة

هى التى فعلت كل هذا وحطمتنى ،
نعم البريئة ، خمر السنة الحادية عشرة !
لكن حبيبتى قالت : « هذا المنافس ،
الساقى الذى يصبّ لك خمر السنة الحادية عشر.
أنا أحسده ، هذا الساقى الأسود العينين
الذى يصب الحاضر دائماً من خمر السنة الحادية عشرة
حاتم ! تطلع فى عينى !
ودع الساقى ، وخمرَ السنة الحادية عشرة ،
دعهما يذهبا ! إن هذه القبلات من هذا اليوم
فماذا تريد خمر السنة الحادية عشرة ! »

ذلك أنى أريد بكل سرور
أن أشرب خمر السنة الحادية عشرة
حين تكون عتيقه ، لأنها إذا كانت حالية
كانت عزيزة طائشة فتية هذه الخمر ، خمر السنة الحادية عشرة .
ولا أريد أبداً الإستغناء
طول حياتى عن خمر السنة الحادية عشرة .
لقد أينعت كثيراً وطابت
سنة إحدى عشرة ، ولهذا سميت خمر السنة الحادية عشرة .

فَلْيُغَنِّها من بعدى شاعر آخر
هذه الأنشودة فى خمر السنة الحادية عشرة !
لأنى أنشدتها فى نشوة الحب
ومنتشياً بخمر السنة الحادية عشرة .

وهذه الرواية الأولى يفترض بورداخ أنها نظمت فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨١٥ فى مدينة مينتجن ؛ ونشرها لأول مرة بورداخ فى « حوليات جيته » ج ١١ ص ٣ وما يتلوها ، بينما الصورة الثانية طبعها ليبر فون V. Loeper فى أغسطس ١٨٦٨ فى طبعة خاصة .

وجيته قد استخدم نظام الغزليات ، لتوكيد المعنى الأساسى ، وهو تمجيد خمر السنة الحادية عشرة .

وفى هذه القصيدة يقول جيته إنه من أجل أن يستطيع حافظ الشيرازى أن يستمتع بخمر السنة الحادية عشرة الفاخرة ، سيذهب إلى العالم السفلى ؛ ويبقى هناك رهينة ، بينما يصعد حافظ إلى العالم الأرضى ليشرب خمر السنة الحادية عشرة بصحبة الساقى والحبيبة (الأبيات ٢١ — ٣٦) . وبينما حكيم الشرق (حافظ) نشوان فى العالم الأرضى (البيت رقم ٣٨) ، يقلق الشاعر (جيته) فى العالم السفلى (بيت ٣٧) ، ويعود إلى العالم الأرضى ، يعود من جديد إلى خمر السنة الحادية عشرة وإلى الحبيبة (البيت ٤١ وما يتلوه) .

— ٣٢ —

هناك حيث يجتمع العقلاء
يمكن سماع الحكمة .
وهكذا ملكة سبأ فى قديم الزمان
هيأت الفرصة لأعلى التأملات .

أمام سليمان ، من بين سائر الكنوز ،
وصفت إناءً من الذهب ،

كبيراً ، غنياً بالزينة لم يشاهد مثله ،
مع أسماك وطيور وحيوانات تسكن الغابات
حولها تكدّست زينات معقدة
مثل عمودى ياكين وبوعز ذوى العقود .

ثم جاء خادم أخرق
فأحدث فيه انتفاخة قبيحة وهو يصدمه ،
وأُصْلح بسرعة من غير شك ،
لكن العين المدرّبة تدرك بسهولة ما أصابه من ضرر ،
وهكذا أُفْسِد السرور والاستمتاع :

فقال الملك : كنت أعتقد هذا !
إن أسمى ما نُعْطاه
سرعان ما يفسده سوء تصرُّف ،
إن الأبالسة الذين يكرهوننا
لا يمكن أن يتركا الكامل كاملاً .

لا يعرف تاريخ نظمها ؛ طبعت لأول مرة فى مجلة تصدر فى روما اسمها Fanfulla فى فبراير سنة ١٨٧٨ ، ثم فى « المجلة الألمانية » فى أبريل من نفس السنة .

وعمودا ياكين وبوعز عمودان فى معبد سليمان كما ورد فى سفر « الملوك ٣ » (الفصل ٧ ، آية ٢١) من « الكتاب المقدس » : « ونصب العمودين فى رواق الهيكل : نَصَب العمود الأيمن ووسمه باسم : ياكين ، ونَصَب العمود الأيسر ووسمه باسم : بُوعَز .

تعليقات وأبحاث

تعين على فهم « الديوان الشرقى »



مقـــدمة

من يُرِد فهم الشعر
فليذهب إلى وطن الشعر ؛
ومن يرد فهم الشاعر
فعليه أن يذهب إلى وطن الشاعر .

لكل شيء أوانه ! — هذا قول تزداد لصدقه إدراكاً كلما امتد بك العمر ؛ فثم أوان للصمت ، وآخر للكلام ، والشاعر يأخذ بهذا الموقف الثانى فى هذه المرة ، لأن إذا كان يناسب الشبابَ الفعلُ والاشتغال ، فإن الشيوخة يلائمها التأمل والاعترافات .

لقد ألقيت فى العالم بمؤلفاتى فى الشباب دون مقدمة ، ودون أن أهتم أدنى اهتمام ببيان مقاصدى ، وتصرّفتُ على هذا النحو لأنى كنت مقتنعاً أن الأمة ستستطيع ، عاجلا أو آجلاً ، الإفادة مما يُقدَّم إليها . وهكذا فإن كثيراً من مؤلفاتى أحدث أثراً مباشراً ؛ بينما البعض الآخر ، وكان أقل حظاً من الفهم والنفوذ ، احتاج إلى سنوات عديدة كيما ينال التقدير . ومضت هذه السنوات أيضاً ، وعوضنى جيل ثان وثالث تعويضاً مزدوجاً ومثلثاً عن المظالم التى عانيتها من معاصرىّ الأسبقين .

لكنى أود الآن ألا يقع شيء يحول دون أن تحظى هذه المجموعة الصغيرة بتقدير حسن فى الحال . لهذا عقدت العزم على تقديم شروح وإيضاحات وإشارات ، وكل هذا بقصد توفير الفهم المباشر لقصائدى عند القراء الذين لا يعرفون عن الشرق شيئاً أو إلا قليلا . وفى مقابل ذلك ، سيكون هذا الملحق غير ذى فائدة لمن عنى عناية خاصة بتاريخ وأدب هذه الناحية الرائعة من العالم . وسيسهل عليه أن يعرف المصادر والجداول التى استقيت منها المياه العذبة لدى بستان أزهارى .

وألذّ ما يلذّ مؤلف القصائد السابقة الذكر ، هو أن يُعَدّ كرحالة يشرّفه أن يتكيف بلذة مع عوائد البلاد الأجنبية ، ويسعى لتمثل لغاتها ، والمشاركة فى مشاعرها ، واتخاذ أخلاقها وآيينها . وليُعْذَر إن لم ينجح فى هذا إلا بعض النجاح ، وإن كشفت لهجته الخاصة واستمرار خصائص قوم عما فيه من كل ما هو شأن الأجنبي : وبهذا المعنى أطلب الصفح لكتابى الصغير هذا . فأصحاب العلم يصفحون عن فهم ؛ والهواة ، وهم أقل إدراكاً لما فيه من نقائص ، يتلقون ما يقدّم إليهم بدون تحيُّز ضده .

وحتى يرضى أهله بما يقدمه إليهم على نحو أسرع ، فإن الرحالة يتخذ دور تاجر يعرض بابتهاج سلعته ، ويسعى بكل الطرق لجعلها مقبولة مرضية ؛ ولا يسخطن أحد من الأقوال التى بها يعرضها ويعلن عليها أو يمتدحها .

وأولا يستطيع شاعرنا أن يصرّح بأنه ، فيما يتعلق بالأخلاق والجمال ، حرص كل الحرص على أن يكون واضحاً ؛ ولهذا اهتم باستعمال أبسط لغة ، وأسهل وزن يمكن أن يستعمل فى لغته ، ولا يبين — إلا عن مبعدة — عن التنوقات والصنعة التى بها يسعى الشرق إلى الإرضاء .

غير أنه يحول دون الفهم التام بعض الألفاظ الأجنبية التى لم يكن مفر منها ، وتظل غامضة لأنها تتصل بأمور معينة ، من اعتقادات وآراء وتقاليد وأساطير وعادات . لهذا صار من الواجب تفسير هذه التعبيرات ، وحرصنا لهذا على الاستجابة للمقتضيات التى تجلت فى الأسئلة أو الاعتراضات التى وجهها السامعون والقارئون الألمان . وثمّ ثبت فى آخر الكتاب تبين فيه الصفحات التى توجد فيها المواضع الغامضة ، والأماكن التى شرحت فيها . بيد أن هذه التفسيرات قدمت على نحو متفاوت فى التنظيم المنهجى ، حتى تقدم ، بدلا من تعليقات غير متماسكة ، نصًّا متوالياً ، وإن يكن عرضاً

موجزاً من غير شك قليل الترابط ، فإنه مع ذلك يعطى القارئ نظرة شاملة وإيضاحات .

عسى أن يلقى سعينا النجاح فى الدور الجديد الذى اتخذناه ! وإنا لنجرؤ على الرجاء فى هذا النجاح : إذ فى الوقت الذى فيه تثرى لغتنا بالكثير مما استعرناه من الشرق ، فإنه من المناسب ، من ناحيتنا ، أن نسعى لتوجيه الانتباه إلى عالم وصلتنا منه منذ آلاف السنين أشياء كثيرة عظيمة وجميلة وخيِّرة ، ونأمل كل يوم أن نظفر منه بالمزيد .

العبرانيون

أول ما يزدهر فى الأمة هو الشعر الساذج ، وهو الأساس فى كل شعر تالٍ ؛ وكلما تجلى نضراً وطبيعياً ، أينع نمو العصور التالية .

ولما كنا نتحدث عن الشعر الشرقى ، فمن الضرورى أن نذكر « الكتاب المقدس » بوصفه أقدم مجموعة . وإن شطراً كبيراً من « العهد القديم » قد كتب بحماسة وينتسب إلى ميدان الشعر .

والذكرى الحية للزمان الذى فيه هردر وآيشهورن كشفا لنا شخصيا عن هذه الموضوعات ، لتثير فى نفسنا صدى متعة عظيمة يمكن أن تقارن بالشروق الصافى للشمس فى المشرق . ولكنّ ما نقله إلينا أمثال هذين الرجلين وخلفاه لا نملك هاهنا إلاّ أن نشير إليه مجرد إشارة ، وليُغْفَر لنا إسراعنا فى المرور بهذه الكنوز عابرين غير متلبثين .

لكننا نذكر كمثال سفر « راعوث » ، الذى يمكن أن يعدّ كُلاً لطيفاً نُقِل إلينا على شكل ملحمى ومثالى **idyllisch** ، إلى جانب هدفه السامى وهو توفير أجداد كرام مهمين للملك من ملوك إسرائيل .

ونتوقف لحظة عند « نشيد الأناشيد » بوصفه أرق ما وصل إلينا وأبعده

عن المحاكاة فى التعبير عن الحب العنيف اللطيف . وإنا لنأسف ، من غير شك ، على أن هذه القصائد المبتورة ، المرتبة بحسب الصدفة والمكدّسة حسبما اتفق ، لا توفر لنا متعة مليئة صافية ، ومع ذلك فنحن مغتبطون كل الاغتباط لأننا نستطيع أن نقدر الظروف التى فيها أزهرت نفوس هؤلاء الشعراء . إذ نستروح النفحة الرقيقة لأجمل بلاد كنعان فى كل هذه الأشعار : الحياة الريفية الهادئة ، وفلاحة الكروم ، والبساتين ، والعطور والأفاويه ، وشيئاً من ضيق الحياة فى المدينة ، وكأرضية للوحة نشهد قصراً ملكياً بكل روائع بذخه وأبهته . ومع ذلك فإن الموضوع الرئيسى يظل ذلك الميل المشبوب المتبادل بين قلبين فتيّين يسعى كل منهما للآخر ، ويلتقى ويصدّ كل منهما الآخر ، ويتجاذبان فى سلسلة من المواقف البالغة البساطة .

وكثيراً ما خطر ببالنا أن نستخلص من هذا الخليط اللطيف بعض الأجزاء وأن ننسق بينها ؛ لكن طابعها المُلْغِز غير القابل لسبر أغواره ، هو الذى يضفى على هذه الأوراق رشاقتها وتفرُّدها . وكأين من عقول طيبة ، مولعة بالنظام ؛ استسلمت لإغراء البحث فيها عن تسلسل منطقى أو لإدخال ذلك فيها ، وكلٌّ يدع نفس المهمة لمن يخلفه .

كذلك كان لسفر « راعوث » سحر لا يُقْهَر فى نفوس كثير من الناس الذين أسلموا قيادهم لوهم أن هذه الرواية المنقطعة النظير فى الجمال وفى إيجاز العَرْض ، يمكن أن تفيد شيئاً من عرضها بتوسع وتفصيل .

وهكذا فإن كتاب الكتب يكشف لنا كل سفر من أسفاره أنه أُعْطِى لنا كيما نستطيع أن نمتحن فيه قوانا بوصفه عالماً ثانياً ، وأن نضلّ فيه ، ونتعلم منه ، ونتثقف

العرب

وعند العرب ، ويسكنون فى بقعة أقرب إلى الشرق ، نجد كنوزاً رائعة فى المعلقات ، وهى قصائد مديح نالت الجوائز فى المباريات الشعرية ؛ وقد نظمت فى العصر السابق على مجىء محمد ، وكتبت بحروف من ذهب ، وعلقت على أبواب بيت الله [الحرام] فى مكة . وتعطى فكرة عن شعب بدوىّ ، راعٍ ، محارب ، يمزقه من الداخل المنازعات بين القبائل التى يصارع بعضها بعضاً . وتعبِّر عن التعلق الراسخ بالرجال الذين من نفس العنصر ، وعن الشعور بالشرف ، والشجاعة ، والرغبة العرمة فى الثأر التى يوحى بها الحزن فى العشق ، والكرم ، والإخلاص ، وكل هذا بغير حدود . وهذه القصائد تزودنا بفكرة وافية عن علوّ الثقافة التى تميزت بها قبيلة قريش ، التى منها محمد ، ولكنه أضفى عليها غلالة جادّة من الدين ، وعرف كيف ينتزع منها كل مطمع فى تقدم (مادىّ) خالص .

وقيمة هذه القصائد الممتازة ، وعِدّتها سبع ، تزداد بما فيها من تنوُّع رفيع سامٍ . ولا نستطيع أن نبعثها على نحو أوجز وأقوم مما قاله جونز الصائب الحكم حين قال فى وصفها : « معلقة امرئ القيس رقيقة ، بهجة ، لمّاعة ، أنيقة ، متنوعة ، سارّة . وأما معلقة طرفة فجريئة ، حية ، وثابة ، ومع ذلك يشيع فيها نوع من البهجة . وقصيدة زهير قاسية ، جادة ، عفيفة ، حافلة بالحِكَم والآداب والجُمل الجليلة . وقصيدة لبيد خفيفة ، غرامية ، أنيقة ، رقيقة ؛ وتذكرنا بالرعوية الثانية لفرجيل : لأنه يشكو من كبرياء الحبيبة ، ويتخذ من ذلك فرصة لتعداد مناقبه والتفاخر بقبيلته .. وقصيدة عنترة تبدو متكبرة ، مهدِّدة ، حافلة بالتعبير ، رائعة ، لكنها لا تخلو من جمال فى أوصافها وصُوَرها . وعمرو (بن كلثوم) عنيف ، رامٍ ، ماجد ؛ والحارث ابن حِلِّزة) ، بالعكس ، ملىء بالحكمة ، والفطنة والكرامة »

وهاتان القصيدتان الأخيرتان تبـدوان بمثابة خطب فى المنازعات الشعرية ـ السياسية ، أمام جمهور من العرب ، لتسكين الأحقاد المدمرة بين قبيلتين » .

ولما كنا بهذه العبارات قد أثرنا لدى القراء الرغبة فى قراءة أو إعادة قراءة هذه القصائد ، فإننا نورد قصيدة أخرى ، معاصرة لمحمد ، وتعكس روح هذا العصر[1] . ويمكن وصفها بأنها كابية رهيبة ، مشبوبة ، نهمة إلى الانتقام ، ومنتشية بنشوة الأخذ بالثأر . وهذه هى القصيدة :

١ ـ إن بالشِّعب الذى دون سَلْعٍ لقتيـلاً دَمُه ما يُطَلّ

خَلَّف العبء علىّ وولّى أنا بالعبء له مستقلّ

٣ ـ ووراء الثأر منى ابنُ أخت مَصِعٌ عقـدته ما تُحَلّ

مُطْرِق يرشح موتاً كما أط رق أفعى ينفث السَّمّ صِلّ

خـبر ما نابنا مصمئلّ جَلّ حتى دقّ فيه الأجلّ

٦ ـ بزنى الدهر وكان غشوما بأبىٍّ جاره ما يُذَلّ

شامس فى القُرّ حتى إذا ما ذكت الشعرَى فبرد وظِلّ

يابس الجنبين من غير بوس وندِىُّ الكفين شَهْمٌ مُدِلّ

٩ ـ ظاعن بالحزم حتى إذا ما حلّ حلّ الحزمُ حيث يحلّ

غيثُ مُزْن غامرٌ حين يجدى وإذا يسطو فليثٌ أبلّ

مسبلٌ فى الحىّ أحورى زملٌ وإذا يغزو فسِمْعٌ أزلّ

(١) هذه القصيدة قرأها جيته فى ترجمة لاتينية وردت فى رسالة دكتوراه قدمها سنة ١٨١٤ إلى جامعة جيتنجن المستشرق الرائد الـكبير س . ف . فرايتاج بعنوان: **Carmen Arabicum perpetuo Commentario et versione Jambica Germanica illustravit S. W. Freytag** . فترجمها جيته عن هذه الترجمة اللاتينية التى قام بها فرايتاج . لكنه تصرف فى الترجمة .

١٢ — وله طعمان : أرْىٌ وشَرْىٌ   وكلا الطعمين قد ذاق كلٌّ
يركب الهَوْل وحيداً ولا يصـ   حبه إلاّ اليمـانى الأفل
وفُتُوٌّ هَجَّروا ثم أسْروا   ليلَهُم حتى إذا انجاب حلُّوا
١٥ — كل ماضٍ قد تردَّى بماضٍ   كسَنا البرْق إذا ما يُسل
فاحتسوا أنفاس نوم فلما   ثملوا رُعتَهم فاشمعلوا
فلئن فَلّت هُذيلٌ شباه   لبما كان هُذيلاً يَفُلّ
١٨ — وبمـا أبركهم فى مُناخ   جَعْجع ينقب فيه الأظل
صليت منى هذيل بخرق   لا يمل الشرّ حتى يملُّوا
يُنهل الصَّعْدة حتى إذا ما   نهلت كان لها منه كمل
٢١ — تضحك الضبع لقتلى هذيل   وترى الذئب لهـا يستهل
وعتاق الطير تهفو بطاناً   تتخطاهم فمـا تستقلُّ
حلّت الخمر وكانت حراما   وبلأىٍ ما ألمّت تحِلّ
٢٤ — فاسقنيها يا سوادَ بن عمرو   إنّ جسمى بعد خالى لَخلّ

تنسب هذه القصيدة لتأبط شرّا ، كما فى « حماسة » أبى تمام وقال المرزوقى فى شرح « الحماسة » : وذكر أنه لخلف الأحمر ، وهو الصحيح » جـ ٢ ص ٨٢٧ ؛ وقال بمثل هذا التبريزى فى شرح الحماسة وزاد : وقيل : « قال ابن أخت تأبط شرا . قال النمرى : ومما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها : « جلّ حتى دق فيه الأجل » — فإن الأعرابى لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا . قال أبو محمد الأعرابى : هذا موضع المثل : ليس بعشاك فادرجى ! ليس هذا كما ذكره ، بل الأعرابى قد يتغلغل إلى أدق من هذا لفظا ومعنى . وليس من هذه الجهة عُرِف أن الشعر مصنوع ، لكن من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى ، قال : مما يدل على أن هذا الشعر مولّد أنه ذكر

فيه « سلعاً » وهو بالمدينة ، وأين تأبط شرا من سَلْع ! وإنما قُتل فى بلاد هذيل ، ورُمى به فى غار يقال له رخمان » .

وقد وردت هذه القصيدة أيضاً فى « العقد الفريد » (ج ٣ ص ٢٩٨ — ٣٠٠) مع اختلاف فى الرواية وزيادة بعض أبيات .

الشرح

١ — الشعب : ما انفرج بين جبلين . السَّلْع (بفتح السين وكسرها) : شقٌّ فى الجبل . الكلّ : مَطْلُ الدم والدية وإبطالها .

٢ — العبء : طلب دم القتيل . مستقل : ناهض .

٣ — المَصِع : الشديد المقاتلة ، الثابت فى القتال .

٤ — الرشح : العرق والنفث . الصّلّ : من صفة الأفعى ، ويوصف به الداهية . شبه نفسه فى إطراقه وسكونه ، فتنتظر الفرصة لإدراك الثأر ، بالحية إذا أطرقت نفثت بالسمّ .

٥ — مصمئل : شديد . والخبر هو نعى المتوفى هنا .

٦ — بزنى الدهر : غلبنى واستلبنى . الغشوم : الظالم القاهر .

٧ — شامس فى القمر : وصفه بأنه كان ينتفع به فى كل حال وزمان ، وأنه كان غياثاً للناس فى السّراء والضراء ، فكان الشمس عند البرد ، والظلّ عند الحر . ذكا : اتقد . ونوء الشعرى يجىء بشدّة الحرّ . فقوله : ذكت الشعرى : أى إذا اشتدّ الحر .

٨ — يابس ... : أى يؤثر بأنداد غيره على نفسه . ندىّ الكفين : سخى . المدلُّ : واثق بنفسه . الشهم : الذكىُّ الحديد .

٩ — وصفه بأنه يستعمل الحزم ظاعناً كان أو مقيماً .

١٠ — يريد أن يبلغ فى الإحسان أقصى الغايات ، وعند السطوة على الأعداء يصير كالليث الكثير الإفساد ، الشديد النكاية . والسطو : البسط على الإنسان تقهره من فوق . الأبلّ : الفاجر المصمم الماضى على وجهه ، لا يبالى ما لقى .

١١ — يقول فى إنه الحى — إبان السلام — يسبل إزاره خيلاء وكبراً ، ويتبختر — ذاهباً فى الترفه إلى أرفع الدرجات ، وإذا غزا كان كالسِّمع — وهو الولد بين الذئب والضبع — وهو أخبث السباع وأعداها . والأزل : الخفيف العَجُز .

١٢ — الأرى : العسل . الشرى : الحنظل . يقول : إنه للموالين كالأرى ، وللمعادين كالشرى ، وكلا الطعمين قد ذاق كل ، أى أن كل واحد من الطعمين قد زاقه كل واحد من فريقى الأعداء والأولياء . ومفعول « ذاق » : محذوف ، كأنه قال : قد ذاقه كلٌ .

١٣ — أى لا يتكثر بالأصحاب إذ همّ باقتحام أمرٍ عظيم ، بل يتفرّد فيـــه مستصحباً سيفه الأفلّ ، وهو الذى قد كثر فلوله من كثرة الاستعمال .

١٤ — فُتُوّ : جمع فتى . هجّروا : ساروا فى الهاجرة . أسرى : سار فى الليل . انجاب : انكشف . يقول : وصلوا السير بالسرى ، فلما انكشف الظلام نزلوا .

١٥ — ماضٍ : أى سائر فى الغزو . بماض : أى بسيف حادّ . يريد: كل واحد من هؤلاء الفتيان نافذ فى الأعمال والغزوات ، وقد تقلد سيفاً نافذاً فى الضريبات ، وإذا انتزع من غمده بلغ التماع البرق .

١٦ — اشمعلُّوا : جدُّوا فى المُضىّ . والمعنى أنهم ساروا يومهم وليلتهم ، وكلٌ يرجع من نفسه وسلاحه إلى ما يرتضى ويعتد به ، ثم نزلوا وهوّموا وناموا نومة خفيفة مثل حسو الطير للماء القليل ، وتمشت فى

يقظتهم بقدر دبيبها فى عروقهم ، ومزاولتها لسكونهم ، فلما صارا منها كالسكارى نبهتهم إلى الارتحال ، فخفّوا وأطاعوا .

١٧ — الشباة : حدّ الشيء . يقول : إن كانت هذيل قد تمكّنت منه فكسرت حدّه ، فهو بما كان يؤثّر من قبل فى هذيل فيطأ حريمها ، ويكثر قتيلها . أى هذا الذى فعلته به هو عِوَض عما فعله بها : فهذا بذاك .

١٨ — الجعجع : مُناخ سوءٍ ، وهو الأرض الغليظة . الأظلّ : باطن خُفّ البعير . ينقب : يَحْفَى . يقصد : وبما كان ينال منهم ويحملهم فيه على المراكب الصعبة ، وينزلهم له بالمنازل الحزنة ، التى تؤثِر فى أنفسهم وأموالهم .

١٩ — الخِرْق والخِرِّيق : السخىّ ، وقيل : الفتى الحسن الكريم الخليقة ، والجمع أخراق وخُرّاق وخُروق . يقول : ابتليت هذيل من جهتى بكريم واسع الكرم مع الأولياء ، شديد النكر مع الأعداء ، لا يفتُرُ عن النكاية فيهم وعن الإغارة عليهم . حتى يملّوا : أى حتى يملوه .

٢٠ — الصّعْدة : القناة تنبت مستوية . يُنْهِل : يسقى مرة بعد مرة . يقول : إنه يُرَوّى الرمح من دمائهم بالسقية الأولى ، ثم يعقبها بالثانية . والمقصود اتصال الوقعات والغارات .

٢١ — استعار الضحك للضبع ، والاستهلال للذئب . والاستهلال : الصياح . والمراد أنه لكثرة قتله فى هذيل ترى الضبع فرحاً والذئب متهللا صائحاً نظراً لما سيصيبانه من طعام من هؤلاء القتلى .

٢٢ — العتاق هنا : آكلة اللحوم التى تعاف الجيف . وقوله : «تهفو بطاناً» أى أنها انتفخت حواصلها فثقلت ؛ فإذا طارت تخطتهم فى الطيران فلا ترتفع فى الجو ، بل تُسِفّ لثقلها . بطان : جمع بطين . تهفو : تطير .

٢٣ — كانت من عادتهم أن يحرّموا الخمر على أنفسهم إذا قتل لهم

قتيل حتى يدركوا ثأره . يقول : أدركتُ الثأر ، فحلّت الخمر بعد أن كانت مُحَرّمة بالنذْر عليّ . بلأى : بعد جهد . يريد : وبعد جهد صارت حلالاً .

٢٤ — خل : مهزول . أظهر التشفى بما ناله من الأعداء حتى دعا من خاطبه إلى ما كان يتشوقه من سقيه له ، وأظهر التوجع لفقده خاله .

راجع « شرح ديوان الحماسة للمرزوقى » ج ٢ ص ٨٢٧ — ٨٣٩ . القاهرة سنة ١٩٥٢ .

ويكفى القليل من الملاحظات لإيضاح هذه القصيدة . فعظمة الخُلُق ، والصرامة ، والقسوة المشروعة للفعل هى عصب هذا الشعر . والمقطوعتان[1] الأوليان تقدم عَرْضاً واضحاً ، وفى الثالثة والرابعة يتكلم الموت ويفرض على قريبه (ابن أخته) واجب الثأر له . والخامسة والسادسة ترتبطان من حيث المعنى بالأولى ، وتعطى تصويراً غنائيًّا ؛ ومن السابعة حتى الثالثة عشرة نجد تمجيداً للميِّت لإبراز عظمة الخسارة وفداحتها ؛ ومن الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة وصف الغارة على الأعداء ؛ والثامنة عشرة ترجع بنا القهقرى ؛ والتاسعة عشرة والعشرون يمكن أن توضع مباشرة بعد الأولى . والحادية والعشرون والثانية والعشرون يمكن أن توضع بعد السابعة عشرة ؛ ثم تأتى النشوة والمتعة فى مأدبة النصر ؛ وكخاتمة نجد اللذة المروّعة لرؤية الأعداء قتلى فرائس للضباع والذئاب .

وأروع ما فى هذه القصيدة فى نظرنا هو أن النثر الخالص للفعل يصير شعرياً بواسطة نقل مختلف الحوادث . ولهذا السبب وأيضاً لأنها تكاد تخلو خلوّا تاماً من كل تزويق خارجى ، فإن جلال القصيدة يزداد ، ومن يقرأها وهو يضع نفسه فى الموقف ، لا بد أنه سيرى الحادث نفسه ، من البداية حتى النهاية ، ينمو شيئاً فشيئاً أمام خياله .

---

(١) قسم جيته ترجمته إلى مقطوعات كل منها من أربع أسطر أو أبيات ، وجعلها ٢٨ مقطوعة رباعية .

انتقال

ولو وجهنا أنظارنا الآن إلى شعب هادئ متمدين ، هو شعب الفُرْس : فينبغي علينا ، ما دام شعرهم كان فى الحق فرصة لهذا العمل ، أن نصّاعد إلى أقدم العصور ، حتى نستطيع أن نفهم العصور الحديثة . وسيكون دائماً موضوع دهشة للمؤرخ أنه ، حتى لو أن بلداً غزاه أعداؤه عدة مرات ، وأخضعوه بل وأبادوه ، فإنه مع ذلك تبقى نواة الأمة لها خصائصها ، حتى إن خصائص قومية كانت معروفة منذ زمان طويل تظهر من جديد بشكل فجائى .

وبهذا المعنى ، سيلذ للقارئ أن يسمع أنباء الفرس الأقدمين حتى نستطيع الانتقال بقدم ثابتة حرة حتى يوم الناس هذا .

قدماء الفرس

إن العبادة الإلهية عند قدماء الفرس كانت تقوم على تأمل الطبيعة : لقد كانوا يتوجهون ، حين يعبدون الخالق ، إلى الشمس المشرقة ، بوصفها أكثر التجليات روعة وإدهاشاً . لقد رأوا فيها عرش الله محاطاً بملائكة لمّاعة . وكان كل واحد منهم ؛ حتى أبسطهم منزلة ، يستطيع أن يشارك يومياً فى البهاء الماجد لهذه العبادة السامية . فالفقير كان يخرج من كوخه ، والمحارب من خيمته ، وبهذا كان يتم أكثر الأعمال الدينية تُقى وورعاً . وكان يبارك على الطفل المولود ببركة النار فى هذه الأشعة اللامعة . وطوال اليوم كله ، وطوال العمر ، كان الفارسى يشعر بأنه مصحوب فى كل أعماله بالكوكب العظيم الأصيل . والقمر والنجوم كانت تضىء الليل ، وهى كانت بعيدة المدى تنتسب إلى اللامحدود . والنار ، مع ذلك ، موجودة إلى جوارهم ، تضىء وتدفئ ، وفقاً لقوتها . وأداء الصلاة فى حضرة هذا الممثل للألوهية ،

والركوع أمام من شعر بلانهائيته يصير واجباً دينياً ممتعا . ولا شيء أطهر من شروق الشمس في يوم صاف ، وينبغي إشعال ومعالجة النيران بنفس الطهارة إذا كان يراد أن تكون وأن تظل مقدسة وشبيهة بالشمس .

ويظهر أن زرادشت كان أول من حوّل هــذا الدين النبيل الطاهر الطبيعي إلى عبادة ذات طقوس . والصلاة بالذكر الذي يشمل ويستعبد كل الأديان ولا ينفذ في الوجود كله إلاّ لدى عدد قليل من الناس الذين خصّهم الله بعنايته ، لا تنمو عند الغالبية إلا كشعور موقت بالحميّة والهناء ؛ وبعد زواله ، يعود الإنسان إلى نفسه غير راض وخالياً من العمل ، ويرجع في الحال إلى الملال الذي لا نهاية له .

وملء هذا الفراغ بالمراسم والطقوس والابتهالات ، والذهاب والمجيء ، والركعات والسجدات — هذا هو واجب وامتياز طائفة الكهنوت التي تمارس مهنتها منذئذ ، طوال العصور ، موسّعة في التفاصيل والجزئيات إلى غير حد . والذي يستطيع أن يشمل بنظرة سريعة التطور الممتدّ من العبادة الساذجة الأولى للشمس المشرقة حتى مغاليات الجبره كما لاتزال تمارس حتى اليوم في الهند ، سيرى من ناحية أمة فتية تهزّ النوم كي تذهب للقاء اليوم الجديد ، ومن ناحيــة أخرى شعبا متبلّداً يسعى لقتل الملال المعتاد بالملال التقيّ .

ومن المهم مع ذلك أن نلاحظ أن قدماء الفرس لم يقتصروا على عبادة النار ؛ فإن ديانتهم تقوم حقاً على مكانة كل العناصر ، من حيث تعلن عن وجود الله وقدرته . ومن هنا تورعهم المقدس من تدنيس الماء والهواء والتراب . وهذا التوقير لكل الأشياء الطبيعية التي تحيط بالإنسان يقود إلى كل الفضائل المدنية : فالانتباه ، والطهارة ، والاجتهاد تشجّع وتنميّ . وعلى أساسه أيضاً تقوم فلاحة الأرض ؛ فكما أنهم لا يدنّسون أبداً نهراً ، كذلك كانت القنوات التي يجريانها توفّر الرخاء للبلاد ، يُعنى بها ويحافظ

على نقائها ويدّخر ماؤها باهتمام ؛ حتى إن فلاحة المملكة كانت آنذاك أوسع مساحة بمرتين مما هى اليوم . وكل الأعمال التى تبسم لها الشمس كانت تمارَس بكل اجتهاد ؛ وعلى وجـه التخصيص الكروم ، وهى أعز نبات الشمس ، كانت تزرع بعناية فائقة .

والطريقة الغريبة التى بها كانوا يدفنون موتاهم ناشئة عن هذا الاهتمام المغالى بعدم تدنيس العناصر الطاهرة . وتنظيم المدينة كان يستمد أيضاً من هذه القواعد ، فنظافة الشارع كانت من أمور الدين ؛ وحتى اليوم ، حيث الجبره منفيون ، مطرودون ، محتَقَرون ، ولا يمكن أن يجدوا مأوى إلاّ فى الضواحى والأحياء البائسة ، فإن الميّت الذى يتبع هذا الدين يترك مبلغا من المال من أجل أن ينظف أحد الشوارع فوراً تنظيفاً تامًّا . وبفضل هذا التدين العملى الحىّ أمكن قيام هذا الإسكان الذى شهد عليه التاريخ أنه لا نظير له .

وهذا الدين الدقيق ، القائم على حضور الله فى كل أعماله فى العالم المحسوس ، لا بد أن يكون له تأثير خاص فى الأخلاق والعادات .

ويكفى المرء أن يتأمل فى الأوامر والنواهى الرئيسية : لا تكذب ، لا تستدن ، لا تكن جاحداً للجميل ! والأخلاق والزاهد يفسّران بسهولة هذه الخصوبة فى هذه المذاهب ، لأن النهى الأول يتضمن النهيين الثانى والثالث ، وكذلك سـائرها ، مما لا ينطبق ، حقا ، إلاّ على الكذب وعدم الأمانة ؛ ولهذا فإن فى الشرق لا يشـار إلى الشيطان إلا بوصفه الكذاب الأبدى .

ولما كان هذا الدين يقود ، مع ذلك ، إلى التأمل ، فإنه من الممكن أن يؤدى بسهولة إلى الرخاوة ، ولهذا فإن لبس الملابس الطويلة الفضفاضة يبدو أنه يؤذن بشىء من الرخاوة . لكن لوحظ فى عاداتهم ونُظُمهم ره

فعل قوى . وكانوا يحملون السلاح فى السلام وفى حياة الجماعة ؛ ويتدربون بآلاف الطرق على استعماله . وكان من التقاليد عندهم الفروسية البارعة الشديدة العنيفة ؛ وألعابهم هى الأخرى ، مثل تلك التى تمارس بالصوالج والمضارب فى ساحات واسعة ، حافظت على قوتهم وصلابتهم وخفتهم ؛ وكانوا يجندون تجنيداً لا رحمة فيه ولا هوادة ، مما كان يجعلهم أبطالاً لدى أول إشارة من ملكهم .

ولنلق مرة أخرى نظرةً على فكرتهم عن الله . فى البداية كانت العبادة العامة تقتصر على عدد قليل من الثيران ، فكانت بذلك أكثر مهابة واحتراما ؛ وبعد ذلك تكاثر كهنوت ضخم تزايد شيئاً فشيئا ، وفى نفس الوقت تكاثرت النيران . أما أن هذه القوة الكهنوتية الوثيقة الاتحاد قد ثارت فى بعض الظروف على السلطة المدنية ؛ فهذا أمر طبيعى فى هذه العلاقات غير المتوافقة فيما بينها . ففضلا عن أن سمرديس[1] الكاذب ، الذى استولى ذات يوم على الملك ، كان من رجال الكهنوت المجوس ، وقد نصّبه على العرش وأيده مدة من الزمان زملاؤه من الكهنة ، فإننا نشاهد أن المجوس يصبحون فى مرات عديدة مصدر خطر مخيف على الملوك .

ثم شتتهم الإسكندر الأكبر ، ونحّاهم خلفاؤه والملوك[2] البارتيون ، ورفع شأنهم ولم شملهم الساسانيون ، لكنهم كانوا دائما صلاباً فى مبادئهم

(١) سمرديس : مجوسى ، ادعى زوراً أنه أخو قمبيز (٥٢٤ – ٥٢٢ ق . م) ملك الفرس ، وادعى العرش بعد موته مدة طويلة ، إلى أن أسقطه عن العرش دارا هو سطاسب ، الوريث الحقيقى للعرش .

(٢) وهم المعروفون فى الكتب العربية بـ « الأشكانية » (والأصح الأرشكانية نسبة إلى أرشك Arsac) وتولوا بعد الساوقيين ، وأنشأ دولتهم أوشك سنة ٢٥٥ ق . م وقد شملت إمبراطوريتهم : ما بين النهرين ، وبابل ، وميديا ، وأرتوپاتين ، والسوس ، وفارس ، وهورقانيا واستمرت حتى سنة ٢٢٦ بعد الميلاد ، حين حل محلها الساسانيون الذين استمرت دولتهم ٤٢٦ سنة حتى سنة ٦٥٢ حين قضى عليها الإسلام نهائياً .

يقاومون الحاكم الذى يعاكسهم . فهم مثلاً عملوا على إفساد الزواج بين خسرو وشيرين الجميلة التى كانت مسيحية .

وأخيراً نفاهم العرب إلى غير رجعة ، فطردوهم إلى بلاد الهند ومن بقى منهم فى فارس أهينوا وأسيئت معاملتهم حتى اليوم ، مرة يتسامح معهم ، ومرة أخرى يضطهدون وفقا لهوى الحكام ، فإنهم حافظوا على ديانتهم هنا وهناك فى صفائها الأول ، حتى فى الزوايا البائسة ، كما حاول الشاعر أن يعبر عن ذلك فى « وصية البارسى العجوز » .

أما أن هذه الديانة قد أدت خدمات كبيرة طوال زمان طويل ، وأنه كان فيها إمكان حضارة عالية انتشرت فى القسم الغربى من العالم الشرقى ، فهذا أمرٌ لا سبيل إلى الشك فيه . ومن الحق أنه من الصعب جداً أن نفسّر كيف انتشرت هذه الحضارة ومِنْ أين . وكثير من المدن انتشرت فى مناطق عديدة كمراكز حيوية ، وما هو أعجب فى نظرى ، هو أن الجوار المدمِّر للوثنية الهندوكية لم يؤثر فيها . ومن المدهش أنه لما كانت مدينة بلخ قريبة جداً من مدينة بميان ، فقد شوهد هنا صنع وعبادة أبشع أوثان العظمة الهائلة ، بينما هناك حوفظ على معابد النار الطاهرة ، ونشأ الجمهور الكبير من الموبذان فى معابد هـــذه الديانة . ويشهد الناس العجيبون الذين نشأوا هناك على امتياز هذه المنشئات . ومن الشواهد على ذلك أسرة البرامكة التى لمعت وقتاً طويلا كخادمين أقوياء فى دولة الخلافة إلى أن أبيدوا أو نفوا ، كما وقع أيضاً فى هذه الأيام لأسرة تكاد تشبهها[1] .

---

(١) لا يدرى على وجه التحديد إلى أية أسرة يشير جيته هنا . ودونتسر يظن أن المقصود هو أسرة دوبخوروسكى .

الحكومة

بينما الفيلسوف يشيّد بفضل المبادئ قانوناً طبيعياً ، وقانوناً دوليا ، وقانونا عاما ، فإن صاحب التاريخ يدرس كيف كانت فى كل الأزمان هذه العلاقات وهذه التجمعات الإنسانية . ونحن نجد فى أقدم عصور الشرق أن كل سيادة مستمد من حق إعلان الحرب . وهذا الحق ، شأنه شأن الباقى ، يقوم أولا على الإرادة وعلى الوجدانات التى لهذا الشعب . فإذا أصيب عضو فى القبيلة ، هب فى الحال المجموعُ للانتقام من المعتدى . لكن لما كانت الكثرة يمكن أن تفعل جيداً لكنها لا يمكن أن تنقاد انقياداً حسناً ، فإنها تنقل بالانتخاب ، أو العرف أو التقليد ، إلى حاكم واحد حق الاقتياد إلى المعركة ، إما بالنسبة إلى حملة حربية واحدة ، أو بالنسبة إلى عدة حملات ؛ وهى تكل هذه المهمة الخطيرة إلى هذا الرجل الباسل طوال حياته وفى النهاية تنقلها من غير شك إلى ذريته . وهكذا فإن الزعيم يزوّد نفسه ، بفضل استعداده لقيادة الحرب ، بحق إعلان الحرب .

ومن هنا السلطة فى دعوة كل مواطن قادر على حمل السلاح والقتال – إلى حمل السلاح وإرغامه على ذلك . وهذا التجنيد حتى يمكن أن يكون عادلاً وفعّالاً ، كان عليه فى كل وقت أن يبدو صارما لا رحمة فيه . ودارا الأول حمل السلاح ضد جيرانه المشكوك فيهم ، وإذا بشعب لا حصر له يلبى نداءه . رجل عجوز يسلم ثلاثة من أولاده ، ويلتمس إعفاء الأصغر من الحملة ، وإذا بالملك يعيد إليه ابنه مقطوعا إربا إربا . وهكذا تكوّن حق الحياة والموت . وفى المعركة لا يسأل ، أو لا يحدث أن فرقة بأكملها يُضحّى بها فى غير فائدة ، لمجرد الهوى أو سوء التقدير ، دون أن يحاسب أحدٌ القائدَ على ذلك ؟

وفى الدول الحربية ، تستمر هذه الحالة خلال فترات السلام القصيرة .

فحول الملك تقوم الحرب دائماً وفى البلاط لا أحد يشعر بالأمان على حياته . كذلك يستمرون فى جباية الضرائب التى جعلتها الحرب ضرورية . ولهذا فإن دارا قُدُمان فرض ، من باب الاحتياط ، ضرائب منتظمة بدلاً من الهبات الاختيارية . وبحسب هذه المبادئ وهذا النظام ارتفعت الملكية الفارسية إلى أعلى درجات القوة والرخاء ، لكنها مع ذلك تحطمت ضد بطولة أمة مجاورة ، صغيرة ، منقسمة على نفسها .

تاريخ

إن الفرس ، حين قام أمراء ممتازون فركّزوا وحشدوا القوة المسلّحة للبلاد وجعلوا مرونة الجماهير كبيرة إلى أعلى درجة ، فإنهم بدوا مخيفين حتى للشعوب البعيدين ، وبالأحرى للشعوب المجاورة .

وكلها انتصروا عليها ، اللهم إلاّ اليونان . إذْ اتحدوا بعد فرقة ضد عدو كبير العدد ظل يعاود الغارة عليهم ، وأبدوا ، أعنى اليونانيين ، إخلاصا منقطع النظير ، وهو فضيلة تضم فى داخلها سائر الفضائل . وتحقق بهذا نوع من المهادنة ؛ حتى إنه اضمحلت قوة الفرس فى الداخل بينما قام فيليب المقدونى واستطاع أن يؤسس دولة موحّدة ، وأن يجمع كل اليونانيين من حوله ، وفى مقابل الحرية الداخلية التى فقدوها ، أعدّ انتصارهم على المعتدى الأجنبى . وابنه (الاسكندر) أخضع الفرس واستولى على الإمبراطورية .

لقد كان الفرس ليس فقط مصدر خوف شديد للأمة اليونانية ، بل وأيضا مكروهين جداً لأنهم حاربوا ليس فقط الدولة ، بل وأيضا ديانتها . لقد تعود الفرس على دين فيه تعبد نجوم السماء ، والنار ، والعناصر فى الهواء الطلق بوصفها كائنات شبيهة بالآلهة ، فوجدوا أن من العيب جداً أن يحبس الآلهة فى مساكن وأن يُعبدوا تحت سقف . ولهذا أحرقوا وهدّموا المعابد ،

وبهذا أثاروا كراهية شديدة فى نفوس اليونانيين ، لأن اليونانيين ، بحكمتهم . قرروا ألا يرمموا هذه الأطلال ، بل يدعونها كما هى كى تكون بواعث تحريض على الانتقام فى المستقبل : وهذه النحول التى عاناها اليونانيون حملوها معهم إلى بلاد الفرس كى ينتقموا بعباداتهم التى أهينت ؛ وهذا يفسر الكثير من ألوان القسوة ؛ بل يبرّر بهذا أحيانا إحراق پرسپوليس .

وطقوس المجوس ، وكانت فى الحق قد ابتعدت تماما عن بساطتها الأولى وصارت فى حاجة إلى معابد وخانقاهات ، قد ألغيت هى الأخرى ، وطرد المجوس وشُتّتوا ؛ بيد أن الكثيرين منهم كانوا مع ذلك يتجمعون سرّا ليحافظوا على بقاء مشاعرهم وعاداتهم ، انتظاراً لظروف أفضل . ولقد طالما امتحن صبرهم : ذلك أنه عند موت الإسكندر تبدد سلطانه الشخصى القصير العمر ، وتناثرت إمبراطوريته ، واستولى البارتيون على المنطقة التى تهمنا بوجه خاص هنا . وصارت اللغة ، والأيين والدين مألوفة لديهم . وهكذا انقضت خمسماية سنة على رماد المعابد القديمة والمذابح ، لكن النار المقدسة ظلت حبيسة تحت هذا الرّماد ؛ حتى إن الساسانيين ، فى بداية القرن الثالث الميلادى ، لما أعادوا الدين القديم من جديد وأعادوا العبادة القديمة ، فإنهم سرعان ما وجدوا جمهرة من المجوس والموبذان ، كانوا قد حافظوا على أنفسهم على طول ووراء حدود الهند ، وتجملوا سرّا ، وحافظوا على عباداتهم . وعادت اللغة الفارسية القديمة ، ونبذت اللغة اليونانية ، ومن جديد وضعت أسس قومية حقيقية . ومنذئذ ونحن نجد هاهنا ، فى مدى أربعمائة سنة ، ما قبل التاريخ الأسطورى لفارس قد حوفظ عليه إلى حدّ ما خلال ذكريات بالنثر الشعرى . وهذا الأصيل اللامع لا يزال يسحرنا ، وتنوع الأشخاص والحوادث يثير اهتماما حيّاً .

لكن كل ما نعرفه عن تماثيل وعمار هذا العصر يدلنا على أنه لم يكن

ينشد غير الأبهة والعظمة ، والفخامة والضخامة ، والهائل الخالى من الشكل ، وكيف يكون الحال غير هذا ، وقد كان عليه أن يستمد فنه من الغرب ، وقد كان الغرب قد انحط فعلا ؟ والشاعر (جيته) يملك حاقة ختم[1] لسابور الأول من حجر الاونكس الذى نحته من غير شك فنان غربى من ذلك العصر ، وربما كان أسير حرب . وأنى لناحت خواتم الساسانيين الظافرين أن يكون أبرع ممن حفر ڤالريان المهزوم ؟ أما عن شكل النقود فى ذلك العصر ، فإنه معروف لنا كل المعرفة مع الأسف . وكذلك العنصر الشعرى والخيالى فى المشيّدات فى ذلك العصر قد انحط شيئا فشيئا ، بفضل مجهودات الذواقة ، حتى بلغ مرتبة النثر التاريخى . وهكذا نرى بوضوح ، فى هذا المثال ، كيف أن شعبا يمكن أن يصل إلى مستوى أخلاقى ودينى مرتفع ، ويحيط نفسه بالأبهة والترف ، لكنه ينبغى أن يعد ، فيما يتعلق بالفنون ، فى عداد الشعوب المتبربرة .

كذلك ينبغى علينا أيضا ، إذا شئنا أن نقدّر الشعر الشرقى والفارسىّ بخاصة حق قدره فى العصر التالى ، وألا نبالغ فى تقديره من أجل أشخاصنا وأمهاتنا ؛ أن نفحص بعناية شديدة أين يمكن أن نجد فى هذه الأيام الشعر الجميل الصادق .

ويبدو أنه لم يأت من الغرب شىء كثير فُقِدَ ، حتى ولا فى الشرق الأدنى ؛ لقد كانت العيون مركزة خصوصاً على الهند ، ولما كان عباد النار والعناصر لا يمكنهم أن يقبلوا ديناً عجيبا بدرجة جنونية ، ولا أن يقصر الناس فى الحياة العملية على فلسفة مجرّدة ، فإنهم لم يستعيروا من هذه البلاد (الهند) إلا ما هو مقبول عن كل الناس ، أعنى الكتابات التى تتعلق بالحكمة العملية ؛ ولهذا اهتم اهتماماً بالغاً بحكايات بيدبا ، وكان هذا كافياً ، للقضاء التام على كل شعر مُقْبل . كذلك استعاروا من نفس المصدر (الهند) لعبة الشطرنج ، وتأثيرها من شأنه أن يقضى على كل عاطفة شعرية ،

---

(١) لا يزال هذا الخاتم موجودا فى مجموعة جيته

بإضافتها إلى تلك الحكمة العملية . فإذا بدأنا من هذه الاعتبارات ، فإنه ينبغى علينا أن نطرى كثيراً ونمجّد قريحة الشعراء الفرس المتأخرين ، متى ما ألهمتهم ظروف سعيدة مواتية ، وأن نعجب كيف قاوموا ظروفاً غير مواتية ، أو تجنبوها أو حتى تغلبوا عليها .

والقُرب من بيزنطة ، والحروب مع أباطرة الغرب ، والعلاقات المتبادلة التى نشأت عن ذلك ، أدت فى النهاية إلى مزيج بفضله أمكن للديانة المسيحية أن تتسلل فى داخل ديانة الفرس القديمة ، رغم مقاومة الموبذان وسائر الساهرين على الإيمان المجوس . وهكذا فإن المتاعب العديدة ، بل الشقاء الأكبر الذى أصاب الأمير الجليل خسرو أپرويز إنما مرده وسببه الوحيد هو أن الأميرة اللطيفة الفاتنة شيرين بقيت مخلصة للديانة المسيحية .

وكل هذا ، حتى لو نظر إليه نظرة سطحية ، يحملنا على الإقرار بأن المبادئ ومناهج العمل عند الساسانيين تستحق كل مديح ؛ لكنها لم تكن من القوة بحيث تحافظ على نفسها ضد الأعداء الذين أحدقوا بها وفى عصر بلغ هذا المبلغ من الاضطراب . وبعد مقاومة شديدة أخضعهم العرب الذين وحدهم محمد [صلعم] وبهذا رفعهم إلى أعلى درجات القوة .

محمـــد

لما كنّا فى تأملاتنا هذه نبدأ من وجهة النظر الشعرية أو على الأقل نعود إليها ، فإن مما يتفق مع غرضنا أن نبدأ بأن نذكر عن هذا الرجل العظيم الخارق للعادة أنه — كما قال هو عن نفسه وأكّد بكل قوة — نبيّ وليس شاعراً ، وتبعاً لذلك أن القرآن يجب أن يعدّ قانوناً إلهياً ، لا كتاباً إنسانياً كُتِب من أجل التعليم أو الإمتاع . فإذا سعينا الآن فى تحديد الفارق بين الشاعر والنبى ، قلنا إن كليهما يلهمه الله ويرعاه ، لكن الشاعر يبدّد الهبة التى وهبها له فى مُتَع ، لإحداث إمتاع ، ولكى يحصل بإنتاجه على المجد أو فى

القليل على حياة ميسّرة . ويهمل سائر الأغراض ، ويحاول أن يكون متنوعاً ، وأن يظهر أنه معين لا ينضب فى أوصاف النفوس والطبيعة . وعلى العكس النبيّ لا يستهدف غير غرض محدّد ؛ وللوصول إليه يستخدم أبسط الطرق . إنه يريد أن يعلن مذهباً ، وأن يجمع حوله وله الشعوب كأنها تجتمع تحت لواء واحد . ومن أجل هذا يكفى أن يؤمن العالم ؛ ومن هنا إذن يجب أن يكون وأن يظل على نبرة واحدة ، لأن المرء لا يؤمن بالتنوع ، بل يدركه إدراكاً .

وكل مضمون القرآن ، ابتغاء التعبير عن الكثير بكلمات قليلة ، موجود فى بداية السورة الثانية ، وهاك نصها : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوةٌ ، ولهم عذاب عظيم » .

وهكذا يكرر القرآن هذا المعنى ، سورة بعد سورة . والإيمان والكفر يتوزعان العالم الأعلى والعالم الأدنى . والجنة والنار : إما للمؤمنين أو للكافرين . وفى القرآن تحديد للأوامر والنواهى ، عن الديانة اليهودية والمسيحية ، وفصول مختلفة ، وآيات متكررة تؤدى نفس المعانى ، وتؤلّف هذا كله مضمون هذا الكتاب المقدس ، الذى نشعر فى كل مرة نتناوله فيها بشعور من النفور فى أول الأمر ، ما يلبث أن يتلوه إقبال وانجذاب وإعجاب ، وفى النهاية يفرض علينا توقيره واحترامه .

لكن السبب الذى يجعل القرآن على أكبر درجة من الأهمية فى نظر المؤرخ نستطيع أن نعبّر عنه بهذه العبارات التى قالها عليم ممتاز : « يلوح أن

الهدف الأساسى للقرآن هو ضم أتباع الأديان الثلاثة السائدة آنذاك فى بلاد العرب الآهلة بالسكان ، وكانوا مختلطين بعضهم ببعض فى الغالب ، ويعيشون يوماً بيوم ، ويتجولون حسبما اتفق بغير راع ولا دليل : لأن الغالبية كانوا من الوثنيين ، والآخرين - من يهود أو نصارى - كانت معتقداتهم خاطئة ومبتدعة . وكان على القرآن أن يوحدهم جميعاً فى معرفة وعبادة الله الواحد الأحد الصمد الذى لا تراه الأبصار ، والذى خلق كل شىء بقدرته البالغة ويمكن أن يخلق ما لم يوجد بعد ، الله سبحانه وتعالى ، الحاكم الأعلى ، الذى يفصل بين الناس ، ربّ الأرباب ، وهذه العقيدة ، بتوكيدها لبعض الشراح وبالعلاقات الخارجية لبعض الشعائر : التى وضع بعضها من قديم ، والبعض الآخر أحدث ، وتجازى بتمثيل العقاب والثواب الوقتيين أو الأبديين ، نقول إنها بهذا قد دعتهم جميعاً إلى اتباع محمد النبى المرسل من الله ، الذى نشر ونصر على الأرض دين الله الحقّ ، بعد النذر المتوالية والوعد والوعيد فى العصور السابقة ، ونصر هذا الدين بقوة السلاح ، حتى يكون الإمام الأكبر والمرجع فى الأمور الروحية والزعيم الأعلى أيضاً فى الأمور الدنيوية »[1] .

فإن وضعنا هذه الأمور نُصْب أعيننا ، لا نجد غضاضة فى أن يسمى المسلم العصر السابق على محمد بعصر الجاهلية ، وأن يؤمن إيماناً جازماً أن النور والحكمة لم يبدآ إلاّ بالإسلام . وأسلوب القرآن يتفق مع مضمونه وغرضه : محكم ، سام ، يثير الدهشة ، وفى مواضع عديدة يبلغ قمة السموّ حقاً . ولهذا ينبغى ألاّ يدهش أحدٌ من التأثير الهائل الذى لهذا الكتاب .

---

(١) هذا الكلام اقتبسه جيته من يعقوب جوليوس (١٥٩٦ - ١٦٦٧) من الملحق الذى الذى ألحقه بنشرته لكتاب « النحو العربى » (باللاتينية) اتوماس اربنس (١٥٨٤ - ١٦٢٤) . وقد وجد جيته فى الترجمة الألمانية للقرآن التى قام بها أرنولد ص ، ٧٩ وما يتلوها (طبعة سنة ١٧٤٦) ونقله حرفياً :

ولهذا فإن المؤمنين الصادقين يرون أنه قديم غير مخلوق سرمدىّ كالله ذاته . ورغم ذلك فقد وجد بعض العقول الحسنة الذين أقرّوا بتفوق العصور القديمة من ناحية الأسلوب والتأليف وزعموا أنه لو لم يشأ الله أن يوحى لمحمد بما يشاؤه وبحضارة مثالية صارت شريعة ، فإن العرب كانوا سيرتفعون شيئاً فشيئاً بأنفسهم إلى هذا المستوى وربما إلى مستوى أعلى ، وكانوا سينمّون معانى أصفى بلغة أصفى .

وكان ثمّ آخرون ، أشدّ تهوراً وطيشاً ، زعموا أن محمداً أفسد لغتهم وأدبهم ، وأن هذا الأدب لن ينهض من هذه الكبوة أبداً . لكن أمعنهم فى الطيش والتهور كان شاعراً رفيع العبقرية بلغت به القحة أنه زعم أنه يمكن أن يقول خيراً مما قاله محمد ؛ بل انضم إليه بعض المبتدعة . ولهذا السبب لمزوه بلقب « المتنبي » ، وبه عُرِف ، ومعناه : من يدّعى النبوة .

وإذا صحّ أن النقد الإسلامى يجد فى القرآن بعض الصعوبات — إذ كانت تذكر آيات لا توجد فى المصحف الآن ، كما أن بعض الآيات تناقض وتنسخ البعض الآخر ، ولا يزال يلاحظ بعض الأمور الموجودة فى النقول المكتوبة — فإن هذا الكتاب سيظل مع ذلك ذا تأثير بالغ فعال جداً إلى الأبد ، لأنه عملىّ فى جوهره ويتلاءم تلاؤماً تاماً مع شعب يؤسس مجده على تقاليده العريقة ويظل متمسكاً بعاداته الموروثة .

ومحمد فى كراهيته للشعر ، يبدو لنا منطقياً تماماً ، لأنه يحرّم كل نوع من الخرافة . فألاعيب الخيال الخفيف الذى يتذبذب بين الواقع والمستحيل ، ويصور غير المحتمل على أنه حقيقى لا شك فيه — كانت تتلاءم تماماً مع الشهوية الشرقية ، وهدوئها الرخو وبطالتها الرخية . وهذه المُبْدَعات الهوائية التى كانت تسبح على أساس من العجائب قد تكاثرت إلى غير حد ، فى زمان الساسانيين ، كما يشهد على ذلك مثلاً « ألف ليلة وليلة » التى

يربطها خيط رفيع . وليلاحظ المرء كيف أن نقول « العهد القديم » وأعمال الأسَر الآبائية ، التى تقوم فى الحق هى الأخرى على أساس الإيمان الكامل بالله ، والطاعة المطلقة وبالتالى على الإسلام ، على نحوٍ ما ، — قد تحولت بواسطته إلى أساطير ، وكيف أنه يعمل على التعبير القوى دائماً عن الإيمان بالله والدعوة إليه بعبارات بارعة ، والثقة به ، والطاعة له ، مستبيحاً لنفسه ، فى تلك الأثناء ، بعض القسمات الخرافية التى يستخدمها دائماً مع ذلك لخدمة غاياته . ومن الأمور الجميلة حقاً أن نقرأ بهذه الروح ونقدر قصص نوح وإبراهيم ويوسف .

الخلفـــاء

ونعود إلى موضوعنا فنقول إن الساسانيين قد حكموا حوالى أربعمائة عام ، وربما كانت آخرة حكمهم ضعيفة السلطان قليلة الفخامة ؛ وكانوا سيستمرون مع ذلك بعض الزمن لو لم يتقدم سلطان العرب إلى حد جعل كل دولة قديمة عاجزة عن مقاومتهم . فى عهد عمر ، بعد وفاة محمد بقليل ، انهارت تلك الدولة التى اتخذت الديانة الفارسية القديمة ونشرت مدنية ذات مستوى خليق بالإعجاب .

وحمل العرب على كل الكتب التى بدت فى عيونهم مجرد كلام فارغ أو ضار ؛ ودمروا كل الأعمال الأدبية بحيث لم يبق لدينا غير شذرات قليلة . ومنع إدخال اللغة العربية مباشرة من إعادة كل ما يمكن أن يسمى بالعنصر القومى . لكن من هذه الناحية أيضاً تغلبت مدنية المهزوم شيئاً فشيئا على بداوة الظافر ، وأخذ الظافرون المسلمون يستمتعون بالترف ، والعادات الأنيقة والبقايا الشعرية التى لدى المقهورين . ولهذا لا يزال يعدّ من أزهى العصور ذلك العصر الذى كان للبرامكة فيه نفوذ فى بغداد . والبرامكة أصلهم من بلخ ، ولم يكونوا من أهل العلم بقدر ما كانوا حماة يرعون الخانقاهات

الكبيرة ومعاهد التعليم ، فحافظوا على النار المقدسة للشعر والفصاحة ، وبواسطة كلمتهم العملية وسموّ مناقبهم تمكنوا من الظفر بمكانة رفيعة أيضاً فى المجال السياسى . فعصر البرامكة يعنى إذن مثال عصر الثقافة والنشاط المحلىّ الحىّ الذى إذا مضى رجّى المرء فى بعثـــه بعد سنوات عديدة فى ظروف مشابهة .

لكن الخلافة أيضاً كانت قصيرة المدة : فإن هذه الإمبراطورية الشاسعة لم تستمر أكثر من أربعمائة سنة ؛ وقام الولاة فى المواطن البعيدة فاستقلوا بولاياتهم شيئا فشيئا ، مع اعترافهم عند الحاجة بالخليفة بوضعه السلطة الروحية التى تمنح الألقاب والمنافع .

ملاحظة على هيئة انتقال

لا أحد ينكر التأثير الفزيائى الجوّى (المناخى) على تطور الأجناس البشرية وصفاتها الجسمانية ، لكن لا يتصور المرء دائما أن شكل الحكومة يحدث أيضاً جوّا معنوياً تنمو فيه الأخلاق والطبائع وتتطور بأشكال مختلفة . إننا لا نتكلم عن الجمهرة ، بل عن الشخصيات الممتازة ذات الأهمية .

فى النظام الجمهورى تتكون أخلاق عظيمة ، سعيدة ، ذات نشاط هادئ وطاهر ، وإذا نمت الجمهورية فصارت أرستقراطية ، نشاهد ظهور أناس جديرين ، قادرين ، منطقيين مع أنفسهم ، راسخين رائعين فى القيادة وفى الطاعة معاً . وإذا وقعت الدولة فى الفوضى يظهر فى الحال أناس جسورون متهورون ، يهزأون بالعادات ، ويعملون بعنف مفاجئ ، وينفون كل اعتدال على نحو مروّع . والطغيان ، فى مقابل ذلك ، يخلق أخلاقاً كبيرة ؛ ونظرات شاملة عاقلة ومتزنة ، ونشاطا محكما ، وثباتاً ومثابرة ، وبالجملة كلّ الفضائل الضرورية لخدمة الطاغية تنمو بين النفوس القادرة وتزودها بالمناصب الأولى فى الدولة حيث يتعلمون فن القيادة .

وهذا ما حدث فى حكم الإسكندر الأكبر ، حتى إنه بعد موته السابق للأوان تبدّى قواده كملوك . والخلفاء ، كوّنوا إمبراطورية شاسعة كان عليهم أن يكلوا إدارتها إلى وُلاة زادت قوتهم واستقلالهم فى نفس الوقت الذى فيه تقلصت قوة الخلفاء . وسنتحدث الآن عن واحد من هؤلاء الرجال الممتازين ، استطاع أن يؤسس مملكة لنفسه استحقها بجدارة ، وبهذا نعرف كيف قام الأساس فى الشعر الفارسى الجديد ونعرف أوليات وجوده البارزة .

محمود الغزنوى

محمود الغزنوى كان أباه قد أسس فى الجبال القريبة من الهند دولة قوية بينما كان الخلفاء يضعفون حتى العجز فى سهل الفرات ، واستمر فى نشاط سلفه ، واشتهر شهرة الإسكندر أو فردريك . ولم يقرّ للخليفة إلاّ كنوع من السلطة الروحية ، يمكن إلى حد ما الإقرار بها من أجل مصلحته ؛ وقد بدأ بأن زاد فى دولته ، ثم غزا الهند بجيش عرمرم وأصاب النجح تماما . كان مسلماً غيوراً على دينه ، لا يعرف الكلل ، صُلْباً فى نشر الدين وتحطيم الوثنية . والإيمان بالله الواحد يؤثر دائماً كمنبه للروح ، لأنه يرد الإنسان دائماً إلى وحدة ذاته . والأقرب إلينا هو النبي الوطنى الذى لا يقتضى غير الخضوع واحترام الشكليات ويأمر بنشر دين يدع المجال حراً لروح الفرقة بالنسبة إلى كل التفسيرات وسوء الفهم ، ويظل مع ذلك هو نفسه فى جوهره .

ومثل هذه الديانة الإلهية البسيطة لا بد أن تجد نفسها فى تناقض عنيف مع الوثنية الهندية ، وأن تثير ضدها رد فعل وكفاحاً ، بل وحروباً دامية للإبادة ، خلالها كانت لذة التدمير وتحويل الدين تستشعر أشد وأقوى بفضل اقتناء كنوز هائلة . لقد حطمت أوثان هائلة غريبة وجد فى جوفها

ذهب كثير وجواهر وحُلِىّ ، وقطعت إلى قطع وأرسلت إلى أماكن عديدة لرصف عتبات الأماكن المقدسة الإسلامية . ولا تزال هذه الأوثان الهائلة الهندوكية كريهة المنظر فى نظر كل مشاهد مهذب الذوق ؛ فأى فزع تكون قد أحدثته فى نفس كل مسلم يحرِّم كل صورة !

ولن يكون من غير المناسب أبداً أن نلاحظ أن القيمة الأصلية لكل دين لا يمكن أن تقدر إلا بعد قرون ، وذلك بحسب النتائج التى قد يؤدى إليها . فالديانة اليهودية ستنشر دائماً نوعاً من العناد المتصلّب ، لكنها فى نفس الوقت تنشر روحاً حرّة واعية ونشاطاً حياً ؛ والديانة الإسلامية لا تطلق أتباعها من عقلية محدودة مختلطة ، لأنها وهى لا تفرض عليهم فروضاً أليمة تسمح لهم ، داخل هذه الحدود ، بكل ما يمكنهم أن يتمنوه وفى نفس الوقت تغذى وتحافظ بما تقدمه من رجاء فى المستقبل ، على الشجاعة والوطنية الدينية .

وديانة الهند لم تكن تساوى شيئاً منذ البداية ، وكذلك لا تساوى شيئاً اليوم ، بسبب آلاف وآلاف آلهتها غير الخاضعين بعضهم لبعض بل كلهم قادرون كل القدرة بالتساوى ؛ إنها لا تفعل إلاّ أن تزيد من اختلاط الصُّدَف فى الوجود ، وأن تنمى عدم معقولية الوجدانات وتشجِّع جنونات الرذيلة بتقديمها على أنها قمة القداسة والسعادة .

وحتى الشِّرْك الأصفى مثل شرك اليونان والرومان قد كان عليه أن ينتهى بالضلال فى طريق سيئ هو وأتباعه . وبالعكس تستحق الديانة المسيحية أعلى مدح ، لأن أصلها الطاهر النبيل لا يكفّ عن أن يتأيد من حيث أنه ، بعد الضلالات الفظيعة التى يقودها إليها عمى الناس ، فإنها لا تتوقف عن الظهور من جديد فجأة لجعل جمال طابعها الأوّلى ، على شكل بعثات تبشيرية ، وجماعات أتقياء ، وطرق دينية ، ابتغاء إرضاء المطالب المعنوية للإنسانية .

فإن كنا نمدح غيرة محطّم الأصنام محمود الغزنوى ، فإننا نُسلّم له أيضاً عن طيب خاطر بالكنوز الهائلة التى ظفر بها فى نفس الوقت ونمجد فيه خصوصا تأسيس الشعر الفارسى ، وتأسيس ثقافة رفيعة : لقد انحدر من أصل فارسى ، ولم يحصر نفسه فى نطاق أفكار العرب الضيقة ، لأنه أحس أن خير أساس للدين يقوم فى القومية ؛ وهذه تقوم على الشعر الذى يسترد أقدم التاريخ على شكل صور خرافية ، ثم ينبثق شيئاً فشيئا للنور والوضوح ويربط هكذا الماضى بالحاضر بواسطة انتقالات غير محسوسة .

وهذه الاعتبارات تفضى بنا إذن إلى القرن العاشر الميلادى : وليُلْقِ المرءُ نظرة على الثقافة الرفيعة ، التى رغم التشرد الدينى ، فرضت نفسها دائماً على الشرق . هنا احتشدت ضد إرادة الحكام البرابرة الضعاف ، بقايا العظمة اليونانية والرومانية وتراث كثير من النصارى البارعين الذين نبذت الكنيسة آراءهم الخاصة ، لأن الكنيسة ، شأنها شأن الإسلام ، كانت تعمل على توحيد الإيمان .

ومع ذلك فإن فرعين للمعرفة والعمل الإنسانيين قد سَمَوا إلى نشاط أكثر حرية !

لقد كان على الطب أن يشفى آفات الكون الأصغر ، وعلى الفلك أن يفسِّر الوعود أو التهديدات التى ستأتى بها السماء ، أحدهما كان عليه أن يكرِّس نفسه للطبيعة ، والآخر للرياضيات ؛ وبهذا زُوِّد كلٌّ منهما وشُجِّع على نحو سخىّ .

بيد أن تسيير الأمور بقى مع ذلك دائماً فى أيدى أمراءَ طغاة ، على الرغم من كل اهتمام ودقة الموظفين ، وهذا أمر خطيرٌ ، وكان على موظفى الديوان أن يتحلى بقدر من الشجاعة وهو يذهب إلى الديوان مكافئ لما يحتاجه البطل من شجاعة ليذهب إلى ساعة المعركة ؛ ولم يكن أحدهما أشد يقيناً من الآخر فإنه سيعود إلى بيته .

والتجار الرحالة أتوا بالمزيد من الثروات والمعارف باستمرار ؛ وكان داخل البلاد ، من الفرات حتى السند ، يتراءى للناظر عالما خاصا من الملاحظات ؛ كتلة من الشعوب فى نزاع بعضها مع بعض ، ورؤساء مقهورون أو ظافرون ترى فيهم العين انتقالا مفاجئاً من النصر إلى العبودية ، من القوة الكاملة إلى الرق ، مما أوحى إلى أناس أذكياء تأملات حزينة فى الشئون الإنسانية وكونها هشَّة كالأحلام .

ولا بد من نظرة تشمل هذا كله وأكثر منه ، ولا بد من السيطرة على الميدان الهائل من التشتت اللانهائى والاستردادات المفاجئة حتى يكون المرء عادلا فى حكمه على شعراء العصر التالى ، وخصوصا الشعراء الفرس ؛ إذ من المتفق عليه أن الاضطرابات التى أتينا على ذكرها لا يمكن أن تكون عنصراً عليه يمكن الشاعر أن يتغذى وينمو ويزدهر . ولهذا نرجو أن يسمح لنا بأن ننعت بصفة الاحتمال الفضل العالى للشعراء الفرس فى العصر الأول ؛ ولا يمكن أن نضيف إليهم أعلى مقياس ، وينبغى أن نضيف إليهم الكثير من الأشياء حين نقرؤهم وأن نغتفر لهم الكثير حين نكون قد قرأناهم .

ملك الشعراء

تجمع كثير من الشعراء فى بلاد السلطان محمود ، ويقال إن عددهم بلغ الأربعمائة ، وتنافسوا فى فنهم هناك . ولما كان كل شىء فى الشرق يجب أن يخضع ويتمثل لأوامر عليا ، فإن السلطان عيّن أميراً للشعراء يقوم بامتحانهم ، والحكم على إنتاجهم ، وتشجيعهم على النظم ، وفقا لقريحة كل منهم . وينبغى أن ننظر إلى هذه الوظيفة على أنها من أكبر الوظائف فى البلاط ؛ لقد كان أمير الشعراء بمثابة وزير كل الشئون العلمية والتاريخية الشعرية ؛ وكانت المِنَح والنِّعم توزع بواسطته على من يدخلون تحت

سلطانه ، وحين كان يخرج في صحبة السلطان كانت تصحبه حاشية كبيرة ذات أبهة بحيث كان يظن أنه بمثابة وزير .

نقول :

إذا كان على الإنسان أن يفكّر فى أن ينقل إلى الأجيال التالية معرفة الأحداث التى تمسّه عن قرب ، فلا بد له أن يشعر بنوع من الرضا بالحاضر ، وأن يستشعر قيمته الكبيرة . هنالك يبدأ بأن يحدّد فى ذاكرته ما تعلمه من آبائه وينقله مغلّفاً بالخرافات ؛ لأن النقل الشفوى يزداد جمالاً باستمرار ، وذلك بالخرافات والحكايات . لكن حين اختُرعت الكتابة واستولت لذة الكتابة على شعب قبل غيره ، تولدت أخبار حافظت على الإيقاع الشعرى ، حتى بعد أن اختفى شعر الخيال والعاطفة منذ زمان بعيد . والعصر الأحدث يقدّم إلينا رسائل ومذكرات أكثر تفصيلا ، وسير حياة ذاتية على أشكال متنوعة .

وفى الشرق أيضا نجد وثائق قديمة جداً عن حضارة شاملة رائعة . وحتى لو كانت كتبنا المقدسة لم تسجّل كتابةً إلا عصر متأخر ، فإن أساسها يقوم مع ذلك على نقول قديمة جداً تستحق أن تُفحَص بمزيد من الاحترام . وفى الشرق الأوسط — ونستطيع أن نطلق هذا الاسم على فارس والبلاد المحيطة بها — كم من ملامح تولدت فى كل لحظة وحوفظ عليها على الرغم من كل ألوان التخريب والتشتيت ! لأنه لو كان من المفيد ، من أجل تقدم حضارة بلاد شاسعة ، لا تكون قد خضعت لسيّد واحد ، بل أن تكون قد وزعت بين كثيرين ؛ فهذه الحال نفسها يمكن أيضا أن تفيد فى المحافظة ، لأن ما يفنى فى مكان يمكن أن يبقى فى آخر ، وما يُطْرد من زاوية يمكن أن يجد ملجأ له فى أخرى .

وعلى هذا النحو ، وعلى الرغم من كل ألوان الدمار ، فإن عدداً

من النسخ المنقولة عن الأصول القديمة قد بقيت محفوظة ، وأعيد نسخها أو تجديدها من عصر إلى عصر . فنجد مثلا أنه فى عهد يزدجرد ، آخر الساسانيين ، ألِّف تاريخ للإمبراطورية ، من المحتمل أن يكون قد تم تحريره بمساعدة أخبار قديمة مشابهة لتلك التى قرئت على أحشوردش ، بحسب ما ورد فى سفر « أستير » (من الكتاب المقدس) فى ليالى أرقه .

وقد بقيت نسخ من هذا الكتاب ، وعنوانه : « باستان[1] نامه » : ذلك أنه بعد ذلك بأربعمائة سنة ، فى أيام حكم منصور الأول ، من السامانيين ، بُدِئ فى إعادة كتابته ، لكن لم يتم ذلك ، وجاء الغزنويون فقضوا على السامانيين . لكن محموداً ، ثانى أمراء هذه الدولة الغزنوية ، كانت لديه نفس الحماسة ، فوزع سبعة أجزاء من « باستان نامه » على سبعة شعراء من شعراء بلاطه . وقد تفوق الشاعر عُنصرى فنال الرضا من سيده (محمود) ؛ فعينه أميراً للشعراء وكلفه بإعادة كتابة الكل . لكن عنصرى ، وكان كسولا وواعياً ، فاستطاع تأجيل العمل وودّ ، بدون ضوضاء ، أن يجد أحداً يستطيع القيام بهذا العمل .

فردوسى

(توفى سنة ١٠٣٠ م)*

والعصر المهم للشعر الفارسى الذى ننظر فيه الآن يهيئ لنا الفرصة لملاحظة أن الأحداث الكبرى العالمية تتطور فقط حين تتحرك وتنمو فى صمتٍ بعضُ الميول والأفكار والمشروعات ، المبذورة هنا وهناك ، حتى يتجلى ، عاجلا أو آجلا ، فعلٌ جمالى عام فى النهاية . وبهذا المعنى فإنه من الرائع جداً أنه فى نفس الوقت الذى فكر فيه أمير قوىّ أن يبعث الأدب

(١) أى : « كتاب التاريخ القديم » .

(*) توفى الفردوسى سنة ١٠٢٠ أو ١٠٢٥ = ٤١١ أو ٤١٦ هـ على وجه التقريب .

القومى ، قام ابن بستانى ، من طوس ، وحصل على نسخة من « باشتان نامه » وكرّس قريحته الجميلة التى وهبتها إياه الطبيعة لهذه الدراسات .

وبقصد رفع شكوى ضد والى المقاطعة بشأن أمر ، ذهب إلى البلاط وحاول عبثا ، ولوقت طويل ، الوصولَ إلى عُنْصرى ليتوسط له فى مسألته . وأخيراً كان لبعض الأبيات الجميلة الحافلة بالمعانى التى نظمها ارتجالاً ، الفضل فى التعرّف إلى أمير الشعراء ، الذى أدرك قريحته ، فساعده وكلفه بذلك التأليف الكبير . وشرع فردوسى فى نظم « الشاهنامه » فى ظروف مواتية ، وفى البداية حصل على أجر جزئى كاف ؛ لكن بعد عمل دام ثلاثين سنة ، لم ينل من السلطان المكافأة التى كان يتوقّعها . فامتلأ غمًّا لضآلة هذه المكافأة ، وترك البلاط ، ومات فى نفس اللحظة التى تذكره السلطان فيها من جديد ليجزل له العطايا . وعاش السلطان محمود بعد وفاة الفردوسى بسنة واحدة تقريبا ، فى أثنائها أتم أسدى ، الشيخ العجوز وأستاذ الفردوسى نظم « الشاهنامه »[1] .

وهذا الكتاب (« الشاهنامه ») تمثال قومى تاريخى أسطورى مهم جادّ ، جمعت فيه أخبار أصل ووجود وأفعال الأبطال القدماء . ويتعلق بالماضى القريب أو البعيد ؛ ولهذا يسود العنصر التاريخى ، بينما أساطير الماضى تنقل إلينا ، من وراء حجاب ، بعض الحقائق التقليدية القديمة .

ويلوح أن الفردوسى كان كفئاً تماما للقيام بهذا العمل لأنه كان مولعاً

---

(١) أسدى هو أبو نصر أحمد بن منصور الطوسى . وقد ذكر دولتشاه فى « التذكرة » أنه عرض على الأسدى نظم الشاهنامه ، فاعتذر بكبر سنه ، و « وكل إلى تلميذه الفردوسى أن يقوم بنظمها . فلما رقد الفردوسى على فراش الموت فى طوس وأخذ يجود بأنفاسه الأخيرة كانت أربعة آلاف بيت من ملحمته ما زالت باقية لم يكملها ، فتولى الأسدى إكمالها فى يوم وليلة ، ثم قرأها عليه فى صبيحة اليوم التالى ، وبذلك استطاع أن يثلج صدر الفردوسى وهو فى النزع الأخير » . (تاريخ الأدب فى إيران » لادوارد براون ، ترجمة الدكتور إبرهيم الشواربى سنة ١٩٥٤ ص ١٣٩) .

جداً بما هو قديم وقومىّ حقاً ، وأنه فيما يتعلق باللغة أيضاً سعى منذ وقت مبكر إلى بلوغ الصفاء والقوة القديمتين ، مع السعى فى نفس الوقت لاستبعاد الكلمات العربية واحترام الفهلوية القديمة .

أنورى

(المتوفى سنة ١١٥٢)[١]

درس فى طوس ، وهى مدينة شهيرة بمعاهد العلم المهمة ، بل تتهم بالإفراط فى الثقافة . وكان ذات يوم على باب المدرسة فشاهد سيداً يركب فرساً ووراءه حاشية فخمة ، وعلم بدهشة أنه شاعر فى البلاط ؛ فقرر أن يصل إلى هذا المركز الرفيع . وارتجل قصيدة فى ليلة واحدة صار بها ملحوظ المكانة عند الأمير ، وقد بقيت لنا .

وهذه القصيدة وأخرى غيرها وصلتنا تكشف لنا عن روح صافية ، ذات فطنة لا حدّ لها ؛ ونفوذ حاد سعيد . إنه يسيطر على مادة هائلة . ويعيش فى الحاضر ؛ وكما انتقل مباشرة من حالة التلميذ إلى حالة رجل البلاط ، فكذلك صار مدّاحاً حراً ، ووجد أنه لا مهنة أجمل من اختلاب معاصريه بمدحهم . فأغدق المدح على الأمراء والوزراء ، والنساء الجميلات والنبيلات ، والشعراء والمغنين ، وعرف كيف يستعمل كل منهم الزينة التى انتزعها من كنز العالم الكبير .

ولهذا لا نستطيع أن نعدّ من العدالة أن يلام بعد كل هذه القرون على الأحوال التى عاش فيها واستغل قريحته وفقها . وإلا فماذا كان سيصير له أمر

---

(١) يرى زوكوفسكى واتيه أن وفاته فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) أو بين سنتى ٥٨٥ و ٥٨٧ هـ (١١٨٩ – ١١٩١ م) . راجع عن أنورى « تاريخ الأدب فى إيران لادوارد براون حـ ١ ص ٤٦٢ – ٤٩٤ من الترجمة العربية .

الشاعر إن لم يوجد أناس كبراء ، أقوياء ، عقلاء ، نشطاء ، جميلون ماهرون فضائلهم تلهمه . إنه يتعلق بهم تعلق الكرم بالعريشة أو العليق بالجدار كي يرتفع إلى الأعالي ، ويسر من ناظريه وقلبه . أو ناوم الصائغ الذي يقضي عمره في صوغ حلىّ رائعة لأشخاص كبار ، من الأحجار الكريمة في الهند والسند ؟ أمن العدل أن نطلب منه أن يحذف مهنة البلاّط ، وإن كانت مهنة مفيدة ؟

لكن بقدر ما كان شاعرنا موفقاً على الأرض ، كان غير موفق مع السماء فقد تنبأ بنبوءة فلكية هائلة أثارت الناس ، مفادها أنه في يوم معلوم ستثور ريح هائلة عاصفة تخرّب البلاد ؛ وجاء اليوم الذي حدده فلم يقع شيء [ولا طوال العام] ولم يستطع الشاه نفسه حماية شاعره الذي يحميه ، أن يحميه من الغضبة العامة في القصر والمدينة عليه . فهرب . وحتى في المكان البعيد الذي هرب إليه ، لم يحفظه إلاّ حزم الحاكم الذي كان يحبه :

ومع ذلك يمكن صون شرف هذا المنجّم إذا أقررنا بأن قران كل هذه الكواكب في برج واحد كان إيذاناً بقدوم جنكيز خان الذي أحدث في فارس من الخراب أكثر مما يمكن أن تحدثه أية عاصفة .

نظامي

(المتوفى سنة ١١٨٠م)[1]

روح لطيفة رقيقة الموهبة اختارت مادة لنشيدها وصف أرق حب في

---

(١) ولد في مدينة گنجه (وتعرف الآن باسم اليزاڤتبو) في سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ – ١١٤١ م) ، ومات في ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ – ١٢٠٣) ، على حسب قالهم باخر . ونحن نجد دولتشاه يجعل وفاته في سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ – ١١٨١ م) – وعليه جرى جيته هنا ؛ بينما حاجي خليفه يضعه بين سنة ٥٩٦ (١١٩٩) و ٥٩٩ هـ (١٢٠٣) وهذا الأخير هو الذي برهن على صحته بآخر في رسالته الممتازة عن « حياة ومؤلفات نظامي » (ليپتسك سنة ١٨٨١) .

الأثر المتبادل الذى يحدثه ، بعد أن استنفد فردوسى كل النقول البطولية ؟ إنه يقدم إلينا المجنون وليلى ، خسرو وشيرين ، زوجين من المحبين ، خلق كل منهما للآخر كما دلت المشاعر ، والمصير ، والطبيعة ، والعادة ، والميل ، والوجدان ، وأخلص كلٌ منهما للآخر ؛ ثم فرّق بينهما الهوى ، والعناء ، والصدفة ، والقوة القاهرة والقَسْر ؛ ثم جُمعا بعد ذلك على نحو عجيب ، وانتزع كلٌ منهما من الآخر بأحداث مختلفة ، وافترقا إلى الأبد .

هذه الموضوعات والطريقة التى بها عولجت تثير فينا حنيناً مثالياً . إننا لا نعثر أبداً على الرضا الحق . والسحر كبير ، والتنوع لا حد له .

وقصائده الأخرى ، ولها غايات أخلاقية مباشرة ، يفوح منها نفس الصفاء الحبيب . وكل ما يحدث للإنسان من أمور غامضة ، يرده هو إلى العمل ، ويجد فى العقل الأخلاقى خير حلّ لكل الألغاز .

وقضى حياته هادئة ، وفقاً لنشاطه الهادئ ، فى أيام السلاجقة ؛ ثم دفن فى المدينة التى ولد فيها ، وهى گنج .

جلال الدين الرومى

(المتوفى ١٢٦٢)

صحب أباه فى رحلة طويلة قام بها بسبب نزاع على السلطان اضطر معه إلى مغادرة بلخ ، وفى الطريق إلى مكة لقيا العطار ، الذى أعطى الفتى كتاب الأسرار الإلهية ، وأشاع فى نفسه حب الدراسات الصوفية .

وبهذه المناسبة نلاحظ أن للشاعر الحقّ رسالةً هى أن يعكس روعة العالم وأن يصير بهذا مستعداً للمدح أكثر منه للذم . وتبعاً لهذا فانه يبحث دائماً عن أسمى الأمور ، وبعد أن يستعرض كل شىء ، يكرّس عبقريته لتمجيد الله وحمده . والشرقىّ ، على وجه التخصيص ، يستشعر هذه الحاجة ، لأنه يطمح

دائماً إلى البلاغة وفخامة العبارة ويعتقد أنه يجـد ذلك في تمامه فى تأمل الألوهية ؛ وهنا ، على الأقل ، مهما يكن الأسلوب الذى يعالج به موضوعه ، فلا يستطيع أحد أن يتهمه بالمبالغة .

وما يسمى السُّبْحة الإسلامية ، التى يُسَبَّح عليها بأسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، هى نوع من التحميدات والمدائح . فنطلق على الله أسماء تدل على صفات إيجابية وصفات سلوب ، والله لا يحيط به عقل ، والعابد يُدْهَش ، ويُسْلم أمرُه ، وتطمئن نفسه . وبينما الشاعر الدنيوى يخلع على أشخاصه الصفوة كمالات حلم بها ، فإن مَن كرّس نفسه لمدح الذات الإلهية يلجأ إلى الموجود غير المشخَّص ، الذى ينفذ منذ الأزل ، فى كل شىء .

وعلى هذا النحو نجد العطار يهرب من البلاط ليتفرغ لحياة التأمل ؛ وجلال الدين ، وهو شاب ، وقد ابتعد هو الآخر عن الأمد والعاصفة ، كان مستعداً للاشتغال بالدراسات العميقة .

ولما أتم الحج ، اجتاز آسيا الصغرى مع أبيه ؛ واستقرا فى قونية . وهناك قاما بالتدريب ، ولقيا الاضطهاد ، ونفيا ، ثم ردت إليهما وظائفهما ، وأخيراً دُفنا مع واحد من أخلص تلاميذهما . وفى هذه الأثناء كان جنكيز خان قد استولى على فارس دون أن يمسّ الركن الهادئ الذى أقاما به .

وبعد هذا العرض ، ينبغى ألا يأخذ أحدٌ على هذه الروح العظيمة (جلال الدين) أنها اتجهت إلى التجريد . ومؤلفاته فيها تنوع غريب . حكايات ، خرافات ، أمثال ، أساطير ، نوادر ، أمثلة ، مشاكل ، كل هذا يستغله جلال الدين ابتغاء إيضاح مذهب مستسرّ لا يستطيع أن يوضحه بنفسه مباشرة . وغرضه التعليم والإفادة ، لكنه على وجه العموم يسعى بواسطة مذهب الوحدة إن لم يكن إلى إرضاء كل طموح حنينى ، فعلى الأقل لتهدئة هذا الشوق وإلى أن يفهّمنا أن كل شىء سينحلّ فى النهاية ويتجلى ويعظم فى الموجود الإلهى .

سعدى

(توفى سنة ١٢٩١ م ، وهو فى سن المائة واثنتين سنة)[١]

ولد فى شيراز ، ودَرّس فى بغداد ، وفى شبابه اتجه إلى تكريس نفسه لحياة السياحة كمتصوف درويش ، نتيجة حبّ بائس . وبعد أن حج إلى مكة خمس عشرة مرة ، وصل فى تجواله إلى الهند وآسيا الصغرى بل وإلى الغرب أسيراً أسره الصليبيون . ومرّ بمغامرات عجيبة ، لكنه ظفر بمعرفة دقيقة بالبلاد والناس . وبعد ثلاثين عاماً انسحب من الدنيا ، وكتب مؤلفاته واشتهر اسمه . لقد أثرى من تجربته الواسعة ، فصار لديه كنز من الحكايات استطاع أن يزينها بالحِكَم والأشعار . وكان هدفه الأساسى هو تعليم قرائه وسامعيه .

وعاش فى شيراز حياة العزلة ، وعُمّر حتى بلغ من العمر مائة واثنتين سنة ، ودُفِن . وكان خلفاء جنكيز خان قد جعلوا من إيران مملكة خاصة يمكن المرء أن يعيش فيها بسلام .

حافظ

(توفى سنة ١٣٨٩ م)

من يذكر أنه فى منتصف القرن الماضى وجدت بين البروتستنت فى ألمانيا طائفة من رجال الدين بل وبعض أهل الدنيا كانوا يعرفون الكتاب المقدس

(١) مشرف الدين بن مصلح الدين بن عبد الله ؛ ولد فى مدينة شيراز حوالى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) ، وتوفى فى سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) . وتنقسم حياته إلى ثلاث فترات : فترة التحصيل وقد استمرت حتى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) وقد أمضى أكثرها فى بغداد ، حيث تتلمذ على شهاب الدين السهروردى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، كما لقى أبا الفرج بن الجوزى . والفترة الثانية هى فترة الترحال ، فقد بدأ سنة ٦٢٤ هـ فى التجوال والأسفار طوال ثلاثين عاماً ما بين الهند شرقاً إلى الشام والحجاز غرباً . والفترة الثالثة هى فترة الاستقرار والتأليف . فقد عاد إلى شيراز فى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) . وفى السنة التالية نشر كتابه « بوستان » ثم « گلستان »

حتى كانت بمثابة كشافات حيّة ، يتمرنون على بيان أين توجد كل آية ، ويعرفون عن ظهر قلب النصوص الرئيسية ، ويحسنون الاستشهاد بها فى كل التطبيقات الممكنة — نقول إن من يذكر هذا يوافق بسهولة على أن هؤلاء الناس لا بد أنهم وجدوا فى ذلك عنصراً رائعاً من عناصر التثقيف ، لأن الذاكرة ، وهى مشغولة دائماً بأمور رفيعة سامية ، كانت تحتفظ للشعور والحكم بمواد صافية للاستمتاع والتطبيق . وكانوا يلقبون بلقب « الأقوياء فى الكتاب المقدس bibel fast » ، وكان هذا اللقب عنوان شرف ، ومُرَشِّحاً ثميناً .

وما كان عندنا معشر المسيحيين ، يستمد أصله من استعداد طبيعى وإرادة خيِّرة ، كان عند المسلمين فرضاً واجباً : فكما كان يعدّ من الأمور الفاضلة أن يكثّروا أو يعملوا على تكثير نُسَخ القرآن ، كان من الأمور التى لا تقل فضلا أن يستظهروا القرآن ليكون فى استطاعتهم الاستشهاد بالآيات المناسبة عند الحاجة ، وليزدادوا تقى ، ويسكّنوا النزاعات . وكان يطلق على هؤلاء الأشخاص لقب « حافظ » وهو لقب تشريف ، وهو لقب بقى لشاعرنا بمثابة اسم له .

ولم يكن القرآن يُقْرأ حتى صار موضوع تفسيرات عديدة ، تُزوّد بأدق الحجج ؛ ولما كان يوقظ عقل كل إنسان ، فقد نشأت آراء مختلفة كل الاختلاف ، وتأويلات موغلة فى التفسير ؛ وحاول البعض أن يضعوا علائق بعيدة كل البعد عن العقل ، حتى إن الرجل الذكى المستقيم النفاسر كان عليه أن يبذل مجهوداً متواصلا للعود البسيط إلى نص خالص سليم كأساس لتأملاته . ولهذا أيضاً نجد فى الإسلام براعة ، كثيراً ما تثير الإعجاب ، فى التفسير ، والشرح ، والتطبيق والاستعمال .

وأجل مواهب شاعرنا قد كرست لهذا اللون وأعدّت ، [illegible] كان حافظ

يحفظ القرآن كله ، ولم يكن يجهل أى أفكار تقوم على أساسه وهو نفسه يقول :

إن بالقـرآن حُقَّق كلُّ ما أفلحت فيه

وقام بالتدريس درويشاً وصوفياً وشيخاً فى مسقط رأسه : شيراز ، التى بقى فيها دائماً ، محاطاً بالتجلّة من جانب أسرة مظفر وأهله . وعُنى بالدراسات الدينية والنحوية وجمع حوله عدداً كبيراً من التلاميذ .

ولكن أشعاره تناقض تماماً هذه الدراسات الجادة وممارسة مهنة التدريس ، لكن يمكن حل هذا التناقض بأن نقول إن الشاعر ليس مُلْزَماً بأن يفكر ويعيش تماماً بحسب ما يقوله ، خصوصاً من وجد نفسه ، فى سن متقدمة ، وسط ظروف معقدة ، يقترب فيها دائماً من تمويهات البلاغة ويقول ما يلذّ لمعاصريه سماعه . وتلك هى تماماً حالة حافظ . لأنه كما أن حاكى الحكايات لا يعتقد فى كل ألوان الانسحار التى يدهشنا بها ، لكنه يسعى لتقديمها على شكل حىّ معبِّر قدر المستطاع حتى يجد فيها السامعون متعتهم ، فإن الشاعر الغنائى هو الآخر لا يحتاج أن يضع موضع التنفيذ كل الأشياء التى يسرُّ بها القرّاء ويتملقهم ، أو المغنين من الطبقة العالية أو الواطئة . ويلوح أن شاعرنا لم يَعْزُ قيمة كبيرة لأغانيه ، وكانت تتدفق من ينبوع ثرّ بسهولة ؛ لأن تلاميذه لم يجمعوها إلا بعد وفاته .

ونقول القليل عن هذه القصائد ، لأنه لا بد أن يتذوقها المرء ، وأن يتناغم وإياها . إنه يتدفق منها سيل من الحياة لا ينقطع ، حافل بالاتزان . كان راضيا ببساطة حاله ، فرحا ، حكيما ، يشارك فى خيرات هذا العالم ، ويلقى بنظرة بعيدة على أسرار الألوهية ، منصرفا عن أداء الفروض الدينية وعن لذات الحواس فى وقت واحد ، حتى إن نوع شعره ، وإن كان يبدو أنه يعظ ويُعلّم ، يحتفظ بحركة شكّية دائما .

جامى

(توفى سنة ١٤٩٤ ، وهو فى سن الثانية والثمانين)

تلقى جامى حصاد الإنتاج السابق واطلع على خلاصة الثقافة الدينية والفلسفية والعلمية نثراً وشعراً . وكان من حظه العظيم أنه ولد بعد وفاة حافظ بثلاث وعشرين سنة ، وأنه وجد ، فى شبابه ، ميداناً فسيحاً مفتوحاً أمامه . والكمال فى الوضوح والحكمة كان نصيبه . حاول أن يحقق كل شىء ، وبدا فى نفس الوقت حسيّاً وفوق كل حسىّ ؛ وفخامة العالم الواقعى وعالم الشعراء ينبسط أمامه ، وهو يتحرك بين كليهما . ولم يكن التصوف مزاجه ؛ لكن لما كان لا يستطيع بدون التصوف أن يتم دائرة الاهتمام القومى ، فقد عرف تاريخيا كل ألوان الجنون التى اعتقد الإنسان ، وهو سجين طبيعته الأرضية ، أنه يقترب بواسطتها شيئا فشيئا من الرؤية المباشرة لما هو إلهى وأن يتحد به فى النهاية ؛ بينما ، فى النهاية ، لا يرى غير أشكال مروعة منافية للطبيعة والعقل تنكشف له . وماذا يعمل الصوفى غير أن يتسلل إلى جوار المشاكل أو يستبعدها إذا استطاع !

أفق

شاء بعض الناس أن يستنتجوا من حسن ترتيب ملوك روما السبعة الأوائل أن تاريخهم خرافة حسنة التأليف قصد إلى ترتيبها قصداً . لكننا نحن لا نريد أن نقطع برأى فى هذه المسألة ، بل نلاحظ ، على العكس ، أن الشعراء السبعة الذين ينظر إليهم الفُرْس على أنهم الأوائل ، وقد ظهروا متتابعين فى فترة خمسمائة سنة ، أنهم فى مواجهة بعضهم بعضا فى ارتباط معنوى وشعرى يمكن أن يبدو لنا مخترعاً إذا كانت الأعمال التى تركوها لا تدل على وجودهم معاً .

ومع ذلك فإننا إذا تأملنا فى هذه الثريّا (النجوم السبعة)، كما نستطيع ذلك على مبعدة، فإننا نجد أن كل واحد منهم كانت له عبقرية أحسّوا عن طريقها بتفوقهم على معظم الناس الممتازين جداً، وعلى جمهور القرائح المتوسطة والمعتادة، وأنهم إلى جانب ذلك ظهروا فى زمن خاص فى موقف فيه استطاعوا أن يحصدوا حصاداً غنيا، بل وأن يسيئوا، لزمن ما، إلى تأثير أخلاقهم ذوى القرائح أيضا، حتى مضى عصر جديد استطاعت فيه الطبيعة أن تفتح أمام الشاعر المدخل إلى كنوز جديدة.

وبناء على هذه الفكرة نستعرض مرة أخرى شعراءنا، ونذلى بالملاحظات التالية:

فردوسى وضع يده على كل تواريخ الدولة والإمبراطورية كما كونتها الأسطورة أو التاريخ، حتى لم يبق لخلفه إلا أن يحيل إليها أو يشرحها، لا أن يعالجها أو ينميها من جديد.

وأنورى تشبث بالحاضر. كان لامعاً، رائعا كالطبيعة، فرحا غنيا بالمواهب يتطلع إلى بلاط شاهه؛ والجمع بين العالمين ومزاياهما فى أنتن لغة — كان بالنسبة إليه واجباً ومتعة معا. ولم يكن له فى هذا كفء.

ونظامى استولى بطاقة محبوبة على كل ما وجد، فى ميدانه، من أساطير الحب أو الحكايات نصف العجيبة. والقرآن لمّح إلى إمكان استغلال النقول القديمة المختصرة فى تحقيق هدف محدّد، وعرضها بشكل ممتع بمساعدة شىء من الإسهاب.

وجلال الدين الرومى لا يشعر بالرضا فى ميدان الحقيقة المشكلة ويسعى إلى أن يحل — على نحو روحى بارع — ألغاز الظواهر الباطنة والخارجية؛ ولهذا فإن مؤلفاته تضع مشاكل جديدة تولّد حلولا جديدة وشروحاً جديدة.

وفى النهاية يشعر بأنه مدفوع إلى الالتجاء إلى مذهب وحدة الوجود ، الذى به يكسب المرء بقدر ما يخسر ، وفى نهايته لا يبقى غير صفر بواسى بقدر ما يُوحِش . كيف يمكن اتصـالا ما فى الشعر أو النثر أن ينجح من جديد ؟ بالحظ .

وسعدى الممتاز يدخل العالم الفسيح فيصل محملا بتفاصيل لا حصر لها من تجاربه التى يجد فى كل منها ما يمكنه أن يستعيره . ويشعر بضرورة التركيز ، ويقتنع أن واجبه هو أن يُعلّم ، ولهذا صار ، بالنسبة إلينا نحن الغربيين ، خصباً مفيداً أكثر من غيره .

وحافظ ، القريحة العظيمة الصافية ، الذى يَقْنَع بأن يُبْعِد عن نفسه كلّ ما يَطلبه الناس ، وأن ينحّى جانبا كل ما لا يستغنون عنه ، وفى نفس الوقت يبدو دائما رجلا يستمتع بالحياة مثلهم . ولا يمكن تقديره حق قدره إلاّ فى دائرة أمته وزمانه . فإذا فهِم بقى رفيقاً فى الحياة لطيفا . وحتى اليوم ، الجمّالون والبغّالون يواصلون إنشاد أغانيه ، على نحو أقرب إلى اللاشعور منه إلى الشعور ، وهذا ليس بسبب المعنى الذى يلذ له أن يضعه فى الشعر ، بل بسبب مزاج نفسه الصافية اللطيفة التى يفيض بها من حوله : فمن ذا الذى يستطيع أن يخلفه ، وقد استولى أسلافه على كل الباقى ، اللهم إلا

جامى ، الذى كان كفءاً لكل ما تم قبله وفى حياته . ولما كان قد جمع كل هذا فى باقات ، وحاكاه ، وجدّده ، وتوسع فيه ، ولما كان قد وحد فى نفسه بوضوح تام فضائل ونقائص أسلافه ، فإنه لم يبق لخلفائه إلا أن يصنعوا صنيعه ، بالقدر الذى به لم يسقطوا ؛ وهذا ما حدث طوال ثلاثة قرون . وبهذه المناسبة نلاحظ أنه ، عاجلا أو آجلاً ، إذا كانت الدراما قد تحولت ، وأن شاعراً من هذا الطراز قد وُجِد ، لكان كل التطور الأدبى قد اتخذ مجرى آخر .

وإذا كنا قد تجاسرنا على أن نرسم بخطوط قليلة خمسمائة سنة من الشعر والبلاغة الفارسيين ، فإننا نرجو من أصدقائنا ، على حد تعبير كونتليان شيخنا القديم ، أن يتقبلوا هذا الموجز تقبل الناس للأعداد المستديرة ، لا من أجل الحصول على تحديد دقيق ، بل من أجل التعبير عن حقيقة عامة على نحوٍ مبسَّط تقريبى .

ملاحظات عامة

إن خصب وتنوع الشعراء الفُرس يرجعان إلى اتساع العالم الخارجى الشاسع وثروته التى لا حد لها . إن حياة عامة مضطربة دائماً فيها كل الأشياء لها نفس القيمة تسبح أمام خيالنا ، ولهذا فإن مقارناتها تبدو لنا فى الغالب غريبة مؤذية . إنهم يرتبطون دون حرجٍ بين أشرف الصور وأخسّها ، وهذا مسلك لا نألفه نحن بسهولة .

لكن لنقل بصراحة : إن الذي يحيا حقا ويتنفس بحرية وعمليا ليس لديه إحساس جمالى ولا ذوق ؛ والواقع يكفيه فى الفعل ، والمتعة والتأمل كما فى الشعر ؛ وإذا كان الشرقىّ ، ليحدث تأثيراً غريبا ، يزاوج بين أشد الأشياء اختلافا ، فالألمانى ، الذى يقع له هذا أحيانا ، ينبغى ألا ينظر إلى الشرق عن عُرُضٍ لهذا السبب .

والاضطراب الذى تحدثه أمثال هذه النتاجات فى الخيال يمكن أن يقارن بالاضطراب الذى تحدثه فينا نزهةٌ خلال سوق شرقية ، أو سوق أوربية . فأثمن السلع وأخسّها ليست مفصولة فى المكان بعضها عن بعض ، بل تختلط فى نظراتنا ، وكثيراً ما نشاهد البراميل أو الصناديق أو الزكائب التى حملت فيها . فمثلا فى سوق فاكهة وخضار لا نشاهد فقط النباتات ، والجذور والثمار ، بل وأيضا هنا وهناك كل أنواع الفضـلات والقشورِ الفارغة والبقايا .

أضف إلى هذا أنه لا يكلّف الشاعرَ الشرقيّ شيئا أن يرفف من الأرض إلى السماء كى يأتى بنا من جديد على الأرض ، أو بالعكس . فالشاعر نظامى استطاع من رؤية جيفة كلب تتعفن وتتحلل أن يستخلص عبرة تدهشنا وتعلمنا .

كان السيد المسيح يجوب العالم
فمرّ ذات يوم بالقرب من سوق ؛
وكان كلب ميت مطروحا على قارعة الطريق
أمام باب بيت من البيوت ؛
وتجمع حشد حول الجيفة
كما تتجمع الرخم حول الجيف ؛
قال أحدهم : إن مخى
اخترق من النتن .
وقال الآخر : لماذا كل هذا الكلام ؟
إن جوف القبور لا يأتى إلا بالبلاء .
وهكذا أنشد كل واحد أنشودته ،
فى ذمّ جسم الكلب الميت ؛
وجاء دور المسيح
فقال بغير ذم ، قال بإحسان
وبما طبع عليه من حب الخير :
أسنانه بيضاء كاللآلىء .
فاحمرت وجوه الحاضرين خجلا
كأنها محار وضع فى النار .

لقد شعر كل واحد بالخجل حينما سأل النبي المحسن البارع ، بالطريقة الخاصة ، الرحمة والمغفرة . ويالها من قوة تلك التي بها أعاد الحشد إلى رشده ، وجعله يخجل من لعناته وسبابه ، ويتأمل ، ربما بحسد ، ميزة ربما لم ينتبه إليها ! هنالك أفكر كل واحد من الحاضرين فى أسنانه هو . والأسنان الجميلة تقدر جداً على أنها هبة من الله ، خصوصاً فى الشرق . وهذا المخلوق الذي يتعفن ويتحلل بصير ، بكمال يبقى فيــه ، موضوع إعجاب وتأملات ورعة .

لكن التشبيه الذى يختم الحكاية أشق فى الفهم وأقل إدهاشاً ؛ فلنأخذ فى إيضاحه .

فى المناطق التى لا توجد فيها طبقات جيرية تستخدم المحارات فى تحضير مادة لا غنى عنها فى البناء : تجمع بين أغصان جافة ، وتحترق بالنار المشتعلة . والشاهد لا يملك نفسه من أن يشعر بأن هذه الكائنات ، التى وهى حية كانت تتغذى وتنمو فى البحر ، ولا تزال تستمع على طريقها بلذة الحياة الكلية ، والآن وهى تحترق ولكنها لم تستهلك بعدُ ، تحتفظ بشكلها كاملاً ، وإن كانت كل حياة فيها قد تحطمت . فلنفترض الآن أن هذه البقايا العضوية تظهر حتماً مشتعلة فى نظر المشاهدين ، فلا يستطيع المرء أن يتخيل رمزاً أحفل بالتعبير عن شقاء النفس الخفىّ العميق . فإذا شاء أحد أن يظفر برؤية كاملة عنه ، فليطلب من كيميائى أن يضع أمامه محارات من أم الخلول فى حالة فصفرة : هنالك يوافقنا على أن الشعور الحادّ الذى ينفذ فى الإنسان حين يصيبه لدمٌ يستحق فجأة فى وسط وهم الرضا الساذج بالذات ، لا يمكن أن يوصف على نحوٍ أشد ترويعاً .

ويجد المرء مئات من هذه الرموز التى تفترض رؤية مباشرة فى الواقع الطبيعى ، وتوقظ فى نفس الوقت فكرة أخلاقية عالية تنبثق من حساسية صافية نامية .

ومن الأمور الجديرة بكل إطراء عند هؤلاء الشعراء ، إلى جانب اتساع أفقهم إلى غير حد ، اهتمامهم المركز على التفاصيل ، ونظرتهم الحادة المليئة بالحب ، والتي تسعى إلى أن تستخلص من الموضوع ذي المعنى ما فيه من مميزات خاصة . ولديهم أشكال شعرية يمكن أن تقارن بما فعله الرسامون الهولنديون من رسوم للطبيعة الميتة ، بل يتفوقون عليهم من حيث السمو الأخلاقي . وبسبب هذا الميل وهذه الموهبة ، فإنهم لا يملكون الانصراف عن بعض الموضوعات التي يؤثرونها ؛ فلا يمل الشاعر الفارسي من تصوير المصباح باهراً والشمعة مضيئة . ومن هنا جاء الذنوب الذي يؤخذ على شعرهم ؛ لكن إذا أمعنا النظر ، تصير الأشياء الطبيعية عندهم بدائل عن الأساطير ، والورد والبلبل يحلان محل أبولون ودافنيه . فإذا تذكرنا أنه لم يكن لديهم مسرح ولا فن تجسيمي ، ومع ذلك فإن قريحتهم الشعرية لم تكن أقل من قرائح الماضي ، فإن المرء ينبغي عليه حالماً يألف عالمهم الخاص ، أن يزداد بهم إعجاباً .

تعميم أعلى

والطابع الأعلى للشعر الشرقي هو ما نسميه بالألمانية Geist (الروح) ، أعني العنصر السائد للمبدأ الأعلى للتوجيه ؛ هنالك تجتمع سائر الصفات دون أن تستطيع واحدة منها أن تؤكد تفوقها ولا حقوقها الخاصة . إن « الروح » هي خصوصاً ميزة الشيخوخة أو الفترة المتشايخة . نظرة حرة في العالم ، تهكم ، استعمال حر للتوريخة : كل هذا نجده لدى كل شعراء الشرق . والنتيجة والمقدمات تتقدم إلينا في نفس الوقت ، ولهذا نشاهد أيضاً كل الأهمية التي تعزى إلى الكلمة المرتجلة . إن هؤلاء الشعراء يحضرهم في الذهن كل الأشياء ويتررون بسهولة علاقات بين أشد الأشياء بعداً وتبايناً ، ولهذا يتقربون مما نسميه روح الكلمة ؛ ومع ذلك فإن روح الكلمة ليست لها نفس القيمة ، لأنها أنانية عابثة ، وهذا عيب تبرأ منه

دائماً كل روح صادقة ، ولهذا يمكن ويجب أيضاً أن نصفها بأنها عامة .

بيد أن هذه المزايا ليست خاصة بالشعراء وحدهم ؛ فالأمة كلها لوذعية ، كما يستنتج من كثير من الحكايات والنوادر . والكلمة اللطيفة تثير غضب الأمير ، وكلمة أخرى لطيفة تهدئ ثائرته . والبلبل والوجدان يعيشان فى نفس العنصر ، وهكذا يخترع بهرام جور ودل آرام الشعر[1] ، وجميل وبثينة يظلان عاشقين حتى أقصى الشيخوخة . وكل تاريخ الشعر الفارسى حافل بملامح من هذا القبيل .

وإذا تذكرنا أن أنوشروان ، وهو من أواخر الملوك الساسانيين ، قد أمر بأن يُحضر من الهند ، فى عهد محمد ، لقـــاء نفقات باهظة ، حكايات بيدبا ولعبة الشطرنج ، فإن هذه الواقعة تعبر تماما عن خصائص العصر . فهذه الحكايات ، إذا حكمنا بحسب ما نقل إلينا منها ، تتنافس فى زيادة التجربة بالحياة وحرية الحكم على الأمور الدنيوية . ولهذا فإنه بعد أربعة قرون ، حتى فى العصر الأول والأفضل للشعر الفارسى ، لا يشاهد ازدهار السذاجة الطاهرة تماماً . والمدى الواسع للحكمة الذى طولب به الشاعر ، وسعة المعرفة ، وشئون البلاط والحرب — كل هذا تطلّب أعلى فطنـــة .

شعراء حديثون ومعاصرون

وعلى غرار جامى وعصره ، مزج شعراء العصر التالى دائماً بين النثر والشعر ، حتى لم يعد يُستخدم غير أســـلوب واحد لكل من الكتابة . فالتاريخ ، والشعر ، والفلسفة ، وأسلوب الدواوين ، وأسلوب الرسائل ،

---

(١) يقول بعض مؤرخى الشعر الفارسى ، ومنهم دولتشاه فى « تذكرة الشعراء » إن أول شعر فارسى قاله بهرام جور الساسانى (٤٢٠ — ٤٣٨ م) وحبيبته دل آرام (راجع « تذكرة الشعراء » ، ص ٢٨ — ٢٩ ، نشرة ادورد . ج . براون) .

كل هذا كان ينشأ بنفس الطريقة ، واستمر هذا منذ ثلاثة قرون . وفى وسعنا ، لحسن الحظ ، أن نقدّم نموذجاً من أحدث الأنواع .

حين كان السفير الفارسى مرزا أبو الحسَن خان فى مدينة بطرسبورج ، طُلب منه بعض سطور بخطّه . فتفضل بكتابة صفحة كاملة ، نورد هاهنا ترجمتها :

« لقد سافرت فى العالم كله ، وكنت على علاقات وقتاً طويلا مع كثير من الناس ، وكل زاوية فى الأرض جلبت لى فائدة ، وكل عود قمح أعطانى سنبلة ، ومع ذلك فإنى لم أشاهد مكاناً يمكن أن يقارن بهذه المدينة وحورياتها الجميلة . بارك الله فيها إلى أبد الآبدين » .

* * *

« كم أحسن القول ذلك التاجر الذى وقع بين أيدى اللصوص الذين صوّبوا سهامهم نحوه ! إن الملك الذى يضطهد التجارة يُغلق باب النجاة فى وجه جيشه . أى عاقل يود أن يزور وطنه ، بعد هذه السمعة السيئة بالظلم ؟ إذا شئت أن تنال حُسن الصيت ، فعامل التجار والسفراء باهتمام واحترام . إن الكبار يحسنون معاملة المسافرين حتى يظفروا بحسن الصيت . الأمة التى لا تحمى الغرباء سرعان ما تنهار. كُنْ صديقاً للغرباء والمسافرين ، لأنهم يجلبون حميد السُّمْعة : كن سخيا مضيافا ، واحترم المارين ، واحذر أن تظلمهم . من يتبع نصيحة السفير هذه يجد فيها نفعا من غير شك » .

* * *

« يرون أن عمر بن عبد العزيز كان خليفة قوياً ، وكان فى الليل ، فى بيته ، يصلّى فى خشوع وإخبات ، ووجهه إلى عرش الخالق ويقول : ربّى ، لقد وكلت إلى عبدك الضعيف أموراً عظيمة ، فلمجد الأصفياء والأولياء فى ملكوتك ، أوزعنى العدالة والإنصاف ، وقنى من سوء الناس ؛ أخشى

أن أكون قد عكرت صفو قلب برىء ، وأن تلاحقنى لعنة المظلوم . ينبغى على السلطان أن يتذكر دائماً حضور الله وسلطانه ، وزوال الحياة الدنيا ، وأن يتذكر أن التاج ينتقل من رأس يستحقه إلى آخر لايستحقه ، وعليه ألا يستسلم للكبرياء . لأن السلطان الذى يتكبَّر ، ويزدرى الصديق والجار لا يمكن أن يهنأ بعرشه طويلاً ؛ وينبغى ألا ينتفخ كِبْراً لمجد بضعة أيام . الدنيا تشبه ناراً أوقدت بالقرب من طريق فمن اقتبس منها ما يلزمه للإضاءة فى الطريق لا يلحقه أى أذى ، لكن من يأخذ منها فوق كفايته يحترق بها .

« سُئِل أفلاطون : كيف عاش فى هذه الدنيا ، فأجاب : وخلقها فى عذاب ، وحياتى كانت دهشة مستمرة ، وأنا أخرج منها آسفا لم أتعلم شيئا غير أنى لست بشىء . تجنَّب من يحاول أمراً وهو جاهل ، أو التقِّ غير المتعلم ، كلاهما يشبه حماراً يدير حجر الطاحونة وهو لا يدرى لماذا . السيف جميل للنظر ، ولكن آثاره مؤلمة . الرجل الطيب يصادق الغرباء والشرير يعادى الأقرباء . قال السلطان يوماً لبهلول : عظنى ! فقال بهلول : لا تحسد البخيل ، ولا القاضى الظالم ، ولا الغنى الذى لا يضبط بيته ، ولا المسرف الذى يبدد ماله سُدىً ، ولا العالم الذى ينقصه حسن التمييز . يظفر المرء فى الدنيا بحسن الصيت أو قُبْحه ، ويمكن المرء أن يختار بين كليهما ، ولما كان كل إنسان سيموت ، حسنا أو شراً ، فما أسعد من اختار سمعة الرجل الفاضل وآثرها .

« كتبت هذه الأسطر بناء على طلب صديق فى سنة ٢١٣١ هجرية ، شهر جمادى الثانى ، الموافق لشهر مايو سنة ١٨١٦ ميلادية ، كتبها مرزا أبو الحسن خان ، الشيرازى ، أثناء مقامه فى العاصفة بطرسبورج ، سفيراً فوق العادة لصاحب الجلالة الفارسى فتح على ، شاه كنشر . ويرجو أن يُغفَر لجاهل أن يكون قد كتب هذه الكلمات » .

• • •

وكما هو واضح مما سبق بقى منذ ثلاثة قرون نوع من النثر الشعرى وبقى أسلوب الأعمال والرسائل هو هو نفسه فى الشئون العامة والخاصة ، كما نعلم أيضاً أنه لايزال فى الآونة الأخيرة يوجد فى بلاط فارس شعراء يقدمون إلى كاتب مخصص لهذه المهمة تاريخ البلاط وتبعا لذلك كل مايقوم به الإمبراطور وكل حوادث اليوم ، منظومة ومكتوبة بخط جميل . ومن هذا يظهر بوضوح أنه فى الشرق ، الباقى على حاله أبداً ، منذ عهد أحشورس الذى أمر بأن تقرأ عليه أخبار من هذا النوع فى ليالى أرقه ، نقول إنه فى الشرق لم يطرأ أىّ تغيير .

ونلاحظ بهذه المناسبة أن هذه القراآت كانت تقتضى نوعا من الإلقاء الفخم ، مع توالى النبرات القوية والنبرات الخفيفة ، مما يشبه كثيراً الطريقة التى بها تلقى التراجيديات الفرنسية . وهذا أمر يقبل بسهولة خصوصا وأن المثنويات الفارسية تبدى عن تقابل مشابه للتقابل الموجود بين نصفى البيت فى الوزن الاسكندرى .

ويبدو هكذا أن هذا الاستمرار كانت نتيجته أنه منذ ثمانمائة سنة ، ظل الفرس يحبون أشعارهم ، ويقدرونها ويوقرونها ، ونحن شاهدنا بأنفسنا كيف أن شرقيا وقروعاملَ مخطوطا قديما من « المثنوى »[1] [لجلال الدين الرومى] بنفس الاحترام كما لو كان القرآن .

شكوك

لكن الشعر الفارسى وما يشابهه لن يتقبله الغرب بنفس الارتياح التام الصافى ؛ ولا بد أن يتضح لنا الأمر فى هذه المسألة إذا كان لا بد للذة التى نجدها فيه ألا يعكّر صفوها فجاءةً .

---

(١) كانت مكتبة جامعة يينا قد اقتنت حينذاك نسخة خطية من « المثنوى » لجلال الدين الرومى .

ليس الدين هو الذى يباعد بيننا وبين هذا الشعر . فتوحيد الله ، والخضوع لمشيئته ، وتوسُّط نبيّ ، كل هذا يتفق — على نحوٍ متفاوت — مع إيماننا وعقليتنا . وكتبنا المقدسة ، وإن كانت فى حالة أساطير ، هي الأخرى أساس هذا الدين .

وحكايات هذه المنطقة ، وخرافاتها ، وأمثالها ، ونوادرها ، ونكاتها مألوفة لنا منذ زمان طويل . وتصوفها ينير مشاعرنا قطعاً ؛ ويستحق ، على كل حال ، بسبب عمقه وشدته ، أن يقارن بتصوفنا ، الذى فى أيامنا لا يعبّر — والحق يقال — إلاّ عن حنين لا شخصية له ، ولا قريحة فيه ، كيف وصل إلى السخرية بنفسه ، هذا ما يستخلص من هذا الشعر :

« لا أرض بغير العطش الدائم
للعطش »[1] ..

استبداد

لكن الأمر الذى لا يدخل أبداً فى عقل الغربيين هو العبودية الروحية والجسمية لسيِّد ، وقد انحدرت من أقدم الأزمان ، حين كان الملوك يتخذون مقام الله . وفى « العهد القديم » نقرأ دون أن نتزعج كثيراً أن الرجل والمرأة سجدا على الأرض أمام الكاهن والبطل وعبداهما ، لأنهما اعتادا القيام بنفس هذه الحركة أمام الألوهيم . وما تم فى البدء عن شعور طبيعى بالتقوى تحوّل فيما بعد إلى مراسم فخمة فى القصر . والـ « كوتو » ، أى السجود ثلاث مرات ، ناشئ عن ذلك . وكم تضايقت السفارات الغربية لدى بلاطات الشرق من هذا المرسم ؛ والشعر الفارسى لا يمكنه ، بوجه عام أن يُستَقبَل عندنا إذا لم تتضح لنا هذه المسألة تمام الوضوح .

---

(١) هذا الشعر لايشندورف فى كتابه « الخاطرة والخاصر » ، الكتاب الثانى ، الفصل ١٢ .

وأىّ غربىّ يمكن أن يحتمل أن يضرب الشرقى جبهته بالأرض تسع مرات ، وأن يسلم رأسه لهوى الملك يفعل به ما يحلو له !

والبرجاس ، وفيه تقوم الكرات والمطارق بالدور الرئيسى ، يتجدد كثيراً أمام أعين السلطان والشعب ، مع إسهام كل منهما فى ذلك بشخصه . لكن حين يضع الشاعر رأسه على ممرّ مطرقة الشاه حتى يلحظه الأمير ويبعث به إلى السعادة مع مطرقة رضاه ، فإننا لا نستطيع ولا نريد أن نسايره لا بالخيال ولا بالعاطفة حين يقول :

كم من الزمان ستكون ، بغير يد ولا قدم ،
دائماً كره القَدَر ؟
وإذا قطعت مائة طريق ،
فلن تنجو من المطرقة .
ضع رأسك على طريق الشاه ،
فلربما لَمَحَك .

وكذلك :

ذلك الوجه وحده
مرآة السعادة
الوجه الذى داسته
سنابك هذا الفرَس .

وليس فقط أمام السلطان ، بل وأيضاً أمام المرأة المحبوبة ينحنى المرء انحناءة أعمق ومداراً أكثر :

كان وجهى يتمرغ على طريقها
لكنها لم تنحرف عن الطريق خطوة

بالقرب من غبار طريقك

نتصبت خيمة أملي !

— بالقرب من غبار قدميك ،

الأفضل من الماء . . .

من داس على جبيني

بقدمه مثل التراب ،

أريد أن أجعل منه سلطاني ،

لو عاد إليّ .

من هذه الأمثلة يُشاهَد بوضوح أن الأمر لا يدل على معنى فى كلتا الحالتين ؛ إن هذا التعبير يستخدم أولا فى مناسبة مهمة ، ثم يستخدم ويساء استخدامه مراراً عدة . فمثلا حافظ يقول على نحوٍ عجيب حقاً :

سيكون رأسى فى تراب طريق .

ضيفى

ولعل دراسة متعمقة أن تؤيد الفرض القائل بأن الشعراء القدماء كانوا يحتاطون فى استعمال مثل هذه التعبيرات ، وأن المحدثين وحدهم وقد استخدموا نفس اللغة فى نفس المناسبة ، قد أوغلوا فى هذه الاستعمالات السيئة للغة ، لكن دون أن تؤخذ مأخذ الجد ، بل على شكل تهكم ، إلى أن انحرفت المجازات بحيث لم يعد المرء يشاهد أى ارتباط بين اللفظ والمجاز ، سواء من حيث الفكر أو الشعور .

ونختم بهذه الأبيات اللطيفة التى قالها أنورى وهو يمدح شاعر محدث من شعراء عصره :

قصائد شجاعى طَعَمٌ يغرى الحكيم
وإليها يطير مائة طائر مثلى بنهم .
إذهبى ، يا قصيدتى ، وقبِّلى الأرض أمام شيخى وقولى له :
أنت ، يا فضيلة زمانك ، أنت زمان الفضيلة !

اعتراض

لنتبين العلاقات بين الطغاة والرعية ، ونقدر إلى أى حد لا تزال إنسانية ، وربما لنطمئن أنفسنا قليلا فيما يتعلق بعبودية الشعراء ، نورد هاهنا قطعتين تشهدان على الحكم الذى أصدره فى هذه المسألة العارفون بالتاريخ وبالعالم ، قال أحد الإنجليز المفكرين[1] :

« السلطة المطلقة التى خففت منها العادات والتبصُّر فى عصر المدينة ، تتلطف على شكل نظم معتدلة ، وتحافظ دائماً عند الأمم الآسيوية على طابعها وتسير على نفس النمط تقريباً . لأن الفوارق الضئيلة التى تعبر عن المنزلة الاجتماعية وكرامة الإنسان تتوقف فقط على المزاج الشخصى للحاكم المطلق وسلطانه ، وعلى هذا الأخير أكثر مما على الأول . إن أمة تتعرض دائماً للحروب لا يمكن أبداً أن تزدهر ، كما كانت الحال ، منذ أقدم العصور ، بالنسبة إلى كل الممالك الضعيفة فى الشرق . وينتج عن هذا أن أعلى سعادة يمكن الجمهور أن يستمتع بها تحت الحكم المطلق تتوقف على قوة الحاكم وسمعته ، كما أن الرغد الذى يمكن أن تنعم به رعيته إلى حد ما ، يقوم أساساً على الكبرياء الذى يرتفع إليه مثل هذا الأمير .

« فليس من حقنا إذن ألا نفكر إلا فى استعدادات وضيعة مأجورة حين ندهش من ألوان الملق التى يكيلونها لأميرهم . إنهم لا يشعرون بقيمة الحرية ،

---

(١) لاندرى من هو المقصود بهذا « الانجليزى المفكر » ، ولا « بالناقد الألمانى » .

ويجهلون كل أشكال الحكومة ، ويمجدون أحوالهم ، ويتقبلون عن طيب خاطر ، بل عن افتخار ، أن يذلوا أمام رجل عال حقاً ، إذا وجدوا فى عظمة قوته ملاذاً وحماية ضد شرور أفظع تهددهم » .

كذلك قال ناقد ألمانى لوذعى واسع الاطلاع :

« إن المؤلف الذى يعجب حقاً بالوثبة الجميلة للمديح فى ذلك العصر لينحى باللائمة فى نفس الوقت على تبديد القوة لدى نفر من ذوى العقول النبيلة الذين يستهلكون أنفسهم فى مدائح تتسم بالمبالغة ، وما ينتج عن ذلك عادةً من انحطاط فى الأخلاق . لكن يخلق بنا مع ذلك أن نلاحظ أنه العمل الفنى الرفيع الذى قام به شعب شاعرىّ بطبعه ، مع كمال الزينة الفنية المتعددة ، يكون شعر المديح جوهرياً مثل شعر الهجاء الذى يناقضه مناقضة تجد حلها ، إمّا فى الشعر الأخلاقى ، الذى يفصل بهدوء فى أمر الفضائل والرذائل الإنسانية ، ويرشد إلى غاية هى طمأنينة أعلى ، وإما فى الملحمة التى توازن ، بجرأة نزيهة ، بين النبالة العالية للسموّ الإنسانى وبين ابتذال الحياة اليومية المعتادة التى لا تُدمَغ ، بل تُعْرَض جزءاً متمماً للكل ، وبهذين الحدين المتقابلين اللذين توفق بينهما ، تكوّن صورة خالصة للحياة . وإذا كان مما يتفق مع الطبيعة الإنسانية ويكشف عن علوّ أصلها أن تدرك بحماسة نبالةَ الأعمال الإنسانية ، وكل ما يحمل خاتم الكمال العالى ، وإذا كانت الحياة الباطنة بتأملها فى هذا كله تتجدد على نحو ما ، فذلك لأن مدح القوة والسلطة كما تتجليان فى الأمراء ، تجلٍّ رائع فى ميدان الشعر ؛ وإذا كان المديح قد عُدّ عندنا وبحق أمراً يستحق الازدراء والانتقاص ، فذلك فقط لأن أولئك الذين توفروا عليه لم يكونوا بوجه عام شعراء بل متملقين حقدين مأجورين . لكن من ذا الذى يسمع كالدرون يمدح مليكه ، وقد انساق وراء خياله الجرىء المحلق ، ويفكر فى أن هذا المدح مأجور ؟ ومن ذا الذى يود أن يغلق قلبه دون أناشيد النصر التى نظمها پندار ؟ إن استبداد الملكية

الفارسية ، وإن وجدت مقابلها فى عبادة القوة عبارة منحطة لدى معظم أولئك الذين دبجوا المدائح للأمير ، فإنه مع ذلك ، بسبب الفكرة السامية عن القوة التى نمتها فى قلوب نبيلة ، قد ولّد كثيراً من القصائد الخليقة بإعجاب الأجيال التالية . وكما أن الشعراء اليوم جديرين بهذا الإعجاب ، فإن الأمراء يستحقون هذا الإعجاب أيضاً ، الأمراء الذين نجد لديهم اعترافاً صادقاً بالكرامة الإنسانية والحماسة للفن الذى يمجّد ذاكرتهم . وأنورى ، وخاقانى ، وظهير الدين الفاريابى ، و[أثير الدين] الأخسيكتى هم شعراء ذلك العصر الذين أفاضوا فى المديح ، ولا تزال قصائدهم تقرأ اليوم فى الشرق بلذة ومتعة ، وأسماؤهم الماجدة لا تزال حتى اليوم بمأمن من كل طعن . أما إلى أى حدٍّ إلهام الشاعر المدّاح قريبٌ من أعلى مهمة يمكن أن يتولاها الإنسان ، فهذا ما يشهد عليه الانتقال المفاجئ عند سنائى من شعر المديح إلى الشعر الدينى : فبعد أن كان مداحاً لأميرة صار منشداً يلهمه الله والكمال السرمدى ، بعد أن تعلم كيف يجد ، وراء حدود الوجود ، فكرة السمو التى اقتصر قبل ذلك على نشدانها فى الحياة الدنيوية » .

ملحـــق

هذه الملاحظات متى أبداها رجلان جادّان مفكّران تدعو إلى أن نحكم برفق وتسامح على الشعراء والمداحين الفرس ، كما أنها تزيد توكيداتنا السابقة ، ومفادها أنه فى العصور الخطرة المهم بالنسبة إلى كل حكومة هو أن يكون الأمير قادراً على حماية رعيته ، وأن يتولى قيادتهم بشخصه ضد العدو . ويمكن أن نورد شواهد قديمة قدم العالم على هذه الحقيقة التى تتأيّد حتّى أيامنا هذه ؛ ونذكر الشريعة التى بها أعطى الله بنى إسرائيل ، بالاتفاق العام ، فى اللحظة التى فيها هذا الشعب يتمنى ملكاً مرة واحدة وإلى الأبد . ونورد هنا النص :

« فذكر صمويل[1] جميع كلمات الرب للشعب الذين طلبوا منه ملكاً وقال : هذه سُنّة الملك الذى يملك عليكم : يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لعَجَلته وفرسانه فيركضون أمام عجلته . ويتخذ لنفسه رؤساء ألف ورؤساء خمسين وأكَدَةً لحرثه وحصاده وصنّاعاً لآلات حربه وأدوات عجلاته . ويتخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات . وحقولكم وكرومكم وأفضل زيتونكم يأخذها ويعطيها لعبيده . ويأخذ عُشُوراً من زرعكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وإماءكم وشبانكم الحسان وحميركم ، ويستعملهم فى شغله . ويُعشّر ماشيتكم وأنتم تكونون له عبيداً » .

ولما أراد صمويل أن يمثل للشعب مساوئ مثل هذا النظام ويصرفه عنه ، صاح الشعب بصوت واحد : « وقالوا كلاّ ، بل يَمْلك علينا ملك ؛ ونكون نحن أيضاً كسائر الشعوب فيقضى بيننا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا » .

كذلك يقول الشاعر الفارسى[2] :

وبالنصيحة والسيف يحكم البلاد ويحميها
إن الحكام والحماة بين يدى الله .

وعلى وجه العموم : اعتاد الناس ، حين الحكم على مختلف أشكال الحكم ، ألا يأبهوا لكون الحرية والعبودية توجد فيها جميعها ، أيا كان اسم شكل الحكم ، فى تعارض قطبى . فإذا كانت السلطات فى يد شخص واحد ، كان المجموع مستعبداً ؛ وإذا كانت السلطة للمجموع ، كان الفرد مضطهداً ؛ وهذا يتم فى كل الدرجات حتى يتم التوازن فى مكان ما ، لكن لمدة قليلة .

---

(١) سفر صمويل الأول (= الملوك الأول) ١٠ — ١٧ ثم ١٩ — ٢٠ . (مطبعة اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٣٢ ، جـ ١ ص ٤٥٦) .

(١) عن كتاب همر : « تاريخ فنون القول الجميل عند الفرس » ص ٢٤٥ .

وليس هذا سرًّا بالنسبة إلى المؤرخ؛ لكن فى العصور المضطربة لا يمكن الوصول إلى وضوح فى هذه النقطة. ولهذا لا يسمع المرء مزيداً من الحديث عن الحرية إلاّ حين يريد فريق أن يُخضع فريقاً آخر، ولا يكون ثمّ غرض غير جعل السلطة والنفوذ والثروة تنتقل من يد إلى يد. إن الحرية هى الشعار الذى يتهامس به المتآمرون فى الظلام، وصيحة الحرب المنطلقة من الثوار الصُّرحاء، بل وشعار الاستبداد نفسه حين يقود ضد العدو الجمهورَ المستعبَد، واعداً إياه بالتخلص إلى الأبد من النير الأجنبى.

رد فعل

لكن لا نتوهن فى هذه العموميات الخدّاعة، ولنعد إلى الشرق، ولننظر كيف أن الطبيعة الإنسانية، التى تظل دائماً غير قابلة أن تكبح، تعارض الاصطهاد الشديد؛ وسنجد فى كل مكان أن روح الحرية وفردية الأفراد توازن السلطان المطلق للسيد الأوحد؛ إنهم عبيد ولكن ليسوا تحت النير، ويسمحون لأنفسهم بألوان من الجرأة منقطعة النظير. ولنورد مشاهداً من التاريخ القديم، فلنذهب إلى عشاء فى خيمة الإسكندر، وسنجده هناك هو وأصحابه، يتبادلون الرأى الحاد، والأقوال العنيفة، بل الغاضبة.

وكليتوس، أخو الإسكندر فى الرضاعة، ورفيقه فى اللعب والحرب، يفتقد أخوبه فى ساحة القتال، وينقذ حياة الملك، ويتجلى قائداً ممتازاً، ووالياً أميناً مخلصا على ولايات كبيرة. لكنه لا يستطيع قبول دعوى الألوهية التى ادعاها الملك (الإسكندر)؛ فقد رآه وهو يكبر، وعرفه شرهاً إلى الخدمات والمعونات؛ ومن الجائز أنه يغذى فى نفسه سخط سوداوىّ وربما يبالغ فى تقدير نفسه.

ولا بد أن أحاديث المائدة أثناء تناول الإسكندر وجبات طعامه كانت ذات أهمية بالغة ؛ فقد كان كل الضيوف ناساً ممتازين مثقفين ، وكلهم ولدوا فى بلاد اليونان فى أزهى عصور البلاغة . وفى العادة كانوا يطرقون ، بهدوء ، موضوعات هامة ، مختارة أو حيث تتوارد ، ويدلى كل منهم برأيه ببلاغة سفسطائية تقصد قصداً . لكن لما كان كل منهم يدافع عن الرأى الذى يراه ، وكان الشراب والانفعال يشعلان النفوس ، فقد كان الأمر ينتهى بمناظر عنيفة . وهذه الاعتبارات تدعونا إلى افتراض أن حريق پرسپوليس[١] لم يكن فقط نتيجة سكر فاحش غير معقول ، بل انطلق من نيران أحد هذه الأحاديث التى فيها ادعى أحد الفريقين أنه لما كان الفرس قد هُزِموا ، فيجب التخلية عنهم بينما فريق آخر وقد بعث أمام خيال الجالسين سلوك الآسيويين الفاحش فى تحطيم المعابد اليونانية ، نجح فى تدمير المُشَيَّدات الملكية القديمة ، مثيراً الجنون إلى درجة هيجان الخُمار . أما أن نساء ، وهن دائماً أعنف أعداء الأعداء وأبعدهم عن التسامح ، قد اشتركن فى هذه المسألة ، فإن هذا يقوى من احتمال الفرض الذى افترضناه .

فإن بقى شىء من الشك فى هذه النقطة ، فإننا نعرف فى مقابل ذلك بيقين تام ما آثار النزاع القاتل فى هذا العشاء الذى أشرنا إليه من القبل ؛ ذلك أن التاريخ أبقى لنا على ذكراه . كانت المناقشة أولا تدور حول الشيخوخة والشباب . والشيوخ ، الذين كان يناقشهم كليتوس ، كانوا

---

(١) **Persepolis** وتسمى اليوم جهل منار (= الأربعون منارة) : كانت عاصمة إقليم فارس وعاصمة الملكية الميدية – الفارسية ، على نهر أركى **arake** وبين مرتفعات ؛ استولى عليها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٠ ق . م ويروى كذباً أن الإسكندر ، فى لحظة سكر ، أمر بإحراق پرسپوليس ، إرضاء لنزوة خليلته ثاييس ، وإنما الذى حدث هو أن حريقاً وقع بالصدفة قد أحرق بعض المبانى فى القصر . وقد ضعف شأن پرسپوليس بعد نقل مركز الإمبراطورية إلى بابل ، وتأسيس سلوقية وطيشفون (= المدائن) . ولم يبق من هذه المدينة غير آثار جميلة ونقوش ونحوت بارزة وواطئة .

يستطيعون أن يستشهدوا بسلسلة من الأعمال المترابطة المُحكَمَة التى أنجزوها مخلصين للملك والوطن والغاية المنشودة ، فى ثبات وقوة وحكمة . والشباب ، على العكس ، سلّموا بأن هذا كله قد تمّ ، وأنه أُنجِز الكثير ، وأنهم كانوا حقاً على حدود الهند ؛ لكنهم التمسوا النظر فيما بقى عمله ، وتطلعوا لعمل مثله ، واعدين بمستقبل مشرق ، ورتبوا الأمر بحيث يقللون من شأن الأعمال الجليلة التى تمت . أما أن الملك (الإسكندر) قد انحاز إلى فريق الشباب ، فهذا طبيعى ؛ إذ معه ينبغى ألا يتحدث المرء عن الماضى . لكن كليتوس كشف عن سخطه المستور ، وكرر ، فى حضرة الملك ، أقوالاً سيئة نقلت أمثالها من قبل إلى الإسكندر على أن كليتوس قالها فى غيابه . فضبط الملك نفسه على نحو يدعو إلى الإعجاب ، لكن ذلك كان لمدة أطول مما ينبغى ، مع الأسف . فاندفع كايتوس بغير اعتدال يطلق عبارات مهينة ، حتى اللحظة التى فيها وثب الملك من فوق كرسيه ؛ فمنعه أصحابه أولاً واقتادوا كليتوس إلى خارج القاعة . لكن هذا عاد هائجا ، وهو يلفظ شتائم جديدة ، فأنفذ فيه الإسكندر رمحا أمسك به من حارس .

وما جرى بعد هذا لا يدخل فى موضوعنا ؛ لكننا نلاحظ فقط أن أشد شكايات الملك مرارة تنضوى على هذه اللمحة وهى أن الملك سيعيش منذئذ وحيداً ، كوحش فى الغابة ، لأنه لن يجروْ أحدٌ بعد على أن يخاطر بالتفوه بكلمة حرّة فى حضرته . وهذا القول ، سواء عُزى إلى الملك أو إلى المؤرخ ، يؤيد ما سبق أن افترضناه .

وحتى القرن الماضى كان للإنسان أن يعارض شاه فارس أثناء المأدبة ، بدون حَرَج ولا حياء . لكن من الحق أنه فى نهاية المأدبة كان الضيف المتهور يُجَرّ بأقدامه إلى خارج القاعة ، ماراً بالقرب من الشاه إن عفا هذا عنه . وفى حالة رفضه العفو عنه ، كان يُجَرّ ويمزق إرْبا إرْبا .

ويروى مؤرخون ثقاة سلسلة من الحكايات التى تبيّن كيف كان بعض

المقرّبين يسلكون مع الملك بعناد وإصرار لا حد لهما . إن الحاكم لا يرحم مثل المصير ، لكن المرء يتحداه . وبعض ذوى الطباع العنيفة يقعون فيما يشبه الجنون ، وقد رويت عنهم أخبار فى غاية العجب .

وللقوة الكاملة التى عنها يصدر كل شيء : من أفضال وعقوبات ، تخضع مع ذلك الطبائع المعتدلة ، الراسخة ، ذوات السلوك المنطقى ، من أجل أن تعيش وتعمل على شاكلتها . والشاعر ، على وجه التخصيص ، لديه ، أكثر من غيره ، بواعث لتكريس نفسه للحاكم الذى يقدّر مكانته . وفى البلاط ، وفى التعامل مع الكبار ، تنفتح أمامه نظرة إلى العالم هو فى حاجة إليها للوصول إلى ثروة كل الرعية . وفى هذا نجد ما يبرر وما يعتذر به عن ألوان الملق التى يستبيحها المداح لنفسه ، المداح الذى يتقن مهنته ، حين يثرى من كل كنوز السادة فيزين بها الأمراء والوزراء ، البنات والأولاد ، الأنبياء والأولياء ، بل والألوهية نفسها ، بكل مفاتن الشعر الإنسانى .

ونحن نمدح أيضاً شاعرنا الغربى لأنه حشد عالماً من الزينات والأبّهات لتمجيد صورة محبوبته .

ملاحظات مُدْرَجة

إن التأمل الواعى للشاعر ينطبق خصوصاً على الشكل ، أما المادة فيزوده بها العالم عن سعة هائلة ، والمضمون ينبثق تلقائيا من فيض قلبه ؛ لأن عنصرين يلتقيان بغير شعور ، وفى نهاية الحساب ، لا ندرى على وجه الصواب إلى من ينتسب الثراء حقا .

لكن الشكل ، وإن كان يقوم جوهريا فى العبقرية ، يريد أن يُعرَف ويُتأمَّل ، ومن أجل هذا لا بد من التأمل ، حتى ينسجم الشكل والمضمون والأساس ، ويتكيف بعضه مع بعض ، وينفذ فيه .

* * *

الشاعر أسمى من أن يكوّن حزبا . إن السجوّ والشعور هبتان رائعتان يشكر للخالق عليهما : الشعور بالذات حتى لا يرتاع أمام ما هو مخيف ؛ والسجوّ حتى يستطيع التعبير عن كل شيء من أجل فرحة الكل .

العناصر الأولية فى الشعر الشرقى

فى اللغة العربية لا نجد غير قليل من الكلمات — الجذور التى لا تتصل ، إن لم يكن مباشرة ، فعلى الأقل بعد تعديل خفيف ، بالجمل والفرس أو الضأن . وهذا التعبير الأولى عن الطبيعة والحياة لا يمكننا أن ندعوه مجازاً . إن كل ما يفصح عنه الإنسان بحرية طبيعته علاقات حيوية ؛ والعربى على صلة وثيقة جداً بالجمل والفرس مثل اتصال الجسم بالنفس ؛ ولا يمكن أن يقع له شيء لا يهمّ أيضا هذه المخلوقات ولا يربط حياتهم ونشاطهم بحياته ونشاطه . فإذا أضفنا إلى الحيوانات التى ذكرناها تلك — الأليفة والبرّية — التى تظهر مراراً لعيون البدوى الرحّال ، فإننا نجدها أيضا فى كل ظروف الحياة . فإذا واصلنا هذا الاستعراض وتأملنا فى باقى العالم المرئىّ : من جبال وصحراء ، وصخور وسهول ، وأشجار ونبات ، وأزهار وأنهار وبحار ، وقبة السماء المرصّعة بالنجوم ، نجد أن كل شيء عند الشرقى مترابط بحيث لا يجد حرجا — وقد تعوّد على الربط المرتجل بين أبعد الأشياء عن بعض ، — فى أن يشتق الواحد من الآخر ، بتعديلات خفيفة فى الحروف أو المقاطع ، من الأمور المتناقضة . ومن هنا نرى كيف أن لغته منتجة بنفسها ، وهذا على نحو خطابى لأنها تسبق الفكر ، وعلى نحو شعرى لأنها تتحدث إلى الخيال .

ومن يبدأ من مجازات أساسية وضرورية ويلاحظ بعد ذلك تلك الأكثر حرية وجرأة ، كى يصل فى النهاية إلى أشدّها جسارة واعتباطية ، ثم فى الختام ، يصل إلى أكثرها عيوبا ونقصا ، وإلى الاصطلاحية منها والباردة الفاسدة ، فإنه يتعود على النظرة الحرّة إلى القسمات الجوهرية فى الشعر

الشرق . ويقتنع بسهولة أنه فى هذا الأدب لا يمكن أن يتعلق الأمر بما نسميه الذوق ، أعنى التمييز بين المناسب والكريه . ومزاته لا يمكن أن يفصل بينها وبين عيوبه ، فكلتاهما تنتسب إلى الأخرى ، وتنبثق عنها ، ولا بد من قبولها كما هى دون قشرها ولا المساومة فيها . ولا شىء أثقل من أن نجد ريسكه Reiske ومكائيلى يرفعان من شأن هؤلاء الشعراء إلى عنان السماء مرّة ، ومرة أخرى يعاملانهم كأنهم تلاميذ بايدون .

وبهذه المناسبة يلاحظ أن أقدم الشعراء ، أولئك الذين عاشوا عند الينبوع الأصيل للانطباعات وصاغوا لغتهم وهم يقرضون الشعر ، كانت لهم مزايا كبيرة جداً ؛ بينما أولئك الذين يظهرون فى عصر مركّب ، فيه تسود العلاقات المعقدة ، يبدون من غير شك عن نفس الميل ، لكنهم يبتعدون شيئاً فشيئاً عن أثر الحق وما هو خليق بالثناء ، لأنهم حين يلهثون وراء مجازات مغرقة فى البُعْد ، فإنهم يصلون إلى هراء خالص ؛ فلا يبقى فى النهاية أكثر من الفكرة العامة جداً التى تحتها يمكن أن تُدْرَج الأشياء ، وهى فكرة تقضى على كل عيان وبالتالى على الشعر نفسه .

الانتقال من المجازات إلى الاستعارات

وكما أن كل ما قلناه ينطبق أيضا على الاستعارات ، وهى قريبة من المجازات ، فينبغى أن نؤيد رأينا ببعض الأمثلة .

نحن نرى الصياد الذى يستيقظ فى الهواء الطلق يشبّه الشمس وهى تشرق بالباز :

العمل والحياة ينفذان فى قلبى ،
وهكذا من جديد منتصب على قدمىّ !
لأن باز الذهب ، مفتوح الجناحين ،
يحلّق على وكره الأزرق .

أو بالأسد ، وعلى نحو أروع :

تحول مطلع النهار إلى ضياء ،
والقلب والروح يبتهجان فجأة ،
بينما الليل ، هذا الغزال الحيّ ،
يهرب أمام تهديد أسد الصباح .

ولا بد أن ماركو بولو ، الذى شاهد هذا كله وأموراً أخرى كثيرة ، قد استمتع كثيراً بهذه الاستعارات .

وفى كل لحظة نجد الشاعر يعبث بغدائر الحبيبة :

فى كل غديرة من غدائر شعرك
أكثر من خمسين شيصًا —

هذه تحية لطيفة وجهت إلى رأس جميل التصفيف ، والخيال لا يندّ عنه أن يتصور أطراف الشعر مثل الصنارة . لكن حين يضيف الشاعر قائلا إنه معلق بالشعر ، فإن الصورة لا تسرّ . وأخيراً إذا قيل عن السلطان :

فى قيود ضفائرك
قيدت رقبة العدو —

فإن هذا يثير فى الخيال منظراً كريهاً — أو لا شىء أبداً .

أما أن تقتلنا أهداب الجفون ، فهذا قد يجوز ، أما أن نعلّق فى الأهداب فهذا لا يسرنا ؛ وإذا قورنت الأهداب بالمكانس التى تكنس نجومَ السماء ، فهذا يتجاوز المعقول . وإذا قيل لنا إن جبين الحبيبة ملمّع القلوب ، وأن قلب العاشق كعكة عجنها ودورها سيول من الدموع ، فإن هذه الصور المفرطة فى الجرأة ، وفيها من التصنع أكثر مما فيها من الشعور ، تثير فينا ابتساماً ساخراً .

وفى مقابل ذلك ننعت باللوذعية الشاعر الذى يريد أن يُعاملَ أعداء الشاه كأدوات الخيام :

فليشقوا مثـــل ... وليمزقوا مثل الخِرَق !

وليُطْرقوا مثل المسامير ، وليدقوا كالأوتاد .

هنا نجد الشاعر فى المعسكر ، حيث يتعاقب باستمرار نصب ورفع الخيام ، ويشاهد ذلك بنفسه .

وهذه الأمثلة ، ويمكن الإكثار منها إلى غير نهاية ، تبيّن بوضوح أنه لا يوجد فاصل واضـــح بين ما سيكون وفقاً لعاداتنا العقلية ، وخليقاً بالثناء أو الذم ، وذلك لأن مزايا هؤلاء الشعراء هى فى الواقع أزهار عيوبهم .

وإذا شئنا أن نأخذ بحظنا من إنتاج هؤلاء العباقرة الممتازين ، فينبغى علينا نحن أن نستشرق ، وليس على الشرق أن يأتى هو إلينا وعلى الرغم من أن الترجمات عمل خليق جداً بكل توصية من أجل جذبنا وتعليمنا ، فإننا نشاهد من كل ما سبق أنه ، فى هذا الأدب ، اللغة بما هى لغة هى التى تلعب الدور الأول . ومن ذا الذى لا يود أن يطلع على هـــذه الكنوز فى مصدرها الأصلى !

فإذا فكّرنا الآن فى أن الصناعة الشعرية تحدث بالضرورة أكبر الأثر فى أى نوع ، فإننا نجد أنه هنا أيضاً المثنوى عند الشرقيين يقتضى توازياً ، لكنه بدلا من أن يركّز العقل يبدده ، لأن القافية تدل على أشياء مشتتة جداً . وبهذا تتخذ أشعارهم مظهر المنظومات المقفاة ، وهو نوع يحتاج إلى عبقريات من الطواز الأول من أجل إنتاج شىء ممتاز فيه . إلى أى حد بدت الأمة فى هذه المسألة حاكماً قاسياً ، هذا أمر يستنتج من كونها طوال خمسة قرون لم تعترف إلا بسبعة شعراء على أنهم شعراء كبار .

تنبيـــه

ونستطيع أن نذكر كل ما قلناه حتى الآن شاهداً على حسن نيتنا فى تقدير الشعر الشرقى ؛ ولهذا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بتنبيه نوجهه إلى من قدر لهم أن تكون لديهم من هذه المناطق معلومات مباشرة ، وكل هذا بقصد أن نجنب مثل هذه القضية الجيّدة من كل ما يمكن أن يسىء إليها .

إن كل إنسان يسهل على نفسه مهمة الحكم بواسطة المقارنات ، لكنه بهذا أيضاً يجعلها أشقّ : إنه كما أن الاستعارة التى يُبالغ فيها جداً تصير عرجاء ، فكذلك الحكم بالمقارنة يصير دائماً أكثر عيوباً بالدراسة الدقيقة . ودون أن نضلّ بعيداً ، سنقتصر فى الحالة الحاضرة ، على أن نقول : حين يقارن العالم الممتاز جونز Jones الشعراء الغربيين بالشعراء اللاتينيين واليونانيين ، فله الحق فى ذلك ، وهو مضطر إلى ذلك بسبب صلاته بإنجلتره وبالفيلولوجيا الكلاسيكية فى هذه البلاد . وهو نفسه قد تكوّن فى المدرسة الكلاسيكية الدقيقة كل الدقة ، ولهذا يفهم جيداً الموقف المُسْبَّق الاستبعادى الذى لا يريد أن يقرّ إلا بما ورثناه عن روما وأثينا . وكان يعرف ، ويقدِّر ، ويحب الشرق وتمنى أن ينقل إلى إنجلتره العريقة نتاج الشرق وأن يدخله فيها بالتهريب ، وهو ما لا يمكن أن يتم إلاّ إذا ختم بخاتم العصر الكلاسيكى (اليونانى الرومانى) . واليوم قد صار كل هذا لا فائدة فيه ، بل ومضرّ . فنحن نعرف كيف نقدر الشعر الشرقى ، ونقرّ بأن له أكبر المزايا ، لكننا نريد أن نقارنه بنفسه ، وأن يقدّر فى داخل نطاقه ، وأن يُنْسَى أنه وجد يونانيون ورومانيون .

ولن نسخط على أحد لأنه بمناسبة حافظ الشيرازى يفكر فى هوراس وأحد(١) العالمين قد فسّر هذه النقطة على نحو يثير الإعجاب ، حتى إن هذا التشابه قد تقرر الآن نهائياً . قال :

---

(١) لم يعرف بعد مَنْ يقصده جيته .

« إن الشبه بين حافظ وهوراس فى نظراتهما فى الحياة شبه واضح مدهش ، ولا يمكن أن يفسّر إلاّ بتشابه الأزمنة التى عاش فيها كلا الشاعرين ، وفيها تحطم كل أمان فى الحياة المدنية فرأى أن الإنسانُ نفسَه مُلْجأً إلى ألا يطلب من الوجود غير متَع هاربة وكأنها تختلس اختلاساً » .

لكننا فى مقابل ذلك نطالب بإلحاح ألا يُقارَن بين الفردوسى وهوميروس لأن الأول سيفقد من كل ناحية ، سواء من حيث المادة والشكل والأسلوب . ولكى يقتنع المرء بصحة هذا الرأى ويكفيه أن يقارن الرتوب المخيف لمغامرات اسفنديار السبع بالنشيد الثالث والعشرين من « الإلياذة » حيث يفوز مختلف الأبطال بمختلف الجوائز على أشدّ نحوٍ من التنوع ، ابتغاء الاحتفال بجنازة پتروكل . ونحن الألمان ألم نرتكب إساءة بالغة إلى ملحمة « النيبلنجن » الرائعة بمقارنات من هذا النوع ؟ فهى بمقدار ما تأسرنا إذا ألفنا جوّها وقبلنا كل شىء بثقة وعرفان بالجميل ، فإنها تبدو غريبة إذا قدرناها وفقاً لمقياس ينبغى ألا نطبقه عليها .

وهذه الملاحظات تنطبق أيضاً على إنتاج مؤلف أوحد كتب كثيراً ، وطرق أجناسا مختلفة وقتاً طويلا . فلندع للجمهور العامىّ الأخرق أن يمدح ، ويختار ويرفض بواسطة المقارنة . بيد أن من يقومون بتربية الشعب ينبغى عليهم أن يسموا إلى وجهة نظر فيها نظرة عامة وواضحة تأتى لتساعد حكماً خالصاً ليس بمسبَق .

مقارنة

وفى نفس اللحظة التى فيها ، ونحن نحكم على الكتاب ، نحرّم كل مقارنة قد يندهش المرء إذا تحدثنا بعد هذا مباشرة عن حالة نجد فيها هذه الطريقة الرائعة . بيد أننا نرجو أن يسمح لنا بهذا الاستثناء ، لأن الفكرة الأولى فيها لا ترجع إلينا ، بل إلى شخص آخر .

لاحظ شخص عرف الشرق فى كل اتساعه وسموّه وعمقه أنه لا يوجد كاتب ألمانى اقترب من الشعراء والكتاب الشرقيين مثل جان پول رشتر. وهذا التقدير بدا لنا حافلا بالمعنى حتى لم نملك إلا أن نمنحه من الاهتمام بمقدار ما يستحق، ولهذا نستطيع بسهولة أن ندلى بملاحظاتنا فى هذه المسئلة، خصوصاً بعد كل ما قلناه من قبل.

ولنبدأ بالصفات الشخصية، ولنقُلْ إن أعمال الصديق المذكور تشهد على عقل حكيم، واسع، نافذ، مثقف، متعلم، وفوق ذلك مُحْسن ورِع. وعقل وُهِب على هذا النحو يلقى، على نحو شرقى مميّز، نظرة فرحة جسوراً على العالم المحيط، ويخلق أغرب العلاقات، ويربط غير المتفق، لكن بحيث أن خيطا أخلاقيا سرّياً يشتبك به حتى يتقدم الكلُّ إلى نوع من الوحدة.

ولما كنا قد بيّنا وحددنا العناصر التى بفضلها أبدع شعراء الشرق القدماء الممتازون أعمالهم، فسيكون من السهل أن نبيّن أنه بينما هم عملوا فى منطقة جديدة وبسيطة، فإن صاحبنا (جان پول رشتر) على العكس يعيش ويعمل فى عالم مثقف، بل مفرط فى الثقافة، زائف الثقافة، مقلوب، وعليه تبعاً لذلك أن يكون كفئاً للسيطرة على أغرب العناصر. ولإبراز التباين بين الوسط الذى يعيش فيه البدوى والوسط الذى يعيش فيه صاحبنا سنقتصر على أن نستخلص من بضع صفحات[1] التعبيرات الأبرز:

« معاهدات حدود، أوراق إضافية، كردينالات، ملحق رواية، بلياردو، أباريق بيرة، مقاعد إمبراطورية، كراسى امتياز، المندوب الرئيسى، حماسة، ذيل شبح، تماثيل نصفية، أقفاص سنجاب، مرجف[2]، وغد، مجهول، ندوات، صديرية بلياردو قانونى، نسخة

---

(١) من قصة جان پول: « هسپروس، يوم بريد الكتب ٦٠ ».

(٢) هو الذى يعقد صفقات صورية فى البورصة للتلاعب فى الأسعار.

من الجبس ، ترق ، صبى حدّاد ، شهادة جنسية ، برنامج العنصرة ، ماسونى ، محاكاة باليد ، أبتر ، مستخدم بدون أجر ، محل مجوهرات ، طريق السبت ، الخ » .

فإذا كانت كل هذه التعبيرات معروفة للقارئ الألمانى المثقف أو يمكن أن تعرف بمساعدة « موسوعة المحادثات » ، كما يمكن معرفة العالم الخارجى بواسطة التجار أو الحجاج ، فإننا نستطيع بجسارة الشرقى أن نوافق على أن عقلا مركباً هكذا له الحق فى أن يسلك هذا المسلك على أساس مختلف تماما .

فإذا كنا نُسلّم لصاحبنا المحترم الخصب وهو يعيش فى عصر متأخر تماماً ، أنه ينبغى عليه ، حتى يكون ظريفاً فى عصرنا ، أن يشير بمختلف الإشارات إلى ظروف حياة معقدة ومفتتنة . إلى غير نهاية بواسطة الفن ، والعلم ، والصناعة ، والسياسة ، والحرب والسلام ، والفساد — فإننا نعتقد أننا بهذا قد أيّدنا تأييداً قوياً ما ينسب إليه من عقلية شرقية .

لكننا مع ذلك نشير إلى فارق ، هو ذلك القائم بين طريقة سلوك الشاعر وطريقة سلوك الناثر . فبالنسبة إلى الشاعر — والوزن والتوازى والنبرة على المقطع ، والقافية تحشد فى طريقه أسوأ العقبات — كل هذا يأتى لصالحه ، إذا حلّ عُقَد الألغاز بمهارة ، الألغاز التى تلقى عليه أو يصفها هو بنفسه ؛ ونحن نرخّص له فى أشد المجازات جسارة بفضل قافية غير متوقعة ، ونغتبط من حضور بديهية الشاعر وسط ما يعانيه من التزامات .

أما الناثر ، فعلى العكس ، حرّ الذراعين تماماً ، ومسئول عن كل ما يبدو منه من تهورات ؛ فكل ما يصدم الذوق يجب أن يحسب عليه بوصفه مسئولا عنه . لكن لما كان من المستحيل ، كما بيّنا طويلا ، أن نفصل فى مثل هذا الشكل من الأسلوب بين الحسن والردىء ، فإن كل شىء يتوقف فى هذه المسئلة على الشخص الذى يأتى بنفسه فى هذه المغامرة الشائكة . فإن

كان شخصية مثل چان پول ، يجمع قيمة القريحة إلى الكرامة الإنسانية ، فإن القارئ ، المنجذب إليه ، يتألف بسهولة ، فكل شيء معقول ومُرَحَّب به . ويشعر المرء بالراحة فى حضرة شخص يجيد التفكير على هذا النحو ، وشعوره ينتقل إلينا . إنه يهيج خيالنا ، ويتملق ضعفنا ، ويقوى قوانا ويشدّ أزرنا .

ويمرّن المرء عقله وهو يبحث عن حل للألغاز الغريبة التى يقترحها علينا ، ويسعد حين يجد فى و خلف اختلاط عالم متنوع مثلما خاف أى لغز ، يجد شيئاً مفيداً ، مثيراً ، يبعث الانفعال ، بل ويهذّب النفس .

وهذا هو تقريباً ما يمكننا ذكره ابتغاء تبرير المقارنة التى عقدناها ، لقد حاولنا أن نعبّر على أوجز نحو ممكن عن النقط التى فيها نتفق أو نختلف ، وأن نصاً من هذا النوع ليمكن أن يؤدى إلى شروح لا نهاية لها .

تحفظ

إذا عدّ إنسان الكلمات والتعبيرات شواهد مقدسة ورفض أن يستخدمها كالنقود الصغيرة (الفكة) أو أوراق النقد فى التعامل السريع المباشر ، لكنه أراد أن تتبادَل ، فى التعامل الروحى ، كبدائل مساوية حقيقية ، فلا غضاضة إذا لاحظ كيف أن التعبيرات التقليدية التى لا تثير بعدُ ريبة فى نفس أحد تحدث رغم ذلك تأثيراً مؤذياً ، من شأنه أن يغشّى على الأبصار ، ويشوّه الأفكار ، ويوجّه مجموعة من المعانى توجيهاً فاسداً .

ومن هذا النوع يمكن أن يُعدّ الاستعمال الذى أُدْخِل وخلاصته أن نعدّ عنوان « فنون القول » باباً عاماً ، يندرج تحته الشعر والنثر ، ويعالج كلاهما الواحد بعد الآخر وفى مختلف أجزائهما .

والشعر ، منظوراً إليه فى ماهيته الخالصة ، ليس قولا ولا فنا : إنه ليس « قولا » لأنه يحتاج فى كماله إلى الايقاع والنشيد وحركات الجسم

والمحاكاة ؛ وليس « فنا » لأن كل شيء فيه يقوم على ما هو طبيعي ، وينبغي أن يخضع لقواعد ، لكنه ينبغي ألا يخضع لفن مغلق من جانب الترويض الفني ، بل يظل دائماً التعبير الأمين عن روح ملهَمة ، متحمسة ، لا تستهدف غرضا ولا قصداً .

أما فن القول فعلى العكس من ذلك هو قول وفن معا ، ويتألف من قول واضح متحمّس وجداني مع وزن ، وهو « فن » بكل معنى الكلمة . وبهذا الباب الذي نلوم على استخدامه ، ينحط الشعر ، لأنه يُنسَّق — بل يُخضَع — لفن القول ، ويستمد منه اسمه ومكانته .

وهذه التسمية وهذا التقسيم تقررا واستقرا لأن كتبا عالية القيمة تحملهم على صفحاتها الأولى ، ومن الشاق أن نصرف العادة عن ذلك . وهذا الاستعمال ناشئ عن كون الفنان لا يُستشار في تصنيف الفنون . والأعمال الشعرية تصل إلى الأديب أولا على هيئة حروف مطبوعة ، وهي أمامه على شكل كُتُب عليه أن يفهرسها ويصنّفها .

الأجناس الشعرية

الدفر ، الحكاية الشعرية (البلادة) ، الأنشودة Cantate ، المرثية (الايلجيا) ، الأهجية Epigramm ، الرســـالة Epistel ، الملحمة ، الأقصوصة ، الحذافة ، البطولية Heroidedl ، الرعوية Idylle ، المنظومة التعليمية Lehrgadicht ، الأود Ode ، المتهكمة Parodie القصة Romano ، الرومانسه Romanze ، اللاذعة satire .

لو شئنا أن نصنف بطريقة منهجية كلّ هذه الأجناس الشعرية التي أتينا على سردها وغيرها ، اصطدمنا بصعوبات شديدة لا يسهل تذليلها . وإذا نظرنا في هذه الأبواب عن قرب وجدنا أن أسماءها مأخوذة إما عن صفات خارجية ، أو عن المضمون ، والقليل منها عن شكل جوهري . ويلاحظ على

الأمور أن بعضها تتنسّق ، والبعض الآخر يمكن أن يُتْبَع لبعضه . ولمجرد متعتنا ، كل منها يمكن بسهولة أن يبقى وينمو على حدة ؛ لكن إذا أردنا ، بغرض تعليمى أو تاريخى ، أن نفهم ترتيباً أكثر معقولية ، فمن الخير أن نبحث كيف يمكن الوصول إلى ذلك . ولهذا نعرض على النقد الملاحظات التاليـــة :

الأشكال الطبيعية للشعر

لا يوجد غير ثلاثة أشكال حقيقية للشعر : أحدها يروى بوضوح ، والثانى يتحمس وينفعل ، والثالث يؤثر شخصياً : الملحمة ، الغناء ، والمسرحية . وهذه الأجناس الثلاثة يمكن أن تعمل معاً أو على انفراد . وفى أدنى الشعر نجدها معاً ، وبهذا الاجتماع فى أضيق مكان ، تولّد مؤلفات رائعة كما نلاحظ ذلك بتمييز فى خير الحكايات الشعرية (البلاّده) عند كل الشعوب . وفى المأساة اليونانية القديمة نجد أيضاً الأجناس الثلاثة مجتمعة ، ولا تنفصل إلاّ بعد مرور فترة من الزمن . وطالما كانت الجوقة هى الشخصية الرئيسية ، فالسيادة للغناء ، وكلما صار مجرد مشاهد فإن النوعين الآخرين (الملحمة والمسرحية) يكتسبان مزيداً من النفوذ ، وأخيراً حين يتركز الفعل ويزداد تحدُّداً ، نجد الجوقة مصدر ضيق ونافلة . وفى المأساة الفرنسية ، يكون العَرْضُ ملحمياً ، والقسم الأوسط مسرحياً ، والفصل الخامس ، وهو الذى ينتهى بالوجدان والحماسة ، يمكن أن يسمى غنائياً .

والملحمة الهوميروسية ملحمية خالصة والرّبسود هو دائماً الشخص الرئيسى ، ويروى ما يحدث ؛ ولا يستطيع أحدٌ أن يفتح فمه إلاّ إذا أذن له الربسود بالكلام وأعلن عن خطبته وجوابه . والحوار المقطوع ، وهو أجمل زينة فى المسرحية ، غير مقبول .

استمع الآن إلى المرتجل المحدث الذى يعالج ، فى السوق أو الموران

العام موضوعاً تاريخياً ؛ كي يكون واضحاً فإنه يبدأ بأن يقص ، ثم ليثير الانتباه يتكلم كالممثل ، وأخيراً انفجار الحماسة هو الذي يهز القلوب . وهكذا يتبين على أي نحوٍ غريب يمزج بين هذه العناصر الثلاثة وتنوع الأجناس الشعرية إلى غير نهاية ؛ ولهذا أيضاً يصعب أن نجد ترتيباً وفقاً له يمكن تصنيفها جنباً إلى جنب أو الواحد تلو الآخر . ويمكن حل المشكلة بأن نرتب على هيئة دائرة العناصر الثلاثة في مقابل بعضها البعض وبأن نبحث عن مؤلفات نموذجية كل عنصر فيها يسود بمفرده . ثم تجمع الأمثلة التي تنحو في اتجاه أو آخر ، حتى يتجلى اجتماع الثلاثة وتكتمل الدائرة تماماً .

وبهذه الطريقة نصل إلى ملاحظات جميلة ، تتعلق إما بالأجناس الشعرية ، أو بأنماط وأذواق الأمم في توالي الأزمنة . وعلى الرغم من أن هذه الطريقة تصلح أكثر للدراسة والتسلية الشخصية منها لتعليم الآخرين ، فربما سيكون من الممكن أن نقرر صورة إجمالية تصور في ترتيب واضحٍ الأشكال الخارجية العرضية والأصول الأولية الباطنة الضرورية . ومع ذلك فإن هذه المحاولة ستكون دائماً شاقة خصوصاً لأن المجهودات التي بذلت في التاريخ الطبيعي من أجل أن يعرض على العقل في ترتيب طبيعي العلاقات بين الصفات الخارجية للمعادن أو للنباتات وبين خصائصها الباطنة هي أيضاً شاقة .

ملحق

من الوقائع الجديرة بكل انتباه أن الشعر الفارسي يخلو من المسرحية . ولو ولد شاعر مسرحي واحد ، لكان الأدب القومي الفارسي قد اتخذ وجهاً مختلفاً تماماً . إن الشعب الفارسي يحب الراحة ، ويلذ له أن يستمع للقصص ، ومن هنا هذا العدد الذي لا نهاية له من الحكايات والقصائد التي لا تنتهي . على أن الحياة الشرقية بوجه عام لا تميل بطبعها إلى الإيضاح : فالاستبداد لا يشجع على الحوار ، ونلاحظ أن كل معارضة لإرادة وأوامر السلطان

الحاكم لا يمكن أن تقدم إلاّ على شكل اقتباس من القرآن ومن الشعراء ذوى الأبيات المشهورة ، وهذا يفترض فى نفس الوقت عقلية روحية ، وثقافة واسعة ، عميقة ، منطقية مع نفسها . أما أن الشرقيين ، مع ذلك ، قليلو الميل قبل أى شعب آخر إلى الاستغناء عن شكل الحوار ، فهذا ناشئ عن تقديرهم الزائد لحكايات بيدبا ، التى استأنفوها وواصلوها وحاكوها . « ومنطق الطير » لفريد الدين العطار يقدم لنا على هذا مثلاً جميلاً .

كتب النبوءات

من يعش كل يوم فى ظلام دامس ويحاول بعينه أن يستشف ضوءاً فى المستقبل ، يتشبث ويتعلق بهم بكل مصادفة ابتغاء أن يكتشف فيها إشارة تدل على المستقبل . والمتردد لا يجد النجاة إلاّ فى التصميم على الخضوع لقرار النبوءة أو الوحى . ومن هنا باءت العادة المنتشرة فى كل مكان عادة أن نطلب التنبؤ من كتاب مهم بين أوراقه نغرز دبوساً ، ونرامى باحترام ووَرعٍ الموضع الذى يتجلى حين نفتح الكتاب . ولقد كانت لنا صلات وثيقة فيما مضى مع ناس كانوا يلتمسون بكل ثقةٍ نصيحة فى « الكتاب المقدس » ، و « كنز كيستلين » وكتب التقوى التى من نفس النوع ، وكانوا كثيراً ما يجدون فيها فى أسوأ المحن والكوارث عزاء وأحياناً قوى جديدة يستعينون بها على الحياة طوال عمرهم .

وفى الشرق نجد هذه العادة أيضاً ؛ ويسمونها « الفأل[1] » وكان لحافظ هذا الشرف بعد مماته بقليل ، لأنه لما كان المؤمنون المتشدّدون رفضوا أن يدفن دفناً رسمياً ، سألوا قصائده ، ولما كان الموضع الذى وقع عليه البخت يذكر قبره وأن الحجاج سيأتون لزيارته ذات يوم والتبرك به ، فقد استنتجوا من هذا أنه ينبغى دفنه رسمياً . والشاعر الغربى (جيته) هو الآخر يشير إلى هذه العادة ويرجو أن ينال كتابه الصغير هذا نفس الشرف .

---

(١) بالعربية فى الأصل .

تبادل الأزهار والعلامات

حتى لا نحسن الظن كثيراً بما يسمى باسم لغة الأزهار وحتى لا نتوقع منها نقل عاطفة رقيقة ، فينبغى أن نسأل أهل الذكر . ولم يُعْطَ مدلول لكل نوع من الأزهار خاصة لتقديمها طاقة ككتابة سرية ، وليست الأزهار وحدها هى التى تكون الكلمات والحروف فى هذه الأحاديث : فكل ما هو مرئىّ قابل للنقل يستخدم بنفس الحق .

لكن كيف يتم هذا من أجل الحصول على اتصال ، وتبادل عواطف وأفكار ، هذا أمرٌ لا نستطيع أن نتصوره إلا إذا استحضرنا فى الذهن الخصائص الجوهرية للشعر الشرقى : النظرة الواسعة إلى عالم الأشياء ، وسهولة النظم ، ثم نوع من اللذة وميل فطرى فى الشعب إلى اقتراح الألغاز ، ومن هذا تنشأ أيضاً البراعة فى حل الألغاز ، وكل هذه صفات بينة لشخص تميل به قريحته إلى الاهتمام بالمعميات والأحاجى وما شابهها .

ولنلاحظ بهذه المناسبة أنه إذا بعث عاشق إلى المحبوبة بشىء ما ، فينبغى على المرسل إليها أن تنطق باسمه ، وأن تبحث عن القوافى المدونة لهذا الاسم ، ثم تحزر ما هى أفضل قافية تناسب المقام . ومن الواضح أن مثل هذه العملية تفترض حزراً حماسياً . ولإيضاح ذلك نقدم مثالاً ؛ وهذه قصة صغيرة توضح هذا النوع من المراسلات :

تم ترويض الحرّاس
بألعاب حب رقيقة ؛
لكن كيف تفاهمنا ،
هذا ما سنكشف عنه ،
لأن مصدر سعادتنا ، يا عزيزتى ،
ينبغى أن يفيد الآخرين أيضا ،

نريد أن نقرّطَ مصابيح الحب
ذات الدخان فى ليل الغرام
ومن يقدر ، بعدنا ،
أن يرهف أذنه جيداً ،
سيصل بغير عناء ، إذا كان عاشقا مثلنا ،
إلى معرفة المعنى الحقيقى بواسطة القافية .

لقد أرسلت إليك علامة ، وأنت أرسلتِ إلىّ أخرى ،
وفى الحـــال تم التفاهم

قطيفة	رأيت اللطيفة
سذاب	من بعين أصاب ؟
وبر النمر	محارب خَطِر
وبر الغزال	بأى حال ؟
عقصة الشَّعر	عليك بالخبر
محبّب	نجنب
تِبْن	الحبّ فن
عِنَب	اعرف السبب
مرجان	ما ألطف المكان !
نواة اللوز	نِعْم الفوْز !
لِفْت	منك خِفْت
جزَر	هل حزَر ؟
بَصَل	ما العمل ؟

عنب أبيض	مَنْ ذا يرفض
عِنب أزرق	شيء مؤزرق
بخيل	مثل البخيل
قرنفل	هل أتحول ؟
نرجس	وجهك أنحس
بنفسج	فى العوسج
كرز	غاص وانغرز
ريش غراب	حبك عذاب
ريش ببغاء	طاب الغذاء
كستنا	يوم الهنا
رصاص	يوم القصاص
لون الورد	مات البرد
حرير	حلو العبير
فُول	كلام معقول
صعتر	لم تتبختر ؟
أزرق	حبك أحرق
كَرْم	سد الشرم
برقوق	عبْدٌ مرقوق
تين	ياللحور العين !
ذهب	غابَ واحتَجب
جلد	فى جنات الخُلْد
ورق	شرب المَرَق
أقحوان	قمح وزوان

كمان الليل	يا للويل !
خيط	ملفوف فى الرّيْط
غصن	سيدة الُحسْن
باقة	مثل الناقة
لبلاب	أغلق الباب
آس	آه من الناس !
ياسمين	الناس مجانين
دِبْس	أنت نمْس
صفصاف	فوقه ناف
زهرة فول	عرض وطول
جير	لا فى العير ولا فى النفير !
طيب	فليذهب به العفريت العجيب

وإذا كان « جميلٌ »
لم يتفاهم هكذا مع « بثينة » ،
فكيف ظل اسمها حتى الآن
حياً نضرا سعيدا ؟

هذه الطريقة الغريبة فى التراسل يمكن أن تستخدم بين شخصين لوذعيين يعشق كل منهما الآخر . فإذا اتخذ العقل هذا الاتجاه ، أتى بالعجب العجاب . وهذه حكاية من بين آلاف الحكايات ، تؤيد هذا القول .

عاشقان يقومان بنزهة ويقضيان معا يوما هانئا ، وفى العودة يلهوان باقتراح الأحاجى . وسرعان ما تحزر كل أحجية على شفة الآخر ، بل أكثر من هذا : كل كلمة يفكر فيها الآخر ويريد ترتيبها على هيئة لغز يحزرها الآخر فى الحال ويفصح عنها .

وإذا رويت مثل هذه الأمور وأكدت فى عصرنا ، فينبغى ألا نخاف أن تظهر بمظهر مضحك ، لأن مثل هذه الظواهر النفسية لا تساوى من بعيد تلك التى كشفت عنها المغناطيسية الحيوانية .

رمز

وثم وسيلة أخرى للتفاهم ، تتسم باللطف والملاحة ! فبينما منذ قليل كان الأمر يتعلق بالعقل والأذن ، يتعلق الأمر هنا بعاطفة جمالية تتألف من الرقة المعاشقة ، وتكافئ أسمى الشعر .

فى الشرق تعلم الناس أن يحفظوا القرآن عن ظهر قلب ، وبأقل إشارة كانت السور والآيات تمكن الناس من التفاهم بسهولة . وقد عرفنا نفس الشيء فى ألمانيا ، فمنذ خمسين سنة كانت التربية تهدف إلى « تقوية » الشباب فى الكتاب المقدس ؛ فلم يقتصر الأمر على استظهار الآيات المهمة ، بل كان المرء يحصّل معرفة وافية بسائر الآيات . ووجد أيضاً كثير من الناس الذين برعوا فى فن الاستشهاد بآيات الكتاب المقدس فى كل المناسبات والحوادث واستخدامها فى الأحاديث الجارية . ولا يمكن إنكار أن هذا قد أدى إلى أجوبة بارعة ملائمة ، ولا يزال بعض الآيات حتى اليوم تتردد باستمرار فى الأحاديث .

ويُستخدم أيضاً لنفس الغرض اقتباسات من الكتاب الكلاسيك ، مما يدل على العود الأبدى لبعض العواطف والأحداث .

ونحن أيضاً منذ خمسين عاماً حين كنا شباباً نمجد شعراءنا الوطنيين ، كان يلذ لنا أن نحيى ذاكرتنا بمؤلفاتهم ، ونعدّ لهم عن خالص إعجابنا بأن نعبر عن أفكارنا بالاستعانة بكلماتهم الفصيحة المختارة مصرّحين هكذا بأنهم كانوا يعرفون خيراً منا كيف يعبّرون عن عواطفنا الباطنة .

وللوصول إلى الهدف الحقيقى الذى نستهدفه ، نذكر طريقة معروفة

لكنها غريبة ، فى التفاهم معاً بواسطة الرمز : وتلك حال شخصين يتفقان على كتاب معين ، وينشئان الرسالة بمعونة أرقام تدل على الصفحات والأسطر ، وهما واثقان أن المرسل إليه سيفهم المعنى بسهولة .

والشعر الذى نسميه « الرمز » يشير إلى اصطلاح من هذا النوع . يتفق العاشقان على اتخاذ قصائد حافظ الشيرازى أداة للتراسل الغرامى بينهما ؛ فيشير كل منهما إلى الصفحة والسطر الذى يعبّر عن شعوره الحالى ، وهكذا تتولد أناشيد مركبة ذات تأثير بديع جداً ؛ والمواضع المتناثرة فى الشاعر الذى لا نظير له يضم بعضها إلى بعض بالوجدان والشعور ، والميل والاختيار الحر فتعطى الكلّ حياة باطنة ، والعاشقان اللذان فى حال فراق يجدان سلوى كظيمة فى أن يزينا حدادهما بلآلئ من كلامه[1] :

إنى أريد أن أفتح لك قلبى ؛
وأريد أن أسمع الحديث عنك ،
أية نظرة حزينة يلقيها العالم علىّ !

فى قلبى يسكن حبيبى وحده .
ولا أحد غيره ولا أثر لعدو فيه .
جالت بخاطرى فكرة كأنها مشرق الشمس .

حياتى ، أريد أن أكرّسها كلها
للاهتمام بحبه ، ابتداء من اليوم .
إنى أفكر فيه ، وقلبى يدمى .
لا قوة عندى غير أن أحبّه ،

---

(١) القصيدة التالية مؤلفة من مواضع مأخوذة من شعر حافظ أشارت إليها رسالة رمزية كتبتها ماريانة فون ڤليمير إلى جيته .

بكل كيانى ، فى صمت .
ماذا سينجم عن هذا !
أريد أن أقبله
ولكنى لا أستطيع .

الديوان المستقبل

فى عصر من العصور كان يوزع فى ألمانيا مطبوعات بصورة « مخطوطات للأصدقاء » . ومن يستغرب هذا عليه أن يتذكر أن الكتاب لا يكتب إلا لمن يتعاطفون معك : الأصدقاء والأنصار . وأود خصوصاً أن أنعت « ديوانى » هذا بهذا العنت ، وطبعته الحالية ينبغى أن تعدّ ناقصة لم تتم . ولو كنت أصغر سناً ، لاحتفظت به معى وقتاً أطول ؛ والآن أجد من الأفضل أن أجمعه بنفسى ، بدلاً من أصنع صنع حافظ فأدع هذه المهمة للأجيال التالية . وكون هذا الكتاب الصغير ماثل الآن على النحو الذى سأقدمه هو الذى يثير فى نفسى الرغبة فى أن أعطيه الصورة الكاملة تقريباً التى تليق به . لكن ما عسى أن يرجّيه منه الإنسان ، يمكن أن أشير إليه باختصار كتاباً كتاباً .

كتاب المغنّى

الكتاب بوصفه الحالى يعبر بحماسةٍ عن الانطباعات الحارة التى تركتها فى حواسّى ونفسى كثير من الأشياء والظواهر ، وفيه بيان للعلاقات الخاصة التى عقدها الشاعر مع الشرق . فإذا استمر على هذا النحو فإن هذا البستان الجميل يمكن أن يزين على نحوٍ بديع ، وسيتسع البرنامج على نحوٍ شائق إذا لم يقتصر الشاعر على الكلام باسمه وعن انطباعاته الخاصة ؛ بل عبّر أيضاً عن امتنانه

وتحياته لسادته وأصدقائه ابتغاء اجتذاب الأحياء بكلمات العطف واستعادة ذكرى الموتى بشرف .

ومع ذلك فإن تحليق الشرق ، ذلك الشعر الفنى الذى يفيض بالمديح فيضاً ، يمكن ألا يتلاءم مع ذوق القارئ الغربى . ونحن قد انطلقنا بملء حريتنا ، ودون التجاء إلى المبالغات ، لأن الشعر المحض المشعور به صدقا يمكنه أن يصف المناقب الخاصة بالناس الممتازين الذين لا يُشْعر حقا بكمالاتهم إلا حين يغادرون هذه الدنيا ، فلا تضايقنا غرائبهم بعدُ ، والآثار العميقة لتأثيرهم تتجلى لنا كل يوم وكلّ ساعة . وكان من حسن حظ الشاعر (جيته) أن يدفع قسطا من هذا الدين على طريقته ، بطريقة أسرية ، فى احتفال رائع ، وبحضور شخصيات رفيعة[1] .

كتاب حافظ

إذا كان كل من يتكلمون بالعربية وباللغات التى من نفس الأسرة يولدون شعراء ويُنشئون كذلك ، فمن السهل أن يتصور المرء أن مثل هذه الأمّة قد ولدت نفوساً ممتازة لا حصر لها . لكن إذا كان هذا الشعب ، طوال خمسة قرون ، قد أعطى الصدارة لسبعة شعراء فقط ، فعلينا أن نتقبل هذا الحكم باحترام من غير شك ، لكن سيكون فى وسعنا مع ذلك أن نبحث على أى أساس قام هذا التفضيل .

هذه المشكلة ، بالقدر الذى به يمكن أن تُحَلّ ، ينبغى أن تخصص للديوان المقبل . إذ حتى لو اقتصرنا على حافظ وحده ، فإن الإعجاب به والحب له ينموان كلما ازددنا به علماً : طبع هانئ جداً ، ثقافة واسعة ، سهولة حرة وإقناع خالص بأنه لا يمكن إرضاء الناس إلا إذا تغنينا لهم

---

(١) إشارة إلى « موكب الأقنعة فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨١٨ » الذى احتوى على أشعار لفيلاند وهردر وشلر .

بما يلذ لهم سماعه ، بغير عناء وبسهولة ، ثم يمكن أن ينضاف إلى ذلك حسب المناسبة شيء ثقيل ، موئلم ، مُضايق . فإذا شاء العارفون ، أن يتعرّفوا فى الفقرات الواردة صورة قريبة من حافظ ، فإن هذا سيسرّ خصوصاً الشاعرَ الغربى (راجع القصيدة : ما يريده الكل ، أنت تعلم من قبل ، الخ) .

كتاب العشق

سيكبر هذا الكتاب كثيراً لو أن الأزواج الستة من العشاق تبدّوا على نحوٍ صريح بملذاتهم وآلامهم وإذا انبثق غيرهم إلى جدارهم من ظل الماضى على أنحاء متفاوتة . فمثلاً وامق[1] وعزرا — اللذان لم يصل إلينا عنهما غير اسميهما — يمكن أن يقدّما هكذا :

نعم ! الحب فضلٌ عظيم !

وهذا الكتاب يقبل أيضا الاستطرادات الرمزية التى لا غنى عنها فى سهول الشرق . إن الرجل الروحى لا يقنع بما يقدَّم إليه ، بل ينظر إلى كل ما يقنع تحت حراسة على أنه مسخرة خلفها تختبئ ، بهوى حاكر ، حياة روحية رفيعة من أجل اجتذابنا ورفعنا إلى مناطق أعلى . وإذا سلك الشاعر فى هذه النقطة بفن واعٍ متزن ، فإننا ندعه وشأنه ، ونجد فى ذلك متعة لنا ، ونجرب أجنحتنا من أجل طيران أشدّ حزماً .

كتاب التفكير

هذا الكتاب يزداد كل يوم بالنسبة إلى من يسكن الشرق ، لأن التفكير يترجح بين الحسّى وما هو فوق الحسىّ ، دون أن ينحاز للواحد

---

(١) أول من نظم قصة « وامق وعزرا » بالفارسية هو « العنصرى » ، ثم نظمها فصيحى الجرجانى فى تاريخ متأخر عن سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) ، ويقال إنه استقاها من أصل بهلوى . وذكر ايتيه أنها نظمت ست مرات بالفارسية ، ولكنها ضاعت جميعاً ؛ ولم يبق ما يكشف عن موضوعها غير ما ذكره الشاعر التركى « لمعى » فى ترجمته التركية لمنظومة العنصرى .

أو للآخر نهائياً . وهذا التأمل الذى ندعوك إليه من نوع خاص جدا ، فهو لا يتعلق فقط بالحكمة العملية ، وإن كانت هذه تتجلى كثيرة المطالب ، بل يتوجه أيضا صوب تلك النقط القصوى حيث أغرب المشاكل فى الحياة تقوم أمامنا على نحو مباشر لا يرحم وتحملنا على ثنى ركبتنا أمام الصدفة ، وأمام العناية وقراراتها لا تُدْرَك ، مع إعلان أن الاستسلام المطلق هو القانون الأعلى للعالم السياسى والأخلاقى والدينى .

كتاب سوء المزاج

إذا كانت الكتب الأخرى من هذا الديوان تنمو وتزداد ، فلنمنح هذه الحق لهذا الكتاب . وينبغى حشد الإضافات اللذيذة ، المحبوبة ، المعقولة قبل أن تصبح انفجارات سوء المزاج محتملة . والإحسان الكلى ، والمشاعر المتسامحة المعاونة توحد بين السماء والأرض وتهيئ للناس الجنة التى وُعِدوها : ولكن سوء المزاج دائما أنانى ، ولا يكفّ عن المطالبة بحقوقه حتى يحصل عليها ، إنه متعجرف ، يضايق ولا يسرّ أحدا ، حتى ولا أولئك الذين يستولى عليهم نفس الشعور . ولكن الإنسان لا يستطيع كبت هذه الانفجارات باستمرار ؛ بل هو يحسن صُنْعاً حين يسعى للتخفيف عن سخطه على هذا النحو ، خصوصاً حين يتعكر نشاطه أو يُعوَّق . ومنذ الآن وهذا الكتاب ينبغى أن يكون أكبر أهمية وأكثر غنى ؛ لكن منعا لكل ضيق فقد نحينا جانبا كثيراً من الأشياء . ولنلاحظ فقط أن مظاهر من هذا النوع ، يمكن أن تبدو مضايقة فى لحظة ما ، قد يُقَرّ بأنها بريئة وتُتقبل بهدوء وإحسان قد احتفظ بها تنتشر فيما بعد كملحقات .

وفى مقابل ذلك نهتبل هذه الفرصة لنتكلم عن المزاعم ، ونبدأ بالطريقة التى تتجلى عليها فى الشرق . والحاكم نفسه هو أول أصحاب المزاعم ويبدو أنه يستبعد سائر المزاعم : الناس كلهم فى خدمته ، وهو سيّد نفسه ، ولا يلقى

أحدٌ عليه أمراً ، وإرادته تخلق العالم المحيط بها ، حتى إنه ليمكن أن يشبّه بالشمس ، بل بالكون . ومن العجيب أنه من أجل هذا السبب هو مضطر إلى أن يختار لنفسه من يساعده فى الحكم فى هذا الميدان غير المحدود ويسنده فى الواقع على عرشه الذى يحكم منه الدنيا . والشاعر يعمل معه وبالقرب منه ويمجده فوق كل بنى الإنسان . وإذا تجمع كثير من هذه القرائح فى القصر ، فإنه يُعيّن أميرا للشعراء وبهذا يقرّ بأنه يرى القريحة العليا مكافئة له . لكن الشاعر بهذا يجرّ ، بل يُدْفَع دفعا إلى أن يحسن الظن بحاكمه ويشعر أنه يشاركه فى كل امتيازاته ومُتَعه . ويتأيد عنده هذا الظنّ بما يناله من مِنَح وجوائز لا حصر لها ، والثروات التى يجمعها ، والنفوذ الذى يمارسه . ويستوثق من هذا الاعتقاد إلى حد أن أقل إخفاق فى آماله يدفعه إلى الجنون . لقد توقع الفردوسى أن ينال عن « الشاهنانه » ، بناءً على وعد سابق من السلطان ، مكافأة قدرها ستون ألف قطعة من الذهب ، لكن لما لم ينل إلاّ ستين ألف قطعة من الفضة ، وقد تلقى هذا النبأ وهو فى الحمام ، فإنه قسّم هذا المبلغ إلى ثلاثة أقسام : وأعطى قسماً منها للرسول الذى أتى بالمبلغ ، والقسم الثانى لصاحب الحمام ، والقسم الثالث للحلوانى ، وفى الحال سحب ، فى أشعار هجائية ، كل المدائح التى كالها من قبل للسلطان طوال سنوات عديدة . وهرب ، واختبأ ، ولم يتراجع ويطلب المغفرة ، بل ورّث كراهيته لأهله ، حتى إن أخته بدورها احتقرت ورفضت مكافأة كبيرة أرسلها السلطان بعد أن هدأت غضبته ، لكنها لم تصل مع الأسف إلاّ بعد وفاة أخيها (الفردوسى) .

وإذا كنا نود متابعة هذه التأملات فإننا نقول إنه من العرش ، نازلين كل الدرجات ، حتى الدرويش فى زاوية الشارع ، الكل ملئٌ بالمزاعم ، ملئٌ بالكبرياء الدنيوية أو الدينية ، التى تنفجر فجأة لدى أول مناسبة .

وهذا العيب الخلق ، إن كان هذا عيبا ، يتخذ فى الغرب مظهرا

غريبا جدا . إن التواضع فى جوهره فضيلة اجتماعية ؛ ويفترض ثقافة واسعة ، إنه إنكار للذات بإزاء الغير ، يفترض قيمة باطنة عالية وينظر إليه على أنه صفة عالية فى الإنسان . وهكذا يقال لنا إن الجمهور يمدح دائما ، فى الناس الممتازين ، تواضعهم ، دون أن يهتم بسائر مزاياهم وصفاتهم . لكن التواضع ، وهو مرتبط دائما بالنفاق والمراعاة ، هو نوع من التملق يحدث أثرا كبيرا بقدر ما يلذ دون أن يضايق ، لأنه يتجنب مضايقة الغير فى تقديره الراضى بنفسه . لكن كل ما يسمى حُسْن المعشر يتألف من إنكار متزايد للذات ، حتى إن المجتمع ينتهى بأن يرتد إلى صفر ، اللهم إلا إذا نمت ملكة إرضاء غرورنا مع القدرة على تملق غرور الآخرين .

ومع ذلك فنحن نود أن نوفق بين مواطنى شاعرنا الغربى وبين مزاعمه . ذلك أن « الديوان » لا يخلو من بعض المزاعم ، بقدر ما يراد محاكاة الطابع الشرقى .

وشاعرنا لا يمكنه أن يستسلم للميل الكريه إلى الكبرياء بإزاء الطبقات العليا . وموقفه السعيد أعفاه من كل صراع مع الاستبداد . والناس شاركوا فى المدائح التى وجهها إلى سادته الأمراء . والشخصيات الكبيرة التى وجد نفسه على علاقات بها كان الناس ولا يزالون يحترمونها . بل يمكن أن يؤخذ على الشاعر أن الجانب المدحى فى كلامه ليس غنياً بدرجة كافية .

١

أما عن كتاب « سوء المزاج » . فيمكن بسهولة أن نوجه إليه لوما : ذلك أن كل ساخط يعبر بوضوح جداً عن كونه خُدِع فى آماله الشخصية وأنه لم يُقدَّر حق قدره . والأمر كذلك بالنسبة إليه ! إنه لم يُعاكَس من أعلى ، بل جُرِح من أسفل ومن الجانب . وحشد ثقيل ، تافه خالياً ، خبيث مراراً ، مع خواشيهم ، يشلون عمله ؛ إنه يتسلح أولا بالكبرياء

والمرارة ، لكنه بعد ذلك وقد حوصر واحتُوِش ، يشعر بأنه قوىّ قوة كافية على أن يشق لنفسه طريقا خلال الجمهور .

ونستطيع أيضاً أن نسلِّم له بأنه يستطيع أن يخفف مراراً كثيرةً مزاعمه من حيث أنه يردها فى نهاية المطاف إلى محبوبته وأنه يذل بل يُفنى نفسه أمامها وسيشكر له قلب القراء وعقلهم هذا الصنيع .

كتاب الحكمة

هذا الكتاب أجدر من غيره بأن يزداد ، وهو أقرب نسباً إلى كتاب التفكير وكتاب سوء المناج . لكن الأقوال الشرقية تحافظ على السمة الخاصة بكل الشعر فى الشرق ، وهى أنها ترجع غالباً إلى موضوعات حسية ومرئية ؛ ومن بينها كثير مما يمكن أن يسمى حقاً بأمثال موجزة . وهذا النوعَ هو الأصلب عند شاعرنا الغربى ، لأن محيطنا يبدو جافاً ، كثير التظام ، كثير الرتوب . وبعض الأمثال القديمة الألمانية التى فيها يتحول الشعر إلى صورة يمكن هنا أيضاً أن تفيد كنماذج » .

كتاب تيمور

وكتاب تيمور يجب ، فى الواقع ، أن يتلقى أسسه الأولى ، وربما يجب أن ندع سنتين تمران حتى يأتى وقت فيه التفسير القريب جدا منا لا يسىء إلى الرؤية المفخَّمة لأحداث عالمية هائلة . وهذه المأساة يمكن أن تخفف إذا قررنا أن نُظهر بين الحين والحين نصير الدين خرياجه رفيق الحرب والخيمة المازح لهذا المدمِّر الرهيب . ومواتاة الوقت ، والروح الحرة يساعدان على النجاح ، ونورد هنا مثلا نموذجياً للنوادر التى وصلت(١) إلينا :

(١) كان فون ديتس قد ترجم لجيته خمس نوادر من نوادر نصير الدين خواجه . وجيته يورد هنا الرابعة .

كان تيمور قبيح الخلقة ، وكان أعور ، أعرج . وذات يوم كان الخواجه بالقرب منه ، فحك تيمور رأسه ، إذ جاء وقت الحلاقة ، فأمر بإحضار الحلاق : وبعد قص شعر رأسه ، وضع الحلاق ، كالعادة ، المرآة فى يد تيمور . فتأمل تيمور فى المرآة ، ووجد وجهه قبيحاً جداً . هنا لك أنشأ فى البكاء وبكى الخواجه معه ، وظلا يبكيان هكذا طوال ساعتين . وهنالك قام بعض الأصدقاء يواسون تيمور ، ويقصّون عليه حكايات عجيبة حتى ينسى كل شىء . فتوقف تيمور عن البكاء ، لكن الخواجه لم يتوقف بل ازداد فى البكاء . وأخيراً قال تيمور للخواجه : اسمع ، لقد تطلعت فى المرآة ورأيت نفسى قبيحاً جداً ، وحزنت لأنى وأنا الإمبراطور ولى ثروة هائلة وعبيد ، ومع ذلك فأنا قبيح هكذا ، ولهذا بكيت . وأنت ، لماذا تبكى بدون انقطاع ؟ — فقال الخواجه : إذا كنت رأيت نفسك مرة واحدة فى المرآة فلم تحتمل منظر وجهك وأخذت فى البكاء ، فماذا نستطيع نحن أن نفعل ، نحن الذين نتطلع إلى وجهك ليل نهار ؟ إذا لم نَبْكِ نحن : فمن ذا الذى سيبكى ؟ لهذا بكيت . — وعند هذه الكلمات كاد تيمور أن يختنق من شدة الضحك :

كتاب زليخا

هذا الكتاب ، وهو أقوى سائر المجموعة ، يمكن أن يُعَدَّ منتهياً . إن التَّنَفَس والحرارة فى الوجدان الذى يشيع الحياة فى الكتاب كله (الديوان) ليس شيئاً يمكن استعادته بسهولة غالباً ، وعلى كل حال فإن عودته ، مثل عودة سنة الخمر الطيبة ، يجب انتظارها بأمل وتواضع .

وتدلى ببعض الملاحظات عن مسلك الشاعر الغربى فى هذا الكتاب ، كتاب زليخا . على مثال أكثر من واحد من أسلافه الشرقيين ، يبتعد الشاعر عن السلطان . وكدرويش قنوع ، يجرؤ على أن يقارن نفسه بالأمير ؛ لأن الشحاذ الحقيقى ينبغى أن يكون نوعاً من الملِك . إن الفقر يثير الجرأة . فعدم

الإقرار بالخيرات الدنيوية ولا بقيمها ، وقلة الاحتياج إليها أو الاستغناء عنها تماماً ، ذلك هو القرار الذى يؤدى إلى أسعد عدم اهتمام . وبدلاً من أن يبحث عن امتلاك فلق ، يوزّع بفكره الولايات والكنوز ويسخر ممن يملكها ويفقدها . لكن شاعرنا فى الحقيقة يعلن عن فقر مقصود إرادى حتى يبدو أكثر كبرياء لأن ثمت فتاة تمنحه لهذا السبب عطفها وإخلاصها .

وفضلاً عن ذلك ، فهو يفخر بنقيصة أخرى : لقد هرب منه الشباب ، ويزين ضيخوخته وشعره الأشيب بحب زليخا ، وهذا لا يتم بثقل الثقيل الملحاح ، بل لأنه يعرف أنه يقابل حباً بحب . إنها زليخا ، الزكية ، تعرف كيف تقدر العقل الذى يُنْضِج الشباب مبكراً ويجدد شباب الشيخ .

كتاب الساقى

لا يمكن أن يُغْفَل فى الديوان الميل المفرط إلى الرذيلة التى يمكن أن يدافع عنها بعض الدفاع ، ولا الشعور الرقيق نحو جمال غلام ؛ لكن هذا الموضوع الأخير ينبغى ، وفقاً لأخلاقنا ، أن يعالج بطهاوة تامة .

إن الميل المتبادل بين الشباب والشيخوخة هو فى الواقع علامة على علاقة تربوية فى جوهرها . والتعلق الشديد من الولد للعجوز ليس أبداً حادثاً نادراً . بل واقعة قليلة الاستعمال . وليتأمل المرء فى العلاقات بين الحفيد والجد ، والعلاقات بين الوارث الذى جاء متأخراً وأبيه الذى فوجئ ورقّ قلبه . وفى العلاقات التى من هذا النوع تنمو الحكمة العملية للأطفال ، إنهم متنبهون للكرامة ، وللتجربة ، وللقوة التى عند الشيخ ، وثم نفوس طاهرة تستشعر الحاجة إلى عطف ملىء بالاحترام ، والشيخوخة يخدمها ذلك وتفرح له . وإذا استشعر الشباب واستغل لنفسه مزاياه للوصول إلى أغراض صبيانية وإرضاء حاجات طفولية ، فإن الرضا يجعلنا نتسامح مع المكرُ المُبكِّر . لكن الطموح العالى للطفل يظل لطيفاً جذاباً ، الطفل الذى وقد أثرت فيه روح

الشيخ النبيلة ، يستشعر فى نفسه دهشة تدع تستشعر أن شيئاً شبيهاً يمكن أن ينمو فيه . وقد حاولنا أن نبين هذه العلاقات الجميلة فى كتاب الساقى وأن نحددها هنا على نحو أكثر تفصيلا . وقد خلّف لنا سعدى الشيرازى بعض الأمثلة اللطيفة التى تفتح لنا الفهم الكامل لهذه الواقعة . ولطفها بيّن لكل الناس .

فهذا ما يقوله فى « الجلستان » : (حكاية) إنه فى العام الذى اختار فيه السلطان محمود خوارزم شاه ، عَقدَ الصلح مع ملك الخطا لإصلاح رآه ، دخلتُ جامع كاشغر ، فنظرتُ فيه صبيا مِنْ أحسن البَشَر ، ملاحته فى غاية الاعتدال ، ونهاية الجمال كما لو قالوا فى أمثاله ممن انتفع ، بما تطبّع .

يعلمك المعلم عتب يطف   وظلم العاشقين مع الدلال
ولم أر شكل طبعك فى تثنى   فهل طالعت حاشية الخيالى

وكان بيده مقدمة النحو للزمخشرى وهو يعيد ويبدى ، ضرب زيدٌ عمراً وهو المتعدى ، فقلت : يا غلام ، إن خوارزم والخطا استصوبا الإصلاح ، وزيد وعمرو لم يزالا فى خصام وكفاح ! فتبسم ضاحكاً من قولى ، وسألنى عن محطّ رحلى ، فقلت : يا أخا الإعزاز ، من أرض شيراز ، فقال : إن كنت تحفظ من رقائق السعدى ، فتكرّمْ بما تهدى ، فقلت :

(نظم عربى الأصل)

بُليت بنحوىّ يصول مغاضبا   علىّ كزيد فى التقابل مع عمرو
على جرّ ذيل ليس يرفع رأسه   وهل يستقم الرفع من عامل الجرّ !

فغرق فى الفكر قليلا وقال : إن غالب شعره فى هذه الأرض بفارسىّ المقال ، فإن تفضلت بما يشتد قربه للفهم من مقبولهم ، فاجْرِ على سنة القائل : أُمِرْتُ أن أكلّم الناس على قدر عقولهم .

من وقت ما شغلت بالنحو الفكر   محوت رسم العقل من قلب البشر
صاد القلوب منك أشراك الجمال   وأنت من زيد وعمرو فى اشتغال

فلما حان صُبْحُ الرحيل عندى ، أخبره بعضُ أهل القافلة أن صاحبك هو السعدى . وإذا به جاء راكضا يتلطف ؛ وعلى الوداع يتأسف ، قائلا قد مضت هذه الأيام ، ولم تفدنى بأنك ذلك الإمام ، كى أفى بحق الخدمة كما يشترط ، وأشدّ فى شكر قدوم الأعيان الوسط ، فقلت (مصراع) : « بقربك منى لا أشير إلى إسمى » . فقال : ما المنعة ، إذا ارتمت أياماً بهذه البقعة ، حتى نستفيد بالخدمة ، ونؤدى شكر النعمة ؟ فقلت لا أستطيع ، لما تضمنه هذا النظم البديع :

نظرتُ شيخا فى كهوف الجبل   أرضاه فى الدنيا وميضُ الوشل
فقلت : قُمْ بنا إلى المدينـــة   كيما تفُكّ نفســك الحزينه
فقال : كم فيها من الحور الحسان   ما يهتك الحلم عنـــد الافتنان !

ثم تعانقنا يقبّل الوداع ، وتفارقنا والكلُّ مُثْنٍ وداعٍ .

بعيشك ما يغنى الوداع بقبلةٍ   لوجنة مَنْ تهوى وأنت موادع
كأنك يا تفاح قبلت راحلا   فنصفاك محمرٌ ونصفك فاقع

(عربى الأصل)

إن لم أمُت يوم الوداع تأسفا   لا تحسبونى فى المودّة منصفا[1] »

ويذكر الشاعر نفسه (السعدى) الحكاية التالية أيضا :

« امتزجت فى عهد الصبا بشاب ، حتى كان صدق مودتى له بهذا المثاب ، وهو إنى جعلت قِبْلة عينى جماله ، ورأس مالى عمرى وربحه وصاله .

---

(١) « ترجمة الجلستان الفارسى العبارة ، المشير إلى محاسن الآداب بألطف إشارة ، تعريب الأريب الألمعى ، والأديب اللوذعى ، الخواجا جبرائيل بن يوسف الشهير بالمخلع » ، ص ١١١- ١١٢ ، طبعة بولاق بالقاهرة ، سنة ١٢٦٣ هـ (= ١٨٤٧ م) .

فرد المحاسن لا جنّ ولا ملك يحكى شمائله فى أحسن الصور
ليس الحبيب الذى من بعده حرمت مطارحات الهوى من نطفة البشر

فما فجأنى إلاّ تَقَدُّمُ وجوده وقد غطس فى وحل الأجل ، وارتفع دخان فرقته فى القبيلة بأنفاس الوجل . فجاورت على رأس قبره جملة من الأيّام ، ومما قلته فى فراقه هذه المقاطع الأيتام :

ألا إن يوماً شاك عمرك جوره دهانى من الدنيا به صارمُ البتر
وحجبت عينى عن سواك فدائماً أهيل على رأسى التراب من القبر

غيره

هذا الذى كان لا يأوى لمضجعه حتى يرش بنسرين وأزهار
أراق دور الليالى ماء وجنته والشوك فرّع فوق القبر ياداري

وعزمت بعد فراقه أن أطوى فى دار حياتى بساط الهوى ، وجزمت أن لا أطوف حول المجالس لعشق بعض من جلس .

فلو هان موج البحر عمّ بنفعه ولولان شوك الورد ضُمّ مع الحب
أبالأمس كالطاووس فى الوصل أنثنى فأصبح أفعى تلتوى إذ نعى صحبى[١]

كتاب الأمثال

على الرغم من أن الأمم الغربية هضمت شطراً كبيرا من ثروات الشرق (الروحية) ، فلا يزال ثمّ الكثير مما يمكن التقاطه ، ولتحديد ذلك نقدم بعض التفسيرات :

يمكن توزيع الأمثال ، وكذلك سائر الأنواع الشعرية فى الشرق ذات

---

(١) الترجمة المذكورة ص ١١٣ .

الصلة بالأخلاق ، بين ثلاثة أبواب : أخلاقية ، عرفية ، زهدية . والباب الأول يشمل وقائع أو إشارات تنتسب إلى الإنسان بوجه عام وأحوال وجوده ، دون أن يحاول المرء أن يعبّر عما هو خير أو شر . وهذا الأخير هو ما يبرزه الباب الثانى ، مهيئاً للسامع بهذا اختياراً معقولا . والباب الثالث يضيف إلزاماً حاسماً : فالوعظ الأخلاقى يصير قاعدة وقانونا . ويمكن أن نضيف إلى هذه الأبواب الثلاثة طائفة رابعة من الأمثـــال : تعرض التوجيهات الرائعة الناتجة عن أوامر الله غير الميسورة وغير الممكنة التفسير : وهى تلقّن وتؤكد ما هو الإسلام الصحيح ، أعنى التسليم المطلق لمشيئة الله ، والإيقان بأنه لا يمكن أحداً أن يفلت من المصير المقدر عليه قدراً سابقا . وربما يضاف إليها طائفة خامسة ، يمكن أن تسمى صوفية : تدفع الإنسان خارج الموقف الذى حدّدناه ، والذى يظل دائما مثيراً للقلق والعناء ، نحو الاتحاد بالله فى هذه الحياة ونحو الزهد الموقت فى كل الخيرات التى يمكن أن يؤدى فقدانها إلى الألم والضيق . فإذا عرفنا كيف نميّز بين الأغراض المنشودة فى مختلف التصورات الرمزية فى الشرق ، فسيكون فى هذا كسْبٌ كبير ، لأنه إذا مزج المرء بين هذه الأغراض أحس دائماً بالتعويق : مرة يبحث الإنسان عن تطبيق عملى هناك حيث لا يوجد ، ومرة أخرى لا يدرك المعنى العميق المستور . وإعطاء أمثلة بارزة لكل هذه الأبواب يجعل كتاب الأمثال شائقا مفيداً . فى أى باب ندخل ما نقدمه هذه المرة ، هذا ما نوع الحكم فيه للقارئ الذكىّ .

كتاب الپارسى

المشاغل العديدة هى وحدها التى منعت الشاعر (جيته) من أن يعرض شعرياً عبادة الشمس والنار بكل سعتها ، وإن كانت مجردة فى الظاهر وخصبة فى نتائجها العملية ؛ وإنها لمادّة رائعة يمكن أن يستخدمها الشعر ونرجو أن يقيّض لنا أن نسدّ هذا النقص الذى تركناه شاغراً هنا .

كتاب الخلد

وهذه الناحية من نواحي العقيدة الإسلامية فيها مواضع رائعة ، وجنات فى جنات ، بحيث يسرّ المرء أن يتلبث فيها طويلا ، وأن يقيم . والمزاح والجد يمتزجان هنا على ألطف نحو ، واليومى المتسامى يعيرنا أجنحة للتحليق والصعود درجة فدرجة حتى أعلى الذُّرَى . ومن ذا الذى يمكنه أن يمنع الشاعر من أن يركب فرس محمد الرائعَ (البراق) وأن يتجول خلال السموات الفسيحة ؟ ولماذا لا يحتفل بتلك الليلة المقدسة التى فيها أنزل القرآن كله على النبي من أعلى ؟ إن هاهنا كنوزاً عديدة يمكن استغلالها .

مباحث « فى العهد القديم »

بعد أن هدهدت نفسى بأمل أن أستطيع فيما بعد أن أعمل الكثير سواء بالنسبة إلى « البهلوان » وبالنسبة إلى الشروح التى أضفتها إليه ، أجلت البصر فى الدراسات الأولية ، التى لم تستخدم ولم تتم ، والتى تبدت أمامى فى أوراق عديدة ؛ فوجدت من بينها بحثاً كتبته منذ خمسة وعشرين عاماً ، ويقوم على أساس أوراق وتخطيطات أقدم .

ومن القراء الذين قرأوا دراساتى فى التراجم من سيذكر أنى كرّست وقتاً طويلا وانتباهاً كبيراً للسفر الأول من أسفار موسى الخمسة ، وتلبثت طويلا إبان شبابى فى جنّات الشرق ؛ لكنى درست أيضاً بحماسة واهتمام الكتابات التاريخية اللاحقة . والأسفار الأربعة الأخيرة من أسفار موسى قد تطلبت أبحاثاً دقيقة ، وفى البحث التالى نعرض بعض النتائج الغريبة . فليسمح لنا بأن نفسح لهذا بعض المجال . لأنه كما أن كل تجوالاتنا فى الشرق قد تمت بمناسبة الكتب المقدسة ، فإننا نعود دائماً إليها كما نعود إلى ماء الينبوع العذب كل العذوبة وأن تعكر بعض الشيء هنا وهناك ، أو ضل أحياناً فى باطن الأرض ، لكنه ينبثق من جديد صافياً فراتاً .

إسرائيل فى الصحراء

« هنالك اعتلى عرش مصر ملك جديد لم يكن يعلم شيئاً عن يوسف » . والشعب ، شأنه شأن الملك ، كان هو الآخر قد نسى ذكرى مَنْ أحسن إليه ، وبنو إسرائيل أنفسهم لم يعودوا يدركون من أسماء أسلافهم الأول غير صدى بعيد للأزمان السحيقة . وبعد أربعمائة سنة كانت الأسرة الصغيرة قد تكاثرت جداً . والموعدة التى وعد الله بها جدهم الكبير قد تحققت خلال كثير من الأمور غير المحتملة ؛ لكن فيم أفادهم هذا !؟ إن عددهم الكبير قد جعلهم موضع ارتياب من جانب الشعب الأصلى ، وحاول مضايقتهم ، وإخافتهم ، ومعاكستهم ، وإفناءهم ، ومهما تكن شدة مقاومتهم لهذه الاضطهادات بما طبعوا عليه من عناد ، فإنهم صاروا يدركون مقدماً هلاكهم التام حين يلزمون ، بعد أن كانوا شعباً حراً من الرعاة ، بأن يبنوا على حدودهم وبأيديهم مدناً محصنة من الواضح أن المقصود منها هو السيطرة عليهم وسجنهم .

وقبل أن نوغل فى البحث ونشق لأنفسنا بعناء طريقاً خلال أسفار حررت بطريقة غريبة ، بل لنقل بائسة ، فلنتساءل ماذا سيبقى كأساس راسخ ومادة أولية لأسفار موسى الأربعة الأخيرة بعد الملاحظات وألوان الحذف التى نعتقد أن من الضرورى إجراءها ؟

إن الموضوع الخاص ، والأوحد ، والجوهرى لتاريخ العالم والناس ، وعليه يتوقف الباقى ، هو النزاع بين الإيمان والكفران . وكل العصور التى يسود فيها الإيمان ، على أى شكل كان ، عصور لامعة عظيمة خصبة للمعاصرين والأجيال التالية . وبالعكس ، العصور التى يحظى فيها الكفران ، على أى شكل كان ، بانتصار بائس ، حتى لو تألق فيها لحظةً بريقٌ خداع ، تختفى فى نظر الأجيال التالية ، إذ لا يود المرء أن يعنّى نفسه بمعرفة ما هو عقيم .

فإن كان السِّفر الأول من أسفار موسى يمثل لنا انتصار الإيمان فإن الأربعة الأخيرة موضوعها الكفران الذى لا يصل ، بأدنى الطرق ، إلى التغلب على الإيمان وصرعه ، — ولكن الإيمان هو الآخر لا يظهر فى تمامه ، — بل يندس فى كل لحظة على طريد ، وكثيراً ما يستعين بالمنح وأكثر من ذلك بالعقوبات الشديدة ، لكنه لا يُشفى ولا يجتثّ ، بل يلزم الصمت ، ويستمر فى طريقه الخبيث حتى إن عملا عظيماً نبيلا ، تسوقه أروع وعود إله قومى أمين ، يصير على وشك الإخفاق منذ البداية ولا يمكن أن يتم بكماله .

وإذا كان طابع الأساس يضايقنا ، وكان الخيط الملتوى على الأقل لدى النظرة الأولى ، والذى يجرى خلال الكل يغشّى على أبصارنا ويُسْخِطنا ، فإن هذه الأسفار تصير غير محتملة أبداً نتيجة تحرير سيئ جداً غير مفهوم : ففى كل موضع نرى خيط الرواية ينقطع بإدخال قوانين عديدة ، لا نفهم فى الغالب سبب وجودها ولا المقصود الحقيقى منها ، ولا على أىّ حال لماذا أعطيت فى هذه اللحظة بالذات ، وإن كانت من عصر متأخر ، فلماذا أولجت ها هنا . ولا نفهم لماذا يُحاوَل عن قصدٍ وعلى نحو بائس ، خلال حملة هائلة تلقى الكثير من العقبات فى طريقها ، تكثير المراسم والطقوس على نحوٍ من شأنه أن يعرقل التقدم فى السير . ولا نفهم لماذا ينبغى تقرير قوانين مستقبل غير معروف ، وإعلانها فى وقت لا يعرف فى أى يوم وفى أية ساعة ماذا ينبغى أن يُعْمَل ، وحيث يسجد الزعيم فى كل لحظة ، وكان الواجب عليه أن يتنبه قائماً على قدميه ، ابتغاء استنزال المنح أو العقوبات من أعلى ، وتمنح هذه وتلك أيّما اتفق ، حتى أن الغرض الرئيسى من الرحلة مع الشعب الضال يختفى عن النظر .

وللاهتداء فى هذا التيه اهتممت بأن أفصل بعناية ما هو رواية حقا ، سواء كان فيه تاريخ أو أسطورة أو كلاهما معاً ، أى شعر — فصلت هذا عما يمكن أن يسمى بالتعاليم والأوامر . وأقصد بالتعاليم ما يمكن أن يناسب ، فى كل البلاد ، كل المخلوقات المعنوية ؛ وأقصد بالأوامر ما يعنى خصوصاً

بنى إسرائيل ويوحد بينهم : إلى أىّ حدّ نجحتُ فى هذه المحاولة ، لا أملك الحكم على ذلك ، لأنى لست فى موقف يسمح لى باستئناف هذه الدراسات ، لكن أستعير من أوراق قديمة أو حديثة ، حسبما تسمح الظروف ، ما أريد تنديمه : فثم إذن نقطتان أريد أن ألفت انتباه قرائى إليهما : أولا كيف أن هذه الحملة الغريبة مأخوذة فى مجموعها يمكن أن تُفسَّر بشخصية زعيمها ، الذى لا يبدو فى البداية على حال مناسبة : وثانيا افتراض أن الحملة لم تستمر أربعين سنة ، بل سنتين فقط ، ومن هذا يستنتج أن هذا الزعيم نفسه ، الذى كان علينا فى البداية أن نلومه على مسلكه ، يسترد شرفه ويجد ما يبرره ، فى نفس الوقت يطهّر شرف الإله القومى من تهمة القسوة التى تكاد تكون أعنف من عناد شعبه وأسوأ ، ويكاد أن يسترد صفاءه الأوّلى :

ونتذكر أولاً بنى إسرائيل فى مصر وعبوديتهم التى دعيت الأجيال التالية للاهتمام بها . من هذا الشعب ، ومن سبط لاوى العنيف ، قام رجل عنيف ، يميزه شعور قوىّ بالعدل والظلم . ويلوح أنه جدير بأجداده الرهيبين الذين صاح أقدمهم[1] قائلا : « شمعون ولاوى ! أخوان سيوفهما آلات جَوْر . مجلسهما لا تدخله نفسى ، وفى مجمعهما لا تتحد ذاتى لأنهما فى سخطهما قتلا إنساناً ، وفى رضاهما عرقبا ثوراً . ملعونٌ سخطهما فإنه شديد ، وغضبهما فإنه قاس . أُقسّمهما فى يعقوب ، وأبدّدهما فى إسرائيل » .

بهذا الروح يتجلى موسى . إنه يقتل مصرياً أساء معاملة إسرائيلى : وتكتشفْ جريمة القتل هذه الناشئة بدافع العصبية القومية ، وصار عليه أن يهرب . وهذا الذى يتبين ، من كونه ارتكب هذا الفعل ، أنه رجل بسيط على الفطرة ، لاحاجة إلى البحث عما ذا كانت تربيته . أما أنه وهو طفل قد

---

(١) سفر التكوين ، فصل ٤٩ ، آية ٥ وما بعدها .

كفلته أميرة ، وأنه نُشِّئ فى القصر ، لا شىء من هذا أثر فيه ، لقد صار رجلاً شجاعاً قوياً ، لكنه على كل حال بقى قاسياً جلفاً غير مهذب . وفى المنفى أيضاً نجده بهذا الوصف : قوى ، سريع البادرة ، منطوٍ على نفسه ، عاجز عن التعبير . وبقوة ساعده يكتسب صداقة كاهن — ملك من مَدْين يضمه إلى أسرته . هنالك يتعلم كيف الصحراء وسنرى فيما بعد فى الصحراء فى وظيفة شاقة هى رئيس جيش .

فلنُلْقِ أولاً نظرةً على أهل مَدْين الذين صار موسى يقيم بينهم . وينبغى علينا أن نتعرف فيهم شعبا عظيماً ، يبدو ، شأنه شأن كل الشعوب الرحل النشيطة ، أكبر مما هو نتيجة الأعمال المختلفة التى يتولاها قبائله ، وامتداد حركتهم . إننا نلتقى بأهل مدين عند سفح جبل حوريب ، وعلى الشاطئ الغربى من الخليج الصغير ، وبعد ذلك حتى مواب وأرنون . ويبدون منذ عهد مبكر تجاراً يذهبون ، خلال أرض كنعان ، بالقوافل إلى مصر .

عند هذا الشعب عاش موسى ، لكنه عاش هنا راعياً منعزلاً منطويا على نفسه ونحن نجده وحيداً فى الصحراء ، على أسوأ حال يمكن أن يجد فيها نفسه شخص ممتاز غير بارع فى الفكر والتأمل ، ولا ينشد إلا الفعل والعمل ، نحوه مشغولاً بمصير شعبه ، يتوجه دائما إلى الله ، إله أجداده ، ويشعر بالقلق وقد نفى من بلاد ، ليست بلاد أجداده ، ولكنها فى ذلك الوقت كان يقطن فيها شعبه ، عاجزاً كل العجز عن العمل بقوة ساعده فى أمر مهم خطر كهذا ، عاجزاً عن تكوين خطة ، وحتى لو كونها ، لكان عاجزاً عن كل مفاوضة ، وكل عرض شفوى متناسق يجذب الناس إلى شخصه . فلا عجب بعد هذا فى أن طبيعة قوية كهذه قد استهلكت نفسها فى مثل هذا الموقف .

وعلى الأقل يجد بعض العزاء فى الصلات التى يعقدها مع أهله بفضله مرور القوافل . وبعد كثير من الشكوك وألوان التردد ، قرر أن يعود ويصير منقذاً لشعبه . ويلقاه أخوه هارون ، فيعلم حينئذ أن الغليان فى أوجه بين الجمهور . لذا يستطيع الأخوان أن يخاطرا بالمثول فى حضرة الملك كممثلين

لبنى إسرائيل . لكن الملك لا يوافق أبداً على أن يتركه بالحسنى يرحل ويستعيد استقلاله القديم كتلةٌ كبيرة من الناس كانوا فى الأصل رعاة ولكنهم منذ قرون تعلموا فى مملكته الزراعة والفنون والصناعات ، واختلطوا برعيته ، ويمكن على كل حال استغلال جمهرته الجلفة ، بواسطة السخرة ، فى تشييد الأبنية الهائلة أو إقامة مدن جديدة وحصون .

وهكذا رُفِض طلب بنى إسرائيل ، ولكنه جُدِّد بإلحاح أشدّ كلما تجلّت جوائح مصر ، وفى كل مرّة يُرْفَض بعناد متزايد . لكن الشعب العبرى ، وقد دفعه الأمل فى وطن وراثى وعد به نقلٌ عتيق ، وراجياً الاستقلال ، لم يعد يقرّ بأى واجب . وبحجة عيد عام يسرقون من جيرانهم أوانيهم الذهبية والفضية ، وفى اللحظة التى يظن فيها المصرى أن الإسرائيلى مستغرق فى احتفالات عديدة ، قامت أصائل(٢) صقلية فى اتجاه مضاد : فالأجنبى ذبح ابن الوطن ، والضيف ذبح صاحب الدعوة ، وبتأثير سياسة قاسية لم يُذْبح إلاّ الابن الأكبر لتغذية أنانية الأبناء التالين فى بلد الذرية فيه تمنح المرء كثيرا من الحقوق ، ومن أجل الهرب بسرعة من انتقام داهم مباشر . وأفلحت هذه الخطة ، وطُرِد القَتَلَة بدلا من أن ينالوا العقاب ؛ ولم يحشد الملك جيشه إلا متأخراً ، والفرسان وراكبو العربات المسلحون بالمناجل وهم فى العادة وبال على المشاة ، خاضوا ، على أرض مستنقعات ، معركة غير متكافئة مع مؤخرة خفيفة وقليلة السلاح — فى أغلب الظن — ولكنها كانت جريئة ومصممة وخاضت أول معركة فى المذبحة العامة ، وسنشهد قساوتها فى أعمالها القاسية الغاشمة ونشير إليها .

---

(١) صورة مجازية للأصائل الصقلية وهى المذبحة العامة للفرنسيين فى صقلية سنة ١٢٨٢ ، تحت حكم شارل دانجو . أخى لويس التاسع . وقد تمت المذبحة بمؤامرة دبرها جان دى بروسيدا ، أحد أنصار بيت شفابن . فى اثنين الفصح ، فى الوقت الذى ذهب فيه المصلون إلى صلوات الأصيل (العصر) ثار أهل صقلية وقاموا يذبحون الفرنسيين الذين كانوا فى جزيرة صقلية . ومن هنا جاء التعبير بمعنى : مذبحة عامة .

وكان فى وسع هذا الحشد المسلَّح ، الجيد الاستعداد للهجوم والدفاع ، أن يختار بين عدة طرق من أجل الوصول إلى الأرض الموعودة ، وأول هذه الطرق بساحل البحر ويمّر بغزة ، لكنه لم يكن طريق قوافل ويمكن أن يصير خطراً بسبب السكان المحاربين الجيدى التسلح على طوله ، والثانى ، وإن كان أطول ، بدا أكثر أمانا وأحفل بالمزايا . وكان يسير على طول البحر الأحمر حتى سيناء ؛ وابتداءً من هناك كان من الممكن اتخاذ طريقين : الأول يوصِّل إلى الغرض بأقرب طريق ، وكان بساحل الخليج الصغير ، خلال أرض مدين ومواب ، حتى الأردن . والثـــانى : مباشرةً خلال الصحراء ، ويتجه إلى قادس ، وفى الحالة الأولى تكون بلاد ايدوم على اليمين ، وفى الحالة الثانية تكون على اليسار . ولا شك فى أن موسى فكَّر فى الطريق الأول من هذين الأخيرين ، ولكن يبدو أنه قرر أن يتخذ الطريق الثانى بسبب أهل مدين الماكرين كما سنبين أن ذلك محتمل بعد أن نكون قد وضعنا حالة اكتئاب النفس التى يُلقى بنا فيها عرضُ الظروف الخارجية التى اقترنت بهذه الحملة .

إن سماء الليل الصافية ، المرصّعة بما لا نهاية له من النجوم والتى أراها الله لإبراهيم ، لم تعد تنشر فوقنا خيمتها الذهبية ، وبدلا من أن يكونوا أندادا لهذه الأنوار السماوية ، كان الشعب العديد يسير ، ساخطا ، فى صحراء حزينة . وكل ظواهر السرور اختفت ، ولم يبق غير ألسنة النيران تنبثق من كل مكان . والرب الذى نادى موسى فى العُلَّيقة المشتعلة ، يسير الآن أمام الحشد المغمور بدخان حارّ متعكّر ، يُظنّ فى النهار عمودا من غيوم ، وفى الليل شهابا مشتعلا . ومن قمة جبل سينا الملفعة بالغيوم ينبثق البرق والرعد رهيبين ، ولأخطاء تبدو ضئيلة تنبثق من الأرض نيران تسهم أطراف المعسكر . ويُعوز الغذاء والشراب فى كل لحظة ، وتزداد الرغبة اليائسة فى العود القهقرى ، كلما أعجزت الحيلة الزعيم .

وفى وقت مبكر ، قبل أن تصل الحملة إلى سيناء ، أقبل يترو على حميد (موسى) ، واقتاد إليه بنته وأحفاده ، وقد جمعوا فى وقت المحنة هذا فى خيمة أبيهم ، وكشف عن رجل عاقل . وشعب مثل أهل مدين ، يسلك طريقه بحرية ويجد الفرصة لممارسة قواه لا بد أنه أكثر ثقافة من حشد يعيش تحت نير أجنبي ، وفى نزاع مستمر مع نفسه ومع الظروف ، ولا بد أن زعيم هذا الشعب الأولى أقدر على النظرات الأوسع من رجل أمين ولكنه حزين منطو على نفســه يشعر أنه ولد للعمل والقيادة ، لكن الطبيعة حرمته من الوسائل الضرورية للقيام بهذه المهنة الحافلة بالأخطار .

ولم يستطع موسى أن يرتفع إلى الفكرة القائلة بأن الزعيم ينبغى ألا يكون حاضرا فى كل موضع ولا أن يعمل كل شيء بنفسه ، بل بالعكس ، بعمله الشخصى جعل مهمته شاقة جدا . فأنار يترو له السبيل فى هذه المسألة ، وعاونه على تنظيم الشعب وإنشاء ترتيبات أدنى ، وهو أمر كان على موسى أن يفطن له بنفسه .

لكن يترو لم ينظر فقط إلى مصلحة حميه (موسى) وبنى إسرائيل ، بل نظر أيضا إلى مصلحة نفسه ومصلحة أهل مدين . وموسى هذا الذى تلقاه من قبل هارباً وكان فى عداد خدمه ، قد أتى إليه اليوم على رأس جمهور كبير من الشعب ، ترك مكان إقامته القديم ، وجاء يبحث عن أرض جديدة وهو ينشر أينما توجه الفزع والإرهاب .

لكن هذا الرجل الحصيف (يترو) ما كان يمكن أن يجهل أن أقصر الطرق لبنى إسرائيل يمر بممتلكات أهل مدين ، وأن موكبهم سيأتى باستمرار قطعان شعبه ، ويمس منشآتهم ، ويجد فى طريقه مدنهم الحسنة التنظيم ؛ ومبادئ شعب مهاجر ليست سرًّا ، إنها تقوم على حق الفتح والغزو ؛ وهو لا يمرّ دونَ أن يلقى مقاومة ؛ وكل مقاومة تبدو فى نظره ظلماً . ومن يدافع عما يملك عدوّ يمكن استئصاله بغير رحمة .

ولم يكن ثم حاجة إلى بعد نظر غير عادى لإدراك المصير الذى ينتظر شعباً ينقض عليه مثل هذه السحابة من الجراد . ومن هنا يمكن أن نفترض أولا أن يترو يعمل على صرف حميه عن طريق الأحسن والأقصر ويقنعه باتخاذ الطريق الذى يجتاز الصحراء ؛ وهذه النظرة يؤيدها أن حوباب لا يترك حماه حتى يراه يتخذ الطريق الذى نصح به ، بل ويصحبه بعيداً ليصرف موكب بنى إسرائيل تماما عن مواطن أهل مدين .

وبعد أربعة عشر شهرا فقط منذ الخروج من مصر تم الرحيل الذى نتحدث عنه . والشعب فى طريقه ، سمى المكان الذى أصابته فيه الجوائح الرهيبة بسبب شهوته وطمعه ، باسم « قبور الشهوة » ، ثم ذهبوا إلى حصيروت ، وعسكروا بعد ذلك فى برّية فاران . وليس من شك فى أنهم تابعوا السير حتى هناك . واقتربوا من غرض رحلتهم ، وكانت العقبة الوحيدة أمامهم هى سلسلة الجبال التى تفصل الصحراء عن بلاد كنعان . فتقرر إرسال جواسيس ، واستمر السير فى تلك الأثناء حتى قادش . وهنا عاد الجواسيس ، وأخبروا أن البلاد ممتازة ، ولكنها مأهولة بالسكان المخيفين مع الأسف . وهنا انفجر النزاع الأليم مرة أخرى ، واشتعل الخلاف بين الإيمان والكفران .

ولسوء الحظ كان لدى موسى مواهب أمير أكثر من أن يكون لديه مواهب قائد . ومن قبل ، حين وقع القتال ضد العمالقة ، صعد على الجبل للدعاء والصلاة ، بينما كان يوشع على رأس الجيش ينتزع من العدو النصر المتردّد طويلاً . وفى قادش كان القوم مرة أخرى فى موقف شائك . فيوشع وكالب ، أشجع الذين أرسلوهم ، نصحوا بالهجوم ، وحثوا الناس بكل قوتهم على غزو بلاد كنعان . غير أن الوصف المبالغ فيه لجنس الجبابرة المسلحين أشاع فى الجميع الذعر والهلع ، ورفض الجيش الخائف أن يصعد الجبل . وحار موسى من جديد ماذا يفعل ، فبدأ بأن حث الجنود ، ثم بدا

له أن الهجوم فى هذا الاتجاه خطر . فاقترح أن يتوجهوا ناحية الشرق ، وفى هذه اللحظة ظهر أن الشطر الأبسل من الجيش وجد من العار أن يتخلى فى اللحظة الحاسمة عن الخطة التى دُبّرت ونفذت بمجهودات كبيرة . وتجمع المتمردون وتسلقوا الجبل . لكن موسى بقى فى المؤخرة ، ولم يتحرك خباء الرب ، ومن هنا لم يلائم يوشع ولا كالب أن يكونوا على رأس هذه الحفنة من الشجعان . وبالجملة فإنه لما كانت الطليعة مسنودة فى هذا الزحف الارتجالى فإنها هُزِمت ، وازداد القلق . فانفجر سخط الشعب كما انفجر مرارا من قبل ، وألوان العصيان العديدة التى اشترك فيها من قبلُ هارون ومريم قد انفجرت من جديد شاهدة على قصور موسى عن مستوى مهمته الكبيرة . ومن البيّن ، ويؤكد ذلك شهادة كالب ، أنه كان من الممكن فى تلك اللحظة ، بل كان من الواجب المحتوم ، أن ينفذوا فى بلاد كنعان ، وأن يستولوا على حبرون وغابات ممْرَا (التى بحبرون) وقبر إبراهيم وأن يؤمّنوا للحملة هدفاً ونقطة ارتكاز . وأى إخفاق بالنسبة إلى هذا الشعب البائس إذا تقرر التخلى عن الخطة التى اتبعت حتى الآن والتى اقترحها يترو لا بنزاهة تامة لكن دون أن يكون فيها خيانة من جانبه !

ولم تكن السنة الثانية من رحيلهم عن مصر قد انقضت . وكانوا يودون أن يروا أنفسهم ، قبل هذا الموعد وإن كان متأخرا ، حائزين على الشطر الأجمل من البلاد التى يطمعون فيها ، لكن السكان ، وقد تنبهوا لهذه الأطماع ، شدّدوا الدفاع : أين إذن يمكنهم التوجه ؟ لقد كان بنو إسرائيل قد تقدموا بعيدا إلى الشمال ، والآن صار من الواجب الاتجاه من جديد نحو المشرق لاتخاذ الطريق الذى كان من الواجب سلوكه منذ البداية . لكن فى الشرق امتدت بلاد أدوم بنطاقها من الجبال ، فحاولوا طلب السماح بالمرور ، ولكن الأدوميين كانوا متيقظين فرفضوا . وشق طريق بالقوة لم يكن من الحكمة ، فكان لا بد من الاقتصار على اتخاذ طريق ملتوٍ يدع جبال أدوم

عن يساره ؛ وهكذا تم السير بغير عناء ، وكان يكفى عدد قليل من المنازل التى يقفون فيها : فى أوبوت والعباريم ، ليصلوا إلى نهر زارد أول نهر يصب مياهه فى البحر الميت ويبلغوا بعد ذلك أرنون . وفى هذه الأثناء كان مريم قد مات وتوفى هارون ، بعد عصيانهما لموسى بقليل .

وابتداءً من نهر أرنون سار كل شيء على وجه أحسن . فللمرة الثانية رأى الشعبُ نفسه قريباً جدا من غاية أمانيه ، فى منطقة قليلة الصعاب ، وصار من الممكن أن يزحفوا بجموعهم ، وأن ينتصروا، ويدمّرا أو يطردوا السكان الذين يعترضون طريقهم . واستمر الزحف ، وهكذا رأى المدينيون والموابيون والأموريون أنفسهم مهاجمين فى أعزّ ممتلكاتهم ، بل دُمِّر الأولون ، وهو ما سعى يترو بفطنته إلى منعه ، واحتُلّ الشاطئ الأيسر من الأردُن ومنحت بعض القبائل المتلهفة امتيازات لتستقر فيه . وأثناء هذه المفاوضات كان موسى قد توفى كما توفى قبله هارون ، وسنخطئ خطأ عظيما لو أن يوشع وطالب لم يريا أن من الأحسن وضع حد للسيطرة المتحمِّلة منذ بضع سنوات لرجل محدود وتركه يلحق بكثير من البائسين الذين سبقوه ، وذلك من أجل قيادة الحملة إلى نهاية حسنة والاستيلاء على كل الشاطئ الأيمن من الأردن والأرض التى يشملها .

ويقرّ المرء عن طيب خاطر بأن العَرْض الذى قمنا به يرينا عقلياً ، التقدمات السريعة المتلاحقة لمغامرة خطيرة ؛ لكن لا يمنح المرء هذا العرض ثقته فى الحال لأنه يركز فى وقت قصير حملةً تجعلها الكتب المقدسة تستمر عدداً كبيراً جداً من السنين . ولهذا ينبغى علينا أن نبين البواعث التى يبدو لنا أنها تبرر مثل هذا الانحراف والابتعاد ، ومن أجل هذا لا نملك خيراً من أن ننظر فى مجموع البلاد التى كان على هذا الحشد أن يجتازها والزمان الذى تحتاجه أية قافلة للقيام بهذه الرحلة ، ونضع فى مواجهة ذلك ما تنقله إلينا النقول الواردة فى الكتاب المقدس عن كل حالة حالة .

ونمر عابرين بالسير من البحر الأحمر إلى سيناء ونقرّ بدون نقد بما جرى في منطقة هذا الجبل ؛ لكننا نلاحظ فقط أن الحشد الهائل ارتحل من سفح سيناء في العشرين من الشهر الثاني ، في السنة الثانية من الخروج من مصر . ومن هنا حتى بريّة فاران لا تزيد المسافة عن أربعين ميلا يسهل على القافلة المحملة أن تقطعها في خمسة أيام . وأعطِ كل الطابور الزمني الضروري للحاق ، وامنحه أيام الراحة المطلوبة ، وافترض توقفات أخرى : فمهما يكن الأمر فلا بد أن يصلوا إلى الغرض في اثني عشر يوماً ، وهذا يتفق مع ما ورد في الكتاب المقدس ومع الرأي الشائع . وهناك يرسل الرسل بينما جمهور الشعب يتقدم ببطء حتى قادش حيث يأتي الرسل بعد أربعين يوماً ، وبعد محاولة حربية بائسة يتم التفاوض مع الأدوميين . ودع هذا التفاوض يطول كما شئت ، فإنك لن تستطيع أبداً أن تزيده على ثلاثين يوماً . الأدوميون يرفضون رفضاً باتاً السماح لبني إسرائيل بالمرور ، ولم يكن من الحكمة بالنسبة إلى بني إسرائيل أن يتخلفوا طويلا في هذا الموقع الخطِر : إذ لو تفاهم الكنعانيون والأدوميون للخروج من جبالهم : بعضهم من ناحية الشمال ، والبعض الآخر من ناحية الشرق ، لكان بنو إسرائيل في مركز سيئ للغاية .

وهنا أيضاً لا تقول الرواية التاريخية بأي توقف ، لكن القرار اتخذ فوراً بالاستدارة حول جبل أدوم . والسير حول جبال أدوم ، في اتجاه الجنوب أولا ثم في اتجاه الشمال بعد ذلك صوب نهر أرنون يتضمن أقل من أربعين ميلا يمكن أن تجتاز في خمسة أيام . فإن أضفنا أيضاً الأربعين يوماً التي بكوا فيها على موت هارون ، بقي لدينا دائماً ستة أشهر من السنة الثانية لكل أنواع التأخر والتردد وللحملات التي تصل ببني إسرائيل حتى الأردن . لكن الثماني وثلاثين سنة الباقية ما هو مصيرها ؟

إنها أتعبت المفسرين ، وكذلك المراحل الواحدة والأربعون التي يوجد من بينها خمسة عشر منزلا لا تورد الرواية التاريخية نبأ عنها ، لكنها وقد أولجت

فى التَّثبت سببت الكثير من المتاعب للجغرافيين. وهذه المنازل المفخمة تقوم بينها وبين السنوات المضافة علاقة خيالية ؛ لأن ستة عشر مكاناً لايعلم عنها شيء وثمان وثلاثون سنة يُجْهَل عنها كل شيء — تهيئ خير فرصة للضلال فى الصحراء مع بنى إسرائيل .

وها نحن أولاء نضع مراحل الرواية التاريخية التى جرت فيها وقائع بارزة فى مواجهة منازل السَّرْد ، وبعد هذا يستطيع المرء أن يميّز جيداً بين مجرد أسماء الأماكن الخيالية وبين تلك التى لها مضمون تاريخى .

مراحل بنى إسرائيل فى الصحراء

الرواية التاريخية بحسب الأسفار ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ لموسى	سرد المراحل تبعاً لما ورد فى السفر الرابع لموسى فى فصل ٣٣
	رعمسيس
	سكوت
	ايتام
حيروت	حيروت
	مجدول
	فى وسط البحر
مارة ، برية سور	مارة ، برية ايتام
ايليم	ايليم ، اثنتا عشرة عين ماء
	على البحر
برية سين	بريّة سين
	دُفْقَة
	ألوش
رفيديم	رفيديم

برية سيناء	برية سيناء
قبور الشهوة	قبور الشهوة
حصيروت	حصيروت
	رِتْمه
قادش فى فاران	رِمُّون فارص
	لِبْنه
	رِسّة
	قهيلاتا
	جبل شافر
	حرادة
	مقهيلوت
	تاحت
	تارح
	مِتْقه
	حَشْمونة
	موسيرُوت
	بنى يَعْقان
	كهف الجدجار
	يِطْبات
	عِبْرونة
	عَصْيون جابر
قادش ، برية صين	قادش ، بريّة صين
جبل هور ، فى طرف أرض أدوم	جبل هور ، فى طرف أرض أدوم
	صَلْمونه

	فُونون
أوبوت	أُوبُوت
	تلال العَباريم
	ديبون جاد
	علمون دبلاتائم
جبال العباريم	جبال العباريم ، تُجاه بَنُو
نهر زارد	
جاتب أرنون	
المتّانه	
نَحْليئيل	
باموت	
جبل فِجْه	
ياهَص	
حَشْبون	
سِيحون	
باشان	
صحراء مواب على أردن أريحا	صحراء مواب على أردن أريحا

ونلاحظ على هذا الجدول أن التاريخ ينقلنا مباشرة من حصيروت إلى قادش ، بينما السرد يضع قادش بعد حصيروت ولا يذكرها إلاّ بعد سلسلة الأسماء المقحمة ، بعد عَصْيون جابر واصلا هكذا بين برية صين والذراع الصغيرة للخليج العربى (خليج العقبة) . وهذه الواقعة سببت الكثير من الحيرة للمفسّرين : فبعضهم أقر بوجود قادشين ، بينما البعض الآخر وهم أكثر عدداً ، ولا يقرون إلا بقادش واحدة ، وهذا الرأى يبدو أنه بمأمن من كل شك .

والرواية التاريخية ، كما عرضناها مع استبعاد كل الإضافات بعناية ، تتحدث عن قادش فى برية فاران ، وبعد ذلك تتحدث عن قادش فى برية صين ؛ ومن الأولى أرسل بالجواسيس ، ومن الثانية بدأت جماهير الشعب بعد أن رفض الأدوميون السماح لهم بالمرور من بلادهم . وينتج عن هذا بوضوح أن الأمر يتعلق بنفس البلدة ، لأن السير المقترح خلال بلاد أدوم كان نتيجة المحاولة المخفقة لغزو بلاد كنعان من هذا الجانب ؛ وينتج أيضاً بوضوح عن مواضع أخرى أن البريتين المذكورتين كثيراً متلاصقتان : صين ناحية الشمال ، وفاران ناحية الجنوب ، وقادش كانت مرحلة وسطى ، فى واحة ، بين البريّتين .

وما كان يخطر بالبال تصور قادشين لو لم يكن المرء حائراً فى جعل بنى إسرائيل يتجولون خلال البرّية فى مدة كافية . لكن الذين لا يقرّون إلا بقادش واحدة ، ومع ذلك يريدون تفسير مدة الأربعين سنة والمراحل المقحمة هم أشد حيرة وارتباكاً ، فهم مضطرون إلى حلول غريبة جداً حين يريدون أن يصوروا الرحلة على الخريطة ويبينوا المستحيل ، لأن العين أصدق حكماً على المستحيل من الحسّ الباطن[١] . وسنسون **Sanson** يضع المراحل الأربعة المنحولة بين سينا وقادش ، ولا يستطيع أن يرسم خطوطاً ملتوية كافية على خريطته ، لكن كل مرحلة لا تتحمل غير ميلين ، أعنى طولا لا يكفى من أجل أن تتحرك هذه الحية الهائلة لهذه القافلة .

لكن كان لابد أن تكون هذه البرية مأهولة بالسكان ومزروعة ما دام فى كل ميلين يوجد إن لم يكن مدن أو قرى فعلى الأقل مراحل ذوات أسماء ! ويا لها من ميزة فى صالح قائد الجيش وشعبه ! لكن ثراء هـذه البرية الداخلية يصبح بعد قليل مدمّراً بالنسبة إلى الجغرافى . إنه لا يجد غير خمس مراحل من قادش حتى عصيون جابر ، وعلى طريق العودة إلى قادش لابد له أن يرجع بالجيش ، لا يجد لسوء الحظ شيئاً من المراحل ، حيث هنالك

يولج على طريق الرحالة بعض أسماء مدن غريبة ومجهولة فى هذا الثبت كما كانت الفراغات الجغرافيـــة تملأ بمساعدة الفيلة . وكالمت Kalmet يتخلص من المشكلة بمنعرجات غريبة ، فيجعل جزءا كبيراً من الأماكن بالقرب من البحر المتوسط ، ويجعل من حصيروت وموسيروت بلداً واحداً ويجعل أصحابه يصلون إلى أرنون عن أغرب الطرق المتعرجة ، وفل Well ، الذى يقول بقادشين ، يشوه شكل البلاد بصورة تجاوزت كل حد . وعند نولن Nolin ترقص القافلة الرقصة البولندية (البولونيز) التى بها تعود إلى البحر الأحمر وإلى جبل سينا من ظهره صوب الشمال . ومن المستحيل أن تعثر على قدر أقل من الخيال ، والنظر ، والدقة ، والحكم مما هو عند هؤلاء الناس الأتقياء ذوى النوايا الطيبة .

فإن راعينا كل الاعتبارات ، ظهر من المحتمل جداً أن ثبت المراحل الزائدة قد أقحم إقحاماً لا لشىء إلا لإمكان إنقاذ الأربعين سنة المشكوك فيها ، إذ فى النص الذى نتبعه كلمة كلمة فى روايتنا نقرأ فقط : أن الشعب ، بعد أن هزمه الكنعانيون ، ومنع من المرور فى بلاد أدوم ، دار حول بلاد الأدوميين ، أثناء رحلة فى اتجاه بحر الغاب ، صوب عصيون جابر . ومن هنا نشأ الخطأ القائل إنهم وصلوا فعلاً إلى بحر الغاب ، صوب عصيون جابر التى ربما لم تكن قد وجدت بعد فى هذا التاريخ ، وإن كان النص يتحدث فقط عن السير حول جبال سعير فى الخريطة المذكورة ، كما يقال إن حوذياً يسلك طريق ليبتسك دون أن يصل بالضرورة إلى ليبتسك نفسها . فإذا كنا قد استبعدنا المراحل الزائدة ، فإننا كنا سنصل من غير شك إلى أن نستبعد بالمثل السنوات الزائدة . ونحن نعلم أن تواريخ العهد القديم مصطنعة ، وأن قياس الزمان يمكن أن يقسم إلى دورات محددة مقدار كل منها تسع وأربعون سنة ، ومن أجل تحقيق هذه العصور السرية الصوفية ، لا بد قد عدلت كثير من التواريخ الحقيقية . والحق أن الست وثلاثين أو الثمانى وثلاثين

سنة التي تنقص في دورة ، في أي مكان يمكن أن تولج إن لم يكن في ذلك العصر الغامض الذي جرت أحداثه في مكان مجهول غير مأهول ؟

ودون أن نمس التواريخ ، هذا العلم الشاق بين العلوم ، لنلق نظرة سريعة على الجانب الشعرى ، تأييداً لفرضنا الذى افترضناه .

كثير من الأرقام المستديرة ، المقدسة ، والرمزية ، والتي ينبغي أن ننعتها بأنها شعرية تظهر في الكتاب المقدس كما في كتابات أخرى قديمة . والعدد سبعة (٧) يبدو أنه مكرّس للخلق والفعل ، والعدد أربعون (٤٠) مكرّس للتأمل ، والانتظار وخصوصاً للخلوة . والطوفان الذى فصل نوحاً وأهله عن باقي العالم ، يزيد طوال أربعين يوماً ؛ وبعد أن انتشرت المياه مدة كافية ، جرت طوال أربعين يوماً ، وأثناء هذه المدة كان نوح يغلق مخرج السفينة . وأثناء نفس المدة يقيم موسى على جبل سينا مرتين ، مفصولا عن شعبه ، والجواسيس يقضون نفس المدة في كنعان ، والشعب كله هو الآخر كان عليه أن يؤيد ويكرّس هذا العدد المقدّس ، بأن يظل طوال أربعين سنة مفصولاً عن سائر الشعوب . وأهمية هذا العدد تنتقل ، مع تمام قيمته ، إلى العهد الجديد : فالمسيح يبقى أربعين يوماً في الصحراء انتظاراً للدغوى (الشيطان) .

فإذا كنا قد أفلحنا في أن نجعل رحلة بني إسرائيل في زمان أقصر ، منذ سيناء حتى الأردن ، مع قبولنا لفترة مفرطة تبعاً للترددات والتأخيرات غير المحتملة ، وإذا كنا قد أفلحنا في حذف كثير من السنين التي لا حاجة إليها وكثير من المراحل الناقلة ، فإننا نكون بهذا قد رفعنا عن قائد الجيش اللوم الذى يمكن أن يوجه إليه ، وأن نعيد إليه قيمته الحقة المدينة . والطريقة التي عليها يظهر الله في هذه الكتب تظهر لنا أيضاً أقل شكلاً مما كانت حتى اليوم ، حيث يظهر مخيفاً مروعاً ، بينما في سفر يوشع وسفر القضاة وبعد ذلك نراه يتجلى بملامح أصفى وأكثر أبوّة ، وأن إله إبراهيم يظهر في كل

وقت لأتباعه على أنه رحيم بينما إله موسى ملأنا وقتاً طويلا بالفزع والرعب ؟
ولتوضيح هذا الأمر ، نقول : كما يكون الإنسان يكون إلٰهه . وهذا يقودنا
إلى أن نقول بضع كلمات عن أخلاق موسى .

قد يُعترَض علينا فيقال : إنك فيما تقدم أنكرت بكل جرأة على رجل
خارق المناقب التى أعجب بها الناس فيه حتى اليوم مناقب الزعيم وقائد
الجيش . لكن ماذا يميزه فى الحق ؟ وكيف أثبت أنه كفء لهذه المهمة
السامية ؟ وماذا أعطاه رغم الخلو من كل موهبة باطنة وخارجية — الجرأة
على التدخل فى مثل هذه المسألة ، إن لم تكن لديه الصفات الأساسية والقريحة
اللازمة التى أنكرتها عليه بوقاحة لم يسمع بمثلها ؟ اسمح لنا أن نرد هكذا :
ليست القريحة ولا البراعة لعمل هذا أو ذاك هى التى تجعل من الإنسان رجل
أفعال ؛ بل يتوقف الأمر كله على الشخصية . والخُلُق يقوم على الشخصية ،
لا على القريحة . أجل قد تقترن القريحة بالخلق ، لكن الخلق لا يقترن بالقريحة ،
لأنه يمكن أن يستغنى عن كل شيء ، إلا نفسه . وهكذا نوافق عن طيب
خاطر على أن شخصية موسى ، منذ جريمة القتل الأولى التى ارتكبها ، خلال
كل قساوته وفظائعه ، حتى وفاته ، تبدى لنا عن صورة خطيرة تفرض
نفسها لرجل تحمله طبيعته على القيام بأعمال عظيمة . لكن مثل هذه الصورة
ستشوه تماما إذا شاهدنا رجل أفعال قوياً نشيطاً سريعاً ، يضل طوال أربعين
سنة ، دون سبب ولا ضرورة مع حشد هائل من الناس ، فى منطقة صغيرة ،
من أجل الغرض العظيم الذى ينشده ويسعى إلى تحقيقه . وكفانا أن نختصر
رحلته والزمن الذى أمضاه فيها من أجل إزالة كل السوء الذى تجاسرنا
على قوله ، ورفعه إلى المكانة الجدير بها

ولم يبق إذن إلا أن نكرر ما سبق أن قلناه فى مستهل تأملاتنا . إن المرء
لا يسىء أدنى إساءة إلى الكتاب المقدس ولا إلى أى نقل آخر ، إذا ما درسه
بروح نقدية ، وأبرز ما فيه من تناقض ، وكيف أنه فى أحيان كثيرة ما فيه

من أصالة وسمو يغطيه أو يشوهه إضافات لاحقة ، وأنواع من الحشو والتعديلات : وقيمته الباطنة الحقة تزداد صفاء ووضوحاً ، وهى التى نحوها ، فى النهاية ، يتطلع كل إنسان ، عن وعى أو عن غير وعى ، أو سعى إلى ذلك ، ويستفيد نابذاً كل الباقى أو على الأقل تاركاً إياه يسقط فى هاوية النسيان .

لوحة موجزة إجمالية

السنة الثانية من الحملة

	شهر	يوم
المقام فى سينا	١	٢٠
الرحلة حتى قادش	—	٥
أيام راحة	—	٥
وقفة بسبب مرض مريم .	—	٧
غياب الجواسيس	—	٤٠
مفاوضات مع الأدوميين	—	٣٠
الرحلة حتى الأرنون	—	٥
أيام راحة	—	٥
حداد لوفاة هارون	—	٤٠
	١ شهر	١٥٧ يوماً

والجملة ستة أشهر . ومن هنا يظهر بوضوح أنه بحساب كل ما نريد حسابه من مدة قضيت فى التردد ، والتوقف والمقاومة فإن الحملة لا بد أنها وصلت إلى نهر الأردن قبل نهاية السنة الثانية بمدة طويلة .

وثائق أحدث وأقرب

إذا كانت الكتب المقدسة تبعث أمام عيوننا الحالة الأولية والنمو المتواصل لأمة مهمة ، وإذا كان رجال مثل ميكائيلس ، وأيشهورن ، وپاولس ، وهيرن قد أبرزوا أكثر مما استطعنا نحن أن نفعل ، ما هنالك من طبيعى وأولى فى هذه النقول ، فإننا نستمد ، فيما يتعلق بالعصر الحديث والحالى ، معلوماتنا الأكثر إفادة من أوصاف الرحلات وسائر الوثائق المشابهة التى اقتطفها الغربيون الذين تجولوا فى الشرق ، ورووها وجاءوا بها مسرورين بها ، وإن كانوا قد قاموا بذلك مواجهين آلاف الصعوبات والأخطار ، ونقلوا إلينا نوعا من التعليم الخصب . ومن بينهم سنقتصر على أن نذكر بإيجاز بعض الرجال الذى بواسطة عيونهم اهتممنا منذ سنوات طويلة بالنظر فى أمور بعيدة وغريبة .

حجات وحملات صليبية

وكثير من هـــذه الأوصاف مفيدة على طريقتها : لكنها كثيراً ما يستخف بخيالنا فيما يتعلق بالحالة الحقيقية فى الشرق ، بحيث لا نستطيع أحياناً أن نفيد منها كما ينبغى . فتعصب المسيحية يضيق من آفاقنا بنظرته المحدودة القاصرة ، ولم يتسع أفقنا إلاّ حديثاً منذ الوقت الذى فيه عرفنا هذه الحروب عن طريق الكتاب الشرقيين (المسلمين) . وعلى الرغم من كل شىء ، فينبغى أن نشكر لهؤلاء الحجاج والصليبيين المتحمسين ، لأنه يرجع إلى حماستهم الدينية ، ومقاومتهم القوية المتجدّدة للغزو الشرقى الفضل فى حماية ثقافتنا الغربية والمحافظة عليها .

ماركو پولو

هذا الرجل الممتاز يأتى على رأس ثبتنا . ورحلة جرت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ؛ وقد وصل فى سفره حتى أقصى حدود الشرق ؛ ويخبرنا بأمور فى غاية الغرابة ، تبدو لنا شبه خرافية وتغوص بنا فى الدهشة ؛ لكننا إذا لم نصل على الفور إلى الرؤية الواضحة للتفاصيل ، فإن العرْض الموجز الذى يقدمه هذا الرّحالة الواسع النظرة كفيل تماماً بأن يوقظ فينا الشعور باللامتناهى ، وبما هو هائل شاسع . إننا نجد أنفسنا فى بلاط قبلاى خان ، الذى خلف جنكيزخان وحكم دولة مترامية الأطراف غير محدودة ، إذ ماذا نعتقد فى إمبراطورية وحدودها حين يقال لنا مثلا : « فارس ولاية كبيرة تتألف من تسع ممالك » ؛ والباقى يقاس بنفس المقياس . وكذلك مقر الملك فى شمال الصين لا يمكن أن يشمله النظر ؛ فقصر الخان مدينة داخل مدينة ؛ ومن المستحيل إحصاء الكنوز والأسلحة التى تكدست فيه ، والموظفين والجنود ورجال البلاط ؛ والكل ، مع زوجاتهم ، يدعون إلى سلاسل من الحفلات . وما أروع مقره فى الريف ! منشئات لكل الملذات ، وخصوصا جيش من الصيادين ، وتسلية الصيد بنسب خارقة . نمور مستأنسة ، وبزاة مدرّبة ، ومساعدون نشطاء للصيادين ، وحشد هائل من الفريسة ؛ وطوال السنة هدايا لا تحصى ، تُعطَى وتُتَلقّى . وذهب وفضة ومجوهرات ولآلئ ، وآلاف الأشياء الثمينة فى حوزة الأمير والمقربين إليه ؛ بينما ملايين من الرعية عليهم أن يقنعوا فى مبادلاتهم بنقود وهمية .

فإذا قمنا برحلة من العاصمة ، لم يمكننا سلسلة لا تنتهى من الضواحى من تعرُّف نهاية المدنية . إذ نرى البيوت تلو البيوت ، والقرى تلو القرى ، وعلى طول النهر العظيم ، سلسلة من أماكن اللهو . وكل هذا فى مراحل سفر تتوالى بغير نهاية .

ولكن الرحالة ، بأمر السلطان ، يزور مناطق أخرى ؛ إنه يقتادنا خلال

فلوات شاسعة ، ثم حقول ذوات قطعان غنية ، وسلاسل من الجبال متوالية ، حتى ناس ذوى أشكال غريبة وطباع عجيبة ، وينتهى بأن يجعلنا يلقى نظرة ، من خلال الثلج والجليد ، على ليل القطب الخالد . ثم ، فجأة ، وكأنه محمول على بساط سليمان ، يجعلنا ننزل حتى شبه جزيرة الهند : فنشاهد أمامنا وتحتنا سيلان ، ومدغشقر ، وجاوه ؛ وتتجول نظراتنا بين جزر ذات أسماء غريبة ، وفى أثناء ذلك يزودنا بمعلومات خاصة عن الأجناس البشرية ، والعادات ، والمناظر ، والأشجار ، والنبـــاتات ، والحيوانات ، مما يضمن لنا صدق ملاحظاته ، وإن كان الكثير من الأشياء يبدو خيالياً . ولا يمكن غير الجغرافى الواسع الاطلاع أن يحقق هذا كله ويصنّفه . وكان علينا نحن أن نقتصر على الانطباع العام ، لأنه من أجل دراساتنا الأولى لم تكن فى عوننا مذكرات ولا ملاحظات .

يوهانس فون مونتڤلا

تبدأ رحلته سنة ١٣٢٠ م ، وقد وصل وصفه لنا على شكل كتاب شعبى مشوّه جداً مع الأسف . ويقر المرء بأن المؤلف قام بسفرات عديدة ، وأنه شاهد الكثير وأحسن مشاهدته ، ودقق فى وصفه . لكنه لا يسرّه فقط أن يحرث بثور الجار ، بل وأيضاً أن يولج فى روايته خرافات عتيقة أو جديدة ، وهذا مسلك بفضله يفقد الحقّ نفسه سلطانه . والأصل كتب باللاتينى ، وترجم أولا إلى الألمانى الدانى ثم إلى الألمانى العالى ، ودخل التحريف فى أسماء الأعلام فيه . والترجمة هى الأخرى سمحت لنفسها بإضافات أو حذف ، كما بيّن ذلك جِرّس Görres فى بحثه المفيد عن الكتب الشعبية الألمانية ، حتى إن لذة وفائدة هذا الكتاب المهم نقصتا كثيرا .

ويبيترو دلاّ ڤله

ينحدر من أسرة رومانية عريقة ترجع فى أصولها إلى الأسر النبيلة فى عصر الجمهورية ، وقد ولد فى سنة ١٥٨٦ فى عصر كانت فيه كل دول أوربا تنعم بثقافة روحية عالية . كان تَسُّو لا يزال حياً فى إيطاليا ، وإن كان فى حال بائسة ، لكن قصائده كانت ذات تأثير فى خير النفوس . وقد انتشر فن الشعر إلى حد أنه ظهر مرتجلون ، وما من شاب حرّ العقل استطاع أن يستغنى عن قريحة التعبير نظماً . ودراسة اللغات ؛ والنحو والخطابة والأسلوب كانت تمارس باهتمام وجد ؛ وهكذا نما صاحبنا الشاب وهو يعالج هذه العلوم الجميلة .

وتدريبات السلاح ماشياً وراكبا ، والمسابقة وركوب الخيل ساعدته على تنمية قواه البدنية وتثقيف أخلاقه المترتبة على ذلك . والاضطراب غير المنظم فى عصر الحروب الصليبية تعلق بأهداب النظام ، وتحول إلى فن حربى وعرف فروسى امتزج به أيضا الغزل . وإنا لنشاهد هذا الشاب وهو يغازل كثيرات من الجميلات ، وخصوصا بالشعر ، ويتملكه خوف شديد حين تحتقره إحداهن وكان يود الظفر بحبها وأفكر جدياً فى الاقتران بها ، ولكنها ازدرته وأحبت عاشقا غير جدير بها . وتعذب لهذا كثيراً ، ولذا قرر الرحيل إلى فلسطين بزى حاجّ .

وصل القسطنطينية فى سنة ١٦١٤ ، فكان لسمة النبيل اللطيف أثر فى حسن استقباله . واستأنف دراساته فى عهد الشباب ، وانهمك فى اللغات الشرقية ، وحصل نظرة عامة فى لغة الأتراك وعاداتهم وطبائعهم ، ثم رحل إلى مصر ، وتأسف على رحيله أصدقاؤه الجديدون . فأفاد من مقامه فى مصر لمتابعة دراسة آثار العالم القديم وبقاياها لدى المحدثين ؛ ومن القاهرة رحل إلى جبل سينا لزيارة قبر القديسة كترينا ، ثم عاد من ثم ، وكأنه عاد من نزهة ترفيه ، إلى عاصمة مصر ، ليرحل من هنا مرة ثانية إلى القدس

التي وصلها بعد ستة عشر يوما مما يطبع فى خيالنا المسافة الفعلية بين هاتين المدينتين . وهناك زار القبر المقدس ، ودعا المخلّص ، كما دعا من قبل القديسة كاترينا لتخلصه من وجدانه ، وإذا بالغشاوة تزول عن عينيه وأقرّ بأنه كان مجنونا حين نظر إلى المرأة التى أحبها وعبدها على أنها وحدها التى تستحق هذا الإجلال ، واختفى ابتعاده عن الجنس الجميل ، وأخذ يسعى للبحث عن زوجة ، فكتب إلى أصدقائه ، وهو يفكر فى اللحاق بهم بعد قليل ، كى يبحثوا له عن زوجة جديرة به .

وبعد أن زار كل الأماكن المقدسة وصلى فيها ، بفضل توصيات أصدقائه فى الآستانة ، وخصوصا بفضل المساعدة الفعّالة لكايبنجى[1] أرسل معه لمرافقته ، واصل رحلته وفى ذهنه فكرة كاملة عن حالة البلاد ، ووصل إلى دمشق ، ومنها سافر إلى حلب فلبس ملابس سورية وأطلق لحيته . وهنا صادف مغامرة مهمة قررت مصيره . فقد توثقت عرى الصداقة بينه وبين مسافر طالما أطرى له جمال ولطف فتاة مسيحية من جيورجيا تقطن بغداد مع أهلها ، فوقع قتله فى غرامها ، كشرقى حقيقى ، من مجرد الصورة اللفظية ، وأسرع للذهاب إليها . فلما رآها ازداد لها حبًّا واشتهاءً ، وكسب عطف الأم ، واقتنع الأب ، لكنهما لم يسلّما إلاّ على مضض لهذا الوجدان الغامر : فإن فراقهما بنتهما الفاتنة المحبوبة ، بدا لهما تضحية بالغة . وأخيراً تزوجها ، وبهذا كسب أثمن كنز ، بالنسبة إلى رحلته وإلى حياته كلها . لأنه ، وإن لم يقم برحلة الحج إلاّ وهو مزوّد بالثقافة الأرستقراطية السائدة فى عصره وبمعارف واسعة ، وبالرغم من أنه كشف عن اهتمام بملاحظة كل ما يتعلق مباشرة بالإنسان ، وكان سلوكه مثاليا فى كل مناسبة ، فإنه كان يعوزه مع ذلك معرفة الطبيعة ، وكان العلم بها فى ذلك العصر محصوواً فى دائرة ضيقة من

(١) كلمة تركية الأصل بمعنى مرافق السفر .

العلماء الجادّين الحذرين . وبهذا لم يستطع أن يعنى بمطالب أصدقائه إلا على نحو ناقص ، لما كانوا يسألونه معلومات عن النباتات والأخشاب والأفاويه والعقاقير ، لكن « معانى » الجميلة ، بصفتها طبيبة لطيفة للأسرة ، كانت تعرف كيف تنمو الأعشاب والجذور والأزهار ، وتعرف الصموخ والمراهم والزيوت والبزور والأخشاب التى يمكن الحصول عليها من السوق فى التجارة ، وهكذا استطاعت إغناء معلومات زوجها ، مع احترامها للعرف والتقاليد .

وكان لهذا الزواج دور أهم بالنسبة إلى نشاطه كرجل ورحّالة . فإن « معانى » ، وإن كانت طبيعتها ذات أنوثة خالصة ، كشفت مع ذلك عن صلابة أخلاق ، وكانت دائما فى مستوى الظروف ، لا تخشى أى خطر ، بل بالأحرى تسعى إلى الخطر وتسلك فى كل مناسبة بنبالة وهدوء ، تركب الفرس مثل الرجال ، وتستطيع أن تملك عنانه ، وهكذا بقيت رفيقة فى السفر نشيطة مُنَبِّهة . ولا يقل عن هذا أهمية أنها فى الطريق تتعرف إلى كثيرات من النساء ، وتبعا لذلك يتلقى زوجها بالترحاب من الرجال ، ويستضاف ويدخل فى أحاديث معهم ، بينما هى تقدر على الاشتغال والاهتمام بزوجاتهم وفقا لعادة بنات جنسها :

لكن الحظ احتفظ للزوجين الشابين بمصادفة سعيدة مجهولة حتى ذلك الحين للرحالة الذين يتجولون فى تركيا . لقد دخلا بلاد فارس فى السنة الثلاثين من حكم عباس الأول ، الذى استحق مثل بطرس وفريدرش لقب : الأكبر . لقد أمضى عباس شبابا حافلا بالأخطار والمخاوف ، وعرف بوضوح ، لما اعتلى العرش ، أن عليه ، لحماية إمبراطوريته ، أن يوسّع حدودها ، وما هى الوسائل التى يمكن بها أن يؤمن سلطته فى الداخل ، وفى نفس الوقت اتجه فكره ومجهوداته إلى تعمير إمبراطوريته القليلة السكان عن طريق المبادلات ، وتيسير حياة الناس بإيجاد الطرق والخانات (الفنادق) ،

وكان الجزء الأكبر من موارده واهتماماته مكرّس لأبنية هائلة : جعل عاصمة ملكه إصفهان ، وأكثر فيها من القصور والبساتين ، والخانات ومنازل الضيافة لضيوف الشاه ، وأمر بتشييد ضاحية للأرمن الذين نشطوا وأظهروا كل ما يشهد باعترافهم بالجميل ، إذ كانوا يتاجرون باستمرار لحسابهم أو لحساب الشاه ، وكانوا من المهارة بحيث ملأوا الخزانة بالمكاسب والضرائب . وقامت ضاحية أخرى لأهل جيورجيا ، وثالثة للمجوس ، مما زاد فى حجم مدينة اصفهان ، بحيث أصبحت مثل إحدى عواصمنا الجديدة . ورُحّب ببعض رجال الدين الكاثوليكى الرومانى ، وخصوصا الرهبان الكرمليون ، وكانوا فى أمن ، أما المذهب اليونانى (الأرثوذكسى) فكان حظه من الرعاية أقل ، لأنه كان فى حماية الأتراك ، مما جعله ينتسب إلى العدو المشترك لأوربا وآسيا (الترك) .

وأقام دلاّ فَلّه فى اصفهان طوال عام وزيادة ، وأمضى وقته فى جمع معلومات عن حياة المدينة وتنظيمها . ومن هنا كانت أوصافه حية ، وكانت معلوماته دقيقة . وأخيراً ، بعد أن أخذ بحظ من كل شىء ، لم يبق له إلاّ أن يرى قمة الهرم ، أعنى أن يعرف الشاه الذى كان فلّه يعجب به كل الإعجاب ، ويعرف الحياة فى القصر ، والجيش ، والحرب .

وكان الشاه فى نشاطه الجم قد أمر ببناء مدينة كبيرة تسمى فَرَح آباد فى إقليم مازندران ، على الشاطئ الجنوبى لبحر الخزر ، وهو إقليم مع ذلك حافل بالمستنقعات ، ومضرّ بالصحة ، وأسكن فيـــه مواطنين مجنَّدين وبالقرب منها مباشرة أمر ببناء قصر له على مرتفعات على شكل المعتباتر ، على مسافة قليلة من أعدائه : الروس والترك ، فى موقع تحميه هضاب . وهنا كان يقيم عادة ، فذهب دلاّ فَلّه لزيارته . جاء مع « معانى » فقوبل بالترحاب ، وحظى بالمثول فى حضرة السلطان بعد فترة احتياط ، وفقاً للعُرْف عند الشرقيين ، وحظى برضاه وأذن له بالأكل على مائدته

وحضور مجالس شرابه ، وكان عليه أن يخبر الشاه وكان مثقفاً طُلَعة يحب المعرفة ، بمعلومات عن النظم والعادات والديانات فى أوربا .

لدى الشرقيين بوجه عام ، وخصوصاً فى فارس ، نجد نوعاً من السذاجة والبساطة فى السلوك فى كل الطبقات الاجتماعية وحتى القريبة من العرش . صحيح أن فى الدرجة العليا تسود مراسم دقيقة فى الاستقبالات والمآدب وسائر المناسبات ؛ لكن بعد قليل ، يتم ، فى حاشية الشاه ، نوع من الحرية كحرية الكرنفالات الملهية . فإن شـــاء الشاه أن ينشد لذته فى البساتين والجواسق ، فلا يحق لأحد أن يمشى بنعليه فوق البُسُط التى يوجد فيها البلاط . يأتى أمير من التتر ، فيُخلَع نعلاه ، لكنه وهو لم يتعود الوقوف على قدمه ، يهتز ، فيقترب الشاه بنفسه ويسنده حتى تتم العملية . وعند المساء يجلس الشاه فى دائرة القصر حيث تدار أكواب ذهبية مترعة بالخمر ، وبعض هذه الكؤوس متوسطة الوزن ، لكن بعضها الآخر ثقيلة بسبب قاعها السميك ، حتى إن الضيف غير المجرّب ، يسكب كاسه أو يسقط منه الكأس ، فيضحك الشاه والمدعوون . وهكذا تدار كؤوس الشراب إلى أن يعجز الضيف عن الوقوف على قدميه فيُقتاد أو ينسحب فى الوقت المناسب . وعند الرحيل لا يُحَيّا الشاه ، بل يختفى المدعوون الواحد تلو الآخر ، حتى يبقى الشاه وحده ، يرعى سمعه بضع لحظات لموسيقى حزينة ، ثم يغدو للنوم . وتروى حكايات غريبة عن حريم الشاه ، حيث النسوة يداعبن الشاه ويتصارعن معه ، ويسعين لإلقائه على السجادة ، بينما هو لا يسعى للدفاع عن نفسه أو الانتقام ، بين رنات الضحاك ، إلا بالعبارات الشديدة والشتائم .

وهذه الحكايات الظريفة عن الملاهى الداخلية للحريم الشاهنشاهى ينبغى ألا تجعلنا نظن أن الشاه وديوانه ظلوا فى رخاوة وبطالة . فليس فقط النشاط الحذر لعباس الأكبر هو الذى دفعه إلى تشييد عاصمة ثانية بالقرب من بحر

الخزر ، ولا شك فى أن فَرَح – آباد كانت جيدة الموقع جداً بالنسبة إلى ملذات القنص وملاهى القصر ، لكنها إلى جانب ذلك كانت تحميها ظهور الجبال ، وكانت قريبة من الحدود بحيث يستطيع الشاه أن يكون على علم فى الوقت المناسب بكل حركة يقوم بها أعداؤه الوراثيون : الروس والترك ، وأن يتخذ الترتيبات المناسبة للدفاع . أما من ناحية الروس فلم يكن ثم ما يثير مخاوفه فى ذلك الوقت ، فإن الإمبراطورية (الروسية) قد أشاع الاضطراب فيها غاصبون ومدّعون زائفون مما جعلها غير قادرة حتى على الدفاع عن نفسها ؛ أما الأتراك فعلى العكس من ذلك ، فقد كان الشاه هزمهم قبل ذلك باثنتي عشرة سنة فى معركة عظيمة ، حتى إنه لم يعد يشعر بالخوف من ناحيتهم ، بل بالعكس انتزع منهم كثيراً من الأماكن الشاسعة . لكن السلام الحقيقى لا يمكن أن يستتبّ مع أمثال هؤلاء الجيران : فإن استفزازات فردية ، واستعراضات عامة كانت تلتزم كلا الطرفين باليقظة المستمرة .

لكن عباس رأى نفسه ، فى ذلك الوقت ، مضطراً إلى القيام باستعدادات كبيرة للحرب . ووفقاً للتقاليد القديمة جدا ، جمع شعبه المسلّح فى سهول أذربيجان ، فهرعوا بكل فرقهم ، راكبين ومشاة ، ومعهم أسلحتهم المختلفة ، ومن ورائهم جمع هائل من غير المحاربين ، لأن كل واحد منهم يجر معه ، وكأنه يهاجر ، زوجاته وأطفاله ومتاعه . ودلاّ قَلّه هو الآخر يصحب معـــه ، خلف الجيش والبلاط ، « معانى » الجميلة ووصيفاتها على خيول أو محفات ، فأعجب به الشاه ، لأنه كشف بذلك عن رجولته ومكانته .

والأمة التى تتحرك جموعها كلها على هذا النحو ينبغى ألا يعوزها شىء مما يلزمها فى بيوتها ، ولهذا فإن تجاراً وباعة من كل الأنواع يصحبونهم ويفتحون فى كل مكان أسواقاً وقتية ، وهم واثقون من رواج بضاعتهم . ومن هنا يُشبّه معسكر الشاه بمدينة فيها شرطة جيدة ونظام كامل بحيث

لا يجرؤ أحد على الغش أو التلاعب أو السرقة ، خوفاً من العقوبات القاسية : فالكبير والصغير يجب عليه أن يدفع عداً ونقداً . والنتيجة لهذا أنه ليس فقط كل المدن الواقعة على الطريق تتزود بتموين وافر ، بل وأن يرد باستمرار من الولايات القريبة والبعيدة وارد لا ينتهى من العروض والزاد وأسباب المعاش .

لكن أى عمليات استراتيجية أو تكتيكية يمكن توقعها من هذا الاضطراب المنظم ؟ خصوصاً إذا علمنا أن كل الشعوب ، وكل القبائل ، وكل الأسلحة تختلط فى القتال وتتحارب أخلاطاً وبالصدفة ، دون قائد ولا صفوف ، ولهذا قد يحدث أن نصراً ينقلب بسهولة إلى هزيمة وأن معركة واحدة تخسر يمكن أن تقرر مصير دولة لعدة سنوات .

لكن فى هذه المرة لم يكن القتال بالتلاحم . يجتازون مناطق جبلية بعد مصاعب جمة ، ثم يترددون ، وينسحبون ، ويتخذون ترتيبات لتدمير مدنهم هم ، حتى يهلك العدو فى أرض خراب . ويتوالى الفزع وصيحات النصر الزائفة ، وشروط ، وشروط السلام تُرفَض بخفة أوكبرياء ، وحماسة وهمية للقتال ، وتباطؤ ماكر يؤخران أولا وينتهيان بالإسراع بالسلام . وفى الحال ، بأمر من الشاه ، يعود كلٌ إلى بيته ، دون أن يكون عليه بعدُ أن يتحمل الآلام والمخاطر غير تلك التى عاناها فى الطريق والاضطراب ونعثر على دلاّ قبّله فى الخزر ، إلى جوار قصر الشاه ، ساخطاً لأن الحملة ضد الأتراك قد انتهت بهذه السرعة . وينبغى ألاّ نعده رحّالة طُلَعة ، ومغامراً تتقاذفه المقادير ، بل له أغراضه الخاصة التى يسعى إلى تحقيقها دون أن يكل ولا يمل . وكانت فارس فى ذلك العصر بلد للأجانب ؛ فسخاء عباس طوال سنين قد اجتذب النفوس اللوذعية ؛ ولم يكن فى ذلك العصر سفارات رسمية ، بل كان الرحالة البواسل المهرة يتولون هذه الأمور : فهاهو ذا شرلى Sharley الإنجليزى قد كلّف نفسه برسالة وبعثة ، ولعب ،

دور الوسيط بين الشرق والغرب ، وبالمثل فقل دلاّ فَلّه ، كان مستقلاً بنفسه ، غنياً ، نبيلاً ، مثقفاً ، حسن الصلات ، فأفلح فى الوصول إلى البلاط وسعى إلى إثارته ضد الأتراك : مدفوعاً بالحمية المسيحية التى اتقدت فى نفوس الصليبيين الأوَل ، كان قد شاهد سوء معاملة الحجاج النصارى الأتقياء إلى القبر المقدس فى القدس ، وشاركهم فى بعض المتاعب ؛ وكل الدول الغربية كان من مصلحتها أن تكون الآستانة مهددة من ناحية الشرق . لكن عباس لم يثق بالمسيحيين ، ولم يكن يهمه غير مصلحته الخاصة ، كما أن المسيحيين لم يكونوا ليساعدوه فى الوقت المناسب . والآن قد سوّى أموره مع الأتراك وصالحهم ، لكن دلاّ فَلّه لم يتخلّ عن خططه وأهدافه وسعى لعقد محالفة بين فارس وبين قوازق البحر الأسود . وعاد إلى أصفهان بقصد الاستقرار بها ونشر الكاثوليكية الرومانية . فاجتذب إليه أولا أبوى زوجته ، ثم نصارى آخرين من جيورجيا ، وتبنى يتيمة جورجية ، وعقد صلات مع الكرمليتين وراودته فكرة الحصول من الشاه على أرض يؤسس فيها روما جديدة .

وجاء الشاه إلى أصفهان ، وتوافدت السفارات من كل النواحى : والشاه ، ممتطياً صهوة جواده فى الميدان العام ، بحضرة جنوده وخدامه الكبار ، والأجانب من ذوى المكانة ، وأكبرهم يركبون ومعهم حاشيتهم ؛ نقول إن الشاه يسمح بالمقابلات كما يشاء هواه ، وتقدّم إليه الهدايا ، وتعرض عرضاً فخماً ، لكنها أحياناً تُزْدَرى بكبرياء ، وأحياناً أخرى يساومه عليها مساومة اليهود ، وهكذا تتردد الجلالة بين السمو والانحطاط : ويبذل الشاه نشاطاً جماً وشخصياً إما وهو فى داخل الحريم على نحو سرّى ، وإما أمام عيون الجميع مشاركاً فى الحياة العامة كلها .

كما يلاحظ أنه تحلّى بتسامح خاص فى الأمور الدينية . يجب الاحتراز من تحويل المسلم إلى نصرانى ، أما اعتناق الإسلام فكان الشاه يجنده ويعمل

له بحماسة فيما سبق ، أما الآن فلم يعد يهتم به . ويمكن المرء أن يعتقد ويعمل ما يشاء . وهكذا كان الأرمن ، مثلا ، يمارسون طقس تعميد الصليب ويحتفلون به رسمياً فى ضاحيتهم التى يجرى فيها نهر زندرود . والشاه يشهد هذا الاحتفال ومعه حاشية كبيرة ، ويقوم أيضاً بالتنظيم وإصدار الأوامر ، ويبدأ بأن يستعلم من القسيسين عما يريدون عمله ، ثم يركض على فرسه فى كل اتجاه ، ويعطى الأوامر للمركب بالنظام والهدوء ، والدقة كما لو كان يأمر جنوده . وبعد الاحتفال يجمع حوله القسيسين وسائر الأعيان ، ويتحدث معهم بشأن كل أنواع العقائد الدينية والعادات . وهذا الاستقلال الفكرى بالنسبة إلى سائر الاعتقادات ليس خاصّا بالشاه وحده ، بل يوجد لدى الكثير من الشيعة . والشيعة ، أنصار على ، الذى حرم من الخلافة فى البدء ، ثم لما صار خليفة بعـــد ذلك اغتيل ، نقول إن الشيعة يمكن أن يعدّوا بين المسلمين بمثابة الفرقة الدينية المُضْطهَدة ؛ ومن هنا اتجهت كراهيتهم خصوصاً ضد أهل السنة الذين يتولّون الخلفاء الذين جاءوا بين محمد وعلى . والأتراك سُنّة ، وبين الشعبين (الفرس والأتراك) عداوة سياسية ومذهبية دينية ؛ وبينما الشيعة يكرهون إخوانهم فى الدين المخالفين لهم كراهية شديدة ، فإنهم غير مبالين تجاه سائر الأديان ، ويعطفون عليها أكثر من عطفهم على خصومهم الحقيقيين (أهل السُّنّة) .

لكن لسوء الحظ هذا التسامح يشقى تحت تأثير هوى الشاه . فإسكان الدولة أو إخلاؤها من السكان ، كلاهما شىء واحد بالنسبة إلى إرادة الطاغية : وحدث أن عباس ، وهو يتجول فى الريف متنكّراً ، سمع عبارات سيئة من بعض النسوة الأرمنيات ، فأحسّ أنه أهين إهانة شديدة ، فأوقع أشد العقوبات لكل رجال القرية . فانتشر الفزع والخوف على كل شواطئ زندرود ، وإذا بضاحية خلفا ، التى شارك الشاه فى احتفالاتها منذ قليل ، تغوص فى أعمق أنواع الحزن والحداد .

وهكذا نشارك فى مشاعر الشعوب الكبيرة ، التى تسمو مرة وتنحط أخرى بسبب الاستبداد : فمرة نشهد بإعجاب الدرجة العالية من الأمان والرخاء التى استطاع عباس ، وهو حاكم مستبد ، أن يرفع إليها مملكته ، واستطاع أن يقيم ذلك على أساس راسخ بحيث لم يستطع ضعف ولا جنون ولا سوء سلوك خلفائه أن تدمرها تدميراً تاماً إلا بعد تسعين سنة ، لكن ينبغى علينا أيضاً أن نبين الوجه الآخر من هذه اللوحة العظيمة .

لما كان الاستبداد ينبذ كل تأثير ، وينبغى عليه أن يؤمّن شخصية الحاكم تأميناً تاماً ، فينتج عن هذا أن المستبد يجب عليه دائماً أن يظن الخيانة ، ويستشعر الخطر فى كل مكان ، ويخشى العنف من كل ناحية لأنه إنما يحافظ على مركزه الرفيع بالعنف وحده . ومن هنا تراه يغار من كل شخص يستطيع ، إلى جانبه ، أن يبعث الاحترام والثقة وينشر الصفات اللامعة ، ويجمع الكنوز ويبدو أنه ينافسه فى النشاط . ومن سيخلفه يثير خصوصاً شكوكه من كل ناحية . وإنها لعلامة على سمو الروح أن ينظر الملك بدون حسد وغيرة إلى ابنه الذى سيؤول إليه حتماً كل ثرواته وغزواته دون موافقة إرادته الكلية . ومن ناحية أخرى يمكن أن نقتضى من الابن أن يعرف بنُبْلٍ وحسن ذوق وتحفظ — كيف يعتدل فى أمانيه ، ويخفى مطامحه ، ويتجنب أن يستبق ، حتى فى الظاهر ، مصير أبيه . لكن أين هى الطبيعة الإنسانية الصافية العظيمة ، الصابرة فى الانتظار ، المبتهجة فى الظروف الضرورية ، بحيث لا يشكو الوالد من ولده والولد من أبيه فى مثل هذا الموقف ، حتى لو كان كلاهما طاهراً طهارة الملائكة ، فإن الدسّاسين يسعون بينهما ، ويصبح عدم الاحتياط جريمة ، والمظهر دليلا . وكم يورد لنا التاريخ شواهد على هذا ! لنتذكر التيه الأليم الذى ضل فيه الملك هيرود وأسرته . لا يكفى أن يجعل أهلُه الخطر يحلّق دائماً فوق رأسه ، بل إن طفلا عجيباً ، بشر به الأنبياء ، يثير مخاوفه ، ويجرّه إلى إجراء مذبحة عامة قاسية ، قبل وفاته مباشرة .

كذلك كان مصير عباس الأكبر : لقد أثاروا ظنونه ضد أبنائه وأحفاده ، وهم بدورهم وقعوا فريسة للتهمة ؛ فقتل أحدهم مع أنه كان بريئاً ، وسَمِلت عينا آخر ، وكان نصف بذنب ، فقال له هذا : لستُ أنا الذي حرمته أنت من النور ، بل مملكتك .

وإلى جانب هذه الرذيلة المدمّرة ، رذيلة الاستبداد ، فيضاف بالضرورة رذيلة أخرى ينشأ عنها على نحو غير متوقع أعمال العنف والجرائم . إن كل إنسان تحكمه عاداته ، لكنه محدود بالظروف الخارجية ، فيسلك مسلك الاعتدال ، ويصير الاعتدال له عادة . لكن عكس هذا تماماً هو الذي يحدث عند الطاغية المستبد ، فالإرادة التي لا يكبحها شيء تعظّم نفسها ولا بد حتما أن تظن في نفسها القدرة إلى حد رفض كل حد ، إذ لا تتلقى أي تحذير من الخارج . وهكذا ينحل اللغز الذي يمثله أمير شاب فاضل كان حكمه مباركاً طوال السنوات الأولى ، لكنه تحول شيئاً فشيئاً إلى طاغية ، ووباء على العالم ، ومحنة على أسرته ، التي تضطر مراراً إلى أن تبحث عن دواء عنيف لهذا الداء .

لكن مع الأسف ، يصير هذا التطلع إلى المطلق ، الفطرى في الإنسان ، ونبوع كل الفضائل ، أشدّ هولا إذا انضاف إلى ذلك مثيرات من الخارج . هنالك يحدث الحد الأعلى من التكبّر الذي ينحل ، لحسن الحظ ، إلى سفاهة تامة . ونحن نذكر الاستعمال المفرط للخمر ، مما يحطم وقتياً الحدود الهشة للعدالة والإنصاف اللذين لا يستطيع الطاغية أن ينكرهما تماما بوصفه إنسانا ، ويثير كوارث بغير حد . فلنطبق هذه الاعتبارات على عباس الأكبر ، الذي ، بحكمه خمسين عاماً ، وصل إلى فرض إرادته المطلقة في مملكته الواسعة الآهلة بالسكان ، ولنتصور هذا الأمير ذا الطبيعة المفتوحة ، الاجتماعية ، المرحة ، ولكنها ضلّت بعد ذلك بسبب الاتهام ، والحزن ، وما هو أدهى من الكل ، بسبب حب للعدالة أسيء فهمه ، وقد أشعله الإفراط في الشراب ، وفوق هذا كان يعذبه ويثير اليأس في نفسه داء جسماني كريه لا يُشْفَى ، — لنتصور هذه

كله ولنوافق على أن أولئك الذين أبادوا من الأرض هذا الوباء يستحقون المغفرة إن لم يكن الثناء . ونرى من سعادة الأمم الحسنة الحكم أن يكون حاكمها يستملي في أعماله ضميراً نبيلا ، ومن سعادتها أيضا ان تكون الحكومات معتدلة يحبها الحاكم ولديه كل سبب لهذا الحب ، وذلك لأنها تخفف عنه المسئولية وتعفيه من كثير من ألوان الندم .

لكن ليس فقط الأمير ، بل كل إنسان يصل بالثقة أو الرضا أو الجرأة — إلى المشاركة في سلطة الحاكم ، ويخاطر بتخطي الدائرة التي رسمتها حول الجنس البشري الشريعة والعرف والإنسانية والضمير والدين والتقاليد ، ابتغاء هناء الأمم وهدوئها . ولهذا يجب على الوزراء والمقربين وممثلي الشعب والشعوب نفسها أن تكون على حذر حتى لا تنجر هي نفسها ، وقد أحيطت بدوامة الإرادة المطلقة ، إلى الدمار المحتوم لها ولغيرها .

ولنعد الآن إلى رحالتنا ، لنجده في موقف حرج . فعلى الرغم من حبه للشرق ، اضطر دلافَلّه إلى الإقرار في النهاية بأنه يقطن بلاداً يستحيل فيها استمرار الخطط والمقاصد ، ولا يمكن بناء روما جديدة فيها بأصفى النوايا وأكبر النشاط . وأهل زوجته لا تحتجزهم بعدُ روابط الأسرة : فبعد أن عاشوا زمنا في إصفهان في أضيق نطاق ، رأوا من الأفضل أن يعودوا إلى شواطئ الفرات ليواصلوا حياتهم المعتادة . وباقي الجيورجيين لا يبدون حماسة ؛ والكرمليون أنفسهم ، الذين كانوا يهتمون بهذه المسألة اهتماماً خاصاً ، لم يتلقوا من روما تشجيعاً ولا معونة .

فترت حماسة دلاّ فَلّه ، وقرر العودة إلى أوربا ، لسوء الحظ في أسوأ الظروف . وبدا له أن اختراق الصحراء أمرٌ غير ممكن ، فقرر المرور بالهند : لكن في هذه الفترة بالذات كانت الحرب قائمة بين البرتغاليين والأسبان والإنجليز بسبب هرمز ، هذا المركز التجاري الشديد الأهمية ، ووجد عباس

أن من مصلحته الاشتراك فيها : فقرر القتال وطرد البرتغاليين الذين كانوا جيراناً مشاكسين ، وعمل على إفساد خطط الإنجليز فى المساعدة ، ربما بالمكر والمماطلات ، ابتغاء أن ينال هو كل المكاسب .

وفى هذه الظروف العسيرة ، استولى على رحالتنا شعور غريب خاص جعله على غير وفاق مع نفسه ؛ هو الشعور بالمسافة الكبيرة بينه وبين وطنه فى اللحظة التى فيها نشعر بالضيق فى الغربة فننطوى على أنفسنا ونود لو كنا عدنا إلى الوطن من زمن . ومن المستحيل تقريبا فى مثل هذه الحال أن نصون أنفسنا عن الجزع ، وصاحبنا أصيب به ، وحرارة طبعه ، وثقته الراسخة النبيلة بداية تمنعه من رؤية المصاعب التى تنتظره فى الطريق . وجسارته المغامرة قد أفلحت حتى الآن فى التغلب على كل الصعاب وتنفيذ كل خططه ، وخيل إليه أنه سيلقى نفس الحظ السعيد ، فلما رأى أن العودة عن طريق الصحراء عسيرة جداً ، اختار طريق الهند بصحبة زوجته الجميلة « معانى » والبنت التى تبنوها وسموها : مريوتشيا . عانى الكثير من المصاعب ، التى كانت نذراً بالأخطار المقبلة ، ومع ذلك اجتاز پرسپوليس وشيراز ، وهو يلاحظ بانتباه كعادته ، ويصف الأشياء والأخلاق والعادات المحلية ويسجلها بتدقيق . واستمر فى سيره حتى وصل إلى الخليج الفارسى ، لكنه وجد هناك ، كما كان متوقّعاً ، كل الموانى مغلقة ، وكل السفن مُصادرة كما جرت العادة بذلك فى أثناء الحرب . وهناك ، على الشاطئ ، فى إقليم موبوء ، وجد معسكراً للإنجليز الذين توقفت قافلتهم مثله إلى أن تسنح الفرصة المواتية . فتلقوه بالترحاب ، وانضم إليهم ، ونصب خيامه بالقرب من خيامهم ثم بنى أيضا كوخا من النخيل زيادة فى الراحة . وفى هذه اللحظة بدا أن طالعا سعيداً قد لمع له . لقد كان زواجه حتى الآن عقيما لم ينجب ، وإذا بمعانى ترجو أن تكون أمّاً ، مما سرّ الزوجين ، لكن دلاً قتله مرض ؛ لكن سوء التغذية والجو غير الصحى كان لهما أسوأ الأثر عليه ، وعلى « معانى » أيضاً

ووا أسفاه ، فولدت قبل الأوان ، ولم تفارقها الحمّى . وساندتها صلابة نفسها فترة ، وبدون معونة طبية ، ثم أحست بقرب نهايتها فاستسلمت بهدوء تقىّ ، وطلبت أن تُنْقَل من كوخ النخيل إلى الخيمة ، وهناك ، بينما كانت مريوتشيا تمسك بالشمعة المقدسة ودلاّ قَبّله يتلو الصلوات المعتادة ، فاضت روحها بين ذراعيه . وكانت قد بلغت الثالثة وعشرين من عمرها .

وليغالب آلامه بعد هذه الخسارة ، قرر أن يأخذ معه جثمانها إلى روما ليدفنها فى مقبرة الأسرة . وكان ينقصه الصموغ والحنوط والأطايب الثمينة ، غير أنه لحسن الحظ وجد حمولة من خير الكافور الذى لو استعمله بمهارة أناس مختصون ، لأمكنه حفظ الجثمان .

لكنه خلق لنفسه بهذا أسوأ الصعوبات ، لأنه صار عليه ، خلال باقى السفرة . . . ، أن يرضى بالكلمات الطيبة أو طِيَرة أصحاب الجمال ، وجشع المستخدمين ، ويقظة موظفى الجمارك .

ونحن نتابعه الآن فى لار ، عاصمة لارستان ، حيث يجد هواء أكثر ملاءمة ، ويُتلقى بالترحاب ، وينتظر استيلاء الفُرس على هرمز . لكن انتصار الفرس لا يسهل أموره . فوجد نفسه وقد ارتد من جديد إلى شيراز ، وانتهى بأن أبحر إلى الهند على سفينة إنجليزية . وكان سلوكه دائماً على مستوى ماضيه ، وشجاعته الدائبة ، ومعلوماته وصفاته النبيلة كفلت له فى كل مكانٍ حسن اللقاء والمقام المشرِّف ، لكنه وجد نفسه أخيراً وقد ارتد من جديد إلى الخليج الفارسى واضطر إلى العودة عن طريق الصحراء .

وهنا عانى كل المحن التى كان يخشاها . أرهقه زعماء القبائل ، وفرض عليه رجال الجمارك المكوس الباهظة ، ونهبه البدو ، وعانى آلاف المعاكسات والتأخيرات من جانب المسيحيين ، ومع ذلك عاد إلى روما حاملاً مجموعة هائلة من الأشياء العجيبة والتحف الثمينة ، وبخصوصاً وأعز

الكل جثمان عزيزته « معانى » . وهناك فى كنيسة أراكيلى أجرى لها مراسم جنازة حافلة ، ولما نزل إلى القبر ليودعها الوداع الأخير ، نجد إلى جانبيه بنتيه : سلفيا ، وكانت بنتاً فاتنة كبرت فى أثناء غيابه ، وتيناتين دى تسيبا ، التى عرفناها حتى الآن باسم مريوتشا ، وكلتاهما عمرها خمس عشرة سنة تقريباً . وقد صارت مريوتشا ، بعد وفاة زوجته ، رفيقته المخلصة فى السفر وعزاءه الوحيد ، ولهذا قرر أن يتزوجها ضد رغبة أهله بل والبابا ، الذين فكروا له فى زواج أنبل وأغنى . وظل طوال سنوات عديدة تالية يبدى عن خلق جارف جرىء شجاع ، وتوفى فى سن السادسة والستين تاركاً ذرية عديدة .

اعتـــذار

لوحظ أن كل إنسان يفضل على سائر الطرق الطريق الذى وصل به إلى بعض المعلومات والتجارب ، ولهذا يود أن يهبه نوعاً من التكريس وأن يدعو خلفاءه إلى السير فيه . واستناداً إلى هذه الفكرة صورت پيترو دلا" فَلّه بالتفصيل ، لأنه كان أول وأوضح رحالة إلى الشرق كشف لى عن خصائص الشرق ، وأعتقد أننى بهذه الرواية أعطيت لـ « يوانى » أساساً أصيلا" . وعسى أن يكون مَثَلى مشجعاً لغيرى على أن يمسكوا بين أيديهم ، فى هذا الزمن الغنى بالمطبوعات والرسائل المفردة من كل نوع ، بكتاب ضخم به يدخلون مباشرة فى عالم عجيب يظهر لهم ، فى الأوصاف الأخيرة للسفر ، أنه قد عانى بعض التعديلات السطحية ، لكنه بقى فى الواقع تماماً كما بدا فى عصره لهذا الرجل الممتاز .

من يُرِد أن يفهم الشاعر

فليرحل إلى ديار الشــاعر

وليستطب العيش فى الشرق
حتى يكون القديم هو الجديد

أولياريوس

إن عدد الأوراق التى بلغها هذا الكتاب حتى الآن ينبهنا إلى أن نسير من الآن فصاعداً بمزيد من الاحتياط ، وقليل من الاستطراد . ولهذا فلن نتوقف طويلا عند هذا العالم الممتاز أولياريوس . وإنه لأمر شائق أن نلاحظ كيف تتصرف الأمم المختلفة أثناء الأسفار . إننا نجد إنجليزاً نسينا من بينهم مع الأسف شرلى وهربرت ، ثم إيطاليين ، وأخيراً فرنسيين . ثم ظهر ألمانى بقوته ومكانته . ولسوء الحظ ارتبط فى رحلته فى فارس برجل ظهر أنه مغامراً أكثر منه سفيراً ، وبهاتين الصفتين تصرّف على نحو طائش ، هوائى ، بل غير معقول . لكن استقامة أولياريوس الممتاز لم تتعكر ، وهو يزودنا بروايات عن السفر شائقة جدا ومفيدة ، خصوصاً ويزيد فى قيمتها أنه جاء إلى فارس بعد رحلة د لاّ ڤلّه بقليل ، وذلك بعد وفاة عباس الأكبر بمدة قصيرة ، ولما عاد إلى ألمانيا عرّف الألمان بالشاعر العظيم سعدى وذلك بترجمة راسخة شائقة . ونقف مع الأسف عند هذا الحد ، لأننا نود أن نعبّر بجلال عن بالغ امتناننا لهذا الرجل لما ندين به له من خير كبير . ونحن فى نفس الموقف بالنسبة إلى الرحالتين التاليين ، ولا نستطيع إلا أن نلمّ بهما إلماماً عابراً .

تاڤرنييه وشاردان

كان أولهما صائغاً وتاجرا فى الأحجار الكريمة ، يعرض السلع النفيسة والتحف الفنية ، ويتسلل ، بذكاء ومهارة داخل القصور الشرقية ويعرف فى كل مكان كيف يتكيف ويدبّر أموره . ووصل إلى الهند ، ورحل حتى

مناجم الماس ، وبعد عودة حافلة بالأخطار ، لم يجد فى الغرب ترحاباً . والكتابات التى خلفها مفيدة للغاية ، ومع ذلك فإن مواطنه ، وخلفه ومنافسه شاردان ، لم يكتف بأن يضع العراقيل فى طريقه ، بل شوه أيضاً سمعته . وشاردان ، منذ بداية رحلته ؛ عرف كيف يشق طريقه وسط أشد الصعوبات ، وعرف أيضاً بمهارة كيف يستغل لمصلحته عقلية كبار الحكام وأصحاب الثروات الهنود الذين يترددون بين السخاء والأنانية ، وأن يستفيد من الرغبة التى لا تشبع لدى هؤلاء الناس الذين كانت لديهم كنوز هائلة ومع ذلك كانوا يتطلعون إلى الحُلِىّ الجديدة والمصاغات الأجنبية ، ولهذا عاد إلى وطنه سعيدا محملاً بالمكاسب .

ومهما قلنا فلن نبالغ فى مدح الذكاء ، ورباطة الجأش والمهارة والمثابرة وبراعة السلوك والخدم لدى كليهما ، ولا رجل دنيوى يمكن أن يمجدهما بوصفهما نموذجين فى رحلة خلال الحياة . وكانا يمتلكان ميزتين من النادر أن يُجْمَع بينهما : كانا بروتستنتين وفرنسيين ، وهى صفات إذا اجتمعت فى شخص واحد يمكن أن تنتج أشخاصا ذوى قدرة فائقة .

الرحالة المحدثون والمعاصرون

ما ندين به للقرن الثامن عشر بل وللقرن التاسع عشر لا نستطيع هنا إلا أن نمسه مساً . فالإنجليز فى الآونة الأخيرة ، زودونا بمعلومات عن المناطق المجهولة . فصرنا نعرف أنباء مملكة كابل ، وجدروسيا القديمة وقرمانيا[1] . ومن ذا الذى يستطيع أن يمنع نظراته من التجوال وراء السند والإقرار بأن فى هذه المناطق نشاطاً يتزايد كل يوم ، ولهذا سينمو فى الغرب الولوع بمزيد من المعرفة المتعمقة للغات . فإذا قارنا أى تقدم أحرزه العقل والدراسة

(١) كابل : عاصمة أفغانستان . جدروسيا القديمة : تقابل الآن بلوخستان ؛ وقرمانيا : فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى .

الارتفاع من الدائرة الضيقة للربانيين العبريين حتى عمق واتساع اللغة السنسكريتية ، فإن المرء ليعد نفسه سعيداً أن شهد ، منذ عدة سنوات ، هذه الحركة . وحتى الحروب ، التى تقف وتدمّر الكثير من الأشياء ، كانت مفيدة من عدة نواح للعلم الدقيق . ومن جبال الهملايا حتى السهل ، المناطق على شاطئ السند التى ظلت حتى الآن متلفعة بالأساطير ، قد صارت الآن على ارتباط واضح مع باقى العالم . وعلى طول شبه الجزيرة الهندية حتى جاوه نستطيع ، كما نريد وبحسب قوانا والظروف المواتية ، أن نلقى نظرة شاملة أو نتعمق بعض التفاصيل ، وهكذا يرى أصدقاء الشرق الجديدون أنه يتفتح أمامهم الباب تلو الباب ليعرفوا أسرار هذا العالم الأولى ، وعيوب التنظيم الغريب والدين البائس وكذلك روعة شعر تلوذ به الإنسانية الطاهرة ، والنبالة الأخلاقية ، والسجوّ والحب ، لتواسينا عن عداوات الطوائف ، والغرائب الدينية والتصوف المجرد ، وتقنعنا بأن الشعر ، فى ختام المطاف ، يحتفظ فى داخله بنجاة الإنسانية .

أساتذتنا

الأموات منهم والأحياء

من المهام الصعبة التى يكاد يستحيل على المرء القيام بها على الوجه الأتم أن يستعرض المرء لنفسه كيف تعلم ، خلال حياته ودراساته ، هذا الشيء أو ذاك ، وكيف تقدمنا ليس فقط بفضل الأصدقاء والزملاء ، بل وأيضاً بفضل الأعداء والمخاصمين . وعلى ذلك أستشعر الحاجة إلى ذكر بعض الناس الذين أدين لهم بامتنان خاص .

جونز Jones

مناقب هذا الرجل معروفة الجميع ، فُصِّل القول فيها تفصيلاً ، وفى أماكن عديدة بحيث لم يبق لى إلاّ أن أعان على وجه العموم أننى سعيت

فى كل وقت أن أستفيد من أعماله على خير نحوٍ ممكن ، ومع ذلك أود التنويه بجانب أفادنى فيه على وجه التخصيص .

كان — وفقاً للمبادئ الجيدة فى التربية الإنجليزية — على علم راسخ بالأدبين اليونانى واللاتينى بحيث كان قادراً على تقدير ما أنتجاه ، وفى الوقت نفسه يستطيع أن يكتب بهاتين اللغتين ، وكان على علم بالآداب الأوربية ، ومتبحراً فى آداب الشرق ، ذا موهبة رائعة فى تقدير كل أمة وفقاً لفضائلها الأصيلة ، وفى الكشف فى كل مكان عن الجمال والخير حيث يجتمعان بالضرورة .

وأحسّ مع ذلك ببعض الصعوبة فى إبلاغ آرائه ، وكان تفضيل أمته للأدب الكلاسيكى القديم ، خصوصاً ، عقبة أمامه ، وحين نلاحظ بالدقة نلحظ بسهولة أنه سعى ، كرجل حصيف ، إلى ربط المجهول بالمعلوم ، والقيم الحقيقية بالقيم المقرّ بها ، وستر تفضيله للفن الشعرى فى الشرق ، وعرض ، بتواضع ماهر ، فى معظم الأحيان أمثلة يستطيع عن حقّ أن يوازن بينها وبين الشعراء اللاتين واليونان اللامعين ، واستخدم فيما يتصل بالإيقاع والأوزان الأشكال القديمة ابتغـــاء تيسير رقائق الشرق اللطيفة للكلاسيكية . وليس فقط من الناحية الأثرية ، بل وأيضاً من الناحية الوطنية شعر بكثير من المضايقات : فكم حزّ فى نفسه أن يرى الناس لا يقدرون قيمة الشعر الشرقى ، وهذا يظهر بوضوح من مقال كله تهكم قاس ، ركّزه فى صفحتين فقط ، بعنوان : « العرب ، أو فى الشعر ، حوار مع الإنجليز » ، وقد وصفه فى كتابه عن الشعر الآسيوى . وينبغى علينا أن نرى فيه بمرارة ظاهرة كيف أن ملتون وبوب Pope سيكونان غير معقولين لو ارتديا ثوباً شرقياً ، ومن هنا ينبغى أن نعرف ونقدر كل شاعر فى لغته وفى نطاق عصره وثقافته وحضارته .

أيشهورن

ألاحظ بسرور وامتنان أنه فى دراساتى الحاضرة لا أزال أستخدم نفس النسخة التى قدمها إلىّ هذا العالم العظيم منذ اثنتين وأربعين سنة ، من مؤلفات جونز ، بينما كان لا يزال بيننا وكان فى وسعنا أن نتلقى من فمه الكثير من الحقائق المفيدة . ومنذ ذلك الحين وأنا أتابع تعليمه فى صمت ، وفى هذه الأيام الأخيرة كانا من المتع الكبيرة أن أتلقى ، دائماً من يده وكاملاً ؛ الكتاب المهم جداً الذى يوضح لنا أخبار « الأنبياء » وعصورهم . وأى شىء أمتع ، بالنسبة إلى صاحب الإدراك السليم الهادئ وإلى الشاعر المتحمس ، من أن يرى هؤلاء الناس الملهمين وهم يتأملون بفكر سام الوسط المضطرب الذى كانوا يعيشون فيه ، ويرصدون الأمور الرائعة ذات الدلالة التى كانت تجرى وهم يوزعون العقوبات ، والإنذارات ، وألوان العزاء ، والدعوات .

بهذه الكلمات القصار أود أن أعبر بإخلاص عن امتنانى وتعلقى بهذا العالم الجليل .

لورسباخ

وإنه لواجب يمليه عرفان الجميل أن أذكر هاهنا لورسباخ الممتاز . لقد دخل دائرتنا فى سن متقدمة ، فلم يجد أبداً مكانة لذيذة ملائمة ، ومع ذلك فقد وافانى بمعلومات أمينة عن كل المسائل التى عرضتها عليه ، فى كل مرة لم تتجاوز حدود معارفه ، وهى حدود قصرها أحياناً بمزيد من التدقيق .

وبدا لى فى البداية غريباً ألا أجد فيه صديقاً متحمساً للشعر الشرقى ، ومع ذلك فهذا هو المصير المحتوم لكل من يكرّس وقته وقواه بحماسة وولوع

لموضوع دراسة معين ؛ ولا يعتقد فى نهاية الأمر ، أنه وجد فيه الحصاد الذى كان يُرجّيه . وفضلا عن ذلك فإن الشيخوخة هى الوقت الذى فيه لا يعرف المرء بعدُ أن يستمتع حيث يستحق أن يستمتع حقاً . وكان ذكاؤه ونزاهته ساجيين ، وسأذكر دائما بلذة الساعات التى قضيتها معه .

فون ديتس

كان للحبر فون ديتس[١] أثر كبير فى دراساتى أعبّر عنه وأقربه بامتنان . ففى الوقت الذى كنت فيه أهتم جدّياً بالأدب الشرقى وقع بين يدىّ « كتاب قابوس » ، وظهر لى أنه كتاب ممتاز ، فكرست له وقتا طويلا ودعوت الكثير من أصدقائى إلى مطالعته . وبعثت ، بواسطة مسافر ، برسالة تقدير إلى هذا العالم الممتاز الذى كنت أدين له بالكثير . فبعث هو إلىّ بكتيبه عن أزهار التوليب . فأمرت بعمل زينة ، على ورقة من الساتان ، حول إطار رائع من الأزهار المذهبة ، وكتبت فى داخله الشعر التالى :

« كيف يسلك المرء مسلك الحكمة على الأرض
وكيف يعتلى العرش وينزل عنه ،
وكيف يعامل الناس والأفراس ،
كل هذا يعلمه الملك لولده .
ونحن نعرف هذا اليوم بفضلك ، بالهدية التى أعطيتنا إياها ؛
وقد أضفت إليها الآن روعة التوليب ،
ولو لم يمنعنى الإطار الذهبى
فأين كان سينتهى ما صنعته لنا ؟ » .

---

(١) هنيرش فريدرش فون ديتس (١٧٥٠ — ١٨١٧) : كان فى الفترة من سنة ١٧٨٤ إلى ١٧٩١ قائماً بأعمال پروسيا فى الآستانة ؛ وصار منذ سنة ١٧٩١ حبراً Prälat فى دير كولبرج .

وهكذا تم بيننا حوار بالمراسلة ، استمر فيه هذا الرجل الفاضل بإخلاص حتى وفاته ، وكان خطه لا يكاد يُقرأ ، وسط الآلام والإرهاب .

ولما كنت آنذاك لا أعرف عادات الشرق وتاريخه إلاّ بصورة إجمالية ، وكنت أجهل تماما تقريبا لغة الشرق ، كانت صداقة من هذا النوع ثمينة جداً بالنسبة إليّ : إذ وفقا لطريقتي في العمل على نحو منهجي محدد من قبل كنت في حاجة إلى توضيحات مباشرة ما كنت أستطيع أن أعثر عليها في الكتب دون أن أبدّد وقتاً طويلا وجهداً كبيراً ، فإني كنت أتوجه إليه في المسائل الصعبة وأتلقى منه دائما جوابا شافيا مشجعا عن كل أسئلتي . وكنت أعرف مزاجه القاسي الشخصي جداً ، ولهذا حذرت من غشيانه من جانب معين ، لكنه تفضل ذات يوم ، على نحو مخالف تماما لمشاعره ، وكنت أود أن أعرف شيئا عن أخلاق نصر الدين خواجه ، المرافق الخفيف الروح لتيمور في معسكره ، فأرسل إليّ ترجمة لبعض حكايات نصر الدين خوجه ، وهي تدل مرة أخرى على أن كثيراً من الحكايات الفاضحة التي يعالجها الغرب على طريقته تستمد أصولها من الشرق ، لكنها في النقل تفقد في كثير من الأحيان لونها الحق واللهجة الأصلية الخاصين بها .

ولما كان مخطوط هذا الكتاب يوجد اليوم في المكتبة الملكية في برلين ، فإنه من المرغوب فيه تماما أن يقول أحد المختصين في هذا اللون بترجمته . ربما كان الأفضل أن تكون الترجمة إلى اللاتينية حتى يطلع عليها العلماء أولا . أما بالنسبة إلى الجمهور الألماني فيمكن استخلاص ترجمة موجزة ملائمة .

أما أني اهتممت بسائر مؤلفات صاحبي ، وبكتابه « ذكريات الشرق » ، الخ في هذا الكتاب الشواهد عليه ، ومن الشائك أن أعترف أني استفدت كثيراً من مزاجه المقاتل الذي لا يستطيع المرء أن يحبّذه باستمرار . لكن من يتذكر أيام دراسته في الجامعة حيث كان الواحد منا يهرع إلى قاعة السلاح قطعا في كل مرة يتقايس فيها أستاذان أو كبيران قواهما ومهارتهما

نقول إن من يتذكر هذا لا يمكن أن يجادل فى أنه فى مثل هذه المناسبات يلاحظ مزايا وألوانا من الضعف ستبقى بدون هذا مستورة عن الطالب.

ومؤلف «كتاب قابوس» («قابوس نامه») هو كيكاوس، ملك الديلم الذين يسكنون فى المنطقة الجبلية من جيلان التى تحدُّ من الجنوب البحرَ الأسود. وسنزداد بالمؤلف إعجابا كلما ازددنا به معرفةً. نُشِّئ بعناية بالغة، بوصفه وارث العرش، من أجل حياة حرة نشيطة، وترك بلاده ليتكون ويحصّل تجارب فى بلاد بعيدة ناحية الشرق.

وبعد وفاة محمود الذى روينا عنه كثيراً من جلائل الأعمال، جاء إلى غزنة، فتلقاه السلطان مسعود، ابن السلطان محمود، استقبالا حارًّا، وبعد خدمات جليلة قام بها فى السلم والحرب تزوج إحدى أخوات السلطان؛ وفى بلاط كان الفردوسى قبل سنوات قليلة قد كتب فيه «الشاه نامه» وبقيت فيه جماعة كبيرة من الشعراء وأصحاب القرائح، وكان السيد الجديد، وهو جسور محارب مثل أبيه، يقدر العلماء والشعراء، استطاع كيكاوس، خلال أعماله، أن يجد أخصب تربة لنموه الروحى فيما بعد.

لكن ينبغى علينا أن نتحدث أولا عن تربيته. لقد وكله أبوه لمعلم ممتاز، لتنمية قواه البدنية إلى أقصى درجة. ورده المعلمُ إلى أبيه بعد أن صار محنكاً فى كل فنون الفروسية: من رماية، وركوب خيل، والرماية والشخص راكب، ورمى الرماح، واللعب بالمضرب والصولجان. وبعد أن مهر فى كل هذه الألعاب، ورضى أبوه عن هذه التربية ومدح المعلم، أضاف: «عندى مع ذلك ملاحظة أبديها. لقد علمت ولدى كل التمرينات التى يحتاج فيها إلى آلات أجنبية عنه: فبدون الفرس لا يستطيع الركوب، وبدون القوس لا يستطيع الرماية؛ وما قيمة ذراعه بدون رمح، وكيف يلعب بغير مضرب ولا صولجان! لكنك لم تعلمه الفن الوحيد الذى لا يحتاج فيه إلاّ إلى نفسه، وهو الذى لا غنى عنه ولا يستطيع إنسان أن يساعده فيه». فحار

المعلّم ، وفهم أنه ينقص الأمير فن السباحة . فتعلمه الأمير على شيء من المضض ؛ لكن فن السباحة هو الذى أنقذ حياته . لما كان فى طريق الحج إلى مكة فغرقت به السفينة هو وعدد كبير من الحجاج فى نهر الفرات[1]، ولكنه نجا مع عدد قليل منهم .

أما أنه كان رفيع الثقافة فهذا ما يظهر بجلاء من حسن استقباله فى قصر غزنة ومن كونه عُيّن مرافقاً للأمير ، وكانت لهذا فى هذا العصر دلالة كبيرة ، لأنه ينبغى أن يكون خبيراً فى فن تقديم تقرير منظم لطيف عن كل ما يجرى .

وكانت وراثة عرش جيلان غير مؤكدة ، كما كان غير مؤكد الاستيلاء على المملكة من جانب الجيران الأقوياء الطامعين فى الغزو . وأخيراً ، بعد وفاة والده الملك ، الذى خُلِع من العرش ثم أعيد إليه ، اعتلى كيكاوس العرش بحكمة بالغة وتسليم تام بنتائج الحوادث ؛ ولما بلغ سِنّاً عالية ، وتوقع أن ابنه جيلان شاه ، سيكون فى وضع معرّض لأخطار أكبر ، كتب هذا الكتاب الممتاز الذى يقول فيه لابنه « إنه علمه كل الفنون والعلوم لسببين : إما ليتعيش من ممارسة مهنة لو اضطر إلى ذلك ، أو إذا لم يضطر ، لكى يكون عالماً بكل شيء إذا بقى على العرش » .

ولو أن مثل هذا الكتاب وقع بين أيدى المهاجرين النبلاء الذين تعيشوا مراراً من عمل أيديهم بتسليم مثالى ، فكم كانوا سيجدون فيه خير العزاء !

وإذا كان هذا الكتاب الممتاز ، الذى لا تصاب له قيمة ، ليس معروفا ، فالسبب الرئيسى فى هذا هو أن المترجم نشره على نفقته الخاصة وأن دار النشر نيقولاى أخذته على سبيل الأمانات ، وهذا سبب لسوء بيع الكتاب الذى من هذا النوع . لكن ليعرف وطننا أى كنز ينطوى عليه هذا الكتاب ،

---

(١) خطأ من جيته ، والصواب : فى نهر الدجلة أثناء العودة من سفره مخفقة للحج ، راجع : ديتس : « قابوس نامه » ص ٥٧٩ وما يتلوها .

بالنسبة إليه ، سنورد هاهنا عنوانات الفصول : ونحن نرجو الصحف المحترمة مثل « جريدة الصباح » و « المجتمع » أن تنشر بعض الحكايات والنوادر المفيدة والمسلّية والأمثال الجميلة المنقطعة النظير التى يحتوى عليها هذا الكتاب .

مضمون قابوس نامة بحسب فصوله

١ — فى معرفة الله

٢ — فى مدح النبى

٣ — فى حمد الله

٤ — فروض العبادة ضرورية ومفيدة

٥ — فى الواجبات نحو الوالدين

٦ — فى ارتفاع المولد بالفضيلة

٧ — فى قواعد الكلام

٨ — فى القواعد الأخيرة لأنوشيروان

٩ — فى أحوال الشيب والشباب

١٠ — فى آداب الطعام

١١ — فى آداب الشراب

١٢ — فى آداب الضيافة والدعوة

١٣ — فى المزاح واللعب بالشطرنج

١٤ — فى سلوك العاشقين

١٥ — مزايا ومساوئ السكنى معا

١٦ — كيف ينبغى الاستحمام والغسل

١٧ — فى النوم والراحة

٤٠ — فى نظام الوزارة

٤١ — فى قواعد قواد الجيش

٤٢ — فى واجبات الملوك

٤٣ — فى قواعد الزراعة والفلاحة

٤٤ — فى مزايا الفضيلة

وكما أن المرء يرجّى من غير شك أن يستخلص ، من كتاب هذا مضمونه ، معرفة واسعة بالحياة فى الشرق ، فلا شك أيضاً فى أنه يمكنه أن يجد فيه أمثلة كثيرة للإفادة وتكوين ملكة الحكم فى ظروف الحياة الأوربية .

ولنضف فى الخاتمة مختصراً بتواريخ تولى الملك كيكاوس العرش حوالى سنة ٤٥٠ هـ (= ١٠٥٨ م) وكان لا يزال يحكم فى سنة ٤٧٣ هـ (= ١٠٨٠ م) ؛ وتزوج بنت السلطان محمود الغزنوى . أما ابنه جيلان شاه الذى من أجله كتب « قابوس نامه » ، فقد جرّد من مُلْكه . ولا نعرف عن حياته إلاّ القليل ، ولا نعلم شيئاً عن وفاته . واجع ترجمة فون ديتس ، برلين سنة ١٨١١ .

* * *

والمكتبة التى نشرت أو تتولى توزيع الكتاب المذكور كأمانة يرجى منها أن تخبرنى . والسعر المناسب سيسهل التوزيع المرجوّ .

فون همّر (١)

تشهد كل أجزاء كتابى هذا كم أدين لهذا الرجل الممتاز . لقد جذبت اهتمامى حافظ وشعره منذ زمان طويل ، لكن كل ما وضعه الأدب ، وأخبار

(١) يوسف فون همّر (١٧٧٤ — ١٨٥٦) موظف نمساوى فى الآستانة ومصر ومولدافيا ، ومنذ سنة ١٨١١ مترجم فى القصر الإمبراطورى فى ڤينا .

الأسفار ، والصحف ، الخ ، تحت عيني لم يعطني فكرة ولا رؤية عن قيمة وفضل هذا الرجل الخارق للعادة (حافظ الشيرازى) . لكن حين وصلتني أخيراً ، فى ربيع سنة ١٨١٣[1] ، ترجمة مؤلفاته كلها ، نفذت فى عبقريته بولوع خاص وسعيت أنْ أعقد الصلة بينه وبيني بواسطة إنتاجي . وهذه المهمة العزيزة ساعدتني على اجتياز فترات عصيبة ومكنتني فى النهاية من أن أتذوق ، بمتعة تامة ، ثمار السلام الذى كسبته جيوشنا .

ومنذ بضع سنوات عرفت بصورة عامة العمل الملىء بالحماسة الذى قام به فى « كنوز الشرق » ؛ والآن آن الأوان لكى أفيد منه ، إن هذا العمل فتح أمامى آفاقاً فى اتجاهات عديدة ، وأيقظ وأرضى فى نفس الوقت حاجات العصر ، وبالنسبة إلىّ تحققت مرة أخرى هذه التجربة فهى أنه فى كل فرع من فروع العلم نجد عوناً رائعاً من معاصرينا إذا عرفنا كيف نستفيد من كفاياتهم بامتنان وبكل محبة . إن العلماء المحصلين يفيدوننا فيما يتعلق بالماضى ، ويبينون وجهة النظر التى يتم النشاط وفقاً لها الآن ، ويعلنون مقدماً عن الطريق الأقرب الذى ينبغى علينا سلوكه . ولحسن الحظ أن كتاب يوسف فون همّر الممتاز قد استمر بنفس الحميّة ، ولو أوغلنا فى أبحاثه فى هذا الميدان عائدين إلى الوراء ، فإن المرء يعود دائماً عن طيب خاطر وبلذة متجددة إلى ما يقدَّم إلينا من كل ناحية على نحو شهىّ مفيد .

وليسمح لى بأن أصرّح بأن هذه المجموعة المهمة كانت ستكون ذات عون أكبر لى لو أن الناشرين[2] ، الذين لا يحصدون ولا يعملون إلاّ للعلماء والمختصين ، قد فكروا أيضاً فى عامة الناس والهواة وقدموا لمعظم ، إن لم يكن لكل ، مقالاتهم بمقدمة قصيرة عن أحوال الماضى ، والأشخاص

---

(١) خطأ من جيته ، صوابه : سنة ١٨١٤ ، راجع يوميات جيته فى ٧ ، مايو سنة ١٨١٤ .

(٢) يقصد العلماء المحققين .

والأماكن ، إذ كان ذلك سيوفر على القارئ المهتم بالاطلاع أبحاثاً متعبة تشتت انتباهه .

لكن كل أمانينا تحققت على نحو كبير بفضل الكتاب العظيم الذى يعرض علينا تاريخ الشعر الفارسى . ذلك أنى أقرّ عن طيب خاطر أنه فى سنة ١٨١٤ ، حين أعلنت جريدة « أنباء جيتنجن » عن مضمون الكتاب مقدماً ، رتبت فى الحال دراساتى وفقاً للأبواب المذكورة ، وكان ذلك ذا فائدة بالنسبة إلىّ كبيرة . ولكن حين ظهر الكتاب كله ، وكان منتظراً بفارغ الصبر ، شعرت بأننى انتقلت فجأة إلى وسط عالم معروف يمكن تقدير نسبه بوضوح فى تفاصيلها ، بينما من لم يكن المرء يدرك قبل ذلك غير طبقات من الضباب المتغير .

وعسى أن يحمد لى الجمهور ما أفدته واستخلصته من هذا الكتاب وأن يدرك قصدى فى أن أجتذب إليه أولئك الذين ربما مرّوا ، خلال حياتهم ، بعيداً عن الكنز المكدّس هنا .

ومن المحقق أننا نملك اليوم أساساً نستطيع أن نقيم عليه بناء الأدب الفارسى بوضوح وفخامة ، وعلى غرار هذا النموذج يكن تشييد وتعمق آداب أخرى . لكن يبقى من المأمول فيه جداً أن يُراعَى الترتيب التاريخى وألا يُحاول العرض التنظيمى وفقاً لمختلف أنواع الشعر . فعند الشعراء الشرقيين يمتزج كل شىء بحيث لا يمكن معالجة كل نوع على حدة ؛ وطابع الزمان وطابع الشاعر فى عصره هو وحده المفيد لنا ويؤثر فى كل واحد على نحوٍ حىّ ؛ وعسى أن يستمر فى معالجة هذا الموضوع كما قلنا هنا .

وعسى أن يعترف اعترافاً كلياً بخصال « شيرين[1] » الممتازة ، « وبورقة

---

(١) شيرين : قصيدة رومنتيكية فارسية نبأ لمصادر شرقية ، ليبتسك سنة ١٨٠٩ .

البرسيم[1] » المفيدة فى جِدّها المحبـــوب ، والتى خلبت لبنا فى ختام عملنا .

ترجمات

لما كان الألمان يتقدمون فى معرفة الشرق بفضل الترجمات من كل نوع ، فإننا مسوقون إلى إيراد بعض الملاحظات التى وإن لم تكن جديدة فإن فى تكرارها فائدة دائماً .

يوجد ثلاثة أنواع من الترجمات . الأول يعرّفنا بالأجنبى بحسب فهمنا نحن ، وأفضل طريقة لهذا النوع هو الترجمة نثراً . ذلك أنه لما كان النثر يلغى كل خصائص الشعر القومى ويسوّى فى نفس المستوى المشترك الحماسة الشعرية ، فإنه فى البداية يسدى أجل الخدمات من حيث أنه يفاجئنا فى وسط حياتنا القومية وحياتنا الخاصة . مبيّناً لنا المزايا البارزة للأجنبي و يوفّر لنا تنشئة حقيقية بأن يرفعنا فوق أنفسنا ، دون أن ندرى كيف تم هذا . وترجمة لوثر للكتاب المقدس تحدث دائما هذا الأثر .

ولو أن ملحمة « النيبلنجى » ترجمت فى الحال إلى نثر محكم وقُدّمت على أنها كتاب شعبى ، لكان فى ذلك مكسب كبير ، وكانت روح الفروسية الغريبة ، الجادة ، الكابية ، الرهيبة ، قد اختلبتنا بطاقتها الكاملة . أما هل هذا لا يزال ممكنا ومناسباً اليوم ، فهذا أمر يفصل فيه على خير نحوٍ أولئك الذين كرّسوا أنفسهم للدراسات الجرمانية القديمة .

وبعد ذلك يأتى عصر ، فيه يحاول المرء أن يتكيف مع مظاهر الحياة الأجنبية ، لكنه فى الحق لا يسعى إلا إلى اكتساب الروح الأجنبية ، لكن بنقلها إلى روحنا نحن . وهذه المرحلة أسميها مرحلة المعارضة Parodistische ،

---

(١) يوسف فون همر : « ورقة برتيم شرقية ، تتألف من أناشيد فارسية ومرثيات عربية ورعويات تركية » ڤينا سنة ١٨١٨ .

مستعملا هذا اللفظ بأصفى معانيه . وفى الغالب يكون ثم أشخاص موهوبون لهذا اللون من العمل . والفرنسيون يستخدمون هذه الطريقة فى ترجمة كل المؤلفات الشعرية . ونجد أمثلة على ذلك تعد بالمئات فى ترجمات دليل Delille[1] . والفرنسى ، كما أنه يكيّف الكلمات الأجنبية مع لهجته ، يفعل نفس الشىء بالنسبة إلى العواطف والأفكار وحتى الموضوعات ؛ ويطالب بأى ثمن لكل ثمرة أجنبية بمقابل نما فى تربته هو .

وترجمات ڤيلند[2] تنتسب إلى هذا النوع ، وهو الآخر كان ذا ذكاء وذوق خاصين جداً لم يمكناه من الاقتراب من العصر القديم وما هو أجنبى إلا بالقدر الذى يجدهما ملائمين له . وهذا الرجل الممتاز يمكن أن يعد ممثلا لعصره . وكان له تأثير هائل ، لأن الأمور التى تسرّه كانت أيضاً لذيذة مقبولة لدى معاصريه فى نفس الشكل الذى كان يمثلها عليه ويحسن عرضها .

لكن كما أنه لا يمكن الاستمرار فى الكامل ولا فى الناقص ، وأنه لا بد أن يتلو التحول تحول آخر ، فقد وصلنا إلى مرحلة ثالثة يمكن أن تسمى المرحلة العليا والأخيرة ، تلك التى يمكن فيها جعل الترجمة مثل الأصل بحيث لا تعبر عنه فقط على نحوٍ مقارب ، بل وأيضاً أن تحلّ محله .

وهذه الطريقة تلقى أولاً أشد مقاومة ؛ لأن المترجم الذى يتابع الأصل بدقة يتخلى عن أصالة أمته ، وينشأ عن ذلك حد ثالث ينبغى على ذوق الجمهور أن يتكيف وإياه .

وفوس Voss[1] ، وفضله لا يتسع له وصف واصف ، لم يستطع أول

---

(١) دليل Jacques Delille (١٧٣٨ — ١٨١٣) : شاعر فرنسى ، اشتهر بترجمة « الجيورجيكات » ڤرجيل .

(٢) ترجم ڤيلند شيكسبير من سنة ١٧٦٢ إلى ١٧٦٦ ولوسيان سنة ١٧٨٨ — ٨٩ .

(٣) ترجم فوس « الأوديسا » لهوميروس سنة ١٧٨١ ، و« الالياذة » سنة ١٧٩٣ .

الأمر إرضاء الجمهور إلا بعد أن ألفت الأذن شيئاً فشيئا هذا الأسلوب الجديد . لكن من يشمل اليوم بنظرته ما تم ، وإلى أى حد من المرونة وصل الألمان ، وأى فوائد بلاغية وإيقاعية ووزنية تتبدى للشاب الموهوب وكيف أن أريوستو وتَسُّو وشيكسپير وكالدرون يقدمون إلينا اليوم بشكلين أو ثلاثة أشكال مختلفة ، كأجانب وسموا بسمة ألمانية ، — هذا الشخص له الحق فى أن يأمل أن التاريخ الأدبى يعلن بغير التواء عن اسم أول من شق هذا الطريق بين مختلف العقبات .

وأعمال يوسف فون همّر تكشف غالبا عن طريقة مماثلة فى معالجة روائع الشرق التى ينبغى أن يتخذ معها المحاكاة الأمينة للشكل الخارجى : وكم تتفوق تفوقاً هائلاً ترجمته لبعض مواضع الفردوسى ، ترجمات مُرتّب يمكن قراءة إنتاجه[1] فى « كنوز الشرق » . ونحن نعد هذه الطريقة فى ترتيب شعر شاعر أجنبى أسواء طريقة يمكن أن يسلكها مترجم ، وإن كان مليئاً بالحماسة وقادراً على مهمته .

لكن لما كانت هذه المراحل الثلاث ، فى كل أدب ، تحدث ، وأحياناً فى اتجاه عكسى ، وأن هذه الطرق الثلاث فى الترجمة يمكن أن تمارس فى وقت واحد ، فإن ترجمة « الشاه نامه » ومؤلفات نظامى كنجوى نثراً ستكون دائماً فى محلها . وستستخدم للقراءة العاجلة المقصود بها إعطاء فكرة موجزة عن المضمون ، وسنستمتع بالجانب التاريخى والخرافى والأخلاقى فيها ، ونزداد ألفة لطريقة الشعور والتفكير ، حتى اللحظة التى نكون فيها على حال تسمح لنا بالتآخى تماماً مع هذه المؤلفات .

وليتذكر المرء النجاح الهائل الذى لقيته ترجمة من هذا النوع لمسرحية[2]

---

(١) يقصد جيررس Görres فى « كنوز الشرق » ـ ٢ ص ٦٤ الذى « صاغ » مواضع من الفردوسى .

(٢) ترجمها ج . فورستر بسنة ١٧٩١ .

« سكونتالا » ، ويمكننا من غير شك أن نفرد نجاحها إلى ذلك النثر الفضفاض الذى انحلت إليه القصيدة . والآن قد آن الأوان لترجمة من النوع الثالث يورد مختلف اللهجات ، وخصائص الايقاع ، والوزن ونثر النص ، ويمكننا من تذوق هذه القصيدة فى أصالتها المليئة والاستمتاع بها من جديد .

والمترجم الإنجليزى[1] لـ « رسالة الغيوم » مجا دهوتا » هو الآخر خليق بكل إطراء ، لأن أول اطلاع على هذا الكتاب سيحدث أثراً حاسماً فى فى حياتنا : لكن ترجمة تنتمى قطعاً إلى الرحلة الثانية : فهو يتوسع ، ويتصرف ويتملق الأذن والإحساس الشمالى الغربى بواسطة بحر الايامبو ذى الخمس أقدام . ولكنى أحمد لكوزجارتن ترجمته لبعض الشعر مباشرة عن الأصل ، مما يكشف الأصل فى مظهر مختلف تماماً . وفضلاً عن ذلك فإن المترجم الإنجليزى قد سمح لنفسه بتعديلات فى التعبير تتعرفها النظرة المجالية الغامضة وتعيب عليها .

لكن لماذا سمينا المرحلة الثالثة بالأخيرة ، هذا ما سنشير إليه فى كلمات قليلة . إن الترجمة التى تهدف إلى أن تكون هى هى كالأصل ، تنحو إلى الاقتراب من الترجمة بين السطور وتسهّل جداً فهم الأصل ؛ وبهذا نجد أنفسنا وقد عدنا رغماً عنا إلى النص الأصلى ، وهكذا تتم فى النهاية الدورة التى يتم وفقاً لها الانتقال من الأجنبى إلى الوطنى ، من المعروف إلى المجهول .

خاتمة نهائيـــة

إلى أىّ حد أفلحنا فى ربط الشرق الأقدم والأكثر موتا من الشرق الأحدث والأكثر حياةً ، هذا ما سيفصل فيه بإحسان العارفون والأصدقاء . ومرة أخرى وقعت بين أيدينا وثيقة تنتسب إلى تاريخ اليوم ، ويمكن أن تفيد خاتمة هنيئة حية لمجموع هذا الكتاب .

---

(١) قصيدة هندية من نظم كالداسا ، ترجمها ولسون .

منذ قرابة أربع سنوات ، حين تلقى سفير فارس لدى بطرسبورج تعليمات مولاه ، لم تدع زوجة الشاه النبيلة هذه الفرصة تفلت كي ترسل من جانبها هدايا ثمينة لصاحبة الجلالة الإمبراطورة أم كل روسيا ، مع رسالة كان من حسن حظنا أن نستطيع إبلاغ مضمونها لقرائنا .

رسالة زوجة شاه فارس

إلى صاحبة الجلالة الملكة أم كل روسيا

طالما بقيت العناصر التي تؤلف العالم ، نرجو أن المرأة العظيمة في قصر الفخامة ، سمط لؤلؤة الإمبراطورية ، وبروج كواكب السلطنة ، والتي حملت الشمس الساطعة للإمبراطورية العظمى ، والدائرة المركزية للقوة ، والنخلة التي تنضج عليها ثمرة السلطان الأكبر — نرجو لها أن تكون دائماً في سعادة وأن تُحفَظ من كل شر

بعد تقديم هذه الأمنية الخالصة ، أتشرف أن أعلن أنه ، بعد أن أنتجت ، في أيامنا السعيدة ، بفضل رحمة الله العلي القدير ، بساتين القوتين العظيمين من جديد حصاداً نضراً من الورود ، وزال كل ما اندس بين البلاطين النبيلين بفضل الوحدة والصداقة المخلصتين ، فإن كل أولئك الذين ينتمون إلى كلا البلاطين لن يكفوا عن أن تقوم بينهم علاقات المودة وتبادل الرسائل .

ولهذا ، فإنه في اللحظة التي فيها صاحب السعادة مرزا أبو الحسن خان ، السفير لدى بلاط روسيا العظيم ، يسافر إلى عاصمة الإمبراطورية — وجدت من الضروري أن أفتح باب الصداقة بمفتاح هذه الرسالة المخلصة . وكما جرى العرف القديم ، وفقاً لمبادئ الصداقة والمودة ، أن يتبادل الأصدقاء الهدايا ، فإني أرجوك أن تتفضلي بقبول هذه الزينة التي هي أفخر ما عندنا ونقدمها إليك . وآمل في مقابل ذلك أن تُبَلّلي بعض قطرات ندى رسائلك

اللطيفة بستان قلب يحبك حباً لا مزيد عليه ، وأرجوك أيضاً أن تشرفنى بطلباتك وأتعهد بتلبيتها بكل لهفة .

هدايا

عقد من اللؤلؤ وزن ٤٩٨ قيراط

خمسة شيلان هندية

صندوق من الورق ، من صنع أصفهان

صندوق صغير لوضع الريش

صوان صغير لوضع الأدوات الضرورية

خمس قطع من البروكار

وقد عرضنا من قبل كيف عبّر السفير المقيم فى بطرسبورج بحكمة وتواضع عن العلاقات بين الأمتين ، وبيّنا ذلك لمواطنينا بمناسبة تاريخ الأدب والشعر فى فارس :

وقد التقينا حديثا بهذا الرجل ، الذى يبدو أنه ولد ليكون سفيرا ، أثناء سفره إلى انجلتره ، وهو يمرّ بقينا حيث وصلته المنح السنية من مولاه ، وزاد الشاه فيها وفى مدلولها بالشعر . ونورد هنا هذا الشعر كمفتاح عقد قبتنا المشيّدة من مواد مختلفة ، لكنها راسخة بمشيئة الله .

در درفش (١)

فتحعلى شه ترك جمشيد كيتى أفروز

كشور خداى إيران خورشيد عالم أرا

(١) بالفارسية فى الأصل مع ترجمة ألمانيا ، وكذلك الحال فى القصيدة الثانية .

چترش بصحن کیهان أفکنده ظلّ أعظم
کردش بمغز کیوان اکنده مشك سارا
إیران کنام شیران خورشید شاه إیران
زانست شیر وخورشید نقل درفش دارا
فرق سفیر دانا یعنی أبو الحسن خان
بر أطلس فلك شود از این درفش خارا
از مهر سوی لندن أورا سفیر فرمود
زان داد فرّ وحضرت بر وخسرو نصارا

على الراية

فتح علی شاه الترکی شبیه بجمشید
نور العالم ورب إیران وشمس الأرض
مظلته تلقی علی صحن العالم ظلاً أعظم
وحزامه یفوح منه المسك فی دماغ زحل
إیران عرین الأسود ، وشاهها هو الشمس
ولهذا فإن الأسد والشمس منقوشان علی رایة دارا
رأس السفیر أبی الحسن خان
برفع إلی فلك أطلس رایة من حریر
وهو ذاهب إلی لندن بدافع المحبة
حاملاً السعادة والسلام لرب النصاری

* * *

در پرده

باصورت شاه وافتاب

تبارك الله زين پرده همايون فرّ
كه افتاب بر پردكش پرده در
بلى‌طرازش از كلك مانى ثانى
نكار فتحعلى شاه افتاب افسر
مهين سفير شهنشاه اسمان دركاه
أبو الحسن خان ان هوشمند دانشور
زپاى تاسر أو غرق كوهر از خسرو
سپرد چون ره خدمت بجاى پا از سر
چو خواست بازكند تاركش قرين با مهر
قرانش داد بدين مهر اسمان چاكر
درين خجسته بشارت اشارتست بزرك
بر ان سفير نكو سيرت ستوده سير
كه هست عهدش عهد جهانكشا دارا
كه هست قولش قول سپهر فرّ داور

على شريط الوسام ،
مع صورة الشمس والشاه
بارك الله فى هذا الشريط ذى اللألاء النبيل ،
الشمس ترفع عنه الحجاب ،
وطرازه ورد من ريشة مانى الثانى
وصوره فتح على شاه مع تاج الشمس

سفير شاهنشاه العظيم إلى بلاط السماء
هو أبو الحسن خان العالم الحكيم ،
غارق من رأسه حتى قدمه فى لآلىء السلطان ،
سلك طريق الخدمة من البداية حتى النهاية ،
ولما أريد رفع رأسه حتى الشمس
أعطى شمس السماء خادمة له .

هذه البشارة ذات إشارة عظيمة
عند السفير النبيل المحمود السيرة ،
عهده عهد دارا سيد الدنيا
وقوله قول الرب الذى يسطع مع نور السماء

والبلاطات الشرقية تستخدم ، تحت مظهر سذاجة طفولية ، مسلكاً وطرائق حكيمة ماكرة ، والقصيدتان اللتان أوردناهما شاهدان على ذلك .

وآخر سفارة روسية فى فارس وجدت مرزا أبو الحسن خان فى البلاط ، من غير شك ، لكنه لم يكن يحظى برضا استثنائى ؛ وهو يتعلق فى تواضع بالسفارة ، ويسدى إليها خدمات جُلّى ، ويستحق امتنانها . وبعد ذلك بمدة ، أرسل نفس الرجل إلى إنجلترة مع حاشية ضخمة ؛ ولتكريمه على نحو خاص ، استخدمت طريقة خاصة . إذ لم يمنح عند الرحيل كل التشريفات التى يخص بها ، بل يترك يرحل مزوّدا بخطابات اعتماد وباقى السلطات الضرورية . لكنه لم يكد يصل إلى ڤينا حتى تصل إليه كل التوكيدات اللامعة لمكانته ، وشواهد مهمة على أهميته . إذ أرسل إليه راية مع شارات الإمبراطورية ، ووسام فيه يلمع رمز الشمس ، بل وصورة الشاه ؛ وكل هذا يسمو به إلى مكانة ممثل السلطة العليا : فيه ومعه الجلالة حاضرة . ولا يقتصر الأمر على هذا : بل تضاف قصائد تمجد ، بالأسلوب

الشرقى الحافل بالمجازات والمبالغات اللمّاعة ، الراية والشمس والصورة .

ولفهم التفاصيل ، نضيف بعض الملاحظات . إن الشاه يصف نفسه بأنه تركى ، وذلك لأنه انحدر من قبيلة كاچغر ولغتها تركية . والواقع أن القبائل الرئيسية فى فارس والتى يتألف منها الجنس تنقسم بحسب لغتها وأصلها إلى قبائل لغتها التركية ، وأخرى لغتها الكردية ، وثالثة لغتها اللورية ورابعة لغتها العربية .

وهو يشبّه نفسه بـ « جمشيد » لأن الفرس يشبهون ، من ناحية بعض الصفات ، حكامهم الأقوياء بملوكهم القدماء : فيشبهون بفريدون فى المكانة ، وجمشيد فى الأبهة ، والإسكندر فى القوة ، ودارا فى الدفاع ؛ والشاه نفسه هو المظلّة ، ظل الله على أرضه ؛ وهو نفسه فى حاجة من غير شك إلى مظلّة فى أيام القيظ فى الصيف ؛ لكن هذه لا تحميه هو وحده فقط ، بل والعالم بأسره . ورائحة المسْك ، وهى أطيب رائحة ، وأكثرها دواماً وانتشاراً ، تصاعد من حزام الشاه إلى دماغ زحل . وزحل فى نظرهم أرفع الكواكب داراً ، ودارته تغلق العالم السفلى ؛ وهنا إذن يوجد الرأس ، وبالتالى دماغ الكل . وهناك حيث يكون الدماغ ، تكون الحواس ؛ ولهذا فإن زحل يحس رائحة المسـك المتصاعدة من حزام الشاه . ودارا هو داريوس ، ومعناه : الرب ؛ والشرقيون لا يملّون من تكرار وذكر أجدادهم . أما أن تدعى إيران : عرين الأسود فهذا أمر عجيب فى نظرنا ، لأن القسم من فارس الذى يقيم فيه الآن فى العادة البلاط ، معظمه جبلى ، ويمكن المرء أن يتصور بسهولة الإمبراطورية على أنها عرين يسكنه المحاربون ، أعنى الأسود . والراية من حرير هى بالنسبة إلى السفير أعلى وسام ، وفى النهاية يعبّر عن فكرة العلاقات الفردية الحسنة مع إنجلتره .

وبالنسبة إلى القصيدة الثانية نبدى أولاً ملاحظة أولية وهى أن الرمزية اللفظية تنفح الشعر الفارسى بحياة باطنة لطيفة ؛ وهذه الرمزية ترد كثيراً وتسحرنا بلطفها الملموس .

الشريط يطلق على كل نوع من المكان المغلق الذى له مدخل وبالتالى يحتاج أيضاً إلى بواب ، كما يعبّر الأصل وهو يقول إن « الشمس ترفع عنه الحجاب » ، لأن باب كثير من الغُرَف الشرقية يتألف من ستارة ؛ فمن يمسك بالستارة ويرفعها هو إذن البوّاب . ومانى هو مؤسس فرقة المانوية ؛ ولا بد أنه كان رساماً بارعاً نشر بدَعه الغريبة خصوصاً بواسطة اللوحات . وشأنه هنا كما نقول نحن : أپلّس أو رفائيل . والتعبير لآلئ السلطان تثير الخيال على نحوٍ غريب . واللآلئ ينظر إليها على أنها قطرات ماء ، ومن هنا يمكن تصور بحر من اللآلئ يغرق فيه صاحب الجلالة المقرَّبين إليه . وحين ينتشله منه تبقى القطرات معلقة ويصير مزيناً زينة رائعة من رأسه حتى قدميه . وطريق الخدمة له هو الآخر رأس وقدم ، بداية ونهاية ، ابتداء وختام ؛ ولما كان الخادم قد سلكه خطوة خطوة فإنه يكافأ . والسطور التالية بعد ذلك تكشف من جديد عن الرغبة فى تمجيد وتفخيم السفير حتى يؤمّن له فى البلاط الذى أرسل إليه الثقة التامة ، كما لو كان الشاه بنفسه حاضراً .

ولقد قيل عن حق إن الشعر الفارسى يتردد دائماً بين البسط والقبض ، والقصيدتان السابقتان تؤيدان هذا الحكم . إنه يندفع فى كل لحظة فى اللامتناهى كى يعود فى الحال إلى المتناهى والمحسوس . إن الحاكم نور العالم ، وهو أيضاً ربّ مملكته ؛ والمظلّة التى تحميه من الشمس تنشر ظلها على صحن العالم ؛ وعطور حزامه تصاعد حتى زُحل ، وهكذا تتجلى دائماً حركة بسط وقبض ، منذ الأزمان الخرافية السحيقة حتى مراسم بلاط العصر الحاضر . ومن هنا نعرف مرة أخرى أن مجازاته واستعاراته ومبالغاته ينبغى ألا تعتبر أبدا بمفردها ، بل تُفسَّر فى سياق واتجاه العمل الأدبى كله .

مراجعـــة

إذا نظرنا فى المصلحة التى ألهمت المنقول المكتوب ، منذ أقدم الأزمنة حتى أحدثها ، وجدنا أن هذه المصلحة قد أحيتها خصوصاً هذه الواقعة وهى أنه فى هذه البرشمانات والمخطوطات يوجد دائما شيء يقبل التعديل والتصحيح . ولو أمكن أن يوضع بين أيدينا خط بغير خطأ لمؤلف قديم ، فلربما نحى جانبا بغد قليل .

كذلك لا يمكن أن ننكر أننا نحن شخصيا نغتفر للكتاب كثيراً من الأغلاط المطبعية لأننا نغتبط باكتشافها . فعسى هذه الخصلة الإنسانية أن تفيد كتابنا هذا ، إذ قيض لنا ، لنا أو لغيرنا ، أن نصلح كثيرا من العيوب ونصحح كثيرا من الأغلاط ؛ غير أن الإسهام المتواضع فى هذه المهمة لن يرفض بتأفف .

ولنتحدث أولاً عن طريقة رسم الأسماء الشرقية ، وهذا أمر لا يمكن تقريبا الوصول فيه إلى اتفاق تام . إذ سبب الفارق الكبير بين لغات الشرق ولغات الغرب ، من العسير أن نجد لأبجدية لغات الشرق ما يقابلها تماما فى أبجدياتنا . وفضلاً عن ذلك فإنه لما كانت اللغات الأوربية ، بسبب اختلاف أصولها ولهجاتها الخاصة ، تعزو أبجديتها الخاصة قيمة ومدلولاً مختلفين ، فإن الاتفاق أشدّ عسرا .

ونحن إنما قادنا فى هذه المناطق خصوصاً دليل فرنسى . ذلك أن قاموس هربوليه Herbelit هو الذى حقق أمانينا . لكن هذا العالم الفرنسى كان عليه أن يكيف ويعدل الكلمات والأسماء الشرقية وفقاً للنطق والحسّ السمعى عند مواطنه ، وهذا قد انتقل شيئاً فشيئاً إلى الألمان . فمثلا نحن نقول دائماً Hagire بدلاً من hedshra اتباعاً لحسن النطق وللعادة القديمة .

كذلك فعل الإنجليز الكثير من جانبهم فى هذا المجال ! فعلى الرغم من

أنهم ليسوا على اتفاق فيما يتعلق بنطق لغتهم هم ، فقد استخدموا لأنفسهم الحق في نطق ورسم هذه الأسماء على طريقتهم ، وهذا يوقعنا من جديد في الشك والحيرة .

والألمان وهم أكثر الناس حظاً من السهولة فى الكتابة كما ينطقون ويطاوعون عن طيب خاطر الأصوات والكم والنبرات الأجنبية ، قد أخذوا فى العمل بجدّ فى هذا الميدان . ولكنهم لأنهم سعوا دائماً إلى الاقتراب المتزايد من الأصوات الأجنبية ، فإننا نجد فوارق كبيرة بين الأعمال القديمة والحديثة ، بحيث لا يجد المرء مبرراً للخضوع لسلطة جادّة .

ولحسن حظى حمل عنى عبء هذا المهمّ صديقى العالم الملاطف ى . ج ل . كوزجارتن ، الذى أدين له بترجمة القصيدتين الشاهنشاهيتين اللتين أوردناهما ، والذى بعث إلىّ بكثير من التصويبات . ألا ليت هذا الصديق الوفىّ يمدّ يد إحسانه إلى إعداداتى من أجل « ديوان » مقبل .

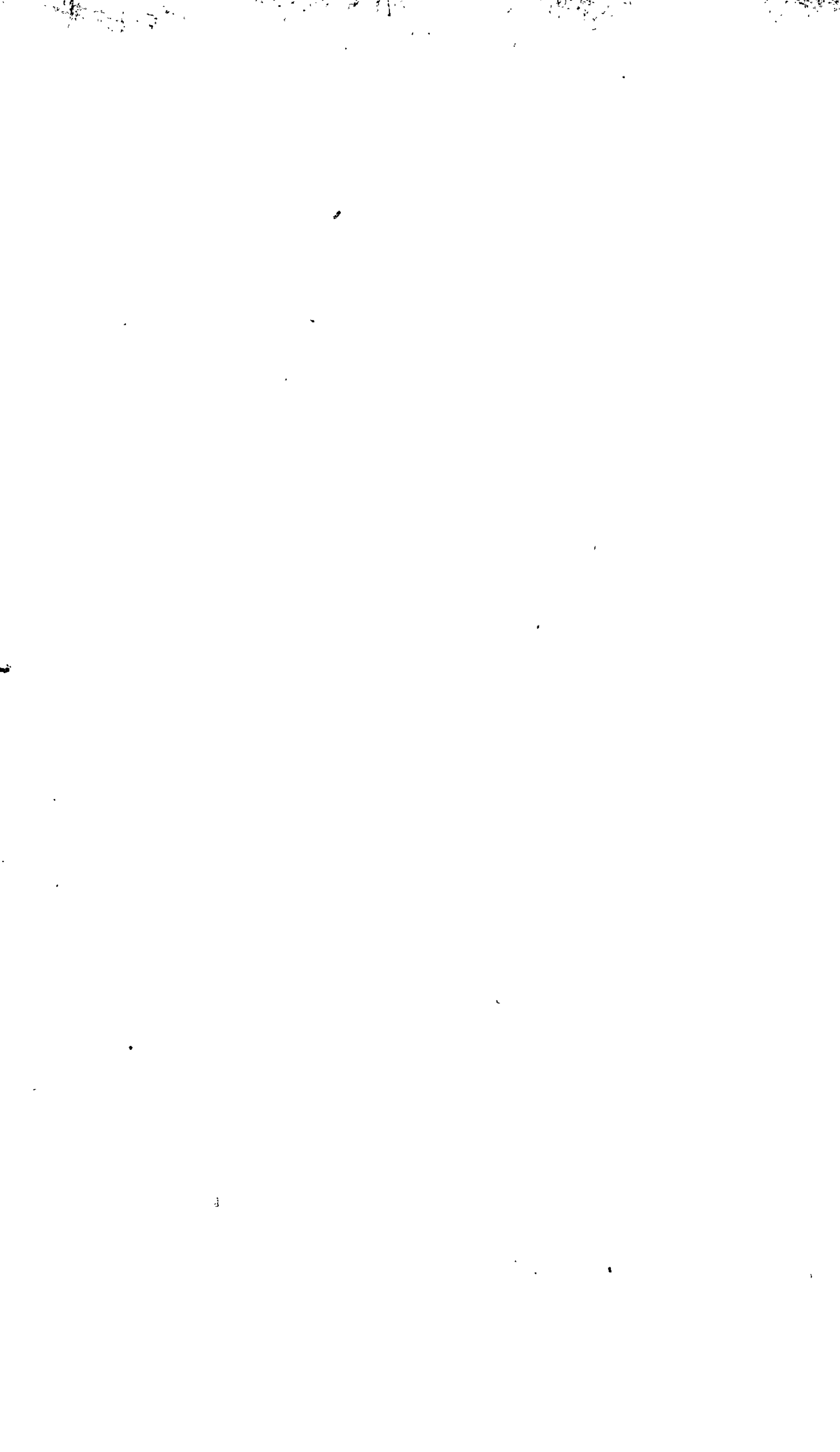
ما[1] نصیحت بجای خود کردیم
روز کاری درین بسر بردیم
کر نیاید بکوش رغبت کس
بر رسولان پیام باشد وبس

لقد أسدينا هنا نصيحة صادقة
وقضينا فيه كثيراً من أيامنا ؛
فإن ساء رنينه ربما فى أذن الناس —
فليكن ، فما على الرسول إلا البلاغ فقط .

(١) هذه الأبيات الفارسية الأربعة (وهى واردة فى الأصل بالفارسية بعد ترجمتها الألمانية) مأخوذة من « جلستان » سعدى الشيرازى (ترجمة أولياريوس ص ١١٠) .

سيلويستر دساسى

يا أيها الكتاب سير إلى سيدنا الأعز
فسلم عليه بهذه الورقة
التى هى أول الكتاب وآخره
يعنى أوله فى المشرق وآخره فى المغرب



فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

رنج نامه ـ كتاب الحزن (أو سوء المزاج) ... ... ١٦٢ ـ ١٨٠

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تعليقات وأبحاث

تعين على فهم الديوان ٣٦٩ ـ ٥٢٩

صفحة

صفحة

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوى

(أ) مبتكرات

١ ــ الزمان الوجودى
٢ ــ هموم الشباب
٣ ــ مرآة نفسى [ديوان شعر]
٤ ــ الحور والنور
٥ ــ نشيد الغريب (شعر)
٦ ــ هل يمكن قيام أخلاق وجودية ؟
٧ ــ التسلسل الرهيب (قصة)
٨ ــ لن أختار (قصة)
٩ ــ جابر بن حيان (مسرحية)

(ب) دراسات

١ ــ الموت والعبقرية
٢ ــ دراسات فى الفلسفة الوجودية
٣ ــ المنطق الصورى والرياضى
٤ ــ النقد التاريخى
٥ ــ مناهج البحث العلمى
٦ ــ فى الشعر الأوربى المعاصر
٧ ــ روح الهند

خلاصة الفكر الأوربى

١ ــ نيتشه
٢ ــ اشپنجلر
٣ ــ شوپنهور
٤ ــ أفلاطون
٥ ــ أرسطو
٦ ــ ربيع الفكر اليونانى
٧ ــ خريف الفكر اليونانى
٨ ــ فلسفة العصور الوسطى
٩ ــ المثالية الألمانية (فشته ــ هيجل ــ شلنج)

(ج) دراسات إسلامية

١ ـ التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية
٢ ـ من تاريخ الإلحاد فى الإسلام
٣ ـ شخصيات قلقة فى الإسلام
٤ ـ الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى
٥ ـ أرسطو عند العرب
٦ ـ المثل العقلية الأفلاطونية
٧ ـ منطق أرسطو (٣ أجزاء)
٨ ـ شهيدة العشق الإلهى (رابعة العدوية)
٩ ـ شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامى)
١٠ ـ روح الحضارة العربية
١١ ـ الإنسان الكامل فى الإسلام
١٢ ـ التوحيدى : الإشارات الإلهية
١٣ ـ مسكويه : الحكمة الخالدة
١٤ ـ فن الشعر لأرسطوطاليس وشروحه العربية
١٥ ـ الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام
١٦ ـ أرسطوطاليس : فى النفس (مع الآراء الطبيعية لفلوطرخس وكتاب النبات ، ثم الحس والمحسوس لابن رشد)
١٧ ـ ابن سينا : عيون الحكمة
١٨ ـ ابن سينا : البرهان (من « الشفا »)
١٩ ـ الأفلاطونية المحدثة عند العرب
٢٠ ـ أفلوطين عند العرب
٢١ ـ المبشر بن فاتك : مختار الحكم
٢٢ ـ ڤلهوزن : الخوارج والشيعة

٢٣ – أرسطوطاليس : الخطابة

٢٤ – ابن رشد : تلخيص الخطابة

٢٥ – مخطوطات أرسطو فى العربية

٢٦ – مؤلفات الغزالى

٢٧ – مؤلفات ابن خلدون

٢٨ – أرسطوطاليس : فى السماء والآثار العلوية

٢٩ – حازم القرطاجنى وأرسطوطاليس

٣٠ – رسائل ابن سبعين

٣١ – دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى

٣٢ – أرسطوطاليس : الطبيعة (بشروحه العربية القديمة)

٣٣ – ابن سينا : فن الشعر (من « الشفا »)

٣٤ – الغزالى : فضائح الباطنية

٣٥ – رسائل الإسكندر الأفروديسى

٣٦ – أسين پلاثيوس : ابن عربى

٣٧ – ابن سينا : التعليقات

(د) ترجمات

الروائع المائة

١ – أيشندورف : من حياة حائر بائر

٢ – فوكيه : أندين

٣ – جيته : الديوان الشرقى

٤ – بيرن : انشيلد هارولد

٥ – جيته : الأنساب المختارة

٦ – برشت : دائرة الطباشير القوقازية

٧ ـ ثربنتس : دون كيخوته (فى جزئين)
٨ ـ دورنمات : علماء الطبيعة
٩ ـ مسرحيات برشت (الأم شجاعة ـ الانسان الطيب)
١٠ ـ اليونسكو : الدرس ـ فتاة للزوج
١١ ـ مسرحيات لوركا ا : يرما ـ عرس الدم ـ الاسكافية العجيبة

سارتر : الوجود والعدم
اشفيتسر : فلسفة الحضارة
بنروبى : الفلسفة المعاصرة فى فرنسا (فى جزئين)
رينيه ويج : الفن والنور واللوحات